نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الرابع عشر

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

الجزء الرابع عشر

نشر جمعية النهضة

العطف– غرداية– الجزائر

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد - غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج المحمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة

1436هـ - 2015م

المطبعة العربية

11 نهج طالبي أحمد – غرداية

الهاتف / الناسوخ : 53 .36 .88 (029)

المنطقة الصناعية : 24 .24 .27 (029)

الإيداع القانوني رقم 1614 /2015

ردمك: I.S.B.N: 978-9947-845- 76-9

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

سورة الجمعة مدنية، وآياتها ١١

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة "الجمعة" لوقوع لفظ الجمعة فيها في أمر الله للمؤمنين بوجوب الإجابة لنداء صلاة الجمعة في اليوم السّابع من أيام الأسبوع في الإسلام، ولا يعرف لها اسم غير ذلك في كتب السّنة والتّفسير وهي مدنية.

وقيل إنها نزلت دفعة واحدة سنة ستّ للهجرة أي بعد فتح "خيبر"، وهي تعدّ السّادسةُ بعد المائة في ترتيب نزول السّور، أي نزلت بعد سورة التّحريم وقبل سورة التّغابن، وهي الثّانية والسّتون في ترتيب سور المصحف الشّريف وآياتها إحدى عشرة آية باتفاق العادّين.

والمحور الأساسيّ للسورة هو التحذير من التخلّف عن صلاة الجمعة والأمر بترك كل ما يشغل عن أدائها، ويتفرع عن المحور الأساسي بيان:

أ)- خصائص النّبي في بعثه للعرب والنّاس كافة.

ب)- ذمّ اليهود في حسدهم للمسلمين، وطلب مباهلتهم بتمني للموت، إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الله.

ج)- الحث على أداء صلاة الجمعة وإباحة السّعي بعدها لطلب الرّزق، مع توبيخ الذين انصرفوا لقافلة الشّام.

خصائص النبيّ في بعثه للعرب وللنّاس كافّة.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
(٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾: تعبير بصيغة المضارع في مفتتح السّورة للدّلالة على التجدّد والاستمرار. ﴿مَا﴾: لغير العقلاء تغليبا للأكثر. ﴿الْقُدُّوسِ﴾: الطّاهر المنزه عن النّقص. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: جمع أمّي، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم العرب؛ لأن أكثرهم كذلك. ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: أي ملازما لهم، والجار والمجرور: ﴿مِنْهُمْ﴾ في موضع نصب صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، وكذلك الجمل التي بعده. ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، وهي مهملة عن العمل في الاسم والخبر اللّذين سدّ مسدهما فعل: ﴿كَانُوا﴾. ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: ﴿وَآخَرِينَ﴾: عطف على: ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾، أي بعث في الآخرين، ﴿مِنْهُمْ﴾: "من" للتبعيض، أي الأجيال التي ستلحق بالأميين في المستقبل، وهو عام يشمل العرب وغيرهم، من يكتب ومن لا

يكتب. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما ذكر من إرسال النبي بما أمر به، هو من فضل الله للنبي وأمته، إذ زال ذلك عن اليهود لنقضهم بالعهود.

ج)- البيان والتفسير:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: جاءت الافتتاحية بدوام تسبيح كلّ ما في الوجود لله سبحانه وتعالى، ثم ما وصف الله به ذاته العليّة من أوصاف الكمال بعزة الملك والتنزه عن كل النّقائص، وبالحكمة في تدبير شؤون الخلق، جاءت تلك الافتتاحية الكريمة مناسبة لما تعالجه السّورة من زحزحة اليهود عن تحمّل أمانة الوحي ومباهلتهم في دعواهم أنّهم أولياء لله من دون النّاس أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في دعواهم، وتقوى المناسبة بين مفتتح السّورة وختامها لانفضاض أغلب المصلين خلف رسول الله في صلاة الجمعة وهو قائم يخطب، وانصرافهم لقافلة التّجارة التي جاءت من الشّام، إذ عالجت السّورة بحكمة ذلك الضّعف النّفسي في الجماعة المسلمة بتهافتها لحب المال واللّهو، فكان ذلك الإخبار في مفتتح السّورة بإقرار وحدانية الله وقوّته وعظمته وتسبيح كلّ ما في الوجود بحمده، ثم أعقب ذلك بوصف رسوله بما يميّزه من خصائص وهو الموضوع الرّئيسي للسّورة إذ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

لما كان من مقتضيات تلك الصّفات الكاملة للذّات العليّة الاهتمام بشؤون الخلق فقد اقتضت حكمته تعالى أن يبعث في الأميين رسولا منهم، والمقصود بالأمّيين العرب إذ كان أكثرهم لا يحسن القراءة والكتابة. والإتيان

بالجملة الاسمية في أوّل الآية هو للتأكيد بأنّ الرّسول مبعوث من قبل الله حقا وصدقا. وقوله: ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾: أي في وسطهم ملازما لهم. و﴿مِنْهُمْ﴾: أي من جنسهم متصفا بالأمية مثلهم.

ثم عدّد الله منّته وفضله على هذه الأمّة فقال مبيّنا مهمة هذا الرّسول الكريم في تربية أمته وإخراجها لعالم الواقع بميزاتها وخصائصها:

أ)- ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾: وهي تتمثل في القرآن الكريم بما يتضمنه من الهدى والرّشاد ومن تحقيق النّفع لهم في الدّنيا والآخرة.

ب)- ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يطهّرهم من أرجاس الكفر وأوزار الجاهلية وينشّئهم على منهج دين الله لتحمّل أمانة الوحي بجدارة واستحقاق.

ج)- ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: ﴿يُعَلِّمُهُم﴾: بلغتهم ولسانهم ما في كتاب الله من الأحكام والشّرائع فيصبحون بذلك أهل كتاب كما علمت الرّسل أممهم من قبل، وتعليم الحكمة هو غاية التّمدّن في حياة الأمم، وذلك من المقاصد العليا لتدبّر كتاب الله واتّباع هديه.

د)- ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي في ضلال الجاهلية بكل ما كانت عليه من وحشية وفوضى، وليس من السّهل تحقيق تلك النّقلة العظيمة في نفوس القوم، فقد تحمّل رسول الله في تزكية تلك النّفوس ما تنوء بحمله الجبال. وقد ذكرنا الله بهذه الحقيقة لندرك ثقل المسؤولية في تربية الأجيال وتنشئة النّفوس على الحقّ والعدل. وجاء التّعبير في تحديد مهمّة رسول الله هنا، جاء مطابقا في عباراته لدعوة سيّدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السّلام، وهما يرفعان قواعد البيت إذ كان من عبارات تلك الدّعوة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩).

وعن أبي أمامة قال: «**قلت: يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام**».[١]

ثم قال: ﴿**وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾: التقدير: وبعث الله رسوله في آخرين من غير الأميين العرب ممن حمل لواء الإسلام من الأجناس الأخرى إلى يوم القيامة.

﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: أي بالرعيل الأول من صحابة رسول الله، وذلك ما تحقق في الواقع التاريخي إذ انتشرت دعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وقد مكّن الله لدينه بذلك النّصر المبين، وفي هذه الآية دليل على عموم رسالة رسول الله لجميع الأمم، وفي ذلك تورّك على اليهود وردّ على دعواهم الاحتكار لرسالة الله.

وقد جاء التعقيب تعبيرا على ذلك في قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾: الإشارة إلى ذلك الاختيار لمن يتحمّل الأمانة الكبرى ليكون مستودع نور الله ومناط هديه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٤). إنّ ذلك الاختيار هو فضل من الله يهبه لمن يشاء من عباده، وقد نكص اليهود في تحمّل تلك الأمانة، كما تصفهم الآية اللاحقة، فتحوّلت عنهم إلى من أهّلهم الله لذلك من جماعة رسول الله ومن سار على نهجهم، وتلك منّة لا تضاهيها منّة تتضاءل أمامها كل النّعم الأخرى وتصغر في تحمّلها المتاعب والمشاق: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، والله أعلم.

---

(١)- رواه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة، رقم ٢٢٢٦٢.

موقف اليهود من التّوراة وتمنّي الموت.

أ)– النصّ:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ
زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ
أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٧ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨

ب)– التّحقيق اللّغوي:

﴿مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾: ﴿مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾: ﴿مَثَلُ﴾: مبتدأ، خبره: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾. ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾: في موضع نصب حال. ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾: أي كلفوا العمل بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: أي لم يعملوا بما فيها ولم يؤمنوا بما جاء فيها من أوصاف النبي الخاتم. ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾: أي كتبا علمية، مفردها: "سِفر"، أي تسفر عما فيها إذا قرئت. ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾: ﴿بِئْسَ﴾: فعل ذمّ بمعنى ساء. ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾: فاعل: ﴿بِئْسَ﴾. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذِينَ هَادُوا﴾: يقال: هاد يهود، إذا تاب ورجع، ومنه قول موسى في دعائه: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:١٥٦). وقيل سمّوا: "يهود" انتسابا إلى يهودا بن يعقوب. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: الأمر للتعجيز. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في دعوى أنكم أولياء الله. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: لا يتمنون الموت بسبب ما اقترفوه من المعاصي. ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

مُلَاقِيكُمْ﴾: ﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب نعت لـ ﴿الْمَوْتَ﴾. ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، أي إن الموت يلاحقكم حيثما تكونون.

ج)- البيان والتفسير:

بعد الافتتاحية الكريمة بتوحيد الله وتنزيهه وتعظيمه وبيان فضله تعالى ببعث الرّسول الخاتم في الأميين العرب يعلمهم ويزكيهم، أعقب هنا بأنّه آتى ذلك الفضل -أيضا- أهل الكتاب بأن حمّلهم التوراة بما فيها من هدى ونور، ولكنهم لم ينتفعوا بها إذ بدّلوا وحرفوا وكتموا ما لم يوافق أهواءهم سيما البشارة بالنّبي الخاتم. فكانوا في ذلك كالحمار يحمل كتبا، ولا حظ له منها إلاّ التّعب والعناء، ثم ردّ الله على شبهة أخرى بادّعائهم أنهم أولياء الله وأحبّاؤه، إذ تحدّاهم بتمني الموت لينقلهم إلى دار كرامة إن كانوا صادقين، مع أنّهم في الواقع أحرص النّاس على حياة، والموت يلاحقهم حيثما كانوا، ثم يرجعون إلى الله فيجازيهم بما يستحقون.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، كم نوّه الله بفضله على بني إسرائيل في القرآن إذ اختارهم لحمل أمانة العقيدة الصّحيحة عقيدة التّوحيد وشريعة التّوراة، ولكنّهم مع مرور الزّمن وتقلّب الأحوال قست قلوبهم فبدّلوا وغيّروا وفسقوا عن منهج الله. فاقتضت حكمة الله أن يزيحهم عن موقف الصّدارة الدّينية وليأتي بآخرين أنقى نفوسا وأصفى معدنا ممن كان أهل الكتاب يعتبرونهم أميين لا كتاب لهم، وربك يخلق ما يشاء ويختار، وقد أورد الله هنا هذا التّشبيه الدّيني ليبين موقف اليهود من التّوراة، وقد أهملوا ما فيها من النّور والهدى ولم ينتفعوا بها في حياتهم الواقعية

فشبههم بالحمار يحمل على ظهره كتبا ضخمة وليس له منها إلا التعب والعناء، بل هم أسوأ حالا من الحمار، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف:١٧٩). فما أقبح هذا التشبيه، وما أصدقه على كل من أهمل شرع الله من كل من تحمّل أمانة الرّسالة والوحي. وليس الأمر قاصرا على اليهود، ولذلك جاء التّذييل بحكم عام يتناول كلّ ظالم أهمل حقوق الله وحقوق نفسه، إذ اختار سبيل الجهل والضّلال، والحمار يضرب به المثل في الجهل والبلادة، وفي الذّل والحقارة قال الشّاعر:

وليس يقوم على ضيم يراد به إلاّ الأذلاّن: عير الحيّ والوتد

ويوحي هذا التّشبيه الدنيء بلوم من ترك رسول الله قائما يخطب على المنبر في صلاة الجمعة كما يأتي في ختام السّورة. ويؤيّد ذلك ما ورد في حديث رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة**».(١)

ويردّ الله تعالى على شبهة أخرى لليهود في ادّعائهم أنّهم أولياء لله من دون النّاس فقال: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

يأمر الله رسوله أن ينادي اليهود، بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾، والصّلة مأخوذة إمّا من قول موسى في دعائه: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:١٥٦)، أي تبنا ورجعنا، أو هي نسبة إلى "يهوذا بن يعقوب"، يأمر الله رسوله أن يردّ على اليهود تلك الشّبهة التي طالما ردّدوها وهي لا تزال راسخة في معتقدهم يتوارثونها جيلا

(١)- رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس، رقم ٢٠٣٣.

بعد جيل، وهي أنهم شعب الله المختار وأصفياؤه من دون النّاس، ويصفون من سواهم بأنّهم أمّيون: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٧٥). وكم تحدّى رسول الله اليهود والنّصارى إذ دعاهم إلى المباهلة حتى يتبين الضّالّ من غيره، ولكنهم كانوا يمتنعون لخوفهم من الافتضاح، وهنا يتحدّاهم بقوله: إن كنتم أيها اليهود تزعمون أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون النّاس وأنّ الجنة لكم وحدكم وأنّ غيركم على ضلالة، فاطلبوا الموت وتعجّلوه حتى تستريحوا من تعب الدّنيا، وقد ضمنتم لأنفسكم النّعيم الأبديّ إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤).

ثم فضح الله حقيقتهم وأنّهم في الواقع أحرص النّاس على حياة لأنّهم ماديون شهوانيون فقال: **﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾**، فاليهود أجبن النّاس وأحرصهم على الحياة، لأنّهم يدركون ما هم عليه من الانحراف والابتعاد عن منهج الله الذي تحمّلوا أمانته فنقضوا عهد الله ونكثوا ميثاقه، والله عليم بواقعهم، وبكل طبائعهم في تجاوز حدوده.

وقد جاء نفي تينهم للموت بالتأكيد وبصيغة المضارع لنفي أي رجاء في التغيير من سلوكهم.

وقبل تهديدهم بما ينتظرهم من الوعيد يقرر حقيقة الموت وما يكون بعده من الحساب والجزاء: **﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**.

إن تذكّر الموت في زحمة الحياة وشواغلها لا يكاد يخطر على بال الإنسان فهو متشبث بأسباب الحياة تراوده الآمال وتستحث خطاه تكاليف العيش

وينسى أنّ الموت يلاحقه وهو يتدرج إلى نهايته المحتومة، فإذا ابتعد الإنسان عن منهج الله ونسي أنه راجع إليه فمحاسبه على ما قدّم وأخّر، فتلك هي الغفلة المهلكة التي لا تردّ من قضاء الله شيئاً؛ لأن الرّجوع إليه واقع لا محالة ومواجهة الحساب لتقرير الجزاء الأبديّ لا مهرب منه، فلا ملجأ من الله إلا إليه، فلينظر الإنسان كيف تكون عاقبة أمره، والكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والله أعلم.

النداء لصلاة الجمعة وفرضيتها.

أ)- النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ
ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا
ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾: ﴿مِنْ﴾ بمعنى: "في"، و﴿الْجُمُعَةِ﴾ بضم الجيم وضمّ الميم، وقد تفتح الميم وتسكّن في لغة أخرى. ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾: السّعي -في الأصل- الاشتداد في المشي، والمراد به هنا مطلق المشي بحرص دون تأخر، و﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يراد به الخطبة والصّلاة.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾: أي اتركوا البيع، وفي معناه كل ما يشغل عن السعي من أنواع المعاملات الأخرى. ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾: اللّهو من مثل الطّبول والمزامير عند النكاح. ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾: بمعنى تفرّق جمعهم. ﴿إِلَيْهَا﴾: الضّمير عائد إلى التّجارة. ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾: الخطاب للرّسول، يتركه المصلّون قائما على المنبر يخطب ولم يبق معه إلا قليل من الأصحاب، ﴿قَائِمًا﴾: منصوب على الحال. ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾: أمر الله نبيّه أن يعظهم بأنّ ما عند الله من الثّواب والأجر بحضور الجمعة خير من اللّهو ومن التّجارة، وفيه عتاب لطيف.

ج)- البيان والتّفسير:

مهّد الله لمشروعية صلاة الجمعة، وهي ما ركّزت عليه السّورة، مهّد لذلك بالتّنديد على اليهود لتخلّيهم عن حمل أمانة التّوراة على أنّهم كانوا يفتخرون على المسلمين بعيد السّبت، فشرع الله للمسلمين الصلاة ليوم الجمعة وحرّضهم على حضورها ثمّ حرّضهم بعدها على الكسب والارتزاق. وفي الختام ندّد بأولئك الذين تركوا الرّسول قائما على المنبر يخطب منصرفين إلى اللهو والتّجارة، وأرشدهم إلى أن ما عند الله من الأجر والثّواب بحضور الجمعة هو خير من ملهيات الدنيا، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

ونقل الدّكتور الزّحيلي في أسباب النّزول عن الواحدي قوله: "قال المفسّرون: أصاب أهل المدينة أصحاب الضّرار جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة الكلبيّ في تجارة من الشّام، وضرب لها طبل يؤذن للنّاس بقدومه

ورسول الله يخطب يوم الجمعة، فخرج إليه الناس، فلم يبق في المسجد إلا اثني عشر رجلا منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم لسال بكم الوادي**».[1][2]

ويقول الإمام ابن عاشور: "وكانت صلاة الجمعة مشروعة من أول أيام الهجرة، روي عن ابن سيرين أنّ الأنصار جمّعوا الجمعة قبل أن يقدم النّبي ﷺ المدينة إذ قالوا: إنّ لليهود يوما يجتمعون فيه وللنصارى يوم مثل ذلك فقالوا: فلنجتمع حتى نجعل يوما لنا نذكر الله ونصلّي فيه وقالوا: إن لليهود السبت، وللنصارى الأحد، فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ وذكّرهم".

ثم يعلّق الإمام ويقول: "فمشروعية صلاة الجمعة والتجميع فيه إجابة من الله تعالى رغبة المسلمين مثل إجابته رغبة النبي استقبال الكعبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ (البقرة:١٤٤)".[3]

قلت: كان ذلك من فضل الله على هذه الأمّة في إتمام مقوماتها وامتياز شخصيتها مخالفة لليهود والنصارى.

ويروي أهل السير أن أوّل جمعة جمعها الرّسول كانت في اليوم الخامس للهجرة إذ أدركته وقت الجمعة وهو في بطن وادي لبني سالم بن عوف فصلاها في مسجدهم وخطب فيه أول خطبة. والآية الأولى تأمر المسلمين أن يتركوا البيع عند سماع الآذان للجمعة، أي الأذان الثاني الذي يكون عند صعود الإمام على

---

(١)- رواه ابن حبان في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله، رقم ٦٨٧٧.

(٢)- التفسير المنير: ١٩٦/٢٨.

(٣)- التحرير والتنوير: ٢٢٠/٢٨.

للنبي، لأنّ الأذان الأول قد أحدثه الخليفة عثمان بموافقة الصّحابة عندما اتسع العمران بالمدينة، والأمر بالسّعي إلى الصّلاة المراد منه المشي دونما ركض ولا إسراع. وذلك لما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أقيمت الصّلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون عليكم السكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتموا»**.[1]

وقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، قيل: ذكر الله يراد به الخطبة والصّلاة، وأمّا النهي عن البيع فيشمل كلّ أنواع المعاملات وسائر أنواع النّشاط للمعاش بمجرّد سماع الأذان حتى نهاية الصّلاة، وفي خلوّ النفس عن مشاغل الحياة وتجرّدها للتزود الرّوحيّ في ذلك الجو الطّاهر النّقي في رحاب بيوت الله في ذلك الخير العميم والنّفع الجزيل للنفوس المؤمنة وهي تعيش لحظات في حظيرة الملأ الأعلى لتقتنص ساعة الاستجابة، فتستمد من الله العوْن والتّوفيق وبين شواغل الحياة ومتطلبات العيش والتّوجّه الرّوحي. وتجرّد القلب لذكر الله يحقق المنهج الإسلامي، ذلك التّوازن الضّروريّ فلا يشطط ولا يغالي بل هو الميزان والعدل في التّوجيه والإرشاد في الأخذ بأسباب الكسب والارتزاق.

إذ قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، إنه الإذن الرّباني في إباحة الانتشار والسعي في الأرض للكسب والارتزاق ابتغاء فضل الله في توفير أسباب المعاش بعد ما تزودته النّفوس المؤمنة بالطّاقة اللازمة للعمل والسّعي فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، على أن يقترن ذلك السّعي بذكر الله حتى يتحول ذلك النّشاط إلى عبادة؛ لأن ذكر الله في الأماكن التي تعج بالشواغل الدّنيوية يحقق ذلك القدر من الفوز والنّجاح في الالتزام بأحكام الله في الحلال والحرام فيكون

---

(١)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم ٩٠٨.

في ذلك الخير والبركة لقوله ﷺ: «**من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة**».(١)

وفي ختام السّورة يأتي العتاب واللّوم للذين انصرفوا عن رسول الله وهو قائم يخطب انصرفوا إلى اللّهو والتجارة: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾.

إنه الضّعف النّفسي أمام مغريات الحياة ومتطلّبات العيش جعل أولئك الأصحاب ينجذبون إلى جلبة القافلة وما يصحبها من دق الطّبول إيذانا بوصولها محمّلة بالمؤن والأزواد من الشّام -كما تقدمت الرّواية في ذلك- ولم يبق مع رسول الله إلا الصّفوة المختارة من ذلك الرّعيل الوفيّ، وفي ذلك الموقف غير المسؤول من طرف المنفضين تمدّ التربية الإلهية يدها لتخفف وقع الصّدمة عن رسول الله وتأخذ بالرّفق واللّين تلك الجماعة الحيرة إلى حظيرة الملك الغنيّ لتستشرف ما عنده من الفضل ومن الرّزق وعنده خزائنه، فهو الكفيل بأرزاق عباده، وقد جاء في الحديث: «**لو توكلتم على الله حق التّوكل لرزقتم كما ترزق الطّير تغدو خماصا وتروح بطانا**».(٢)

وفي هذا الخبر إرشاد وتوجيه لما هو مطلوب من الدعاة والمرشدين من حسن التلطف والمثابرة في تقويم طبائع النفوس البشرية، والله أعلم.

---

(١)- رواه الترمذي من حديث عمر بن الخطاب، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا دخل السوق، رقم ٣٤٢٨.

(٢)- رواه الترمذي من حديث عمر، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم ٢٣٤٤.

سورة المنافقون، مدنية، وآياتها ١١

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة "المنافقون" لما ورد في افتتاحيتها من الحديث عن المنافقين، وهي التّسمية المعروفة لها من عهد الصّحابة وفي كتب التّفسير والسّنة.

وهي مدنية بالاتفاق، وآياتها إحدى عشرة آية.

وعدّت في ترتيب نزول السّور الثّانية بعد المائة، والأرجح أنّها نزلت في غزوة بني المصطلق، أي في سنة خمس للهجرة؛ إذ قال عندها رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ قوله المشهورة: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، وهي في ترتيب سور المصحف الشّريف الثالثة والستون.

وفي فضلها روى الإمام الطّبراني عن أبي هريرة قال: «**كان رسول الله ﷺ مما يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة فيحرّض به المؤمنين، وفي الثّانية بسورة المنافقين، فيفزع به المنافقين**».[1]

ومن أغراضها: فضح أحوال المنافقين بتشخيص بعض صفاتهم وبيان مواقفهم، وذكر بعض أقوالهم المنكرة ثم الرّدّ عليها والتّنديد بها، وظاهرة النّفاق لم تبرز إلا في المدينة المنوّرة.

ثم اختتمت السّورة بموعظة للمؤمنين وحثهم على طاعة الله ورسوله وإنفاق الأموال في سبيل الله والعمل للآخرة قبل انقضاء الأجل.

(١) - رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٩٢٧٩: ٩/٢٠٩.

بعض أوصاف المنافقين.

أ)- النص:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟
نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟
ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن
يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ
قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾: ﴿إِذَا﴾: العامل فيه هو: ﴿جَآءَكَ﴾، وهو يفيد الشرط، جوابه: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، كسرت همزة: ﴿إِنَّ﴾ في المواضع الثلاثة لدخول اللام في أخبارها للتأكيد. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾: جملة اعتراضية، لدفع توهم أنّ التكذيب لقولهم في ذاته، وإعادة لفظ الجلالة للتعظيم والتفخيم. ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي جعلوا حلفهم بالله ستارا لحفظ نفوسهم وأموالهم ووسيلة لعرقلة مسيرة الدّعوة. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: ذمّ وتقطيع لموقفهم. ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي تمكن الكفر من قلوبهم فهم لا يعرفون حقيقة الإيمان. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾: تشبيه مرسل، و﴿خُشُبٌ﴾: -بضم الشين- جمع خشبة والمسندة أي تسند إلى حائط أو نحوه لطولها ولكن بدون نفع. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: الصيحة: المرة من الصّياح،

أي هم جبناء يخافون أن يكشف أمرهم. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: دعاء عليهم، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: كيف يصرفون عن الحق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿خُشُبٌ﴾: قرأه الجمهور بضمتين، وقرأه قنبل عن ابن كثير، وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بضمة فسكون.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

المنافق هو الذي يظهر الإيمان ويضمر الكفر، وصفة النفاق يقول عنها الإمام محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي يقول: "النّفاق من أخسّ الصّفات، وهو ازدواج في الشّعور والسّلوك، يبدأ بأن يكون المرء ذا وجهين، ولا يزال ينمو حتى يكون صاحبه كالحرباء التي تصطبغ بألوان شتى حسب الوسط الذي تكون فيه، والكذب والملق عليه من أول أخلاق المنافقين وهم يقتربون أو يبتعدون حسب هبوب الريح التي تحملهم هنا أو هناك".[1]

قلت: ويروى في سبب النزول أنه حدثت خصومة بين مهاجريّ وأنصاريّ بعد الانصراف من غزوة بني المصطلق، فتلاحى المهاجرون والأنصار فقال لهم رسول الله: **«دعوها فإنها منتنة»**[2]، أي اتركوا دعوة الجاهلية، فسمع بالخبر عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: أقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ.

---

(١)- التفسير الموضوعي: ص ٤٦٠.

(٢)- رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾، رقم ٤٩٠٥.

وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقيل: إنّ رسول الله أرسل إلى ابن أبيّ وقال له: أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني؟، فقال عبد الله بن أبيّ: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من هذا، فنزلت الآية.

قال تعالى:﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾: الخطاب لرسول الله، يجيء إليه المنافقون لحضور مجلسه، فهم يشهدون بين يديه بحقية رسالته تماما كما يقرّ المسلم بذلك نطقا بلسانه، ولكن المنافقين لا يقولون ذلك إلا خداعا ومراوغة، ليخفوا حقيقتهم من إضمار الكفر، وهم يفعلون ذلك للتقية على أموالهم وأنفسهم، واستعمال المؤكدات في شهادتهم هو للتأكيد على أن ذلك صادر من صميم قلوبهم لزيادة التمويه والخداع، ولكن الله يفضحهم ويكذبهم في شهادتهم قائلا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقبل شهادة الله على كذبهم يحتاط بجملة اعتراضية، لتثبيت رسالة رسول الله، وأنها حاصلة بعلمه، ثم يكذب شهادة المنافقين، وهذا الاعتراض لدفع إيهام من يسمع الجملة التي بعدها أنه تكذيب لجملة: إنك لرسول الله. فيا للدقة في التعبير القرآني، ثم تأتي شهادة الله بكذب المنافقين في ادعائهم بتعبير مشاكل لتعبيرهم: ﴿يَشْهَدُ﴾، ويظهر كذبهم في مخالفة أقوالهم لما هو واقع منهم في الخارج.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي كانوا يحلفون بألسنتهم بأنهم مع المؤمنين ليتقوا بذلك ما يترتب على انكشاف أمرهم من عقوبات تصيبهم في أنفسهم وأموالهم، فيجعلون من تلك الأيمان الكاذبة وقاية يحتمون وراءها لمواصلة مكرهم وصدّهم عن سبيل الله، حتى ينخدع بهم كثير من الناس فيتقاعسون عن الإيمان والجهاد، فبئس ذلك العمل القبيح من هؤلاء إذ ارتكبوا به جرمين عظيمين: الحلف على الكذب، والصدّ عن سبيل الله. فما هو دافعهم لذلك وما سبب ذلك الموقف منهم؟.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

الإشارة إلى ذلك الموقف الشائن من المنافقين بأنّ السبب فيه بأنهم آمنوا إيمانا ظاهريًا لم يتسرّب إلى شغاف قلوبهم، فاختاروا العودة إلى الكفر، ولكنهم أخفوا ذلك في بواطنهم، فطبع على قلوبهم بتمكن الكفر عليها حتى يموتوا على ذلك، إذ لم يدركوا حقيقة الإيمان ولم يتذوقوا حلاوته.

وقد رسم الله لهم صورة حيّة تبعث على السخرية والزراية وهم يكادون يفضحون بها أنفسهم فقال: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾**.

الخطاب لغير معيّن إذ هو لكلّ من يريد أن يتعرف بحقيقة هذا الصنف من النّاس، فهم يتسمون بالخواء النّفسي والفراغ الرّوحي، بينما مظهرهم المادّي يثير الانتباه لفراهة أجسامهم ونضارة وجوههم يسرّك مظهرهم ما داموا صامتين، ولكنهم ما إن ينطقوا حتى تستشف من وراء ألسنتهم نفوسا خاوية لا تحمل معنى يروق ولا عاطفة تتجاوب معها، فهم كما قيل: أجسام البغال وأحلام العصافير. شبههم الله بالخشب المسنّدة إلى جدار لا حركة فيها ،كتل من لحم ودم بدون شعور إنساني ولا فهم ولا إدراك. ومع ذلك الفراغ المعنوي فهم يتوجسون خيفة من كل حركة ومن كل صوت علّهم يفتضحون، وقد استولى عليهم الجبن والرّعب، فهم العدوّ الأوّل لرسول الله وصحابته؛ لأنهم ضمن الجماعة وداخل الصّفّ، وهم أخطر من العدوّ الصّريح الخارجيّ.

ولذلك أمر الله رسوله أن يحذر منهم بتشديد الرّقابة عليهم، وأن يعاملهم بتبصر وحكمة، ولم يؤمر بقتالهم، فالله هو الكفيل بهم، يصرف عنكم كيدهم، فهم ملعونون كما جاء في آيات أخرى، كيف يصرفون عن الحق ويختارون الضّلال؟.

وقد تحقق هذا الدعاء الإلهيّ في شأنهم إذ وهن أمرهم وانطوى عهدهم كما قال تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦١). نعوذ بالله من النفاق ومن سوء الأخلاق وتضييق الأرزاق، والله أعلم.

واقع المنافقين في العناد ومجافاة الرسول ﷺ.

أ)- النص:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ
يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا
إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: ﴿تَعَالَوْا﴾: اسم فعل للطلب من المخاطب بالحضور، والقائل يحتمل أن يكون بعض المسلمين، والمراد من استغفار الرسول لهم هو أن يتوبوا من النفاق. ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾: ليّ الرأس هو إمالتها إلى جانب تعبيرا عن الإعراض والاستكبار. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾: ﴿سَوَاءٌ﴾: مبتدأ ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل، والجملة: خبر، أي استوى الأمران: الاستغفار وعدمه، وجملة: ﴿لَن

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾: تبيّن جهة الاستواء. ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾: ﴿هُمُ الَّذِينَ﴾: أي المنافقون يقولون في جماعتهم: لا تنفقوا على فقراء المسلمين حتى يتخلوا عن رسول الله، أي كفّ الإنفاق عن المهاجرين الفقراء. ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾: قالها عبد الله بن أبيّ عند رجوعه من غزوة بني المصطلق، أي يخرج المنافقون الأعزاء في زعمهم، يخرجون رسول الله وأصحابه، بينما العزة والغلبة لله ورسوله وللمؤمنين لو كان المنافقون يعلمون.

ج) - أوجه القراءة:

﴿لَوَّوْا﴾: قرأ الجمهور بتشديد الواو الأولى مضاعف: "لوى"، للدلالة على الكثرة. وقرأه نافع وروح عن يعقوب بتخفيف الواو، اكتفاء بإسناد الفعل إلى ضمير الجماعة.

د) - البيان والتفسير:

بعد تلك المقدّمة في بيان صفات المنافقين وهي الكذب، والتستر بالأيمان الكاذبة، وكونهم جبناء يضطربون لكل صيحة، وأن لهم وسامة ورونقا في أجسامهم، ولكنهم خاوون في بواطنهم، وهم يمثلون ألدّ العداوة لرسول الله، وفي هذا النص يؤكّد الله حقيقتهم بما هو واقع مشاهد من أحوالهم ومواقفهم، سيما مكابرتهم بالإعراض عن الاستغفار فقال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾**.

روي عن ابن عباس قال: " لما رجع عبد الله بن أبيّ من أحد بكثير من الناس مقته المسلمون وعنفوه وأسمعوه المكروه فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله حتى يستغفر لك ويرضى عنك. فقال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي

رأسه، فنزلت".[١]

قلت: لقد تقدّمت أحداث غزوة أحد، في تفسير سورة آل عمران سيما عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾(١٥٥)، وفي أحداث غزوة بني المصطلق تنزل سورة المنافقون، فيأتي فيها التعريض بكذب عبد الله بن أبيّ وبنفاقه وأقواله، حيث كان لولده عبد الله، وهو المسلم الوفيّ، كان له مع رسول الله ذلك الموقف الحرج في أن يكل إليه قتل والده إن لزم الأمر؛ لأنه لا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض فيقتله، فيكون قد قتل مؤمنا بكافر، ولكن الرسول الكريم وهو القائد الحكيم يجيب الولد الغيور على دينه بحنيه بكلّ تلطّف في شأن أبيه ويقول له: «**بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**».[٢]

وهنا تظهر حكمة الرسول ﷺ وحرصه الشديد في الاستغفار طولا، لعل الله يغفر لهم، ولكن أنّى للنفوس اللّئيمة أن تنصاع للحق وتتواضع لما يراد لها من الصّلاح والرّشد. وكان هؤلاء المنافقون بين ذويهم وبني عمومتهم قد فضحهم الله بمثل هذه النّصوص، فكان ذووهم يلحّون عليهم بالإتيان لرسول الله ليسألوه أن يستغفر الله لهم حتى يتوبوا من النفاق،. ولكن كانت تأخذهم العزة بالإثم فيلوون رءوسهم تهورا واستكبارا.

ومع ذلك الموقف المتعنت منهم أخبر الله رسوله أن استغفاره لا ينفعهم فقال: **﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**.

يخبر الله رسوله أن لا فائدة في استغفاره لهم فهو كعدمه، إذ لا مطمع في مغفرة

---

(١)- أخرجه الطبري في تفسيره، حديث رقم ٣١٦٣٠.

(٢)- المصدر نفسه، حديث رقم ٣١٦٤٩.

الله لهم جزاء على إصرارهم على النفاق وانطوائهم على الكفر، وقد جاء في سورة التوبة قوله تعالى لرسوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠). وقد أخرج ابن جرير عن عروة قال: لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: لأزيدن على السبعين، فأنزل الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

وهذا الموقف الكريم من الرّسول يعكس حرصه الشّديد على إقلاع هؤلاء عن نفاقهم لعل الله يغفر لهم، ولكن التذييل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، يعلل ذلك الحرمان من المغفرة بأنّه الفسق عن طاعة الله وهو يستوجب الغضب والمقت.

ثم أورد الله بعض مقالاتهم في مجامعهم وهم يستحدي بعضهم بعضا على حرمان ضعفاء المسلمين من مختلف الإعانات التي ينفقونها عليهم حتى يجوعوا ويتفرقوا عن رسول الله: **﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾**.

وإن كانت السيرة تروي أن القائل لذلك هو عبد الله بن أبيّ، فإنّ تقبّل أتباعه لذلك يجعلهم مشاركين له في بث تلك الدّعاية، التي كانوا يتشربونها بينهم باستمرار كما تدلّ على ذلك صيغة المضارع: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، وحرب التجويع هي من الأساليب الشّيطانية التي يمارسها أعداء العقيدة والإيمان منذ القدم.

وما خطة قريش في حصار بني هاشم في شعاب مكة إلا من هذا النّوع في محاربة المؤمنين ظنا من هؤلاء الملحدين الحقودين أن ملء البطون هو الهدف الرئيسيّ في الحياة، وأنهم وكلاء على خزائن الرزق، ولكن الله ردّ عليهم بقوله: **﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾**.

لقد جهل هؤلاء بأن خزائن الرّزق بيد الله يصرّفها كيف يشاء، وما البشر إلا

متكافلون في ذلك يخدم بعضهم بعضا فيرزق الله بعضهم من بعض، كما قال المعري:

النّاس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم.

ولكن المنافقين وأشياعهم في كل زمان قد تغرّهم حظوظهم فينسون تلك الحقيقة، حقيقة أنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فهو الرّحيم الذي لا يأخذ خلقه بالتجويع سواء آمنوا أم كفروا، فكيف يسلم أولياءه وهو ناصرهم وراعيهم.

ثم يذكر الله المقولة الأخرى للمنافقين ويرد عليها: **﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾**، وكما تقدم أنّ القائل هو عبد الله بن أبيّ، ولهذه المقالة حكم سابقتها في تحمّل جماعة المنافقين إثمها ووزرها، وقد تقدم موقف ولده منه على باب المدينة فأدرك بالفعل أيهما الأذلّ هو أم رسول الله؟. وكيف يعزّ من يحسب كل صيحة عليه لفرط جبنه؟.

وقد قال المتنبي:

إذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطّعن وحده والنّزالا

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: إنّ الله هو القويّ العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر: ١٠).

ومن عزّته يستمد الرّسول والمؤمنون عزتهم، وحسبهم تكريما من الله أن يقفوا مع الله في صف واحد يجلّلهم تاج العزة والكرامة وقد أعزهم الله بنصره وألقى الرّعب في قلوب أعدائهم، ولا يزال المؤمن يشعر بتلك العزة في قلبه على قدر تغلغل الإيمان فيه؛ لأنّه هو مصدر تلك الطّاقة الرّوحية التي تسري في النفس المؤمنة ولها من مولاها المدد والعون.

فأنّى للمنافق أن يعلم تلك الحقيقة وهو لا يستوعبها ولا يتذوقها، وبالتّالي فهم يجهلون أسباب القوة والضعف في الجماعات البشرية، فلم يقدّروا المستقبل الواعد للإسلام، والله أعلم.

تحذير المؤمنين من صفات المنافقين، وتحريضهم على الإنفاق في سبل الخير.

أ)- النصّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ
رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ
نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾: توجيه النهي إلى الأموال والأولاد تجوّز في الإسناد للمبالغة؛ لأن الذين يلهون هم أصحابها، أي لا تلهوا بأموالكم ولا أولادكم، وذكر الله عامّ في الصّلوات وغيرها من القربات. ﴿لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: ﴿لَوْلا﴾: كـ"هلاّ" للتحضيض، يقال عند الرّغبة في شيء. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: أصلها أتصدّق. ﴿وَأَكُن﴾: مجزوم بالعطف على موضع: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ لأن موضعه الجزم على جواب النهي، أو الجزم في جواب شرط مقدّر تقديره: وإن أخرتني أكن. ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾: أي لن يمهلها عن الموت إذا انتهى آخر عمرها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَكُن﴾: قرأه الجمهور مجزوما على اعتباره جوابا للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السّببية فيه واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة؛ وليس عاطفة مفرد على مفرد،

وقرأه أبو عمرو وحده بالنصب، عطفا على ما بعد الفاء. ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ الجمهور بالمثناة الفوقية، وقرأه أبوبكر عن عاصم بالمثناة التحتية، فيكون ضمير الغيبة عائدا إلى: ﴿نَفْسًا﴾، الواقع في سياق النفي؛ لأنه عامّ، فله حكم الجمع في المعنى.

د)- البيان والتفسير:

بعد كشف أحوال المنافقين والتنديد عليها انتقل الله إلى خطاب المؤمنين يحذرهم من تلك الصّفات ويأمرهم بالإنفاق في سبل الخير قبل أن يداهمهم الموت، فيتمنى أحدهم أن يتأخر أجله ولكن هيهات. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

تتوالى النداءات الرّبانية للجماعة المؤمنة في أواخر المسبّحات وما تخللها من السّور المدنية، وكلها إرشاد وتوجيه للمجتمع المسلم لإبراز الشخصية المسلمة بصفاتها المتميّزة، وذلك بترشيدها إلى الأخذ بأسباب العزة والكرامة واستكمال خصائصها الإنسانية بتحليتها وتحصينها من كلّ الشوائب الجاهلية الرّعناء من آيات النّفاق بما تلوّث به المحيط العامّ في المدينة المنوّرة، ولا يغفل الخطاب القرآني والتوجيه الرّباني ما يمكن أن يتغلغل إلى دواخل البيوت المؤمنة من مغريات وملهيات هي من مقتضيات الحياة البشرية وفي واقع طبعها وفطرتها كفتنة الأموال والأولاد، وكلتاهما ملهاة ومدعاة للانشغال والغفلة عن ذكر الله، فجاء النّهي الإلهي عن الانشغال بهما عن ذكر الله بعد حكاية مقال المنافقين بقولهم: ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾.

وقدّم ذكر الأموال على الأولاد لأنها أكثر إلهاء بالتفكير والعمل في كسبها وإنمائها، وهي تتطلب وقتا وجهدا أكبر من رعاية الأولاد، وذكر الله يشمل كل أنواعه من النّطق باللّسان صلاة وتلاوة وتسبيحا وتحميدا، ومن التّأمل الواعي

والتّدبّر في جلال الله وعظمته؛ لأنّ المؤمن الوفيّ لا ينسى -وهو في غمرة تلك الزينة الدنيوية من مال وبنين- لا ينسى واهب تلك النعم له، وبالتّالي لا تشغله عن واجب الشكر؛ لأنه ضمان بقائها ونمائها.

والتذييل بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فيه تحذير شديد من ذلك اللّهو والانشغال عن ذكر الله، إذ حكم الله على صاحبه بالخسران المبين، وذلك بخسرانهم في الدّنيا والآخرة.

ثم حرّض الله المؤمنين على الإنفاق قبل مداهمة الموت لهم فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

الأمر بالإنفاق مما رزق الله لا يخصّ إنفاق الأموال وحدها، لأنّ ما رزق الله عباده من أنواع النّعم لا يقتصر على المال وحده، فهناك الصّحة، وهناك العلم وهناك الرّأي والجاه... إلخ، وإن كان المال هو القوام الأساسي لمتطلبات الحياة، وهذا الأمر الإلهي هو إبطال لدعاية المنافقين في الكفّ على الإنفاق على من عند رسول الله، ومدلول هذا الأمر يشمل كلّ ما هو في حكم الوجوب كالزّكاة والإطعام وما ينفق للحج والجهاد، أو ما هو في حكم النّدب من أنواع الصّدقات الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾، فيه إيحاء بالشّكر لما أنعم الله على عباده بصرف تلك النّعم في ما خلقت لأجله، ويحتمل في: ﴿مِن﴾ أن تكون للبيان أو للتبعيض، ويتعين أحد الاحتمالين بمراعاة الأحوال العامة للأمة، وطلب إنفاذ ذلك قبل الموت فيه إرشاد إلى الإنفاق حال الصّحة كما جاء في الأثر: "الدّرهم في الحياة خير من سبعين بعد الموت"، وكما قيل: "أنفق وأنت صحيح شحيح"، فالذين يسوفون ويتركون ذلك للتسجيل في وصاياهم لا يضمنون تنفيذها في غالب الأحوال، فإن الحزم يقضي بالمسارعة إلى الخير والمبادرة إلى

الإنفاق قبل حضور علامات الموت التي قد تباغت الإنسان في صباح أو مساء، فيسأل ربّه أن يؤخّره إلى أجل قريب ليستدرك ما فاته من العمل الصّالح، ولكن هيهات. ويقول ابن عباس: "سؤال التأخير هو طلب الرّجوع إلى الدّنيا بعد الموت. ثم روى قوله ﷺ: **«من كان له مال يبلغه حجّ بيت ربّه أو تجب عليه فيه الزّكاة فلم يفعل سأل الرّجعة عند الموت»**.(١)

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:
الأجل هو آخر مدة العمر، وهو مقدّر عند الله لا يؤخّر عن أمده، وجاءت كلمة: ﴿نَفْسًا﴾ نكرة في سياق النفي، لتعمّ كلّ النفوس البشرية من المؤمنين وغيرهم، أكّد نفي التأخير بـ"لن" التأبيدية، وفي ذلك إرشاد للمؤمنين في الاستعداد للموت في كل وقت. وجاء التذييل بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: بصيغة الجملة الإسمية للدّلالة على تحقيق علم الله بما يفعله عباده من أعمال ما ظهر منها وما بطن فمجازيهم عليها إحسانا أو إساءة.

والله أعلم.

(١)- رواه الترمذي من حديث ابن عباس، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المنافقون، رقم ٣٣١٦.

سورة التغابن مدنية، وآياتها ١٨

– بين يدي السورة الكريمة:

سميت "التغابن"، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، أي إن الناس يوم القيامة يغبن بعضهم بعضا بالتقصير في الإيمان والعمل الصالح، ولفظ "التغابن" لم يذكر في غير هذه السورة من القرآن. وهي السابعة بعد المائة في ترتيب نزول السور، وهي مدنية في قول الجمهور وعدد آياتها ثمان عشرة آية، أما في ترتيب سور المصحف الشريف فهي الرابعة والستون، وهي الأخيرة في ترتيب المسبحات، ومن مشمولات السورة:

– بيان مظاهر قدرة الله، وخلقه الإنسان متأرجحا بين الكفر والإيمان.

– الإنذار والتهديد للمشركين بإنكارهم الألوهية والنبوة والبعث.

– الدعوة إلى الإيمان والتحذير من أهوال يوم القيامة.

– تثبيت للمؤمنين على ما يلاقونه من أهل الكفر وبيان أن كل شيء عند الله بقضاء وقدر.

– تحذير للمؤمنين من فتنة الأموال والأولاد ومن شر بعض قرائنهم والأمر بالتقوى والإنفاق في وجوه الخير.

مظاهر قدرة الله في الآفاق وفي الأنفس.

أ)– النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ

وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ② خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ④

ب] - التحقيق اللغوي:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾: جيء فعل: ﴿يُسَبِّحُ﴾ مضارعا في هذه السورة وفي سورة الجمعة لإفادة التجدد والاستمرار. ﴿مَا﴾: الموصولة لتغليب غير العاقل لكثرته، وإعادتها لقصد التوكيد اللفظي، ومعنى التسبيح التنزيه عن جميع النقائص، ويكون بلسان المقال وبلسان الحال. ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾: تقديم الجار والمجرور للدلالة على الحصر والاختصاص. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾: بين الكافر والمؤمن طباق، والخطاب لجميع الناس، والكفر والإيمان في الآية منظور فيهما إلى القضاء الأزلي، والإنسان له كسب واختيار لأحدهما بلا إجبار، وقدم وصف الكفر على الإيمان لكثرته، ولكونه المقصود بالذات التهديد عليه. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: بين ﴿صوركم﴾ و﴿فأحسن صوركم﴾ جناس ناقص، أي جعل الله الإنسان في أحسن صورة من حيث الخلقة بالنسبة للكائنات الأخرى كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤). ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: بينهما طباق، تكرير فعل: ﴿يَعْلَمُ﴾ للتنبيه على العناية بالعلم الخاص بعد العلم العام.

ج) - البيان والتفسير:

أسلوب السورة في نصفها الأول وموضوعه يكاد يشبه القرآن المكي كما ترجح ذلك بعض الروايات أما النصف الأخير منها فهو إلى الأسلوب المدني أميل، وليس بغريب أن يتداخل الأسلوبان في سورة واحدة، إذ ما يزال حول المدينة كفار ومنافقون يتفقدهم الوحي بالتوجيه والإرشاد.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، إنها الحقيقة الكونية الكبرى التي تدين بها الكائنات وهي متوجهة إلى ربها بالتسبيح والتحميد؛ لأن الوجود في أصل خلقته وتكوينه أنه مؤمن بخالقه المالك لكل شيء، والمحمود لذاته والمعظم من جميع مخلوقاته، والإنسان وحده قد يغدو كافرا بربّه خاوي الروح من الإيمان فيشذ بذلك عن باقي المخلوقات، فلا يسبّح لمولاه ولا يقرّ بعبوديته لمن خلقه وسوّاه، وبالتالي فهو في حكم الشاذ المنبوذ.

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: اللام للملك وتقديمها على المسند إليه هو لإفادة القصر، أي هو وحده له الاستحقاق بالملك والحمد، وفي التذييل بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وعد للشاكرين ووعيد للكافرين، إذ أن لله القدرة المطلقة في تدبير شؤون خلقه والمؤمن بذلك يعتقد أنه يلجأ إلى ركن ركين لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فيستمد من ذلك قوته وإيمانه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: الإقرار بالخالقية لله وحده هو من أصل الفطرة الإنسانية، حتى وإن تلوثت بأدران الكفر، ومن حكمته تعالى أن خلق هذا الإنسان وجعله مزدوج الاستعداد ما بين اختياره للإيمان أو الكفر، ومكنه من الاختيار والتمييز بينهما، وقد نيطت به أمانة التكليف، وحتى لا يتيه ولا يضلّ في تحمله لتلك الأمانة رسم الله له المنهج الصحيح بوحيه المنزل على رسله، وجعله البوصلة الدقيقة التي تحدّد الاتجاه الصحيح، والله رقيب على جميع أعماله بصير بحقيقة دوافعه ونواياه.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾:

خلق الله هذا الكون الفسيح في أرضه وسماواته وأقامه على الحق الأصيل، وليس الدين الذي شرعه الله لهذا الإنسان إلا تابعا من ذلك الحق الأصيل متجها

تلك الحقيقة الوجودية التي أقرها خالق السماوات والأرض وخالق هذا الإنسان في أحسن تقويم فليس في خلقة السماوات من فطور، ولا في خلقة الإنسان من تشويه، فقد كرمه الله بأحسن صورة في كيانه المادي إذ هو أجمل وأكمل الأحياء على وجه الأرض باتفاق علماء الأحياء، وهو كذلك أكملها وأرقاها من الناحية النفسية شعورا وإحساسا وتفكرا بما يجعله مؤهلا لتلك المسؤولية التي تحمّلها، وهو يعبر مرحلة العمر التي قدر الله له على وجه الأرض ثم يصير إلى مولاه في نهاية المطاف كمصير كل شيء في هذا الوجود وليختر لنفسه كيف يكون ذلك المصير.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: والعلم الشامل المحيط لكل ما في الوجود، ومنه الخوالج النفسية الخفية في ذات الإنسان، العلم بذلك هو من أعظم صفات الخالق، يقرّ بها المؤمن ربّه فيزداد بذلك خشية لله إذ يرى نفسه أمام رقيب لا تنام عينه ولا يسهو عن متابعة تحركات خلقه ومكاشفة أسرارهم وخفاياهم التي تخامر نفوسهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (ق:١٦). فليس ثمّة ما يخفى على الله في السرّ والعلن، والله أعلم.

بعض مظاهر الكفر عند المشركين، وجزاؤهم.

أ)- النص:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت
تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾: الخطاب للكفار بدعوة رسول الله، والاستفهام للتعجيب. ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾: أي من الأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود. ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: الذوق مجاز في مطلق الإحساس، والوبال: السوء والمكروه، أي أصابهم جزاء كفرهم في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الأخرى. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة عائد إلى المذكور من الوبال. ﴿بِأَنَّهُ﴾: الباء للسببية والضمير للشأن والجملة في موقع التعليل، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾: ﴿أَبَشَرٌ﴾: مبتدأ ﴿يَهْدُونَنَا﴾: خبر جاء في صيغة الجمع؛ لأن "بشر" يصلح للواحد والجمع، والاستفهام للإنكار، أي إنكار لبشرية الرسل. ﴿وَتَوَلَّوْا﴾: أي أعرضوا عن قبول دعوة رسلهم. ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾: السين والتاء للمبالغة، أي الله غني عن إيمانهم، والجملة في موضع الحال. ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾: الزعم: هو القول الموسوم بمخالفة الواقع . و﴿زَعَمَ﴾: يتعدى إلى مفعولين، ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾: جملة سدت مسد المفعولين، والنفي بـ"لن" للتأكيد في إنكار البعث. ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإبطال النفي، أكد بالقسم و﴿رَبِّي﴾.

ج)- البيان والتفسير:

بعد بيان أدلة قدرة الله وآثاره في الكون وما تخلل ذلك من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي الذي ينتظر الخلائق انتقل إلى التصريح بالتحذير لمشركي مكة من إنكار الألوهية وإنكار النبوة، وذلك بضرب المثل بحال الأمم السابقة التي تلقت رسلها بالتكذيب كيف كان مآل أمرها في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة وأثبت الله أن البعث حق آت لا ريب فيه قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

الاستفهام للتعجيب، والخطاب لكفار مكة ومن على شاكلتهم كيف يتغاضون عن أنباء الأمم السابقة التي كفرت رسلها وهم يشاهدون آثار ما حلّ بهم من العذاب الدنيويّ بسبب كفرهم وعنادهم، إذ أقام الله عليهم الحجة بما بعث إليهم من الرّسل يدعونهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان، ولكنهم أصرّوا على الكفر والعناد واستمرّوا على الطغيان والفساد فسوف ينالهم من العذاب الأخرويّ ما يلقون به جزاءهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: إنها الشبهة الخاطئة التي يردّدها الكفار في كل زمان ومع كل رسول، وهي إنكارهم لبشرية الرّسل كيف يتصلون بالملإ الأعلى، وهو نفس الاعتراض من طرف مشركي مكة على رسول الله، وهم بذلك يجهلون طبيعة الرسالة كما يجهلون قيمة الإنسان عند الله إذا ما طهرت سريرته وأشرقت روحه بالنفحة العلوية التي أودعها الله فيه، وبالتالي فقد كفروا وتولّوا معرضين عن رسلهم، ولكن الله استغنى عن إيمانهم فلا يضرّه إعراضهم لأنه الغنيّ الذي لا يحتاج إلى غيره والحميد في حكمه وتصرّفاته.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾: والزّعم هو القول الموسوم بمخالفة الواقع، وقضية البعث وموقف الملحدين والمشركين منها هو من أكثر القضايا الإيمانية إعناتا للرسل والدعاة بصفة عامة، لأنها من عالم الغيب، وهم لا يؤمنون إلا بالمشاهد المحسوس.

والله يوجّه رسوله إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد، وذلك بأن يحلف بربّه بأن البعث واقع لا ريب فيه، وأن الله ينبئ خلقه بما عملوا فمجازيهم عليه، وهو أمر يسير على الله عالم الغيب والشّهادة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (سبأ:٣)، والله أعلم.

الدعوة إلى الإيمان بيوم الجزاء، وبيان أن كل شيء عند الله بقضاء وقدر.

أ)– النص:

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ
لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن
بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: النور الذي أنزلنا، أي القرآن العظيم. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: خبره. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف، العامل فيه: ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾. ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾: الضمير يعود على اسم ﴿اللَّهِ﴾. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: مبتدأ وخبره، و﴿التَّغَابُنِ﴾ مصدره "غابن"، صيغة مفاعلة، وهي تدل على حصول الفعل من جانبين أو أكثر، والغبن يؤول إلى خسارة البائع في بضاعته، وفي الكلام تهديد

للمشركين بسوء حالهم يوم القيامة. ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾: جملة شرطية معطوفة على جملة: ﴿فَآمِنُوا﴾. ﴿يُؤْمِن﴾: مجزوم في فعل الشرط. ﴿وَيَعْمَلْ﴾: معطوف عليه، ويجوز رفعه ليكون في موضع الحال. ﴿يُكَفِّرْ﴾: مجزوم في جواب الشرط، وتكفير السيئات العفو عن المؤاخذة عليها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: مبتدأ، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ. خبره: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾. والجملة من المبتدأ والخبر خبر للمبتدأ الأول. ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: المصيبة يغلب أن تكون لما يلحق الإنسان من شرٍّ وضرٍّ، والأصل أن تكون في الخير والشر مطلقاً، والإذن: إجازة الفعل لمن يفعله، وإذن الله هو إرادته ومشيئته. ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: المراد به الإيمان بكلّ ما يجب الإيمان به من أصول العقيدة، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: جواب الشرط بمعنى: يهديه إلى عدم الجزع بالمصيبة. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: أي إن أعرضتم عن طاعة الله، فما على رسوله إلا التبليغ، والله هو محاسبكم ومجازيكم.

ج)– أوجه القراءة:

﴿يَجْمَعُكُمْ﴾: قرأ الجمهور بياء الغائب، وقرأه يعقوب بنون العظمة. ﴿يُكَفِّرْ﴾ و﴿يُدْخِلْهُ﴾: قرأها نافع وابن عامر وأبو جعفر بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى المتكلم، وقرأها الباقون بياء الغيبة على مقتضى الظاهر؛ لأن ضمير الجلالة يؤذن بعناية الله بهذا الدين.

د)– البيان والتفسير:

بعد الرّدّ على منكري البعث وبيان ما حلّ بالأمم المكذبة برسلها دعا الله إلى الإيمان بكلّ مبادئ العقيدة الإسلامية وخصّص بالذكر الإيمان بالقرآن العظيم محذرا من الجزاء الأخروي يوم يتغابن الناس، وهم بين فائز وهالك، ثم أبان الله أن ما يصيب

الإنسان من خير أو شر فهو بقضائه وقدره وأكّد على طاعة الله وطاعة رسوله، وحسن التوكل عليه فقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ارتبطت الجملة بالفاء الفصيحة، فيكون المعنى: إذا وعيتم ما تقدم من أمر البعث وتذكرتم ما حلّ بمنكريه السابقين فآمنوا بالله ورسوله وبالقرآن الذي أنزله على رسوله، وهو النور الذي يكشف عنكم ظلمات الكفر والجهالة، وقد تكرر وصف القرآن بالنور على سبيل الاستعارة. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤). والإيمان بالقرآن يقتضي الإيمان بكل الأصول العقدية التي بيّنها وجعلها بشارة الدخول إلى الإسلام، وقد وصف الله الكتب السماوية الأخرى بالنور كالتوراة والإنجيل فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة:٤٤).

وجاء التذييل بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، بإظهار لفظ الجلالة مهابة وإجلالا في قلوب المؤمنين وباختيار صفة الخبير؛ لأنه أدلّ على تعلق العلم الإلهي بالموجودات كلها.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: والتقدير: واذكر يوم يجمعكم، والخطاب فيه يشمل جميع الأمم لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الواقعة:٤٩-٥٠). وهو يوم حشر الخلائق كلها للحساب والجزاء. واللام في قوله: ﴿لِيَوْمِ﴾ يتردد معناها بين التعليل، أو تكون بمعنى: "في"، وتكون للتوقيت بمعنى: "عند"، أي في الأجل المحدّد عند الله، فيكون ردًا على قول الكافرين: ﴿لَّن يُبْعَثُوا﴾.

وقد وصف الله هذا اليوم بيوم التغابن، وهو مفاعلة، من الغبن، وسمّي كذلك لظهور غبن بعض الناس لبعض، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين، وحرمان الكافرين من كل شيء، والإشارة إليه هو لقصد الاهتمام به والتهويل من شأنه، وقد حمل بعض المفسرين صيغة التفاعل هنا بمعنى الكثرة وشدة الفعل، وهو تهديد

للمشركين بسوء حالهم في ذلك اليوم.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

الآيات تفصيل وبيان للتغابن المشار إليه في الآية السابقة، جاء بصيغة الشرط بدءا بالفريق المؤمن الفائز بنعيم الجنة وقد دفعوا ثمن ذلك الفوز بإيمانهم الصحيح وعملهم الصالح فاستحقوا بذلك ذلك الفوز العظيم رضوانا من الله بالتكفير عن سيئاتهم، وخلودا في نعيم الجنة، وفي المقابل الفريق الكافر الهالك لجحوده بوحدانية الله وقدرته وتكذيبه بآياته المنزلة على رسله، وقد أشير إليهم إشارة البعد لاحتقار شأنهم، وفي اختلاف صلة الموصول ما بين صيغة المضارع في الفريق المؤمن، وصيغة الماضي في الفريق الكافر، يتكامل المعنى بدعوة هؤلاء إلى الإيمان مستقبلا ليلتحقوا بالفريق الأول في الفوز.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: إن التذكير بقضية القضاء والقدر بعد الدعوة إلى الإيمان وتوعد المشركين بما يحصل لهم من التغابن في يوم الجمع، هذا التذكير له مناسبته في هذا الموقع من السورة، إذ تقول الرواية في سبب نزولها أن المشركين قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا.

ومثل هذا الكلام يثير في نفوس المؤمنين التساؤل عن الانتصاف لهم من المشركين في الدنيا، وقد عانوا من إذاياتهم الكثير، فجاء التذكير بهذه الحقيقة الإيمانية من قضية القضاء والقدر قصد تربية المسلمين وتدريبهم على الصبر لتقلبات الدنيا ومصائبها حتى يواجهوها بيقين وثبات معتقدين أن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو بإذن الله وعلمه وإرادته، وبذلك يطمئن قلب المؤمن مستنيرا بهداية الله

فيكون على خير في حالتي الضرّاء والسرّاء كما جاء في الحديث الشريف المتفق عليه، إذ قال رسول الله ﷺ: **«عجبا لأمر المؤمن، لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»**.[1]

وقد فسّر ابن عباس هداية الله هنا بأنها التسليم لقضاء الله وقدره، ولا يعني ذلك ترك السعي واتخاذ الأسباب، وجاء التعقيب بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي عليم بأحوال القلوب ومنشأ الأحداث كلها وغاياتها.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: ومن نتائج الهداية في قلوب المؤمنين أنهم يثبتون على طاعة الله وطاعة رسوله، ولذلك جاء أمر الله بذلك معطوفا على قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، ثم يقرّر أنّ الرسول مبلغ، فما تكون عليه مسؤولية إذا تولّى الناس عن دعوته، وقد عظمه الله بالإضافة التشريفية إليه: ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾. ووصف بلاغه بأنه مبين لبيان أنّ الرسول قد أدّى مهمته على الوجه الأكمل، ثم أكّد حقيقة الوحدانية، ومن مقتضاها أن يحصر المؤمنون بها توكلهم على الله وحده، فقال تعالى: **﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**.

والإيمان بالوحدانية يقتضي من المؤمن حسن الطاعة والانقياد، مستهينا بما يلقاه في سبيل ذلك من المتاعب والأذى؛ لأنّ التوكل على الله وحده يرفع المؤمن إلى المنازل العليا فتصغر الدنيا أمام عينيه فلا يبالي بما يصيبه من أوضارها كما قال الشاعر:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي

والله أعلم.

---

(١) – رواه مسلم من حديث صهيب، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩.

التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال، والأمر بالتقوى والإنفاق.

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ
وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾
إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾: ﴿عَدُوًّا﴾: اسم: ﴿إِنَّ﴾، و﴿عَدُوًّا﴾: بوزن "فعول"، وصف من العداوة، يلزم حالة الإفراد والتذكير. ﴿مِنْ﴾: تبعيضية. ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾: أي توقوا شرهم. ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾: الأفعال مجزومة بحذف النون، والعفو ترك المؤاخذة على الذنب، والصفح: يكون بالإعراض عن المذنب. ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾: يكون بستر الذنب. ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: والفتنة تكون بمعنى الابتلاء أو بمعنى يكونون سببا للافتتان في الدين. ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾: في نصب: ﴿خَيْرًا﴾ أقوال، فهو إما منصوب بـ"أنفقوا" أو منصوب بفعل مقدّر، أي آتوا خيرا لأنفسكم، أو هو وصف لمصدر محذوف، أي إنفاقا خيرا، أو يكون خبرا لـ"كان" مقدر، أي: وكان الإنفاق خيرا. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: ﴿يُوقَ﴾: من الوقاية، أي الحفظ. والشح: البخل مع

الحرص، وإضافته إلى النفس للدلالة أن الشح من طبع النفوس. ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾: والقرض الحسن هو التصدق من الحلال، ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾: أي يزيده وينميه، وفيه استعارة تمثيلية، شبّه الإنفاق في وجوه الخير على قصد التعويض بالأجر من الله بمن يقرض أحدا مبلغا من المال على وجه الرد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُضَاعِفْهُ﴾ بألف بعد الضاد، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: ﴿يُضَعِّفْهُ﴾ بتشديد العين، مضارع: ضعّف.

د)- البيان والتّفسير:

قد يكون بعض الأزواج والأولاد سببا للافتتان في الدين فيصيب المؤمن بذلك غمّ شديد لما يتوقعه منهم من الإذاية والعنت، فبعد أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله حذرهم الله من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ودعاهم إلى تقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق، كما حذرهم من شحّ النفس ووعدهم على ذلك بمضاعفة الأجر وحسن الثواب والمغفرة وذكّرهم في ختام السورة بعلمه الشامل وبقوته وعزته وحكمته فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إنه النداء الإيماني الحبيب إلى نفوس المؤمنين يتلقونه بشغف والتزام تضامني لتطبيق ما يدعو إليه، وقد جاء في ختام هذه السورة المكيّة ومقدمات الهجرة إلى المدينة أخذت تلوح في الأفق، وقد سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: "نزلت في قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا الهجرة فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فلما هاجروا وجدوا الناس قد فقهوا في الدين فهمّوا أن يعاقبوهم على المنع

وتفويت الفقه".[1]

وهناك روايات أخرى غير هذه تذكر سبب النزول، والنصّ القرآني أشمل وأعمّ من تلك الأحداث الواقعة عند النزول، فهو يقرّر حقيقة اجتماعية عميقة في الحياة البشرية، وتتفاوت حدّتها وضغوطها بتفاوت دوافعها وأسبابها، فالأزواج والأولاد يكونون دائما مبعث القلق عند وليّ أمرهم، فيحلّ -أحيانا- بواجبه الإيماني من أجلهم، ويتعرّض لكثير من العنت، ولا يقتصر السبب على الاختلاف الديني كما كانت وضعية المسلمين في مكة قبل الهجرة، بل الواقع أن يحدث ذلك حتى بين أفراد المجتمع المسلم، وقد نبّه رسول الله إلى ذلك حين قال: «**يأتي على الناس زمان يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيّرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك**».[2] [3]

قلت: ما أحكم التربية الإلهية في مثل تلك المواقف الدقيقة، إذ لم يأمر الله بالانتقام والمعاملة بالمثل، ولكنه حذّر ونبّه لإثارة اليقظة في قلوب المؤمنين، وفي الحذر درء للخطر المحتمل، وعطف على ذلك جملة من الصّفات هي من صفاته العلية في معاملة خلقه بالعفو والصّفح والمغفرة إذا ما أذنبوا في حقه، وبذلك يرفع هذا الإنسان الضعيف من وهدة الحيوانية إلى مراقي الإنسانية التي تتصف بصفات الله.

ثم كرر ذلك التحذير في صورة أخرى بصيغة الحصر فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، أدمج الأموال مع الأولاد في كونهم فتنة، وعمّم صفة الافتتان في الأولاد بعد تخصيص حال بعضهم في الآية السابقة، وكان المسلمون قد فتنوا في أموالهم بمكة، وفتنة المال تغري وتشغل الإنسان عن ذكر

---

(١)- رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن، رقم ٣٣١٧.

(٢)- رواه البيهقي في كتاب الزهد، من حديث أبي هريرة، رقم ٤٤٦.

(٣)- أنظر: تيسير التفسير: ١٥/١٧١.

الله وتمنعه عن كثير من أبواب الخير، وفتنة الأولاد من فتنة الأزواج في الآية الثانية وكونهم هم الفتنة نفسها للمبالغة، وقد أخرج أبو داود عن بريدة قال: «**خطبنا رسول الله ﷺ، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل فأخذهما، فصعد بهما المنبر، ثم قال: صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في الخطبة**».[1]

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي يكون الجزاء العظيم بنعيم الجنة عند الله لمن ينجح في ذلك الامتحان بالصبر في مواجهة تلك الفتنة.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الجملة معطوفة على سابقتها، وارتبطت بفاء التفريع، لدفع توهّم التكليف بما لا يطاق من الصبر على فتنة الأموال والأولاد فجاء الأمر بتقوى الله في حدود الاستطاعة حتى لا يصدكم ذلك الحب للأموال والأولاد عن القيام بواجبكم في السمع والطاعة لأوامر الله ورسوله، ونلمس اللطف الإلهي في هذا القيد: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فلا تعارض ولا نسخ كما يدّعيه البعض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، إذ يكون تمام التقوى في حدود الاستطاعة لا غير.

ثم يحرّض الله المؤمنين على الإنفاق بصفة عامة سواء للعيال أو في سبل الخير، لأن ذلك خير للنفس ذاتها، لأنه تطهير لها من الشح والبخل وفي ذلك الفلاح المضمون: **﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.**

هذه الاستعارة التمثيلية باعتبار الإنفاق في سبيل الله قرضا حسنا له

---

(١) - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، رقم ١١٠٩.

يقتضي الرد المضاعف من الله أجرا وثوابا قد يزيد على السبعمائة والمراد من ذلك تحريض المؤمنين وإغراؤهم بالبذل والإنفاق، ويندرج ذلك في مقامات إحسان العبد مع ربه.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: يشكر للعبد الذي تفضل عليه ورزقه وأعطاه، ويعامله بالحلم في ما قصّر فيه، فما أكرمه من خالق وما أعظمه من إله عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، إنها صفات العظمة والكمال المطلق، يحاول العبد المؤمن أن يسمو إلى منازلها جهد المستطاع ليحقق بذلك كرامة إنسانيته.

والله أعلم.

سورة الطَّلاق مدنية، وآياتها ١٢

- بين يدي السُّورة الكريمة:

سمّيت بسورة "الطلاق" نظرا لافتتاحيتها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، وهي تبيّن أحكام الطَّلاق والعدة فيها، وما يعقبها من الأوضاع والإنفاق والإسكان، وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه سماها سورة النساء القصرى، لأنها تكمّل ما ورد من أحكامهن في السورة الطولى، أي سورة البقرة.

وهي مدنية بالإجماع وعدد آياتها اثني عشرة آية وتعدّ السادسة والتسعين في ترتيب سور المصحف الشريف.

ولم يثبت خبر عن سبب نزولها، فقد عدّها بعض المحققين بأنها نزلت بيانا لشرع مبتدأ، والله أعلم. وموضوعها :

- بيان الأحكام التشريعية التي تتصل بالأسرة وقيام كيانها على أسس سليمة، ومعالجة ما قد يعرض لها من خلل ومتاعب.

- بيان حكمة شرع العدة، والنهي عن الإضرار بالمطلقات وإخراجهن من بيوتهن.

- الإشهاد على التطليق والإرجاع.

- بيان حكم الإرضاع والإرشاد إلى التشاور في ذلك بين الأبوين.

- التركيز على الأمر بتقوى الله ومراعاة حدوده وبيان نتائج ذلك في الاستقرار العائلي.

- التحذير من غضب الله ومقته والاتعاظ بمصير الأمم التي عتت عن أمر الله.

- التنويه بشأن وحي الله بأنه منزل بعلم الله وقدرته الشاملة.

ويعلق سيد قطب في مقدمة هذه السورة فيقول: "ويقف الإنسان مشدوها أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومخلفاتها، أي حالة الطلاق، وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترهيب والترغيب والتعقيب على كل حكم ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه، وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي وإيثار الجميل والإطماع في الخير والتذكير بقدر الله في الخلق والرزق وفي اليسر والعسر.

يقف الإنسان مشدوها أمام هذه الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام، حتى ليوجه الخطاب إلى النبي ﷺ بشخصه وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين، زيادة في الاهتمام وإشعار خطورة الأمر المتحدث فيه".(١)

بيان أحكام الطّلاق والعدّة، والأمر بتقوى الله والتّوكل عليه.

أ) - النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

---

(١)- في ظلال القرآن: ٢٨/١٣٤-١٣٥.

وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ
إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾: خص النبي بالنداء لأنه إمام المؤمنين، والحكم عام لأمته، أو هو بتقدير القول، أي يا أيها النبي قل: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، والمراد: إذا أردتم تطليق النساء، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: واللام للتوقيت، كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ (الإسراء:٧٨). والغيب في قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ النساء المدخول عليهن، ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾: الإحصاء معرفة عدد الشيء وضبطه، وأل في العدّة للعهد، أي العدة المشروعة المعروفة. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾: إضافة البيوت إليهن وهن مطلقات للتأكيد على حقهن في البقاء بالبيت حتى تنقضي العدة إلا في حالة ارتكابهن لفاحشة وهي أعمّ من الزّنا إذ تشمل كل مضارة منها للزوج وأهله. ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾: ﴿لَا تَدْرِي﴾: الخطاب لغير معيّن، و﴿تَدْرِي﴾ بنصب مفعولين. وجملة: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ﴾ سدّت مسدّ المفعولين، أي لعل الله يحدث بعد الطلاق وضعية جديدة من الندم على الطلاق. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: ﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: أي انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: راجعوهن بمعروف، الباء للملابسة، والمعروف في الإمساك يكون بحسن العشرة وفي الفراق يكون بكف اللسان عن عيبها. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: أي إن تقوى الله تكفل للإنسان التيسير في كل أموره ويضمن له رزقه من حيث لا يخطر ولا يرجو. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾: أي منفذ قضاءه غالب على أمره.

ج)- أوجه القراءة

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: قرأ الجمهور بكسر الياء التحتية، أي هي تبين لمن تبلغه أنها فاحشة، وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم: ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾: بفتح التحتية، أي كانت فاحشة بينتها الحجة. ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾: قرأ الجمهور "بالغ" بالتنوين، و﴿أَمْرَهُ﴾: بالنصب، وقرأه حفص عن عاصم: ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾: بإضافة: ﴿بَالِغُ﴾ إلى: ﴿أَمْرِهِ﴾.

د)- البيان والتفسير:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾:

يقول الدكتور وهبة الزحيلي في مناسبة هذه السورة لما قبلها يقول: "تتعلق هذه السورة بما قبلها من وجهين:

أ)- أنه قال في أواخر التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾(١٤)، ولما كانت عداوة الأزواج قد تفضي إلى الطلاق، وعداوة الأولاد قد تؤدي إلى القسوة وترك الإنفاق عليهم، عقب ذلك بسورة فيها أحكام الطلاق والإنفاق على الأولاد والمطلقات.

ب)- أشار الله تعالى في آخر التغابن إلى كمال علمه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾(١٨)، وأشار في آخر هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء وبالأحكام الخاصة بطلاقهن فكأنه بيّن ذلك العلم بهذه الجزئيات".[1]

---

(١)- التفسير المنير: ٢٦١/٢٨.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، وفي سبب النزول مما تظافرت عليه كتب السنة: «**أنَّ ابن عمر طلَّق امرأته وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ منه، ثم قال: ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسّها، فتلك العدّة التي أمر بها الله عزّ وجل**».[1]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: النداء الإلهي موجّه إلى شخص الرسول باعتباره إماما للمؤمنين، والحكم عامّ للمجتمع المسلم، وفي ذلك تعظيم وإجلال لمقام الرسول وإظهار للاهتمام بالقضية المطروحة، قضية الطلاق التي روي فيها عن رسول الله قوله: «**أبغض الحلال عند الله الطلاق**».[2]

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: أي إذا أردتم تطليق النساء. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: اللام للتوقيت، والمراد طلقوهن لزمان محسوب من عدتهن، وهو طهر لا يمسّها فيه حتى لا تطول مدة العدة، وقد نهى الرسول عن إيقاع الطلاق في الحيض، ويسمّى ذلك بالطلاق البدعي، كما جاء في الحديث المتقدم لابن عمر، والمراد بالنساء هنا المدخول عليهن من ذوات الأقراء، والعدة ثلاثة قروء: أطهار أو حيض، على خلاف بين العلماء، أما غير المدخول بهنّ فلا عدّة عليهن، وهناك حالة أخرى يجوز فيها الطلاق وهي أن تكون الزوجة حاملا بيّنة الحمل، ويتلخص من ذلك أن الطلاق أنواع ثلاثة:

أ)- سنيّ: وهو طلاق في طهر لا جماع فيه أو أثناء حمل قد استبان.

ب)- بدعيّ: وهو الطلاق في الحيض أو في طهر تم فيه الجماع وهو حرام.

---

(١)- رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر، كتاب الطلاق، باب إذا طلقت الحائض تعتد بذلك الطلاق، رقم ٤٩٠٨.

(٢)- رواه أبو داود من حديث ابن عمر، كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، رقم ٢١٨٠.

ج)- طلاق غير سنيّ ولا بدعي: هو طلاق الصغيرة والآيسة من الحيض وغير المدخول بها. وألحق الفقهاء في الحرمة، الطلاق في النفاس.(١)

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾: إنه الأمر بالضبط الدقيق لإتمام العدة، ابتداء وانتهاء، حتى لا تضارّ المرأة بتطويل عدتها فتمنع من الزواج بعد العدة، كما أن الإنقاص من العدة لا يتحقق منه التأكد من براءة رحم المرأة من الحمل، والمخاطبون هم الرجال لأنهم هم المكلفون بالتزام الحقوق المترتبة على ذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾: مهّد الله لبيان بعض حقوق المطلقات مهّد بالأمر بالتقوى، واختير للفظ الجلالة وصف الربوبية مضافا إلى المخاطبين استجاشة للعواطف الإيمانية في نفوس المخاطبين ليشعروا بفضل الله ورعايته لمصلحتهم في تشريع تلك الأحكام، حتى يحذروا من التساهل فيها، علما بأن الناس ما يزالون حديثي عهد بالجاهلية التي كانت لا تقيم للمرأة وزنا، فلا عجب للتربية الإلهية أن تجيء بتلك اللهجة الحادة من التحذير والترهيب.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾: أي يجب على المطلقات أن يلزمن بيوت أزواجهن لقضاء عدتهن، وقد أضاف إليهن البيوت للتأكيد على حقهن في الإقامة بها في فترة عدتهن؛ لأن لهن حق السكنى على الزوج، فليس على الرجل أن يخرجها، كما لا يجوز لها أن تخرج من تلقاء نفسها إلا في حالة واحدة وهي إتيان المعتدة بفاحشة مبيّنة، وكلمة الفاحشة أعمّ من الزنا، كأن تكون نشوزا عن الزوج أو إلحاق الأذى به وبأهله فحينئذ يجوز إخراجهن، غير أن الواقع المطبق اليوم في العالم الإسلاميّ أن المطلقة بصفة عامّة لا تبقى في بيت زوجها، فهي تغادره بمجرد سماع طلاقها أو إبلاغه لها مباشرة.

---

(١)- التفسير المنير: ٢٨/٢٦٧ (بتصرف)

وفي الحكم الشرعي على ذلك خلاف بين العلماء، يقول عنه قطب الأئمة الشيخ الحاج محمد اطفيش -رحمه الله- يقول: "وخروجهن محرم لا يطلب، ولا يأذنوا لهن فيه، ولا يخرجن ولو رضوا، وسكناهن حق مؤكد لله تعالى لا يحلّ بالإباحة، وذلك مذهب الحنفية ومذهبنا، ومذهب الشافعية جواز الخروج برضاه ورضاها بلا تضييق بعسر النفقة أو كلام السوء حتى تخرج بسبب ذلك، وأن السكنى حق لهن، وعلى الأول لو افتدت على أن لا سكنى لها اكترت البيت ولا تخرج منه، هذا نصّ أصحاب هذا القول، ولها الخروج لخوف انهدام أو غرق أو دابة مؤذية أو سرقة، ولها الخروج نهارا لحاجة لها كبيع غزل أو شراء قطن أو صوف".[1]

قلت: الواقع عندنا اليوم كبقية العالم الإسلاميّ إذ لا تبقى المطلقة في بيت الزوجية ولو ليوم واحد ولو لم يتمّ التراضي بينهما، فيكون رأي الشافعية هو الأنسب لهذه الحالة.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: الإشارة إلى الأحكام السابقة، و﴿حُدُودُ﴾ جمع حدّ، وإضافتها إلى الله مؤذن بأنه هو الحارس الرقيب عليها، فلا يحلّ للمؤمن أن يعتدي عليها؛ لأن في ذلك الهلاك والبوار، فقد ظلم نفسه بتعريضها لسخط الله، كما هو ظلم للزوجة المطلقة، على اعتبار ما كان بينهما من سكن ومودة.

ولبيان حكمة إبقاء المطلقات في البيوت قال تعالى: **﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾**، إنه الإيحاء الرباني المؤثر يستشف منه المؤمن ما يخبئه المستقبل من الأمل في إمكانية التغيير إلى الأفضل والأحسن، فإذا كان الإنسان حبيس الخاطر متأثرا بالمثل القائل: ما مضى فات، والمؤمّل غيب، ولك الساعة

(١)- تيسير التفسير: ١٥/١٢٨.

التي أنت فيها. فإنّ المؤمن يؤمن بالغيب وبقدر الله الذي يتصرف في شؤون الخلق، فقد تفاجئك فيه الأقدار بما لا يكون في حسبانك من الفرج بعد الضيق ومن اليسر بعد العسر.

فالله تعالى يريد من المؤمن أن يتطلع إلى ما يقدّره له من الأحوال التي يكون فيها صلاحه الذي قد يخفى عنه كما قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(النساء:١٩)

فإذا انتهى أجل العدة -على اختلاف أنواعها- فللزوج الخيار في الإمساك أو الفراق قال تعالى: **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾**، وعلى فرض بقاء المعتدة في البيت كما أمر الله، ولم يقدّر الله أن تتبدل الأحوال أو أن تتغيّر المواقف وقد شارفت العدة على الانتهاء، فإن للزوج أن يختار بين أحد أمرين:

أ- إمساك بمعروف؛ وذلك بالرجعة إلى عصمة الزوج في إحسان وتقدير لكرامة المرأة، وبنيّة عودة الحياة الزوجية إلى الهناء والاستقرار.

ب)- أو مفارقة بمعروف: وذلك بترك المرأة إلى انتهاء عدتها فتبين منه ولا تحلّ له بعد إلا بعقد جديد، وفي هذه الحالة يجب أن تتم المفارقة بالمعروف فلا إضرار بتوبيخ أو شتم أو منع حق من الحقوق للضغط على المرأة في الخلع أو الفداء لأن الزواج رباط مقدّس قد تمّ على عهد الله وكلمته. وتقوى الله هي الضّمان الوثيق في عقده أو حلّه، وتجب شهادة عدلين في حالتي الرّجعة أو الفراق قطعا للشكوك والريب ودرءا لكل خصومة متوقعة بين الطرفين، لأن الرابطة الزوجية تقوم على الوضوح والإشهار، وتقوم العلاقة فيها على الطهر والصدق، ويؤدّي الشهود شهادتهم لله خالصة من شوائب المخاتلة والمخادعة، ويلاحظ أن الحكم جاء عامًا لا يخصّ

هذه المسألة بالذات، فالشهادة يجب أداؤها متى تعلق بها حق من الحقوق، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه.

أما حكمها من حيث الوجوب أو الندب والاستحباب ففيه خلاف فقهي، والأغلب هو صرف الأمر عن الوجوب.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: الإشارة إلى الأحكام السابقة من الإمساك أو الفراق بمعروف ومن إقامة الشهادة، والمخاطبون هم المؤمنون بالله واليوم الآخر، فإليهم يوجه الله هذه الموعظة وهي اختبار لإيمانهم بحسن التطبيق والتنفيذ، وأكّد الله ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

جاءت هذه الجملة الشرطية متخللة لما سبق ولاحق جاءت في المكان المناسب للموعظة نظرا لما قد يحدث من الحرج والضّيق عند الزوجين على أية حالة ينتهي إليها أمرهما، فإن تقوى الله واستحضار خشيته تسبِّب المخرج من كل ضيق يساور أحد الطرفين، وقد تكون قضية الرزق مما يؤرق ويسبّب الحرج، ثم إن قضية الطلاق قد تنجرّ عنها أنواع من الحيل والدسائس من أحد الطرفين، فلا مانع من ذلك إلا تقوى الله، ويقظة الضمير الإيماني ففي ذلك مخرج من العوائق الدنيوية والأخروية، وفيه ضمان للرزق ييسره الله للمتقي من حيث لا يحتسب.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: حكم الآية كسابقتها عام يعبر عما يجب على المؤمن في معتقده الإيماني وهو يواجه في معترك الحياة شتى المتاعب والمشاكل حتى من ألصق الناس به من الأزواج والأولاد كما أشارت إليه آية التغابن والمؤمن في توكله على الله يلجأ إلى ركن ركين ويستمسك بالعروة الوثقى فيكفيه ما أهمّه وما أغمّه من أمر دينه ودنياه وآخرته، لأنه يثق بعدل الله وحكمته في قضائه وقدره، فكل شيء عند الله مقرّر بوقته، وبأسبابه ونتائجه سواء في أرجاء الكون الفسيح أو في حياتنا، ولا يعني التوكل

على الله ترك الأسباب وعدم السعي لتحقيق المآرب، فليس ذلك من التصور الإسلامي الصحيح، وقد تقدم من النصوص القرآنية ما فيه غناء في الدعوة إلى العمل والسعي، والله أعلم.

بيان عدّة اليائس والصغيرة.

أ)- النصّ:

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ
وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾: ﴿مِنَ﴾: الأولى للابتداء، و﴿مِن﴾: الثانية للبيان. ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ﴾: مبتدأ خبره ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾. ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾: التقدير: واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر، حذف الخبر هنا لدلالة الأول عليه، وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾: التقدير: إن ارتبتم في حيضهن وقد انقطع عنهن الدم. ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾: هن الصغيرات، وفي تحديد عمر يأس المرأة خلاف، وقيل: غالب من يأس نساء بلدها. ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: ﴿أُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾: مبتدأ. ﴿أجلهن﴾: مبتدأ ثان. ﴿أَن يَضَعْنَ﴾: خبرا للمبتدأ الثاني والجملة منها خبر للمبتدأ الأول، أي أجل صاحبة الحمل مطلقة أو متوفى عنها زوجها. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾: جملة من شرط وجواب، أي يسهل أموره ويوفقه للخير. ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾: الإشارة إلى كل الأحكام المذكورة هو أمر من الله يجب امتثاله والخطاب بالجميع للرسول ولأمته.

ج)- البيان والتفسير:

متابعة لأحكام العدّة، فبعد بيان أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض بقي بيان مقدار العدة للآيسة والصغيرة أي اللتين لا تريان الدم وكلتاها يصدق عليها وصف الآيسة من الحيض وكذا عدة الحامل وما أعقب تلك الأحكام كلها من الحث على تقوى الله وامتثال أمره وما ينجرّ على ذلك من الخير.

قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾.

اليأس: هو انعدام الأمل، والميؤوس منه هنا هو دم الحيض ينقطع لكبر سن أو لعلة أو لصغر سنّ، لم يبلغن سن المحيض، وسن اليأس يختلف باختلاف الذوات والأقطار كاختلاف ابتداء سن الحيض، عدة هؤلاء النسوة ثلاثة أشهر عوضا عن الأقراء الثلاثة في حق من تحيض في قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾، أي ترددتم في معرفة عدتهن للجهل، وقيل غير ذلك. ونقل القطب عن أبي حيّان قال: "إن قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يشمل من لم تحض لصغر، ومن لا يكون لها الحيض البتة، كبعض النساء يعشن إلى أن يمتن ولا يحضن، ويشمل من أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به ولم تحض قال: وهذه تعتد سنة".

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: الجملة معطوفة على سابقتها. ﴿وَأُولَاتُ﴾: اسم جمع لذات بمعنى صاحبة الأحمال جمع حمل، أي الجنين في بطن أمّه، فهؤلاء الحوامل سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن، فإن عدتهن هي وضع الحمل ولو لمدة قصيرة بعد ذلك عند الجمهور. يقول القطب في تفسير هذه الآية: "تمام عدتهن وضعهن حملهن ولو علقة أو مضغة مطلقات أو متوفى عنهنّ أو مفاديات أو نحو ذلك أو حرمن أو طلقن أنفسهن إن كان الطلاق بأيديهن معلقا لمعلوم أو غير معلّق".

هذا وقد نقل المفسرون قولا عن عليّ وابن عباس ﷺ: تعتدّ الحامل المتوفى عنها زوجها بأبعد الأجلين من وضع الحمل والأشهر -أي أربعة أشهر وعشرا-، جمعا بين هذه الآية والتي في سورة البقرة، وعلى ذلك يعلق القطب ويقول: "وهو عندي أولى من حيث القاعدة، إلاّ أنّ الحديث حجّة".(١)

قلت: والحديث هو ما رواه البخاري وغيره عن المسور بن مخرمة: «**أنّ سبيعة بنت الحارث الأسلمية توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلّت -أي شفيت- من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله في النكاح، فأذن لها أن تنكح، فنكحت**».(٢)

﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا**﴾: تكرر التحريض على تقوى الله في آيتين متتابعتين بصيغة الشرط وجوابه وجاء وعد الله في الأولى بتيسير الأمور الدنيوية مما يمكن أن ينجرّ عن الطلاق من متاعب ومشاق يتعرض لها كل من الرجل والمرأة واليسر في معالجة المشاكل مرجوّ ومرغوب فيه وهو غاية ما يرجوه المؤمن من مولاه وقد تخلل الجملتين الشرطيتين قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ**﴾ لإلفات النظر إلى أهمية الموضوع برمته، فالإشارة تتناول جميع الأحكام المتقدمة وكونها من أمر الله يدل على مدى أهميته وشرف شأنه عند الله يقتضي من المؤمنين تطبيق ما فيه، لأن ذلك من معاني التقوى. ثم أعيد التحريض على التقوى ليعد الله للمؤمنين بما هو أعظم وأعلى من اليسر الدنيوي، إنه تكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك هو الفضل الكبير والفوز العظيم يغمر القلب راحة وطمأنينة، فلا يجد ضيقا ولا عسرا، دنيا ولا أخرى، فليت المسلمين يراعون تلك الوعود الربانية فلا يقعون بسوء تصرفهم في العسر والتعقيد، والله أعلم.

---

(١)- أنظر: تيسير التفسير: ١٥/١٣٨، وما بعدها.

(٢) - رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، رقم ٥٣١٨.

وجوب السكن والنفقة للمعتدّة والمرضعة.

أ)- النص:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ
حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ
وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾: الضمير يعود إلى لفظ: "النساء" ولفظ: "الحوامل"، فيشمل بذلك المطلقة والحامل. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: ﴿مِنْ﴾: للتبعيض، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: بدل مطابق لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾. والوجد: هو الوسع والطاقة. ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾: المضارة: الإضرار القوي، ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾: اللام للتعليل، والتضييق [illegible] في المسكن والنفقة. ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: ﴿وَإِن﴾ [illegible] للمطلقات الحوامل سواء كان الطلاق رجعيا أو بائنا أو ثلاثا إلى غاية وضع الحمل. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾: أي أرضعن لكم أولادكم وهن مطلقات يدفع الزوج المطلق لها أجر الإرضاع ويتم ذلك بمعروف يأمر به بعضهم بعضا بما يكون في مصلحة الولد بلا مشاحة. ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾: ﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾: خطاب للآباء والأمهات، وذلك بالامتناع من الإرضاع أو المزايدة في الأجرة، فسترضع له مرضعة أخرى بالأجرة أو بدونها. ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾: ﴿لِيُنفِقْ﴾: لام الأمر بالإنفاق على

المطلقات للمرضعات، ﴿ذُو سَعَةٍ﴾: أي صاحب يسر وغنى، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾: أي ضاق وعسر، كل منهما ينفق على قدر وضعيته في الرزق، وفق ما قدّر الله له.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾: قرأ الجمهور بضم الواو، وقرأ روح عن يعقوب بكسرها.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان أحكام عدة اليائسة والصغيرة والحامل، ذكر الله تعالى أحكام النفقة والسكن للمعتدة مطلقة كانت أم حاملا، وفي حالة إرضاع المطلقة لولد الرجل بيّن الله ما يجب لها من الأجرة إن هي أرضعته وإلا أرضعته امرأة أخرى، وقد حرّض الله الطرفين على الائتمار والتشاور في ذلك بالمعروف ومراعاة الوضعية الاقتصادية للرجل في الإنفاق فقال تعالى: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ**﴾.

إنه التوكيد الإلهي لإقامة المعتدات في البيوت، فالضمير في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ عائد إلى المعتدات، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: للتبعيض، فيؤول المعنى إلى: أسكنوهن بعض مكان سكناكم وفق ما تستطيعونه حسب ظروف أحوالكم وقدر طاقتكم غير مضارّين لهن في النفقة والسكنى فتلجئوهن إلى الخروج من السكنى وسواء كان ذلك الإضرار بالتضيق في المكان أو بسوء المعاملة.

﴿**وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾: وخص المطلقة الحامل بالذّكر في وجوب الإنفاق، إذ قد تطول فترة الحمل فيتوهم أن يحدّد زمن الإنفاق، فأوجب الله النفقة حتى الوضع. وهل هذا الحكم عامّ فتجب النفقة والسكنى لكلّ مطلّقة ولو كانت مبتوتة؟، في ذلك خلاف فقهي تفصيلي.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾: وفي حالة وجود الولد بين الزوجين المطلقين، وتكفلت الأم المطلقة بإرضاع الولد، فلها على المولود له أجر إرضاعها إذا رضيت بذلك دونما إعنات أو قهر، بل أمر الله الأب والأم أن يتشاوروا ويتعاونوا في شأن الولد المشترك بينهما دون شقاق ونفور، وأرشد الله أن يكون تشاورهما فيه بالمعروف، وفسّره القطب بقوله: "والمعروف الأمر الجميل في الأجرة والإرضاع والكسوة والفراش والغطاء والدهن وغير ذلك مما يحتاج إليه الولد بلا مشاححة أو معاسرة من أحد الأبوين".

قلت: وذلك كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ (٢٣٣) وقال: ﴿وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢٣٣). وقد يحدث الاختلاف بين الطرفين بسبب أو بآخر فلا يضيع حق الطفل، بل على الأب أن يستأجر له مرضعة أخرى تقوم بشؤونه. وقال العلماء: إذا رفض الولد ثدي امرأة أخرى وجب الإرضاع على الأمّ. ويبقى الخلاف بين المفسّرين في معنى الإخبار الإلهي: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾، هل هو أمر للأب والأم؟، أو هو عتاب لكليهما على تشدّدهما وإعناتهما؟.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَآ ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾: إنه اللطف الرباني في مراعاة ظروف عباده، فلا إعنات ولا إحراج، بل هو اليسر والتسامح والإنصاف في مراعاة طاقة وقدرة المنفق، فمن وسّع الله عليه الرزق فلا يجوز له أن يضيق ويشحّ، ومن ضيق عليه فلا حرج عليه في أن ينفق على قدر طاقته، والله لا يكلف أحدا إلا بقدر ما آتاه من الرزق، ولكن في كل حالة بيده مقاليد الأمور فهو يفتح باب الرجاء ويعد بالفرج بعد الضيق وباليسر بعد العسر ووعده الحق وعلى العبد المؤمن أن يتوجه إلى مولاه ويلتمس منه العون والتوفيق في كل حين، والله أعلم.

وعيد العاتين عن أمر الله، ووعد الطائعين، والتذكير بقوة الله وعظمته.

أ) – النص:

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا
٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ
قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ١٢

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾: ﴿أيّ﴾ مجرور بالكاف وصارت بمعنى "كم" للتكثير، والمعنى: كم من أهل قرية؟، فهو مجاز مرسل من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ. ﴿عَتَتْ﴾: من العتو: أي التجاوز في المخالفة والعصيان. ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي في الدنيا والآخرة، وصيغة الماضي لتحقق الوقوع، والعذاب النكر: أي ليس بالمعتاد. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: الذوق: الإحساس مطلقا. والوبال: من وبل المرعى إذا كان عشبه وخيما ضارًا، والأمر هو الحال والشأن. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا، رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي العقول، نداء مضاف، ﴿الَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾: في موضع نصب نعت لأولي الألباب. والذكر: القرآن، و﴿رسولا﴾: بدل اشتمال من "ذكرا"، والرسول هو سيدنا محمد ﷺ، ويجوز أن يكون ﴿رسولا﴾ منصوبا على المفعولية لفعل محذوف تقديره: أرسل رسولا، ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾: الجملة نعت لـ"رسول"، ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾: حال. ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾: الجملة في موضع النصب حال من الضمير المنصوب في: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف تقديره: "هو الله". ﴿الَّذِي﴾: نعت، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: منصوب بتقدير فعل: ﴿خَلَقَ﴾، وقيل: بجواز العطف على ﴿سبع﴾. ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالجار والمجرور؛ لأنه حال من المعطوف.

ج)– أوجه القراءة:

﴿نُكُرًا﴾: قرأه نافع وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿نُكُر﴾ بضمتين وقرأه الباقون: ﴿نُكْرًا﴾ بسكون الكاف. ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء، وقرأه الباقون: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بكسرها، ومآل القراءتين واحد. ﴿نُدْخِلْهُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بنون العظمة، وقرأ الباقون: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالتحتية، على أنه عائد إلى اسم الجلالة من قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ﴾. ﴿مِثْلَهُنَّ﴾: قرأ غير عاصم بالنصب، وقرأ عاصم بالرفع على أنه مبتدأ.

د)– البيان والتفسير:

بعد أن شرع الله أحكام الطلاق ولواحقه مما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى ومن الأجر في حالة الإرضاع للولد، وحذر المؤمنين عن تجاوز حدود الله في ذلك، توعد الله وذكّر بالمصير البائس الذي ينتظر الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله فلم يطيعوا ولم يستجيبوا، ثم حرّض المؤمنين على التقوى ووعدهم بالغفران والرضوان وبحسن الرزق في نعيم الجنة مذكّرا بجليل علمه وعظيم قدرته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ

أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

إن ما تخلل أحكام الطلاق ولواحقه في هذه السورة من أنواع التحريض على التقوى والتحذير من مجاوزة حدود الله في ما شرع من أحكامه ثم ما أعقبه هنا من التحذير في الوقوع في ما وقعت فيه الأمم التي عتت عن أمر ربها ورسله من شر العاقبة وسوء المصير كل ذلك لتفادي الوقوع في مخالفة أمر الله باستثقال تلك التكاليف أو التهاون في تنفيذها، وهي تتطلب التضامن الجماعيّ على مستوى المجتمع المسلم كله، فأمر الزواج والطلاق لا يخصّ الأسرة وحدها، بل هو أمر يهمّ الأمّة كلّها، وبالتالي فأيّ تقصير وأية مخالفة عن أمر الله في هذا الشأن فإن الجماعة كلها تكون معرّضة لسخط الله ونقمته، ولذلك جاء هنا ذلك التحذير الجماعي بالتذكير بما حلّ بأقوام لقلة اكتراثهم بأمر الله فأصابهم من النكال الدنيويّ ما خسروا به حياة الأمن والاستقرار فذاقوا وبال أمرهم وما ينتظرهم من العذاب الأخرويّ أقسى وأشدّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢).

﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا، رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: فرّع الله على كل ما سبق من أنواع التكاليف، فرّع بهذا النداء الإيماني آمرا بالتقوى مرة أخرى بعد ذلك التحذير من مغبة التقصير والعتوّ عن أمر الله وجاء النداء بوصف: ﴿أُولِي الأَلْبَابِ﴾، أي ذوي العقول الراجحة التي تدعو إلى الإيمان بالله. وجعل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بدلا من: ﴿أُولِي الأَلْبَابِ﴾ للدلالة على أن الإيمان بالله ورسوله هو دليل على رجاحة العقل والكمال الإنساني وأنه يدعو إلى تقوى الله واستكمال مراتبه ودرجاته.

ويمتن الله على المؤمنين بإنزال القرآن الذي هو ذكر لهم، ومن دقائق التنويه بشخصية رسول الله ﷺ أن جعله الله في شخصه الكريم هو الذكر نفسه يمشي على

رحلين فهو الصورة الحية لهذا الذكر، كما وصفته أمنا عائشة ﵂: «**كان خلقه القرآن**»[1]، يتلوه بأمانة وإخلاص ويبلّغه للخلق ليتشلهم من وهدة الكفر والضلال إلى نور الهداية والصلاح وينتفع به الذين آمنوا تطبيقا لأحكامه واتباعا لنهجه في مواجهة شؤون الحياة.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾: ولمزيد من التنويه بالتقوى والمتقين عطف الله على إنعامهم بنور الذكر والصلاح والهداية وعده لهم بنعيم الجنة الخالد جزاء الإيمان والعمل الصالح، وعلى ذكر الرزق الدنيويّ الذي تكفل الله به للمتقين من عباده يأتي إليهم من حيث لا يحتسبون إشادة هنا بالرزق الأخرويّ بأنه أحسن الرزق لا يقاس به رزق الدنيا وهو من فيوض الله الرازق في الدنيا والآخرة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾:

تكرر لفظ الجلالة خبرا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو الله الذي خلق. ووصفه بالموصول للدلالة على عظيم قدرته وهو يربط موضوع السورة وتشريع أحكامها وإرشاداتها، تبيان قدرته وعلمه الشامل بالمجال الكوني الواسع على أننا نحن البشر من جملة خلقه، فمن الواجب علينا أن نخشاه ونطيعه ولا نتعدى حدوده، ولهذا الربط إيحاءاته في ضمير المؤمن؛ لأنه وإن كان لا علم له بهذه الحقائق الكونية لقصور علمه بما يحيط بالكون فإنّ إيمانه اليقيني بما ينطق به الوحي من أمور الغيب هو جزء من تصوره الإيماني الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر. يقول سيد قطب تعليقا على هذه الآية: "والإشارة إلى هذا الكون الهائل: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، يهول الحسّ ويوقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق

(١) – رواه أحمد في المسند، رقم ٢٥٣٠٢.

وسعة ملكه، تصغر أمامه هذه الأرض كلها، فضلا عن بعض ما فيها، فضلا على حادث من أحداثها، فضلا على دريهمات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة".[1]

قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، وأمر الله منه التكويني والتكليفي، وصيغة المضارع للدوام والتجدد والاستمرار، ومن الأمور التكليفية هذا الأمر الذي عالجته السورة الكريمة، فهو أمر عظيم تتردد أصداؤه بين السماوات والأرض، فلا يهوّن الناس من شأنه وهم يعلمون قدرة الله على كل شيء وإحاطة علمه بكل شيء.

فإنّ الذي أبدع هذا الكون الفسيح في أراضيه وسماواته مما هو مشاهد ومغيّب وهو القادر على تدبير أمر تلك المخلوقات العظيمة هو الذي يأمر بهذه الأحكام، وهو الذي يحيط علمه بظروف خلقه ويعلم ما يصلح لهم؛ فأمره أحق بالاتباع وهو أحرى بأن يعبد ويطاع.

والله أعلم.

(١)- في ظلال القرآن: ١٥٢/٢٨.

سورة التحريم مدنية، وآياتها ١٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في كتب السنة وكتب التفسير "سورة التحريم"، لما جاء في افتتاحيتها من عتاب الله اللطيف لرسوله لتحريمه أشياء على نفسه إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وهي مدنية وعدد آياتها اثني عشرة آية.

وتعدّ الخامسة بعد المائة في عداد نزول السور والسادسة والستّين في ترتيب سور المصحف الشريف، ويذكر الدكتور الزحيلي مناسبتها لما قبلها باختصار في ثلاث نقاط:

أ- افتتاح كل من السورتين بنداء النبي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

ب)- اشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء، الأولى لنساء الأمة كافة وفي الثانية: ذكر موقف بعض نساء النبي وكيفية معاملة النبي لهن.

جـ)- جاءت سورة الطّلاق في تحريم ما أحلّ الله بالطلاق وهذه السورة في تحريم ما أحلّ الله بالإيلاء وإنهاء خصومة نساء النبي وإفرادها بأحكامهن. [١]

- من محاور السّورة:

- بيان أن ليس لأحد أن يحرم على نفسه ما أحلّ الله لمرضاة أحد وما تضمنه من عتاب لطيف للنبي في ذلك.

- تنبيه نساء النبي إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه، وما وجهه الله من عتاب لبعض أزواجه بعد أن أطلع رسوله على ما حدث.

---

(١)- التفسير المنير: ٢٨/ ٣٠٠.

- بيان أنّ من حلف يمينا فرأى الحنث خيرا من برّها أن يكفر ويفعل الذي هو خير.

- إرشاد الناس إلى تربية أولادهم وأهليهم لوقايتهم من النار وإلى مبادرتهم للتوبة النصوح، مع التذكير بنعيم الآخرة وعذابها.

- ضرب مثلين من النساء الصالحات وأضدادهن من بالصالحات وأنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد.

- يقول عنها سيد قطب في التقديم: "وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ﷺ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض وبينهن وبينه، وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته ﷺ وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك، ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه".(١)

بيان بعض أحوال نساء النبي ﷺ.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ
مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ
أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا
بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ

(١)- في ظلال القرآن: ٢٨/١٥٧.

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾: الخطاب لرسول الله والاستفهام مستعمل في معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك. وليس معنى التحريم نسبة الفعل إلى كونه حراما، وحاشا للرسول أن يعمل ما حرم الله. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾: في موضع النصب حال من ضمير: ﴿تُحَرِّمُ﴾. ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾: ﴿فَرَضَ اللَّهُ﴾: بمعنى عيّن وبيّن. تحلّة الإيمان أي أسماء كفارة اليمين. ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾: مبتدأ وخبر. أي فيتولاكم بتأييده ونصره، وفيه استئناس للنبي من وحرة الملام. ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾: التقدير: واذكر، ﴿إِذْ أَسَرَّ﴾: أي أخبر بما يراد كتمانه. ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾: هي زوجه حفصة على المشهور، ومضمون الحديث تختلف فيه وفق الروايات. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾: ﴿نَبَّأَتْ بِهِ﴾: حذف المفعول، والتقدير: صاحبتها. ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: أي أطلعه الله بما جرى بين حفصة وعائشة. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾: مفعول: ﴿عَرَّفَ﴾ محذوف أي عرّف حفصة بعض ما أفشت به لعائشة وترك البعض استحياء وكرما. ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: جواب الشرط محذوف تقديره: يقبل منكما. ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾: أي مالت وانحرفت واستعمل الجمع: "قُلُوبُ" للاثنين طلبا للتخفيف وقيل: يجوز ذلك في كل ما ليس له في البدن إلا عضو واحد. ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾: الأصل: تتظاهرا، حذفت إحدى التاءات، أي تتعاونان عليه بما يسوءه، والخطاب لزوجه حفصة وعائشة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾: بضمير الفصل جواب الشرط: أي موعده وناصره. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾: الظهير أي أعوان وأنصار، جاء بصيغة المفرد لأنه على وزن: "فعيل" يستوي فيه الواحد والجمع. ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾: ﴿عَسَى﴾: هنا مستعملة في التحقيق. ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا﴾: خبر ﴿عَسَى﴾ وجواب للشرط. ﴿سَائِحَاتٍ﴾: أي مهاجرات. وقيل: بمعنى صائمات. ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾: البكر المرأة العذراء والثيب التي عرفت الزواج. كل هذه الأوصاف هي نعوت لـ"أزواج"، ولم تعطف الصفات الأوائل لأنهن يجتمعن في امرأة واحدة. بينما عطف "أبكارا" على "ثيبات" لأنهما لا يجتمعان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَرَّفَ﴾: قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأه الكسائي بتخفيف الراء. ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾: قرأ الجمهور بتشديد الدال مضارع: بدّل، وقرأه يعقوب: ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ﴾ بالتخفيف مضارع: أبدل.

د)- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ترد روايات مختلفة في سبب النزول، وأنه ﷺ شرب عسلا، وأنّ الآية نزلت في تحريم العسل، أما عند مَن مِن نسائه شرب ذلك العسل ومن تواطأ منهن عليه في الإدّعاء بوجود رائحة كريهة عنده حتى حلف أن لا يشربه مرة أخرى؟، فقد اختلفت الروايات في ذلك، ونقل الدكتور الزحيلي عن ابن العربيّ قوله في ذلك إذ قال: "إنما الصحيح أن التحريم كان في العسل، وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه وجرى ما جرى فحلف ألا يشربه وأسرّ ذلك ونزلت الآية في الجميع.

وقال: "أما ما روي أن الآية نزلت في الموهوبة (الواهبة نفسها للنبي) فهو ضعيف السند والمعنى، أما السند فرواته غير عدول، وأما المعنى فما يصح أن يقال: إن ردّ النبيء للهبة كان تحريمًا، بل هو رفض وللموهوب له شرعًا أن لا يقبل الهبة، وأما ما روي من أنه حرّم على نفسه مارية القبطية، كما ذكر الدارقطني عن عمر، فهو وإن قرب من حيث المعنى لكنه لم يدوّن في صحيح ولا نقله عدل". [1]

قلت: أما الحديث الصحيح الذي أشار إليه ابن العربي، فهو الذي أخرجه البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: **«كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحدا»**. [2]

وتذكر الرواية في السيرة أنّ النبي حرّم العسل أمام حفصة فأخبرت عائشة بذلك، مع أنّ النبيّ استكتمها الخبر.

والله أعلم أيّ الروايات يمكن أن تكون هو الذي وقع، وما أعقبه ذلك من غضب رسول الله حتى كاد يؤدّي إلى طلاق زوجاته. وأمّهات المؤمنين وإن كنّ مثالا للوفاء والطهر والإخلاص لرسول الله، فقد آخذهن الله بموقفين تحدث عنهما القرآن الكريم، ويوجّه الله الخطاب في ذكرهما إلى النبي مباشرة نظرا لدقة الموضوع وحساسية الآثار التي تنجرّ عليه.

الأولى: مطالبتهن النبي بالمزيد من النفقة بعد أن أفاء الله عليه من أموال الغنائم فنزلت آية التخيير في سورة الأحزاب فرضين جميعا بالبقاء مع رسول الله وطلب الدار

---

(١)- التفسير المنير: ٢٨/٥٠٣.

(٢)- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، رقم ٤٩١٢.

الآخرة.

الثاني: الغيرة التي دفعت بعض نسائه للجراءة عليه. فتواطأن عليه بما قصّه الله في مفتتح هذه السورة وكلتا الحادثتين أغضبتا رسول الله فهجر نساءه حتى همّ بتطليقهن.

ولكن الله كان أغير على رسوله فشرع من الأحكام ما جعل به حدًّا لتلك الفتنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

إنه العتاب اللطيف بعد ذلك النداء التعظيمي بصفة النبوة وهو نداء مؤثر إذ لم يحرم الرسول العسل على نفسه بمعنى التحريم الشرعي، فما يجوز لمؤمن أن يفعل ذلك بله رسول الله، وإنما المراد منع النفس عمّا حلّ مع الاعتقاد أنه حلال وقد سارع الرسول إلى ذلك المنع لأنه كان يكره الرائحة الكريهة، وقد ظن أنها من شربه ذلك العسل. وبيّن الله ما دفع الرسول إلى ذلك فقال: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، وفي ذلك تلطف برسول الله وبعض العزاء له، إذ أن ما فعله -وإن كان لا ينبغي له- فيه تجسيد لحسن معاشرته لأهله بتوخّي ما يرضيهن.

وفي التذييل بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، إشعار بأن هناك نوعا من المؤاخذة، ولكن الله تداركه بمغفرته ورحمته وهو استئناس لتلك المعاتبة اللطيفة في ترك الأولى بالنسبة إليه. وهل تحريم الحلال يمين يستوجب كفارة اليمين أم لا؟، خلاف بين العلماء مفصل في تفسير الأحكام.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:

ظاهر هذه الآية أن التحريم الذي كان من النبي كان مقترنا باليمين فبيّن الله أنه شرع للمؤمنين كفارة اليمين، وهي المقررة في سورة المائدة، فأرشد الله نبيه بأن يأخذ رخصه في كفارة اليمين المشروعة للأمة للحنث وليس في ذلك غضاضة له، وما أروع هذا الاستئناس بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، فهو مؤيدكم

على نفوسكم الضعيفة في مثل تلك الحالات الحساسة، وهو أعلم بما يصلح لكم، وهو الحكيم في أفعاله وتصرفاته.

وفي التدليل على ذلك شرح الله تفاصيل الحادثة فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

التقدير: اذكر، خطاب لغير معين، وكان إسرار النبي لزوجه حفصة والحديث هو تحريمه العسل أو تحريمه الواهبة أو غير ذلك مما جاءت به الروايات، وكان الله قد أطلع نبيّه على ما وقع وحين راجعها فيه واكتفى بذكر جانب منه تجملا وتحاشيا للإثارة والتطويل قالت له زوجه التي أفشت الحديث -وهي حفصة-: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا﴾. قال: أخبرني به الله العليم الخبير.

وفي وصف الذات العلية بالعلم والخبرة في مثل تلك المؤامرات المحبوكة تنبيه قويّ للساهين عن مراقبة الله في تصرفاتهم وإيحاء مؤثر لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من اليقظة والضمير الإيماني.

وفي دعوة حادة يتوجه خطاب الله إلى المرأتين المتواطئتين لتتوبا إلى الله بعد أن مالت قلوبهما عن الحق: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، والخطاب لعائشة وحفصة، كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة، وجواب الشرط محذوف، والتقدير: تقبل توبتكما، إذ مالتا عن الحق في تقصيرهما عن واجب التعظيم لرسول الله وكتمان سرّه وحرمانه مما يحب.

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾:

إنه تهديد مرعب وحملة شعواء تعكس مدى غيرة الله على رسوله، وهو يعيش تلك الضائقة المحرجة مع بعض أزواجه حتى تسامع الناس أنه طلقهن، وكان المؤمنون

يستعظمون ذلك ويهتمون باستقرار البيت النبويّ فلا مناص من تطييب خاطره وإيناس وحشته -وقد أوتي من مأمنه- كما يقول المثل. فلا عجب من ذلك الإعلان الرّباني وتوجيه الخطاب للمتسببين في تلك المضايقة.

إنه التأييد المطلق والنصرة الكاملة من الملأ الأعلى ومن صالح المؤمنين، كل ذلك لأجل تطويق تلك الفتنة من مكر امرأتين تعاونتا على ما فيه إذاية لرسول الله بسبب الغيرة.

وقد دلّت الآية اللاحقة بطريق الإيماء اللطيف على ما ينبغي أن تكون عليه نساء النبي من الصفات الحميدة التي تشرّف بيت النبوة ويرضاها الله لرسوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

إنه التحذير الرّباني من خلال تلك الحادثة لكل أزواج الرسول من الإساءة إلى زوجهن العظيم الذي تحمل أعباء الأمّة واختاره الله أن يكون بشرا رسولا، بشرا بكل ما في البشر من أحاسيس ومشاعر نفسية ورسولا متصل بالملإ الأعلى وتداركه عناية الله فلا تزلّ به قدم ولا تنال منه المكائد والدسائس.

إنها صفات يجب أن تتوفر في نسائه ممن يوفّر لبيت النبوءة طمأنينته وسعادته، والله قادر إن وقع من النبي طلاق أزواجه أن يبدله خيرا منهن ممن تتوفر فيهن تلك الصّفات الكاملة من الصلاح والتقوى. والكمال الإنساني، فلا أقسى على المرأة في وسائل ردعها من الطّلاق والعزم على استبدالها بغيرها.

تلكم هي التربية الإلهية لنساء بيت النبوءة وهن قدوة لنساء المؤمنين، عليهن بتأثرن بها ويساعدن أزواجهن على الاستقرار العائلي.

والله أعلم.

الأمر بالوقاية من النار، وبالتوبة النصوح والتحريض على جهاد الكفّار.

أ) - النص:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ
مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا
إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: ﴿قُوا﴾: فعل أمر من وقى يقي، حذفت منه الواو لوقوعها بين الياء والكسرة. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعول أول، ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾: معطوف منصوب بالياء، ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، وتنكيرها للتعظيم والتهويل، أي اجعلوا لأنفسكم وقاية من النار. ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: الوقود: ما توقد به النار، والمقصود من الناس العصاة من الجن والإنس، ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾: أي الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، والجملة في موضع نصب نعت لـ"نار". وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾: وهم الزبانية ملائكة العذاب. ﴿لَا

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾: التقدير: لا يعصون الله فيما أمرهم، والجملة في موضع رفع نعت لملائكة. ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾: وتعدية التوبة بـ"إلى" لأنها بمعنى الرجوع إلى الله، ووصفها بـ"النصوح" من النصح، وهو الإخلاص في القول والعمل، لم تلحقه تاء التأنيث لأنها على وزن "فعول" بمعنى "فاعل" وهو يلازم الإفراد والتذكير. ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾: صيغة الترجي من الله جزم يدل على وجوب الوقوع تفضلا منه تعالى للاطماع، على عادة الملوك في استعمال ذلك. ﴿أَنْ يُكَفِّرَ عَنكُمْ﴾: خبر عسى. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق: بـ﴿يُدْخِلَكُمْ﴾. ﴿لَا يُخْزِي﴾: من الإخزاء، وهو الإفضاح. بل يصير مكرما عند الله ينجيه من عذاب النار. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾: معطوف على النبي، ومعية المؤمنين أي صحبتهم للنبي، ويجوز في: "الذين معه" الرفع على الابتداء. ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى﴾: خبر، أي يتقدم النور أمامهم. ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾: أي من جهة اليمين. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾: أي بالسيف للكفار وبالحجة والإقناع للمنافقين وبالوعظ وإقامة الحدود.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نَصُوحًا﴾: قرأ الجمهور بفتح النون على معنى الوصف، وقرأه أبو بكر عن عاصم بضمّ النون على أنه مصدر: نصح، مثل القعود، من: قعد.

د)- البيان والتّفسير:

في أعقاب بيان الحادث الذي اهتز له بيت النبوة وأربك المجتمع المسلم في المدينة المنوّرة تأتي تلك الإرشادات والمواعظ تهيب بالذين آمنوا أن يقوموا بواجب التربية والتذكير لأهليهم وأن يجعلوا من أنفسهم قدوة لوقايتهم من النار. وهو يرسم لهم مشهدا من مشاهدها المرعبة ويؤيس الكفار من قبول أي اعتذار، ثم يدعو المؤمنين إلى التوبة النصوح التي تضمن لهم الجنة وتجعلهم في موقف المحشر المهول في هالة من

نور وهم يستعيذون ذلك بفضل الله. ثم يدعو النبي إلى جهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فقال تعالى: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**.

لا شك أن حادثة البيت النبوي قد تركت أثرا عميقا في نفوس المؤمنين وهم يرون إمامهم يجافي نساءه حتى همّ بطلاقهن لولا أن تنزل حكم الله وأنهى تلك المعاناة. ولله الحكمة في ما جرى ليستأنس المؤمنون بذلك في موعظة أنفسهم وأهليهم، فجاء هذا النداء الربّاني للمجتمع الإيماني يهيب بالمؤمنين ويشعرهم بالتبعة الثقيلة نحو أنفسهم وأهليهم، والبدء بالنفس في وقايتها من النار هو من أصول التربية الرشيدة على أساس القدوة الصالحة من الأبوين في تربية أولادهم، فالخطاب عام للرجال والنساء، فكل من الأب والأم تتظافر جهودهما في إقامة البيت المسلم على الأسس الدينية القويمة كما أمر الله ورسوله ليكون محضنا صالحا لذريتهما، إنها لمسؤولية ثقيلة سيما في مثل هذا العصر الذي تغلب عليه الجاهلية المادية الطاغية والذي صوّره رسول الله ﷺ بقوله: «**سيأتي زمان يكون الصابر فيهم على دينه مثل القابض على الجمر**»[1]، والوقاية من النار تعبير تصويريّ يعني التطبيق الكامل لمنهج الله في كل مجالات الحياة ويا ما أرعب ذلك التهويل بوصف النار وهي تتقد بالناس والحجارة، أي الكفار والأصنام التي كانت تعبد من دون الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٨).

ومما زاد في تهويلها أن يوكل بها ملائكة غلاظ شداد هم زبانية العذاب يأتمرون بأمر الله ولا يعصونه ولا يخالفون أمره إذ لا تتناهم شفقة ولا رحمة، ولا يأبهون باعتذار.

(١) – رواه الترمذي من حديث أنس، كتاب الفتن، باب ما جاء: «يأتي على الناس زمان...»، رقم ٢٢٦٠.

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: يقال لهم ذلك عند إدخالهم النار، والقائل هم ملائكة العذاب إمعانا في الإهانة لهم وتيئيسا من كل محاولة للاعتذار، لأن المجرم يكون له مطمع في إيجاد سبب للتخفيف مما حكم عليه، فإذا سدّت عليه الأبواب فإنه يستسلم ذليلا للأمر الواقع. والقصد من مماثلة الجزاء لحجم العمل تجسيد العدل الإلهي من جهة ونفي أي طمع في التخفيف؛ لأن الآخرة هي دار الجزاء ومجال التوبة.

والاعتذار لا يفسح للخلائق إلا في الدّنيا، ولذلك أرشد الله المؤمنين إلى التوبة النصوح فقال: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيءَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إنه النداء الثاني للمجتمع الإيماني يدعو إلى التوبة وهي الرجوع إلى الله رجاء التجاوز عن الذنوب ووصفه التوبة بالنصوح، أي الإخلاص في القول والعمل لله تعالى، وهي لا تتمّ إلا بثلاثة أمور:

الندم على ما فرط من الذنوب، والإقلاع عنها في الحاضر والعزم على عدم الرجوع إليها في المستقبل. فإذا استوفت توبة المؤمن تلك العناصر فهي مرجوّة من الله أن يكفّر بها السيئات ويعلي بها الدرجات في جنات الخلد: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وفعل: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله يفيد التحقيق، واختيار وصف الربّ للذات العلية في مثل هذا المقام يوحي باللطف والرحمة والإشفاق حتى لا يقنطوا من رحمة الله إذا أسرفوا على أنفسهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيءَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ثناء وتكريم للنبي والمؤمنين من الله، وهم يتلقون الكرامة في يوم

الخزي، إذ يجدون آثار إيمانهم وأعمالهم الصالحة في ذلك النور الذي تلقفهم هالته ويتميزون به في ذلك الموقف المهول، ليهديهم إلى طريق الجنة وفي ذلك الفوز العظيم، وذلك مقابل الخزي الذي يكون عليه الكفار والمنافقون مما استعاذ منه سيدنا إبراهيم والمؤمنون من بعده: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٧-٨٩). ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران:١٩٤).

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي يطلبون من الله الزيادة من ذلك النور بعد أن ضمنوا بقاءه معهم، كما طلبوا من الله مغفرة ذنوبهم، وأثنوا على الله بالعظمة والقدرة إذ ألهمهم ذلك الدعاء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: يندرج الأمر الإلهي للنبي بجهاد الكفار والمنافقين هنا في سياق التأمين الضروري للبيت المسلم، وهو الخلية الحية الناشطة في جسم المجتمع ككل. فإذا كانت المسؤولية في رعاية البيت المسلم تقع على الأبوين –كما تقدم– فإن مسؤولية الأمن الداخلي والخارجي للمجتمع المسلم تقع على إمام المسلمين، وإذا كان الكفار يمثلون التهديد الخارجي بجيوشهم وأنصارهم فإن المنافقين يمثلون التهديد الداخلي بمكرهم ودسائسهم، ولذلك جاء ضمهم في قتالهم، ومجاهدتهم بتوجيه الأمر في ذلك خاصة إلى إمام المسلمين –وهو المسؤول الأول عن رعيته–.

وتختلف وسيلة الجهاد للفريقين وإن ذكرهما الله في قرن واحد، فجهاد الكفار لا التباس فيه أن يكون بالحرب والسيف، أما جهاد المنافقين ففيه التباس، إذ لم يكن أحد من المنافقين معلنا بكفره، فتعيّن أن يكون جهادهم بالحجة والبرهان ومطاردتهم حيثما تواجدوا لإلقاء الرعب في قلوبهم، وقد أمر الرسول بمعاملتهم بالشّدة والقسوة كقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة: ١٢٣)، ثم تهدّد الله الفريقين بمسكنهم في النار وبئس المصير، والله أعلم.

أمثلة من النساء المؤمنات والكافرات.

أ)- النص:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ
عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى
مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾: ضرب المثل إجراؤه وإيضاحه وهو إثبات حالة غريبة تعرف بها حالة أخرى مشابهة له. ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: اللام تدلّ على العلة أي ألقى ذلك المثل لأجلهم أي قصدهم به وأعلمهم إياه. ﴿مثلاً﴾ و﴿امرأة﴾ مفعولان لـ﴿ضرب﴾. وقيل: ﴿امرأة نوح﴾ بدل من ﴿مثلاً﴾ و﴿امرأة لوط﴾ معطوفة. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾: معنى التحتية مجاز الصيانة، أي في عصمتهما. ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: الخيانة كانت في الدين والعقيدة لا في العفة الزوجية. ﴿شَيْئًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾: زيادة ﴿مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فيه تأييس لهما أن يشفعا بشيء من مكانة زوجهما عند الله. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾: فرعون –سمي به ملك مصر– وهو فرعون الذي أرسل إليه موسى، وليس بالذي تبناه في قصره، وتسمى هذه المرأة: "آسية بنت مزاحم"، وقيل: إن طلبها من الله بيتا في الجنة لأن فرعون حرمها من

الدفن في الحرم للمختص له. ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: ﴿مَرْيَمَ﴾: معطوف على امرأة فرعون ووصفها بالإحصان لنفي تهمة اليهود لها بالبغاء. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾: ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾: هي ما ألقاه الله إليها بطريق الوحي، وقيل: هي الكتب السماوية القديمة كصحف إدريس وإبراهيم، والكتاب -بالإفراد- إما للإنجيل، وإما معناه قدر الله وعلمه. ﴿مِنَ الْقَانِتِينَ﴾: أي المكثرين للعبادة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَكِتَابِهِ﴾: قرأ الجمهور بالإفراد، وقرأ حفص ويعقوب وأبو عمرو: ﴿كُتُبِهِ﴾ بصيغة الجمع، أي الكتب التي أنزلت قبل عيسى كالزبور والتوراة وكتب الأنبياء من بني إسرائيل.

د)- البيان والتفسير:

بعد حض المؤمنين على التوبة النصوح والتحريض على جهاد الكفار والمنافقين، ضرب الله مثلا للفريقين بنظرائهم في الحالين بطريق التمثيل لتركيز الموعظة بأن لا محاباة ولا شفاعة من نسب أو صهر في معاقبة المجرمين على كفرهم، كما تعاقب امرأة نوح وامرأة لوط إذ كفرتا بالله فلم تشفع لهما الرابطة الزوجية من عذاب الله شيئا، كما أن النساء المؤمنات في بيوت الكفار كامرأة فرعون وكمريم ابنة عمران في قوة إيمانهما ويقينهما هما المثال الكامل للإخلاص والوفاء لله تعالى مما يجب على المؤمنين والمؤمنات.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

ضرب المثل هو إلقاؤه وإخراجه ويتمّ بإيقاعه حالة غريبة تعرف بها حالة أخرى مشابهة لها، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: اللام تدلّ على العلة، أي لأجل الذين كفروا، وذلك بقياس حالهم على حال للمثل به وهو هنا امرأة نوح وامرأة لوط، وكلتاهما امرأة رسول. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾: أي كانتا في عصمتهما الزوجية، وقد أثنى الله عليهما بالصلاح والتقوى زيادة على شرف النبوة. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: أي خيانة في الدين والإيمان لا في العفة الزوجية.

أما امرأة نوح ﷺ فلم يعرض القرآن لخيانتها، ويرى بعض المحققين أن تلك الخيانة كانت بعد الطوفان. وأنها امرأة أخرى تزوجها نوح غير التي ركبت السفينة معه -والله أعلم- وأمّا امرأة لوط فقد كانت تدل قومها على ضيوفه ليقعوا بهم، وفي اختيار ذكر هاتين الزوجتين تعريض لطيف لأمّي المؤمنين، حفصة وعائشة في تمالئهما على رسول الله، وتحذير لهما من الاغترار بصلتهما الشريفة به، وأن ذلك لن يغني عنهما من الله شيئا، كما حدث لامرأة نوح وامرأة لوط، وحاشا أن توصفا بالكفر في ما صدر منهما ولذلك صرّح في التمثيل بالذين كفروا والذين جزاؤهم النار وبئس المصير.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

أعقب الله المثل الأول بالمثل الثاني للذين آمنوا للمقابلة بين الفريقين جريا مع أسلوب الترغيب والترهيب. فمثل الله للذين آمنوا بحال امرأتين صالحتين لم تضرهما مخالطة الكافرين، فمثّل لقوة الإخلاص والإيمان بامرأة فرعون، وتسمى آسية بنت مزاحم. قيل إنها من بني إسرائيل وكانت عمة لموسى ﷺ آمنت برسالته وصدقت بمعجزاته، فعذبها فرعون وحرمها من امتيازات الملوكية سيما الدفن في الهرم المخصص للفرعون ولذلك التجأت إلى الله راجية منه أن يعوضها بذلك بيتا في الجنة مع المقربين وأن ينجّيها من جبروت فرعون وأعوانه الظلمة الطغاة. ويتبين من خلال دعائها إيمانها

القويّ ربها وإيمانها باليوم الآخر؛ ولم تكن تكتم إيمانها تقية بل أعلنت به صراحة حين صدر منها ذلك الدعاء القويّ. وقد روى أحمد عن ابن عباس قال: «**خط رسول الله في الأرض أربعة خطوط وقال: أتدرون ما هذا؟، فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال الرسول: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**»[١].

وقال الله عن المرأة الصالحة الثانية: ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾: عطف على امرأة فرعون، أي وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران، وهي مريم العذراء البتول أمّ عيسى عليه السلام اصطفاها الله على نساء العالمين فعاشت حصانا صانت فرجها عن الفواحش وعافت الرجال، وقد قص الله قصتها في السورة التي سميت باسمها في القرآن، تعظيما لشأنها إذ ذكر فيه باسمها عدة مرات، ونسبتها إلى أبيها عمران فيه إبطال لعقيدة النصارى فيها. كما أن قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، وأن حملها من عيسى عليه السلام كانت بنفخة من روح الله –والله أعلم– بسرّها وكيف تمّت، وفي ذلك إبطال لمزاعم اليهود في رميها بالفاحشة. ثم أثنى الله عليها بصفتين حميدتين أخريين فقال:

أ– ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ**﴾: وكلمات الربّ هي ما ألقي إليها بواسطة الملائكة وهي متعددة في محرابها. وأما الكتاب –بصيغة الإفراد– يحتمل أن يراد به الإنجيل الذي أنزل على ولدها عيسى بعد أن جمعه الحواريون. وأما –بصيغة الجمع– فالإشارة به إلى الكتب السماوية القديمة كصحف إدريس وصحف إبراهيم، والله أعلم.

---

(١) – رواه أحمد في المسند، رقم ٢٦٦٨.

ب)- ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾: أي الصالعين في التقوى لمكثرين لعبادة ربهم.

وهكذا ينسجم ختام السورة ببدئها بضرب لمثلين من امرأتين صالحتين هما في القمة عند الله يضربهما الله لزوجي النبي ومن خلالهما للنساء المؤمنات في كل زمان ومكان لتحمل المسؤولية في تكاليف الدين والإيمان.

والله أعلم.

سورة الملك مكيّة، وآياتها ٣٠

- بين يدي السّورة الكريمة:

تسمّى السورة "الملك" لورود هذا الاسم في افتتاحيتها بعبارات التقديس لله وتعظيمه، ثناء على نفسه بما هو أهل له، وسماها النبي ﷺ: "سورة تبارك الذي بيده الملك"، أي بأول جملة وقعت فيها، وقد تختصر الجملة فتسمى: "تبارك الملك"، وفي حديث عن ابن عباس ﷺ: **«أن رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ قال له: ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان -أي دفين فيه- يقرأ سورة: "تبارك الملك"، حتى ختمها فقال رسول الله: هي المانعة هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر»**[١]. وكان ابن عباس يسميها -أيضا- المجادلة؛ لأنها تجادل عن قارئها في القبر.

وهي مكيّة؛ لأن أغلبها نزل في شأن أهل مكة، وآياتها ثلاثون، وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور، والسابعة والستون في ترتيب سور المصحف الشريف.

وموضوعها العام جار على سنن مواضيع القرآن المكيّ تعنى بأصول العقيدة الإسلامية وتتفرع إلى المواضيع الآتية:

أ)- بيان أدلة القدرة الإلهية بعد تمجيد الله والثناء عليه بما هو أهل له.

ب)- إعداد عذاب جهنم للكفار واعترافهم بضلالهم.

جـ)- بيان أنواع من الوعيد للمكذبين والعبرة بالأمم السابقة.

د)- تيئيس المشركين من التوكل على نصرة الأصنام وعلى أن ترزقهم ثم توبيخهم على كفرهم بنعمة الله واستعجالهم موت النبي ليستريحوا من دعوته؛ وإنذارهم

(١) - رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، رقم ٢٨٩٠.

بما قد يحل بهم من القحط إن هم تمادوا على غيّهم.

وفي تعليقه في مقدمة السورة يقول سيد قطب: "وهذه السورة الأولى -أي في الجزء التاسع والعشرين- سورة تبارك تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود، تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيّق وحيّز الدّنيا المحدود إلى عوالم في السماوات وإلى حياة في الآخرة، وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير، وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها، وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظّاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة في هذه الأرض، كما أنها تثير في نفوسهم التأمّل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين وهي تهز في النفوس جميع الصّور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها".(١)

بعض الأدلّة على القدرة الإلهية.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

(١)- في ظلال القرآن: ٢٩/١٨١.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾: ﴿تَبَارَكَ﴾: بمعنى تقدس وتعاظم وازداد خيره فهو مشتق من البركة، أي النماء والزيادة، أثنى الله بذلك على نفسه. ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾: الباء: إما بمعنى "في" للظرفية، وإما للسببية، واليد استعارة للقدرة والتصرف، و﴿الْمُلْكُ﴾: -بضم الميم- ضبط الشيء المتصرف فيه بتدبير ورعاية، ويأتي بمعنى السلطة والقدرة. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: قدم ذكر الموت على الحياة مراعاة لحالة الموجودات إذ كانت في حيّز الموت قبل الإيجاد. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: ليختبركم، فيه استعارة لإظهار الأمر الخفي وبين الموت والحياة طباق. ﴿أَيُّ﴾: اسم استفهام مرفوع بالابتداء. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبره ﴿عملًا﴾، منصوب على التمييز. ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: إما بدل أو نعت للعزيز. ﴿طِبَاقًا﴾: جمع: "طبقة" أو جمع: "طبق" وهو نعت لـ﴿سَبْعَ﴾. ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾: الخطاب لغير معيّن ورجع البصر تكريره برفعه إلى السماء. والفطور: جمع "فطر" أي شقوق وصدوع، والاستفهام تقريري، لأن "هل" فيه بمعنى "قد" تفيد تأكيد الاستفهام. ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: من الكرّة وهي العود إلى شيء بعد الانفصال عنه، ويراد بذلك التكرير والتكثير. ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾: ﴿يَنقَلِبْ﴾: مجزوم في جواب الأمر. ﴿خَاسِئًا﴾: ذليلًا صغيرًا منصوب على الحال. ﴿حَسِيرٌ﴾: كليل. ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾: ﴿رُجُومًا﴾: جمع "رجم"، ما يرجم به، فهو مصدر بمعنى راجم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾: أي هيأنا للشياطين عذاب جهنم مع عذاب الدنيا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾: هكذا قرأه الجمهور، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿مِن

تَفَوَّتٍ﴾: بتشديد الواو دون ألف بعد الفاء.

د)- البيان والتفسير:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: إنها افتتاحية مباركة تمجّد الله وتعظمه وتصفه بمنتهى الكمال كما يجب في حقه تعالى تنزيها لذاته العلية عن النقص الذي يفتريه عليه المشركون، إذ أن فعل: ﴿تَبَارَكَ﴾ يدل على المبالغة في وفرة الخير، فهو المالك الحقيقي لكل شيء والمتصرف في جميع الكائنات وله القدرة التامة على ذلك لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فلا يعتدّ بملك غيره مما يدّعيه الملوك والأمراء أو ما ينسب الناس إلى ملكيتهم من أنواع الممتلكات والأشياء، فإن ذلك وهم وباطل معرّض للفناء والزوال.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾: الموت والحياة ظاهرتان مألوفتان عند البشر وأنهما في الواقع حياتان وموتان، الحياة الدنيا والحياة الأخرى والموت السابق على الحياة الأولى والموت اللاحق بعده. وقد راعى النصّ القرآني الترتيب الطبيعي فبدأ بالموت؛ لأن المخلوقات كلها كانت منعدمة فأوجدها الله بقدرته كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨). ولما كان أكثر الناس في غفلة عما في تلك الظاهرتين من غاية وقصد جاء التعليل بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وفي ذلك معنى التكليف الذي تحمّله الإنسان، والمعنى أن ليس ذلك الخلق من الله لهوا أو عبثا، وإنما هو للابتلاء والاختبار لإظهار المكنون في علم الله من سلوككم وأحوالكم للناس على الأرض وما يترتب على ذلك من استحقاق الجزاء على العمل، ومن شأن هذا التصوّر إذا وعاه الناس واستقرّ في ضمائرهم فإنهم يكونون في يقظة وحذر فيتنافسون في تحقيق غاية وجودهم، ومن ثم يجيء التعقيب بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

ومع عزة الله وقوته وغلبته فهو الغفور المتسامح، لا يحمل عباده على العنت والقنوط، وهذه الآية والتي بعدها بيان تفصيلي لما ورد في افتتاحية السورة من الملك المطلق لله تعالى وتصريفه له، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

إنه الرّبط المحكم بين أجزاء الوجود في أرضه وفي سماواته، فإن كانت معلوماتنا عن الأرض متوفرة نسبيا فإنّ علمنا بحقيقة السماوات وأسرارها وأبعادها سيظل قليلا على الرغم من توسّع علم الفضاء في هذا العصر، فالله يخبرنا بما لا يزال غيبا، أنه خلق سبع سماوات طباقا أي بعضها فوق بعض على أبعاد متفاوتة، وحقيقة ذلك لا يعلمها إلا الله، غير أنه تعالى يدعونا إلى حسن التأمّل والنظر في بديع صنع الله خصوصا في السماوات، وهو يدعو إلى النظر بما يهيّء لنا من حاسّة البصر التي هي في متناول كل واحد منا، لنتملى جمال ذلك الصّنع البديع وهو يتحدانا أن نجد في صفحة السماء الصداعا أو شقوقا أو نلاحظ خللا أو نقصا، حتى ولو جدّدنا النظر مرة بعد مرّة لمزيد من التأمّل والاستكشاف فإن أبصارنا تعود كليلة ذليلة منبهرة من بديع صنع الله، والقرآن إذ تحدّانا بذلك الأسلوب المثير لا يقصد الغايات العلمية التي لا تتوفر إلا للعلماء المختصين وإنما يوجّه قلوبنا إلى الإيمان بعظمة الخالق وقدرته والباعث على خشيته وحسن طاعته كما قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:١٠١).

ولاشك أن المتجاوب مع هذه الآيات القرآنية إيمانا راسخا بأنه أنزل بعلم الله حقا وصدقا، فإنه يزداد يقينا بما يكشفه علم الفضاء اليوم من أسرار وعجائب هذا الكون الفسيح.

ثم يوجهنا المولى إلى تملّي جمال خلقه في السماء وهي مرصّعة بالنجوم

مسخرات بأمر الله فيقول: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

إن في هذا التوجيه الرّباني إشباعا للحاسّة الجمالية في نفوسنا، لأن الزينة والجمال دليل على التمام والكمال، فكلاهما مقصودان في خلق الله، ونحن -سكان الصّحراء- أكثر استمتاعا بجمال السماء لصفائها في أغلب الأوقات سيما في ليالي الصّيف إذ لا تحجبنا عن تملّي جمالها سقوف ولا جدران.

ولعلّ السّماء الدّنيا في التّعبير القرآني هي الأقرب إلى الأرض، وما المصابيح التي تزيّنها إلا تلك النّجوم المتلألئة على صفحتها كما نشاهدها نحن بالعين المجرّدة وهي تختلف في مواقعها فتتراءى لنا على أشكال مختلفة تأخذ أوضاعا مختلفة في أوقات الليل.

فسبحان المدبّر الحكيم الذي له الخلق والأمر كيف زوّدنا بالنظر التأمّلي وبالإحساس التذوّقي لنظام الكون وجماله لندرك من خلالهما قدرة خالق الوجود فنسمو بأرواحنا إلى ما وراء هذا العالم المشاهد عالم الغيب وما يخبئه من أسرار منها ما يعدنا به المولى من الجزاء كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات:٢٢).

كما جعلها الله مستودعا لراجمات الشّياطين عندما يحاولون استراق السّمع مما يقال في الملإ الأعلى أما كيف يتمّ ذلك فعلمه عند الله، وقد فصّل ذلك أكثر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾(الحجر: ١٦-١٨).

ذلك هو جزاء الشياطين في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار مع قرنائهم من الكافرين وهم شياطين الإنس.

والله أعلم.

وعيد الكافرين وتهديدهم مقابلة بوعد المؤمنين.

أ)- النص:

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ
فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا
قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: الجملة تتمة لسابقتها وقد لزّ الله الذين كفروا مع الشياطين في عذاب جهنم. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: للذم وهي في موضع نصب حال. ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾: الشهيق: تردد الأنفاس في الصدر يكون له صوت منكر كصوت الحمار، وهو استعارة شبه بها صوت جهنم في استعارها. وكذا قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾: ﴿تَمَيَّزُ﴾: أصله تتميز، حذفت التاء، و﴿الْغَيْظِ﴾: هو أشدّ الغضب، شبهت جهنم بإنسان اشتد به الغيظ على عدوه بأسلوب الاستعارة. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾: خزنة جهنم هم ملائكة العذاب يسألون الكفار سؤال توبيخ وتنديد. والنذير: أي الرسول المنذر من عذاب الله. ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾: نكرة في سياق

العموم لاستغراق العموم. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾: يحتمل أن تكون الجملة من قول الملائكة للكفار، أو تكون من قول الكفار لرسلهم. ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: ﴿بِذَنبِهِمْ﴾: جيء بالمصدر للدلالة على الجنس ليغني عن الجمع. ﴿فَسُحْقًا﴾: منصوب على المصدر ليغني عن الفعل. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: أي هم يخشونه من غير أن يروه أو يخشونه إذا غابوا هم عن أعين الناس. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾: يجوز أن تكون "من" في موضع نصب مفعولا به، ويجوز أن تكون فاعلا أي الله الخالق. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾: ﴿ذَلُولًا﴾: سهلة طيعة. ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أي جوانبها وأطرافها، استعارة بأطراف الإنسان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَسُحْقًا﴾: قرأ الجمهور بسكون الحاء، وقرأه الكسائي وأبو جعفر بضمّها.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان القصد الإلهي والغاية من خلق الموت والحياة في أول السورة ثم التعرّض لما أعده الله للشياطين من عذاب السعير بعد رجمهم بالشّهب في الدّنيا جاءت تتمة مشهد العذاب الأخرويّ عموما للكافرين بوصف أهوال جهنم وهي تفور وتتغيظ وهم يعترفون لملائكة العذاب بذنوبهم، وفي مقابل ذلك المغفرة والأجر الكبير للمؤمنين باختصار. ليعود الله إلى تهديد الكفار بأنه عليم بكل ما يصدر عنهم سواء أعلنوا به أو أسروه فهو الخالق العليم بخلقه، ومن لطفه ورحمته أن ذلّل لهم الأرض ووفّر أرزاقهم عليها، وقد أذن لهم بكسبها والانتفاع بها فقال تعالى: **﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾**.

لزّ الله في قرن واحد الشياطين والكفّار أي الإنس والجنّ الجاحدين بوحدانية الله والمكذبين برسله فإن مصيرهم جميعا إلى النار، ثم يرسم لنا مشهدا مثيرا وهم يطرحون في لهيبها المستعر وله في فورانه صوت منكر يصك آذانهم وهي تستقبلهم في غضب شديد تكاد تنقطع أوصالها بكظم ذلك الغيظ كما يفعل الإنسان المكظوم بعدوه. ويرد في القرآن مثل ذلك التصوير الحيّ لكائنات نعدّها نحن من الجمادات لا تتحرك ولا تحسّ ولكن الله تعالى أعلم بحقيقة ما خلق، ولكل كائن من مخلوقاته لغته التي يسبّح ويمجّد بها الخالق، ولكل منها تعبير للخضوع والإذعان لمشيئة الله وإرادته وقد أنطق الله البعض لرسله وهم بشر، فكيف لا تنطق لخالقها وهو أعلم بها؟.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ، وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾:

ولا يقلّ خزنة جهنم غيظا وحنقا على الكافرين منها، وهم كما وصفهم الله غلاظ شداد، وهي صفات تثير الرّعب وتهوّل موقف التعذيب، وهم يبادرون في توجيه أسئلة التوبيخ والتقريع لكل فوج من الكفار يطرح في جهنم: أما جاءكم في الدنيا نذير من الله يحذّركم من عذاب هذا اليوم؟. وليس أذلّ ولا أنكى على البائس المكروب من مضايقته بمثل تلك الأسئلة، وهو لا يستطيع إنكار ما اقترفته يداه، وقد جاء جواب الكفار انكسارا واعترافا بالغفلة والحمق والسفه بأنهم جاءهم ذلك النذير من الله، وخوّفهم من عذاب الله ولكنهم أعرضوا وكذّبوا في تبجّح واستهتار وأنكروا أن يكون الله قد أنزل على أولئك الرّسل شيئا من أمور الغيب بما يقع في الآخرة.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويكر الفم طعم الماء من سقم

ويوغلون في ضلالتهم باتهام رسل الله بالضلال الكبير على حدّ قول المثل، رمتني بدائها وانسلّت، ولكنهم رجعوا إلى أنفسهم فاتهموها بالغواية والسفاهة بعدم السماع والعقل تأكيدا لاعترافهم بالذنب، ولكن لات ساعة ندم.

﴿**فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾: إن إبعادهم من رحمة الله هو الجزاء العادل الذي يستحقونه بملازمتهم لجهنم، وفي الآية إشادة بالعقل إذا سخّره صاحبه في حسن السماع والإدراك للتمييز به بين الحق والباطل فيقود صاحبه إلى الإيمان الصّحيح.

وفي مقابل ذلك المشهد الكئيب للكافرين يعرض للمؤمنين صفحة وضيئة فيقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾، وخشية الله بالغيب تتمّ بالإيمان به والخوف من عذابه حال كونهم لا يرونه ولا يشاهدونه، أو أنهم يقومون بعبادته وطاعته بعيدين عن أعين الناس، وكلا الأمرين مطلوب من المؤمن الوفيّ يؤهله لذلك الجزاء العظيم يوم القيامة، بالمغفرة من الذنوب ثم بالأجر الكبير في جنات الخلد، وقد جاء في الحديث أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه بالدموع**».(١)

ثم يعود السياق إلى تكملة العرض لأحوال الكافرين فبعد ذكر أقوالهم في الآخرة وهم يواجهون عذاب النار انتقل إلى ذكر أقوالهم في الدنيا وهم يقصدون النيل من رسول الله فيقول بعضهم لبعض: تحدثوا سرّا حتى لا يسمع ربّ محمد ما تقولون، فخاطبهم الله بقوله: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾.

---

(١)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٦٠.

خاطيهم الله متحديا بقوله: سواء أخفيتم ما تقولونه أو جهرتم به فإن الله يعلم به بل هو يعلم ما توسوس به نفوسكم وما يتردد في ضمائركم من الخواطر.

ثم يدلّل الله على قدرته وإحاطة علمه بأحوال خلقه ظاهرها وباطنها فيقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، أي ألا يعلم ذلك وهو خالقكم وخالق تلك الصدور وما يتردد فيها من خواطر. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: أي العالم بدقائق الأشياء المطّلع على حقائقها. وتقرير هذه الحقيقة في الضمير الإنساني من شأنه أن يغرس فيه مراقبة الله في جميع التصرفات وينمّي خشيته في كل الأحوال والأوقات.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾: ومن لطفه تعالى بخلقه وفضله عليهم أن سخّر لهم الأرض وطوّعها لمنافعهم وسخرها كالدابة الذّلول في الانقياد لما يطلبون منها في استغلال خيراتها وكنوزها، ولا يزال الإنسان يسعى بكل الوسائل المتاحة لتيسير حياته على وجه الأرض وجعلها أكثر أمانا واستقرارا وأوفر أرزاقا، والله تعالى يمتن علينا بالتمكين وبإقرارنا على ذلك بما وفّر لنا من وسائل من جهة وبتطويع الأرض وتسخيرها لنا من جهة أخرى فما أروع الوصف للأرض بالذّلول، مثل الدّابّة الطيّعة التي تمتاز بالقوة والتحمّل، وتمتاز بالحركة والتنقل، وحسب الكشوفات العلمية لحركة الأرض وطبيعة تكوينها أن تبيّن في هذا الوصف الرّبّاني ما يزداد به المؤمن به يقينا وإيمانا بعظمة الخالق وقدرته، وهو يحرّض خلقه على السّعي الدّؤوب في جنبات الأرض لاستدرار خيراتها والاستمتاع بأرزاقها التي هي قدر مشاع للجميع وبذلك يظهر محك الابتلاء في هذه الحياة الدنيا وبعد ذلك الموت المقدّر لكل حيّ، وإلى الله المرجع وإليه المنتهى للحياة الأخرى للحساب والجزاء، والله أعلم.

توالي الوعيد والتهديد والتوبيخ للمشركين، ثمّ الدّليل على كمال قدرته تعالى.

أ)- النص:

ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن
يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ
﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا
عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: ﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾: الاستفهام للتوبيخ والتحذير، والأمن ضدّه الخوف. ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾: هو الله تعالى على ما يزعمه العرب أن الله في السماء، أو هم الملائكة الموكّلون بتدبير العالم. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾: الخسف هو الإذهاب في باطن الأرض، والجملة في موضع نصب بدل اشتمال من: ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: إذا الفجائية. ﴿تَمُورُ﴾: تضطرب وتهتز. ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: الحاصب: الريح الشديدة تحمل الحصباء ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي﴾: أي إنكاري على الأمم السابقة بإنزال العذاب. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ

وَيَقْبِضْنَ﴾: ﴿صَافَّاتٍ﴾: في موضع حال، لأن الرؤية رؤية العين ومعناه باسطات أجنحتهن في الهواء ضدّه: ﴿يَقْبِضْنَ﴾، أي قابضات أجنحتهن، وبينهما طباق، أي باسطات، قابضات. ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾: ﴿أَمْ﴾: للعطف. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في موضع رفع بالابتداء، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ ثان. ﴿الَّذِي﴾: خبره. ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾: صلته. ﴿يَنصُرُكُم﴾: في موضع رفع صفة: ﴿جُندٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول والمعنى: من يدافع عنكم إن أراد الله بكم سوءا. ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾: ﴿إِنْ﴾: تفيد النفي. الغرور: مخادعة النفس بالعجب. ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾: ﴿لَجُّوا﴾: تمادوا واستمروا في الطغيان والإعراض. ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾: ﴿مَنْ﴾: في موضع رفع بالابتداء. ﴿أَهْدَىٰ﴾: خبره. ﴿مُكِبًّا﴾، ﴿سَوِيًّا﴾: منصوبان على الحال، أي لا يستوي من يمشي متعثرا منكبا ومن يمشي معتدلا مستقيما يبصر طريقه.

ج)– البيان والتفسير:

بعد الاستدلال على قدرة الله وعلمه الشامل ورحمته بخلقه في تذليل الأرض لهم وتوفير الرزق انتقل النصّ إلى التخويف والتحذير بإشارة سخط الله عليهم حين يتمادون على كفرهم فيخسف بهم الأرض أو يرسل عليهم حاصبا يدمّر كل شيء كما فعل بالأمم السابقة التي كذبت برسلها، وبعد إلفاته النظر إلى قدرة الله في الخلق مرة أخرى يخاطب الله الكافرين بأسلوب التوبيخ والإنكار على اعتقادهم القوة والنصرة من الأعوان، وجلب الخير من الأصنام، ثم يعود إلى بيان كمال قدرته في خلق الإنسان وكيف زوّده بالحواس وكثّر نسله على وجه الأرض فقال جلّ من قائل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ، وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

إنه التخويف المرعب والناس في غفلتهم سادرون، وهم يمسكون بزمام تلك الدّابة الذلول يتهافتون على استدرار منافعها وقد يغفلون عن حق الخالق المنعم والمروّض البارع لتلك الدّابة، فما حيلتهم حين تجمح وتثور فتضطرب وتمور بالزلازل والبراكين، فمَن غير الله يستطيع تهدئتها وترويضها مرة أخرى. وقد جاء التعبير عن الذات العليّة، بـ"مَن في السماء"، وتعالى الله عن التحيّز في جهة أو مكان، ولكن التّعبير على ما كان يعتقده العرب أن الخالق في السّماء وقد أوّله السّلف بمعنى عذابه أو قدرته أو سلطانه، أو على تقدير المخلوقات التي في السّماء، وهي الملائكة المؤتمرون بأمر الله في تدبير شؤون الملك كما خسفوا قرى قوم لوط.

ثم يتابع الله ذلك التخويف: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: ﴿أَمْ﴾ للإضراب الانتقالي، ومعاناة البشر بالأعاصير والرّياح العاتية لا تقل عن معاناتهم بالزّلازل والبراكين، وكلها ظواهر يقف الناس إزاءها عاجزين مستسلمين، فلا يستطيع قيادها إلا الله العليّ القدير، ثم يقدم الله على ذلك مثالا بما أصاب به بعض الأمم السّابقة لتكذيبها برسلها فيقول: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. ويعرف المخاطبون من نزل بهم ذلك من أولئك الأقوام بما بقي لهم من الآثار بعد ذلك الخراب والدّمار، فلينظروا كيف كان إنكاري عليهم في تلك الغفلة والسهو عن الله وقدرته وجبروته؟.

وقد لفت الله الأنظار إلى تلك القدرة في بديع صنعه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

إنه التفنن البديع في أسلوب النصح والتذكير بالانتقال من التخويف والتحذير إلى لفت التأمّل والنظر في بديع صنع الله مما قد يكون مألوفا يسهو الناس عنه ولا يتدبرون ما فيه من عناية القدرة الإلهية، ومثال ذلك حركات الطير في جو

السماء كيف تمتطي متن الهواء فتبسط أجنحتها وتقبضها فتعلو وتنخفض وتغيّر اتجاهها كيفما تريد، وتختلف حركات التحليق من طير إلى آخر أحجاما وأشكالا في استعراض لا يمله النظر. وينبها خالق الطير إلى استجلاء قدرته في تدبير ذلك فقال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾. وفي اختيار صفة: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ هذه الظاهرة العجيبة معنى الرعاية والحفظ، وذلك بما أودعه من القوانين والنواميس التي تنتظم الوجود كله وتضمن توازنه وتناسقه.

وقد أقدر الله هذا الإنسان لضبط بعض تلك النواميس فامتطى بطائراته متن الهواء فقرب المسافات وطوى البعاد وقد امتن علينا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

وجاء التذييل بقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ تعليل لذلك الإمساك، يدلّ على كمال تدبيره وتقديره للأشياء، فلا خلل ولا تقصير، فالأرض وما عليها سابحة هي الأخرى في الفضاء الكوني في نظام متناسق مع الأجرام الأخرى، ما يمسكهن إلا الله، ونحن اليوم مع الكشوفات العلمية المختلفة في كل المجالات أكثر إدراكا لعظمة الخالق، وأشدّ إحساسا بإبداع صنعه إلا من أعماه الضلال والكفر.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾: عود إلى أسلوب الخطاب للكافرين وقد تمادوا في كفرهم وغرورهم إذ واجهوا تحذيرات الرسول بالاستخفاف والهزء، اغترارا بكثرة أنصارهم وقوة استعداداتهم، واعتمادا على ما تضمنه آلهتهم الباطلة من توفير الرزق كما يعتقدون، فبعد التخويف بالعذاب الذي يأتيهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم أضرب عن ذلك بـ"أم"، وانتقل إلى سؤالهم سؤال تعجيز الذي يؤول معناه إلى النفي فقال: من هو هذا الجند الذي يحميكم وينصركم من الله إن أراد بكم سوءا؟. طبعا لا أحد غير الله يستطيع ذلك، ولكن الغرور الخادع هو الذي يملي

لهم أنهم في أمن واطمئنان بها ويتحداهم ببطشه ونقمته، ثم يعقّب على معتقدهم في الرّزق بضمان أصنامهم في توفيرها لهم ودافعهم في ذلك الطّغيان والنّفور من الاهتداء بدعوة رسول الله قرة الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

فإذا كان السّعي إلى كسب الرزق مأمورا به شرعا -كما تقدم في الآية السّابقة- فإن تمكين الخلق من إيجاده وتوفيره معقود بإرادة الله وبقدرته وبديع صنعه في تسخير أسبابه الأولية والضرورية في أرض وفي سماء من ماء وهواء وتربة خصبة وبذور الحياة على اختلاف أنواعها وعلى أسرارها وألغازها، فمن غير الله قد وفّر تلك الأسباب، ومن بغير تدبيره يستطيع أن يضمن ذلك لسائر المخلوقات؟. وهم يعلمون ذلك ويعترفون به إذا سئلوا، ولكنهم يتمادون في غيّهم وضلالهم عنادا واستكبارا.

ومن غريب أمرهم أن يرموا رسول الله ومن معه بالضلال وعدم الفهم ويعتقدون أن ما هم عليه هو الحق والصواب، فجاء الرّدّ الإلهيّ مشهدًا حيًا يصوّر اختلاف الحالين بين الفريقين فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

إنه واقع المؤمن والكافر، فالكافر مثل الدابة تمشي منكبة الرأس إلى الأرض فهي لا تأمن العثار ولا تهتدي إلى الطريق السّويّ فهي في تيه وضلال.

وعلى عكس ذلك المؤمن، فهو بنور الله يبصر وعلى صراطه المستقيم يسير، مستقيم الخطى مرفوع القامة، لا يتعثر ولا يتيه، وتلك حاله في الدنيا والآخرة، فأيهما أهدى وأقوم سبيلا؟ فليس ينتظر في ذلك جواب، بل الاستفهام للتقرير والإيجاب.

والله أعلم.

التذكير بنعم الله، وأن الغيب من اختصاصه، والرّدّ على المشركين لدعائهم على النبيّ بالهلاك.

أ)- النص:

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ
زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾: ﴿أَنشَأَكُمْ﴾: من الإنشاء، وهو الإحداث للشيء بتكامل وتدرّج. ﴿السَّمْعَ﴾: مصدر: أي جهاز إدراك الأصوات. ﴿الْأَفْئِدَةَ﴾: جمع فؤاد، أي القلوب، وفي التعبير القرآني هي مراكز التفكير والإدراك. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: ﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر محذوف. ﴿مَا﴾ زائدة، والتقدير: تشكرون شكرا قليلا. ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿هُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبره، ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: من الذرا: وهو الخلق مع الإكثار والتوزيع. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾: ﴿مَتَىٰ﴾: خبر مقدّم. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ في موضع رفع بدل أو صفة، والاستفهام للتهكّم. ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾:

﴿الْعِلْمُ﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: زائدة. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: خبر. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ﴿فَلَمَّا﴾: الفاء فصيحة. ﴿لَمَّا﴾: للتوقيت. ﴿رَأَوْهُ﴾: الضمير للوعد، أي الموعود به وهو يوم القيامة. ﴿زُلْفَةً﴾: وجيء بالماضي في موضع المستقبل لتحقق الوقوع. ﴿زُلْفَةً﴾: مصدر: زلف، إذا قرب. ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ﴿سِيئَتْ﴾: ظهر عليها الحزن والكآبة. ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿فَمَن﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط. ﴿مَن﴾: في موضع رفع بالابتداء. ﴿يُجِيرُ﴾: خبره، بمعنى يمنع ويجير الكافرين. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أي أخبروني. ﴿أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾: أي غائرًا ذاهبًا في الأرض. ﴿غَوْرًا﴾: مصدر لا يثنى ولا يجمع. ﴿مَّعِينٍ﴾: إما فعيل، من معن الماء إذا كثر، أو هو مفعول من العين، أصله معيون أي يرى بالعين، والاستفهام إنكاري، أي لا يأتي به أحد غير الله.

ج) – أوجه القراءة:

﴿سِيئَتْ﴾: قرأ الجمهور بكسرة السين، وقرأه ابن عامر والكسائي بإشمام الكسرة ضمة، وهما لغتان في فاء كل ثلاثي معتل العين إذا بني للمجهول. ﴿تَدَّعُونَ﴾: قرأ الجمهور بفتح الدال المشددة، وقرأه يعقوب بسكون الدال، من الدعاء، أي تدعون الله أن يصيبكم به تهكمًا. ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾: قرأ الجمهور بفتحة على ياء: ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾. وقرأها حمزة بالإسكان، وقرأ الجمهور: ﴿مَعِيَ﴾ بفتحة على الياء، وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكونها.

د) – البيان والتفسير:

بعد خطاب الله تعالى للمشركين لتبصيرهم بالحجج والدلائل ولإقناعهم بعظمته وقدرته انتقل إلى مخاطبتهم على لسان رسوله إعلاء لشأنه في معالجة مواقف المشركين، فتكرر أمره تعالى لرسوله بالقول لهم خمس مرات متنوعة

يذكّرهم بمختلف النعم التي أنعمها عليهم مع الرّدّ عليهم بتخويفهم من عذاب الله حين طالبوا بتعيين وقت الحشر، وحين تمنوا إهلاك رسول الله ومن معه فقال: **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ، قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.**

بدأ الله التذكير بمصدر الخلق بالنسبة لوجود الإنسان، فهو لم يوجد نفسه فلا بد له من موجد، وتلك حقيقة لا يماري فيها الكفار، فهم يعترفون بالخالقية لله، وقد أثبت عملية الإنشاء لذاته العلية بصيغة الحصر ليرتّب عليها ما زوّد به هذا الإنسان من أنواع الحواس التي هي وسائل المعرفة التي تجعله أقدر وأرفع مخلوق يتحمل أمانة التكليف، فذكر الله على الترتيب السمع والأبصار والأفئدة، وذلك وفق ممارستها لعملها في ذات الإنسان إذ تبدأ حاسة السمع أولا ثم تليها حاسة البصر بقليل، وأما الفؤاد في التعبير القرآني فهو محطّ الإدراك والتمييز وهي السّرّ المكنون في ذات الإنسان لا يتفتق ولا ينمو إلا بعد فترة أطول في عمر الطفل، فأما قوة السمع والإبصار فقد استطاع العلم الحديث ضبط آليات عملها في حاستي الأذن والعين تجاوبا مع الدماغ، ويبقى سرّ الإدراك والعقل لغزا لم يتوصل العلم بعد إلى فك رموزه لأن ذلك من عالم أمره تعالى.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، إشارة إلى واقع أكثر الناس في عدم تقديرهم لتلك النعم، فهم لا يوفون حقها من الشكر باستعمالها في الصّلاح والتقوى وفي طاعة الله الواهب المنعم، فينهض بأمانة التكليف كما أمره الله، ثم بيّن الغاية من ذلك الخلق وأنها للابتلاء في الحياة الدنيا ثم يعقبه الجزاء ليوم الحساب فقال تعالى: **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.**

وبنفس الصّيغة ذكر الله الذرأ، وهو يحمل معنى الإكثار والانتشار، وهي منة أخرى قليلا ما ينتبه لها الخلق وهم معرّضون لكثير من الجوائح والأمراض، فلولا ذلك التكاثر والنموّ لتعرض النسل البشري إلى الزوال وهم لم يخلقوا للإهمال

والضّياع بل هو الابتلاء في الحياة الدنيا والجمع والحشر والرجوع إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء، ولكن المنكرين لذلك الحشر يسألون في تنطع واستهزاء: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

من حكمته تعالى أنه استأثر بعلم الساعة لأنه حدث يتخطى حدود المادة والزمان والمكان، والناس منذ وجودهم على ظهر الأرض يرددون مثل ذلك السّؤال على رسلهم ما بين مرتاب به شاك وما بين مؤمن بحدوثه ولكنه مستعجل قلق؛ لأنه لا يتقين بنهايته كيف تكون؟، ولو شاء الله لكشف الغطاء عن جانب من العالم الغيبي فلا يبقى في الناس شاك ولا متردد. ولكن أمر التكليف يفقد معناه وحقيقته، ومن ثمّ فإن من تمام حكمة الله أن يستأثر وحده بعلم ذلك اليوم، فلا رسول ولا ملك بقادر على تكهن وقوعه، والرسول تنحصر مهمته في الإنذار منه وبيان المسلك القويم في تجنب أهواله.

تلك الأهوال التي يستحضرها القرآن حتى لكأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء بالفعل وكان المنكرون له يواجهونه الآن: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾، فقد رأوه كما وصفه القرآن قريبا منهم مواجهتهم دون خيال ولا حيل بصرية مموّهة، فاسودّت وجوههم وعلتها سحابة من كآبة وحزن، زاد من حزنها ذلك التأنيب الشديد من طرف ملائكة العذاب: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾. أي هذا هو اليوم الذي تدّعون أنه لن يكون هو ماثل أمامكم. إنها الحالة النفسية للمجرم حين يشاهد حبل المشنقة وليس له عنها محيص.

ومن تمنياتهم السّخيفة الدّالة على التيه والحيرة أنهم كانوا يتربصون برسول الله والمؤمنين معه أن يهلكوا فيستريحون من دعوتهم فيأمر الله نبيه بأن يردّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ

مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي أخبروني: ماذا يفيدكم إن بقيتم على كفركم أن يهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو يرحمنا فلم يعذبنا، فهل تحسبون أن ذلك ينجيكم من عذاب الله؟، فأولى لكم أن تتدبروا أمركم وتحتاطوا لمصيركم؛ لأننا كلنا صائرون إلى الموت، والله وحده هو الباقي، وليس الأمر بيننا وبينكم، بل هو بينكم وبين خالقكم.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: بيان لموقف الرّسول والمؤمنين في تمسّكهم بعقيدتهم والتصريح بإيمانهم، لإعلان المفاصلة بينهم وبين المشركين الذين كانوا ينكرون صفة: ﴿الرَّحْمَٰن﴾، وفي اختيارها في هذا الإعلان الإيماني ما يردّ على تلك الشّبهة من جهة ويؤكد رحمة الله برسوله والمؤمنين معه فلا يهلكهم كما يتمنى خصومهم، بل هم بمنزلة القربى عنده إذ آمنوا به وتوكلوا عليه وحده، والله يأمر رسوله بأن يعلن عن ذلك تكريما وتعظيما، ثم يترك الخصوم يراجعون موقفهم أمام ذلك، ليتبيّنوا من هو في ضلال مبين.

وفي ختام السّورة يأتي التذكير بأعظم نعم الله على خلقه، وهو يأمر نبيه أن ينبّه المشركين تلميحا بعذاب الدنيا لو أراده الله لهم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾، أصبح الماء غورا بمعنى غائرا ذاهبا في باطن الأرض بخلاف "المعين" أي الفائض المتدفق، وهم لا يشكون في أن الماء هو مصدر الحياة وهو يجري تحت مشاهداتهم ويكون في متناول أيديهم فلو أراد الله أن يذهب به في باطن الأرض فهل يقدرون على إمساكه أو الإتيان به؟. وهم يعرفون أن كل ذلك جرى بقدرة الله وحده، فكيف تكون حالهم لو أذن الله بحرمانهم من ذلك الخير العميم؛ فمن سواه يقدر على إيجاده، ولذلك يحسن لمن يقرأ هذه الآية الخاتمة أن يقول بعدها: "يأتي به الله ربّ العالمين".

والله أعلم.

سورة القلم مكيّة، وآياتها ٥٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سميّت هذه السورة "القلم" في بعض المصاحف لافتتاحها بما أقسم الله به من قوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وقد تسمّى بحكاية اللفظين الأولين فيقال: "سورة ن، والقلم"، وقد يقتصر على تسميتها بسورة "ن" مثل سورتي: "ص"، و"ق". والأرجح على أنها مكية نظرا لموضوعها وأسلوبها، وهناك من الروايات ما يعد بعض آياتها مدنيا، وهي من أوائل القرآن نزولا، إذ عدّها الإمام جابر بن زيد الثانية بعد العلق، وبعدها نزلت المدثر والمزّمل، وهي في ترتيب سور المصحف الثامنة والستون وآياتها اثنان وخمسون آية تتمحور كلها حول تثبيت أسس العقيدة الإسلامية.

- بدأ الله بما أقسم به: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فجمع بين القلم والكتابة لما لها من شرف وقدر ومن منافع في نشر المعرفة والعلم.

- وأرفقت بخطاب النبي ﷺ للإشادة بعظيم خلقه وضمان أجره وثوابه العظيم مع إبطال مزاعم المشركين فيه وتهديدهم بما أعدّ الله لهم.

- ضرب المثل لكفار مكة بأصحاب الجنة وعزمهم على منع حقوق الفقراء والمساكين منه عند حصاد الغلل، وكان من نتيجة ذلك أن أحرقه الله وأتلفه بسبب جحودهم وكفرهم.

- وفي مقابل ذلك قارن بين المؤمنين والمجرمين إذ كان للأولين جنة النعيم وإن آلهة المكذبين لا تغني عنهم شيئا من عذاب الدنيا والآخرة.

- بيان أن ما فيه المشركون من بعض النعم إنما هو استدراج من الله وإملاء عساهم يتعظون ويرتدعون.

وفي ختام السورة يأتي الأمر لرسول الله بالصبر في تبليغ الدعوة وأن لا يضجر

وفي ختام السورة يأتي الأمر لرسول الله بالصبر في تبليغ الدعوة وأن لا يضجر في تحمل أذى قومه كما فعل يونس ﷺ فاستحق على ذلك عتاب الله.

كمال الأخلاق عند النبي ﷺ،

على عكس ذلك عند الكفار.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ
﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾
فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ
بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: قيل: إن ﴿نٓ﴾ من جملة المقسم به، وقيل: هو حرف من حروف المعجم مثل: "ص" و"ق"، فهو غير معرب. ﴿وَالْقَلَمِ﴾: أداة الكتابة، و"أل" للجنس. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يكتبون. ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾: ﴿مَا﴾: نافية، والخطاب للرسول تسلية له، بنفي الجنون عنه. ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾: الباء للملابسة أو السببية، والتقدير: انتفى وصف الجنون بسبب إنعام الله عليك. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: الأجر هو ثواب الله الجزيل، غير ممنون: أي غير مقطوع ولا منقوص، أو غير ممنون به عليك به. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: أي لديك الكمالات الإنسانية من كل أدب رفيع. ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَييِّكُمُ

﴿الْمَفْتُونُ﴾: ﴿بِأَيِّكُمُ﴾: قيل إن الباء هنا بمعنى: في، والتقدير: في أيّ فريق منكم النوع المفتون، وقيل: المفتون بمعنى الفتنة. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾: ﴿وَدُّوا﴾: أحبوا. ﴿لَوْ﴾: للتمني. ﴿تُدْهِنُ﴾: مشتق من الإدّهان أي الملاينة والمصانعة، فهم يحبون أن تعاملهم بالحسنى فيعاملونك بمثلها. ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾: ﴿كُلَّ﴾: لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد النوع الذي تضاف إليه. ﴿حَلَّافٍ﴾: الكثير الحلف في كلامه وهو كناية عن عدم المبالاة بالكذب. ﴿مَّهِينٍ﴾: حقير ذليل. ﴿هَمَّازٍ﴾: كثير الهمز أي الطعن في الأعراض بلسانه أو يده. ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾: أي الذي ينمّ بين الناس على وجه الإفساد. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي بخيل بماله لا يتصدق على الفقراء. ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾: يتجاوز الحدود في الظلم وهو سيء الخلق لئيم. ﴿عُتُلٍّ﴾: والعتلّ: مشتق من العتل أي الدفع، أي يغلظ على الناس بشدة، ويلاحظ فيه شدة الخلقة. ﴿زَنِيمٍ﴾: هو اللصيق الدعيّ في قوم وليس منهم. ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾: ﴿أَن﴾: التقدير "بأن كان"، أو بتقدير لام التعليل. ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾: نجعل له علامة على أنفه دليلا للمهانة والحقارة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَن كَانَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر، وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر بهمزتين محققتين، فهو استفهام إنكاري، وقرأه ابن عامر: بهمزة ومدّه بجعل الهمزة الثانية ألفا للتخفيف.

د)- البيان والتفسير:

قال تبارك وتعالى: ﴿نٓ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

بعض المفسرين يجعلون المقسم به مجموع قوله تعالى: ﴿نٓ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، على اعتبار تفسير: ﴿نٓ﴾ بأنه الدّواة كما ورد في بعض الأحاديث، ولكننا نرى مع المفسرين الآخرين بأن حرف: ﴿نٓ﴾ هو من سائر الحروف الهجائية المقطعة التي افتتحت بها بعض السور مثل: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾، وهي للتنبيه والتحدّي بأن القرآن الذي عجزوا أن يأتوا بمثله إنما هو مؤلف من تلك الحروف التي هي من لغتهم التي ينطقون بها، ويبقى المقسم به في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فالقلم هو أداة الكتابة المعروفة قديما وحديثا، فـ"أل" فيه للجنس، أقسم الله بالقلم وبالكتابة تعظيما لقيمتهما وشرف قدرهما، وفي ذلك توجيه وإرشاد لأمة ما تزال باعها قصيرا في مجال التدوين والكتابة. وقد شاءت إرادة الله أن تحيّي تلك الأمة لقيادة العالم في مجال التشريع والعلم والمعرفة فكان ذلك التنويه بشأن القراءة والقلم في سورة "العلق" وبشأن القلم والكتابة في هذه السورة، وذكر الأشياء المدونة بعد ذكر القلم إنما هو للإشارة إلى ما قرّره الله للإنسان أن يصل إليه في إبداعاته لوسائط الكتابة المختلفة في هذا العصر من طباعة ونسخ وتصوير إلى جانب الشبكات المعلوماتية.

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿**مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، انصبّ قسم الله أوّلا لينفي عن نبيه ما كان المشركون يؤذون به شخصه الكريم وهو رميه بالجنون، وكان ذلك يؤذي شعوره فكان لزاما أن يمحو الله آثار ذلك بمثل هذا النفي المؤكد مذكّرا إياه بفضل نعمته عليه والمتمثلة في النبوة والرسالة، وهي لا يمكن أن تجتمع مع صفة الجنون بل تدلّ على كمال العقل وسموّ النفس. وبعد النفي يأتي الإثبات لصفات هي في ذروة الشّرف والكمال:

أ)- ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: إنها عبارات التسلية والمؤاساة لقلبه الشريف تأتي بصيغة الخطاب مؤكدة قوية في أن له الأجر المتصل الدائم في ما يتحمّله من أعباء الرسالة وفي تبليغ أمانة الدعوة ومانح الأجر هو الربّ الذي لا يمنّ والذي لا تنفد خزائنه وها هو ذا يعلن عن شهادته الكبرى في التكريم والتعظيم لنبيّه فيقول:

ب)- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: إنها شهادة ربّ الوجود على نبيّه الكريم تعجز عن وصفها الكلمات وتهتز النفس تجاوبا مع ضمير الوجود وهي لا تعرف مدلولا للخلق العظيم إلا ما شرعه الله في كتابه وقد جسّده سلوكا وأخلاقا في شخص نبيّه كما دلّ على ذلك جواب عائشة ﵂ عندما سئلت عن هذه الآية فقالت: «**كان خلقه القرآن**»[1]، وكما لخّص ﷺ الهدف الأسمى من رسالته فقال: «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[2]. وقال في تعريف البرّ: «**البرّ حسن الخلق**».[3]

وبعد هذا الثناء الإلهي العظيم على رسوله يرد الله عنه ما يتهمه به الكفار من الجنون فيقول:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾:

---

(١)- تقدّم تخريجه: ص ٦٧.

(٢)- رواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي هريرة، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق، رقم ٢١٣٠١.

(٣)- رواه مسلم من حديث النوّاس بن سمعان، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم ٢٥٥٣.

جاء وصف: ﴿الْمَفْتُونُ﴾ من الفتنة، وهو قابل لمعان شتى مما يدل على الشقاء والعذاب مثل الجنون والضلال، والله تعالى يطمئن رسوله بفضحه وتعيينه فجاء بصيغة المضارع المقترن بالسين الدالة على التنفيس، مما يدل على أن ذلك سيتمّ في القريب العاجل، فقال تعالى: سترى أيها النبي وسيرى أولئك الكفار عندما ينصرك الله عليهم من ابتلي بالجنون حقا أأنت أم هم؟. ثم يعلل الله ذلك بإحاطة علمه بأحوال خلقه فهو يعلم أن نبيّه ومن معه من المؤمنين هم المهتدون وأن أعداءهم من الكفار هم الضّالون، وفي ذلك تسلية لرسول الله وتطمين لأصحابه.

ولمزيد من التثبيت والعزم على مواصلة الدعوة قال تعالى مخاطبا رسوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، يتعرض الدّاعية إلى ألوان من الضغوط وتواجهه كثير من العقبات والمثبطات، فإن ذلك من شأن المجتمع البشريّ وقد واجه رسول الله في أول دعوته من المكذبين له تلك الأساليب من الضغوط والمساومات فأرادوه أن يداهنهم في بعض ما يدعوهم إليه مقابل أن يعاملوه بالمثل؛ لأن المداهنة هي المصانعة والملاينة، وبما أن المشركين مهزوزو العقيدة لا يتمسكون فيها إلا بالمظاهر الجوفاء، فإنهم على استعداد إلى التخلّي عن الكثير عنها، أما أصحاب العقيدة الصّحيحة الثابتة فلا يلينون ولا يداهنون أبدا في أيّ مبدأ من مبادئها بأي ثمن، ولذلك جاء النهي عن طاعة المكذبين الذين أضفى الله عليهم أوصافا هي في غاية القبح والشناعة فقال: **﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ، مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾**.

إنها صفات تسع كلها تنضح باللؤم والخبث، وليس لازما أن تجتمع كلها في شخص واحد، بل تكفي الواحدة منها ذمًا لمن اتصف بها، والفائدة من تعداد تلك الأوصاف للمبالغة في التحذير من الوقوع في شراك المكذبين من باب قولهم: يعرف السمّ ليتقى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

﴿حَلَّافٍ﴾: كثير الحلف، وعادة لا يفعل ذلك إلا الذي لا يصدَّق في كلامه، وهو يدرك أن الناس لا يصدقونه ولذلك فهو يوثق أكاذيبه بكثرة الحلف.

﴿مَّهِينٍ﴾: حقير في ذات نفسه سواء في فكره أو تدبيره، وقد يتظاهر بخلاف ذلك فيتعاظم، ولكن سرعان ما تنكشف للناس حقيقته.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم.

﴿هَمَّازٍ﴾: أي يعيب الناس ويذكر معايبهم والهمز يكون باليد أو بغير ذلك من وسائل الطعن.

﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾: أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد علاقاتهم ويقطع أواصرهم، وفي ذلك وعيد شديد قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنّة نمّام**».[1]

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: لأنه أنانيّ لئيم، لا يريد أن ينتفع الناس بعضهم من بعض، وقد يراد به البخيل الشحيح بماله.

﴿مُعْتَدٍ﴾: أي يتعدّى حدود العدل والإنصاف فيعتدي على حقوق الناس ويحاول إذعانهم لقوته وسطوته.

---

(١)- رواه مسلم من حديث حذيفة، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم ١٠٥.

﴿أَثِيمٍ﴾: أي كثير الإثم والذنوب لا يراعي في تصرفاته إلا هوى نفسه ولا يخشى الله في سرّ ولا علن.

﴿عُتُلٍّ﴾: أي هو جافي الطبع غليظ الخلقة الذي يفتك بغيره في قساوة وشدة، كما شرحه ابن عباس.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: أي هو بعد كل تلك الصفات السيئة المتقدمة بارز العلامة في الشّر واللوم. والزنيم قيل: هو الملحق بغير نسب قومه، أي ولد الزنا، من الزنمة وهي ما يقطع من إذن البعير أو الشاة فيترك معلقا به، أي هو مكثر للشر حتى عرفه الناس به.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾: تقدّر لام التعليل وترتبط بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، أي من كان ما تقدم من طبائعه لكونه ذا مال وبنين أي مغرورا بكثرة أمواله وأولاده فهو يسفّه آيات القرآن ويقول عنها إنها أساطير الأولين من قول البشر، وفي تعيين الشخص المقصود بتلك الأوصاف خلاف بين المفسّرين، والأكثرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد هدّده الله بسوء المصير، وذلك بكيّ أنفه وإرغامه بما يذلّه ويهينه إن عاجلا أو آجلا، والأنف عند العرب هو مكان العزة والأنفة، والله أعلم.

قصّة أصحاب الجنّة، وبيان عاقبة البغي.

أ)- النص:

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ

اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾
قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾: الضمير يعود إلى أهل مكة، بلاهم الله بقحط السنين. ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: قيل: إنهم لعل كتاب وقيل: مشركون. ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾: أي حلفوا أن يقطعوا غلالها في الصّباح الباكر. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: بمعنى لا يقولون: إن شاء الله. أو بمعنى: لا يستثنون أحد للمساكين. ﴿مُصْبِحِينَ﴾: منصوب على الحال. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: أي أحاط بها وبأصحابها عذاب من الله في ظلمة الليل، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: جملة في محل نصب حال. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾: أي أصبحت كالشيء المقطوع. وصريم: بمعنى مصروم أي مقطوع. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾: أي نادى بعضهم بعضًا في الصّباح الباكر. مصبحين: منصوب على الحال. ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: تفسير لفعل تنادوا و﴿أَنْ﴾: مصدرية. والتقدير بـ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ بمعنى قاطعين للغلّة. ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾: قيل: الحرد هو القصد والسّرعة في التنفيذ، أي منع الفقراء من الصّدقة. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: أي لمّا رأوا جنتهم سوداء على تلك الحالة ظنوا أنهم تاهوا عنها، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: أي حرمنا ثمارها لما فعلناه من البغي.﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾: أي

أعدلهم وأرجحهم عقلاً. لولا: بمعنى هلا، للتحضيض على ذكر الله وشكر نعمه. ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾: دعاء بالهلاك وهو هنا يفيد الحسرة والندم. ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾: ﴿عَسَىٰ﴾: للرجاء أن يبدلهم الله خيراً منها بعد التوبة. ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾: مبتدأ وخبر.

ج)- البيان والتفسير:

بعد تنديد الله بعجرفة ذوي المال والجاه وتهديدهم بالذلة والمهانة بيّن الله في هذه الآية كيف يبلو عباده بالخير والشرّ وإن الابتلاء بالخير بمحض الإنسان ليتبين مقدار شكره لتلك النعمة. وقد ضرب الله مثلا لطغاة قريش بأصحاب جنة وافرة الغلال حرموا من خيراتها لما جحدوا النعمة بحرمان حق المساكين منها، فاتعظوا بذلك وأظهروا الحسرة والندم قال تعالى: **﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.**

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾: الضمير يرجع إلى كفار مكة، ابتلاهم الله بقحط السنين لدعاء رسول الله عليهم. ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: هم ورثة رجل صالح كان للمساكين حق في غلال جنته، وكان كفار قريش يعرفون قصته. وقد ضرب الله مثلا لبيان عاقبة البغي والبطر بأهل مكة في موقفهم المتعسف وجحودهم لدعوة رسول الله وغرورهم بالمال والجاه فهم أشبه بأولئك السذّج البسطاء من أصحاب تلك الجنة حين عزموا أمرهم مؤكدين ذلك بالقسم أنهم يقطعون ثمر بستانهم في الصباح الباكر. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي أنهم لم يقولوا: إن شاء الله، كما هو المطلوب من المؤمن، أو أنهم لا يستثنون حصة المساكين من تلك الغلة. ثم بيّن الله تعالى ما قدره لجنتهم فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي أنه تعالى أصابها ليلاً بجائحة أحرقت بستانهم بكامله بحيث ظهرت للناظرين كأنها مقطوعة الغلل تشبه سواد الليل. وقوله

تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي بتقدير من عند الله تعالى، وهم في غفلةٍ لا يدرون ما حدث بعد أن ناموا مطمئنين عازمين على تنفيذ خطتهم بكل حزم.

ثم بيّن الله تعالى ما كان منهم من التنادي في الصّباح الباكر لتنفيذ خطتهم فقال: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ، فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ، أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ، وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾، تنادى القوم في الصباح الباكر يحفز بعضهم بعضًا لعملية القطع ولكنهم كانوا يخفون نواياهم السيئة في حرمان حق المساكين من غلال تلك الجنة ظانين أنهم سوف ينتهون من عملية القطع قبل أن يشعر بهم أي مسكين والله تعالى يجازي عباده على قدر نواياهم. وقوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ وهم من تمام غرورهم وبغيهم يظنون أنهم قادرون على ما عزموا عليه من القطع وحرمان المساكين.

ولكن الله القويّ القاهر قد فاجأهم بما لم يكونوا يحتسبون إذ فوجئوا بالوضعية التي وجدوا عليها جنتهم إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

لقد ظنوا أنهم ضلوا إليها الطريق عندما شاهدوها على تلك الحالة المؤلمة من الاحتراق والسواد، ولكن الإنسان في مثل تلك المواقف قد يعود إلى نفسه التمامًا للحقيقة ولذلك علموا بعد تدقيق النظر ما حل بجنتهم وما كان السبب في ذلك فحكموا على أنفسهم بأنهم هم المحرومون جزاء نواياهم السيئة.

وفي تلك الحيرة قد يهتدي الإنسان الحصيف الرأي إلى الاعتبار والاتعاظ إذ كان من بينهم من كان لا يشاطرهم في تلك الخطة ولو كان قد مالأهم عندما خالفوه، قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ، قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

والوصف بالوسطية أطلقه القرآن على الأخير الأفضل يقول المفسرون: هو أحد الإخوة الثلاثة. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: الاستفهام للتقرير، و﴿لَوْلَا﴾: تفيد التحضيض، ولم يذكر مقول القول لإمكان الاستدلال عليه من جملة لاحقة، فقد حرضهم على تنزيه الله وشكر نعمه فما كان من الإخوة الباقين إلا أن اعترفوا له بأنهم قد نصحهم ولكنهم خالفوه ثم عبروا عن إقرارهم بذلك في قولهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. ولكنهم لفرط صدمتهم بما وقع أخذوا يتلاومون قال تعالى: **﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾**: أي أنهم استجابوا لنصح أوسطهم ولكن بعد فوات الأوان وما كان منهم إلا أن التجأوا إلى الله مستغفرين مسبحين معترفين بذنبهم.

ومع قساوة الشعور بالذنب لم يعدموا الرّجاء في الله أن يعوضهم بخير من جنتهم تلك، وهكذا تنتهي أحداث القصة بهذا الرّجاء الحار المخلص قال تعالى: **﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾**. وكذلك يكون شأن المؤمن الوفي عندما تزل قدمه فيرجع إلى الله بالتوبة والندم. وقبل نهاية أحداث القصة البديعة يأتي تعقيب الله عليها بقوله: **﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**، إنه تعالى يبتلي عباده بالنعمة كما فعل بأصحاب هذه الجنة عندما جحدوا حق الله عليهم فيما متعهم به من تلك الجنة، وهو نموذج من العذاب الدنيوي العاجل يستدرج الله به عباده لعلهم يتذكرون على أن عذاب الآخرة المعد للطاغين المتجبرين هو أشد وأعظم من عذاب الدنيا وليت الناس ينتبهون إلى هذه الحقيقة التي هي من سنن الله التي لا تتخلف إذًا لقل الفساد ولعم الخير والصّلاح وفي هذا عبرة للمؤمنين المستضعفين في مكة وهم يرون ما عليه المشركون من كبراء قريش من آثار النعمة بالمال فيدركون أن ذلك ابتلاء من الله له عواقبه ونتائجه، والله تعالى يمنيهم ويعدهم بما يدخره لهم من النصر والتمكين في الدنيا ومن نعيم الخلد في الأخرى، والله أعلم.

جزاء المتّقين، وإنكار التسوية بينهم وبين المجرمين.

أ)- النص:

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ
إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ
إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً
أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾: الاستفهام لإنكار التسوية، والكاف في موضع نصب مفعول ثانٍ لنجعل. ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: الاستفهام للإنكار و﴿مَا﴾: في محل رفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: خبره، ﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب على الحال بـ﴿تحكمون﴾. ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾: ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي في التوبيخ إلى الاحتجاج، والاستفهام المقدر بعد "أم" للإنكار، ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿كِتَابٌ﴾: مبتدأ، أي: لكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتختارون منه ما تشتهون مما يوافق أهواءكم. ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾: الاستفهام مستعمل في التهكم بعد الإنكار عليه، والزعيم أي الكفيل الضمين. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾: أي يعبدونهم ويشهدون لهم. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: الكشف عن الساق مثل يضرب لشدة الحال وصعوبة الهول فيسرع المرء كاشفًا عن ساقه للهرب. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي يطلب منهم السجود لإظهار الخضوع فلا يستطيعون ذلك إما لفوات وقته أو لعدم قدرتهم

على ذلك لأنهم في الأغلال. ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾: ﴿خَاشِعَةً﴾: منصوب على الحال، أي: هم أذلاء خاضعون.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾: قرأ ابن عباس بمثناة فوقية وبصيغة البناء للفاعل على تقدير: تكشف الشدة عن ساقها أو تكشف القيامة.

د)- البيان والتفسير:

بعد تخويف المجرمين بعذاب الدنيا العاجل قابل الله ذلك بأحوال المتقين السعداء، ثم ردّ على الكفار الذين يساوون بين المسلمين والمجرمين، فتوالت الاستفهامات الإنكارية لرد مزاعمهم والتهكم والسّخرية منهم مع التّهديد بأهوال يوم القيامة، فقال جل من قائل: **﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾**.

الخطاب للمشركين من طغاة قريش الذين يزعمون الأفضلية على المؤمنين اغترارا منهم بالمال والجاه، ويدعون أن يكون لهم مثل ذلك في الآخرة إن كانت هناك حياة أخرى، ولا أقل من أن يسوّي الله بينهم وبين المسلمين، فتوالت الاستفهامات الإنكارية لتلك الزعم مع التهكم والسخرية، وقد نفى الله التسوية بين الفريقين فلا يكون المسلمون المذعنون لربهم كالمجرمين المتكبرين إذ ليس ذلك من العدل ولا من العقل.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ، أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ، سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾:

إنه الرّد الإلهي بالأدلة العقلية والنقلية التي تنفي تلك المزاعم في تهكم وسخرية فتوالت الاستفهامات الاستنكارية:

أ)- ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: أي على أي أساس بنيتم حكمكم في التسوية بين المسلمين والمجرمين، فإن ذلك لا يستقيم في مبادئ العقل ولا في أسس العدل، وهو سؤال لا يكون له جواب إلا بالنفي القاطع.

ب)- ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾: ومن سؤال الإنكار إلى سؤال السخرية والتهكم أن يكون قد نزل عليهم كتاب من عند الله يقر لهم ذلك الإدعاء فهم يختارون منه ما يشتهون بما يوافق هواهم.

ج)- ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾: يتابع الله تفنيد مزاعمهم بقوله: هل لكم -أي المجرمون- عهود ومواثيق ثابتة لكم من الله سارية المفعول إلى يوم القيامة تقر لكم ما تحكمون وما تختارون لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله؟، كلا، فلا عهود لكم عند الله ولا مواثيق تستندون إليها.

د)- ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾: يأمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء المغرورين: من منهم يتعهد بذلك الادّعاء ويضمن تحقيقه لهم؟.

هـ)- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾: يتحداهم الله تعالى وهم يشركون به أن يدعوا شركاءهم مما يعبدون من دون الله بأن يقر لهم بتلك التسوية بين المسلمين والكافرين، فإن كان لهم هؤلاء الشركاء فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم؟. وهكذا يسدّ الله عليهم باب الادّعاء بتوالي تلك الاستفهامات الإنكارية.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾: أي

فليأتوا بأولئك الشركاء يوم يكشف عن ساق، والكشف عن ساق يراد به اشتداد الهول ليوم القيامة حيث يكون المشركون في هلع شديد فيحاولون الفرار فلا يستطيعون ويدعون إلى السجود والخضوع فلا يستطيعون لأنه لات وقت سجود أو لأنهم متقلون بالأغلال. وزيادة في توبيخهم قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾، أي أنهم أعرضوا عن دعوة رسول الله في الإيمان بالله والقيام على طاعته بما شرع من الأحكام سيما فريضة الصلاة وكانوا في حياتهم الدنيا في أتم الصحة وفي حرية الاختيار، ولكنه الكفر والجحود حال بينهم وبين ذلك، والله أعلم.

تهديد الكفار بأن يتولى الله حربهم، وأمره لنبيه بالصبر والتذكر.

أ)- النص:

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾: ﴿ذَرْنِي﴾: أي دعني وإياه فأنا الكفيل بأمره. ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾: أي القرآن الكريم. ﴿وَمَنْ﴾: في موضع نصب لأنه

معطوف على ياء المتكلم في ﴿وَذَرْنِي﴾. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: الاستدراج هو التقريب من العذاب درجة فدرجة. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: أي أمهلهم في إنزال العقاب. ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: أي تطلب منهم أجرة على تبليغ دعوتك لهم. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: أي يحملون بذلك الأجر مغرمًا يثقل كاهلهم. ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: ﴿الْغَيْبُ﴾: هو ما استأثر الله بعلمه فيكونون قد اطلعوا عليه فيحكمون به ويكتبون منه ما يقولون. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: هو يونس ﷺ إذ تعجل النصر فهرب عن قومه. ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾: أي أدركته رحمة الله فتاب من ذنبه. ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾: أي طرح على الأرض الخالية وهو ملوم، ﴿لَّوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود أي امتنع عنه عقاب الله لإقراره بالتوبة والندم. ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي اختاره نبيًا فعاد إلى قومه وختم الله له بالصلاح. ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾: ﴿إِن﴾: مخففة عن الثقيلة، يكاد: من أفعال المقاربة، ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾: أي ينظرون إليك نظرًا مشحونًا بالعداوة بحيث يكادون يصرعونك أرضا، والسبب في ذلك هو سماعهم بالقرآن، ويقولون حسدا: إنه لمجنون. بينما القرآن ذكر ورحمة للعالمين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَيَزْلِقُونَكَ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الياء، من فعل: زلق فلان فلانًا يزلقه أي أبعده ونحاه عن مكانه، وقرأ الباقون: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضم الياء، من فعل: أَزْلَقَهُ يُزْلِقُهُ.

د)- البيان والتفسير:

بعد تخويف الكفّار بأهوال يوم القيامة زاد الله تخويفهم وهددهم بأنه هو الذي يتكفل بحربهم وقهرهم، ثم أمر نبيه بالصّبر في تبليغ رسالته ولا يكون مثل

أخيه يونس ﷺ في ضجره وهربه من قومه. ثم بين الله تعالى موقف قومه عند سماع القرآن وأعلم أن القرآن الكريم هدى وموعظة وذكرى للعالمين، فقال جل من قائل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

فرّع الله تعالى عن التهديد السابق مزيدًا من الإنذار والتهديد بكل من يكذب بالقرآن الكريم بأنه تعالى هو الذي يتولى أمرهم ويتكفل بعقابهم فأمر رسوله أن يخلي بينهم وبينه وليتفرغ إلى تبليغ رسالته فلا يشغل قلبه لشأنهم، والله يستدرجهم في إنزال ذلك العقاب حتى يوقعه بهم من حيث لا يشعرون؛ لأنهم يظنون أن إنعام الله عليهم كرامة لهم ولكنه في الواقع ابتلاء واستدراج كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥،٥٦).

وقريب من معنى الاستدراج قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، والإملاء تمثيل لتأخير الانتقام ليزدادوا بذلك إثمًا حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ تمثيل لقسوة العذاب. وفي هذا التهديد للمشركين تسلية لرسول الله وأصحابه الأكرمين، فالله تعالى منزه عن الكيد الذي هو بمعنى الحيلة قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨).

وتلك هي سنّة الله فهو لا ينتقم من الظّالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم حتى إذا ما تمادوا وأصروا على غيّهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وقد يكون لخلقه دور في صراعاتهم وتدافعهم في معترك الصراع بين الحق والباطل ولكنه تعالى هو المقدّر وهو المدبّر الحكيم في إدارة تلك المعركة ليحسمها بما هو المقدّر في مشيئته، وكان الرسول وصحابته يومئذ في مكة مستضعفين، والمشركون في عزة قوتهم وجبروتهم، فأية سكينة يسكبها الله في قلوب تلك الفئة المؤمنة وهي تخطو

تلك الخطوات الأولى في مشوارها الجهادي الطويل؟.

ثم يعود السياق إلى التعجيب من موقف المكذبين فيقول: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ. أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: إنه الإمعان في التحدّي والتعجيب بعد التهديد الرهيب، استيضاحًا للأسباب التي جعلت الكفار يقفون من دعوة الرسول ذلك الموقف، وهو لم يكلفهم في دعوته مغرما يثقل كواهلهم، أم هم على اطلاع موثوق به بما في غيب الله بأنهم لا ينزل بهم عذاب ولا ينالهم عقاب، حتى لكأنهم الكاتبون لما تحقق لديهم من ذلك؟، كلاّ، لا هذا ولا ذاك. وهكذا ينهي الله جداله مع أولئك المتعلمين، وقد اطمأن الرسول وصحابته إلى وعد الله.

وليزيده تثبيتا واطمئنانا أمره بالصبر في تحمّل أعباء رسالته فقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فحكمه نافذ، وتدبيره لا يتطرق إليه خلل، والرسول الخاتم ﷺ يقدّر ثقل مهمته في كونه رسولا للبشرية جميعا، وقد بيّن الله تجارب الرسل من قبله، فما منهم إلا وقد تحمّل نصيبا من الأذى في تبليغ رسالته، ومنهم صاحب الحوت النبي يونس عليه السلام كانت تجربته مع قومه غير مقبولة عند الله عندما ترك قومه مغاضبا من عدم استجابتهم لدعوته فابتلاه الله بشدائد وأهوال حتى وفقه الله للإنابة والتوبة فعاد إلى قومه داعيا إياهم إلى الله فهداهم الله على يديه، وقصته قد فصلها القرآن، يذكر الله بها نبيه حتى لا يستثقل عبء الرسالة.

ثم تأتي خاتمة السورة لترسم طرفا من تعنت الكفار وانفعالاتهم عند سماعهم للقرآن: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا

الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ومعنى ﴿يُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾: تصرعك وتطرحك أرضًا بما تحمل من حقد وبغضاء عندما يسمعون القرآن حتى تكاد تلك النظرات تنال من معنويات رسول الله لولا تثبيت الله لقلبه الشّريف. وليتهم يكتفون بوخز تلك النظرات بل هم يؤذونه بالشّتم ويرمونه بالجنون. ويرّد الله عليهم بشهادته الحقة على حقية القرآن وقدسيته وأنه هداية لكلّ العالمين لا لجنس معيّن، وقد تحقق وعد الله وعلا صوت القرآن في كل الآفاق، وكفى بالله شهيدًا.

والله أعلم.

سورة الحاقة، مكية، وآياتها ٥٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت باسم "الحاقة" في المصاحف وكتب السنّة لافتتاحها بهذا الاسم، وهو من أسماء يوم القيامة تعظيما لشأنه وتضخيما لهوله. ولم يقع هذا الاسم في غيرها من القرآن، وهي مكية بالإجماع وآياتها اثنان وخمسون، وهي السابعة في ترتيب النزول، والتاسعة والستّون في ترتيب السور المصحف الشريف وتعنى ببيان أصول العقيدة الإسلامية، ومن محاورها:

أ)- تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به.

ب)- وصف بعض أهوال يوم القيامة وتفاوت أحوال الخلائق فيه بين السّعداء والأشقياء.

ج)- فظاعة عذاب الأشقياء.

د)- تعظيم القرآن وإثباته نزول الوحي.

هـ)- إنذار المشركين بتحقيق الوعيد.

تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به.

أ)- النصّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَاقَّةُ ① مَا ٱلْحَاقَّةُ ②
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ
⑤ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ

حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن
بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾: ﴿الْحَاقَّةُ﴾: مبتدأ. ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾: مبتدأ، وخبرها خبر للمبتدأ الأول. وإعادة الاسم للتعظيم والتفخيم وهي من أسماء القيامة أي واجبة الوقوع. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾: ﴿ثَمُودُ وَعَادٌ﴾: العرب البائدة و﴿الْقَارِعَةِ﴾: القيامة التي تقرع النفوس بأهوالها. ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾: أي الصيحة التي جاوزت الحدود في شدتها. ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾: أي شديدة الصوت باردة. ﴿حُسُومًا﴾: أي أيامًا متتابعة، منصوب إما نعت، وإما على المصدر. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: ﴿صَرْعَىٰ﴾: أي طرحوا أرضًا هلكى، وهو منصوب على الحال. ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾: أي أصولها وقد تآكلت وخوت. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾: الخطاب لغير معين. ﴿مِّن بَاقِيَةٍ﴾: أي من نفس باقية. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾: هي قرى قوم لوط، جاؤوا بالخاطئة أي فاحشة اللواط. ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾. أخذهم الله بالعذاب. ﴿رَّابِيَةً﴾: بمعنى زائدة في الشدة من الربا أي الزيادة. ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾: أي سفينة نوح عليه السلام. ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾: أي أذن حافظة مدركة لما تسمع.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾: قرأه الجمهور بفتح اللام وسكون الباء، وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب: ﴿وَمَن قِبَلَهُ﴾ بكسر القاف وفتح الباء. ﴿أُذُنٌ﴾: قرأ نافع 9

بإسكان الذال، وقرأه الباقون بضمّ الذّال.

د)- البيان والتّفسير:

قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، جاءت هذه الافتتاحية المثيرة بألفاظها القوية وفواصلها المدوية جاءت مناسبة لموضوعها الذي يتمحور أغلبه حول يوم القيامة وشدة أهوالها، فقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾، أي الحقيقة الثابتة التي لا شك في وقوعها، وما كان يوم القيامة من الأهوال والشّدائد بحيث تفوق كل تصوّر فقد جاءت في بيانها تلك الاستفهامات التي تبيّن تعذر إدراك كنهها زيادة في التهويل والتعجيب. فقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ بمعنى: إنك أيها المستمع للقرآن لا تعلمها بذاتك ولا بواسطة غيرك، فهي مقدمة مثيرة حقا تستفز الإحساس وتهيئ الأسماع إلى ما يعقبها.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾.

بعد تلك المقدمة المثيرة يعرض الله لقطات من مصارع الأمم الماضية التي كذبت رسلها. وفي إطار ذلك التكذيب تبرز قضية البعث وهي تشكل الركيزة العظمى في التصوّر العقدي الصّحيح، فكل من ثمود وعاد ليسا بخافيين عن العرب المخاطبين، إذ هما من قبيلهم، وإن بادت أصولهم، يعرض النصّ قصتهما عرضا موجزا بنفس الألفاظ والفواصل القوية مع نوع من التفصيل أكثر لأحداث قصة عاد بما يناسب المواقف المنكرة لكل منها، فثمود -وهم سكان الحجر من بلاد الحجاز- ذكر الله إهلاكهم بالطاغية وهي وصف للصيحة التي أخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وأما عاد فهم سكان الأحقاف وكانوا أكثر طغيانا وبطشا، فقد دمّرتهم الرّيح الصّرصر وهي القوية الباردة ذات صوت مزمجر. ووصفت هنا بالعاتية لتجاوزها حدود

التدمير والتخريب، إذ استمرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة حتى طرحتهم أرضا صرعى في جثث هامدة، شبهها الله تعالى بجذوع النخل الخاوية، وذلك لفراغة أجسامهم، ثم جاء هذا الاستفهام الدال على النفي من أن يبقى منهم أحد على قيد الحياة فقد استوصل نسلهم فلا ترى إلا مساكنهم للاعتبار، وكذلك كان شأن المكذبين الآخرين فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ، فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً، إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

والمقصود بفرعون هو فرعون موسى وقد فصّل الله قصته بما في القرآن، حتى أصبح مضرب المثل في الطغيان والجبروت والظلم، ومن قبله، ربما المقصود كل الفراعنة السابقين في مصر، ثم أعقبه الله بقوم لوط وهم المؤتفكات إذ انقلبت قراهم عاليها سافلها وكلهم أهلكوا بسبب خطاياهم.

وفي ملخص بليغ يذكر الله موقف تلك الأمم من رسولها، واختيرت صيغة الإفراد للإيحاء بوحدة الرسالات السماوية، وللعلم فعصت كل أمة رسولها، فأخذها الله أخذة رابية، أي العذاب الغامر الشامل، ثم يرسم الله مشهد الطوفان في إطار بديع مثير للرعب بتلاطم الموج وطغيان الماء، لا عاصم منه إلا من رحم الله.

وكان من لطفه تعالى برسوله نوح وبمن آمن معه أن نجاهم الله على ظهر السفينة، وكان من بديع الإيحاءات التعبيرية أن تحوّل الوصف إلى صيغة الخطاب: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، امتنانا منه تعالى على المخاطبين بإنقاذ أصولهم البشرية إذ تفرعت عن تلك الأصول كل الفروع التي قدّر الله بقاءها لعمارة الأرض من جديد وفي ذلك التدبير الإلهي الحكيم عبرة وموعظة لمن ينتفع بها تأملا وتذكرة.

وفي اختيار الأذن الواعية إشارة إلى فائدة سماع أخبار التاريخ، والله أعلم.

بعض أهوال يوم القيامة.

أ)- النص:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: الصّور هو البوق لغويا، وهو من أمور الغيب لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى. و﴿نَفْخَةٌ﴾: مرفوع نائب الفاعل والوصف بالواحدة للتأكيد. ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾: الدك: هو الدق الشديد للشيء، وحمل الأرض والجبال قلعها من أصولها لتكون أرضا مستوية. ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: العامل فيه فعله. ﴿وَقَعَتِ﴾: جاء بصيغة الماضي لتحقق الوقوع وهي تشتمل على جواب: "إذا". ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَاهِيَةٌ﴾: أي ضعيفة مختلة النظام. ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾: ﴿الْمَلَكُ﴾: للجنس، والأرجاء الجوانب والأطراف. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾: عرش الرب هو من الغيبيات التي نكل أمرها إلى الله، ولم يذكر المعدود أي من الملائكة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَا تَخْفَى﴾: قرأ الجمهور بمثناة فوقية، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالتحتية؛ لأن تأنيث "خافية" غير حقيقي.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر تهويل يوم القيامة في مفتتح السّورة وتهديد المشركين بعذاب الدنيا كما حلّ بأمثالهم من الأمم المكذبة برسلها فرّع الله عليه إنذارهم بعذاب يوم القيامة التي كذبوا بها فقال: **﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾**.

جاء التعبير في القرآن بالنّفخ في الصّور للإيذان بقيام السّاعة واختلال نظام الكون. وقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هو للتأكيد، وهي النفخة الأولى للصعق، ينتج عنها ذلك المشهد المرّوع لدقّ الأرض ونسف الجبال، ليصبحا على مستوى واحد فلا ترى عوجا ولا أمتا، فقد حان الموعد ووقعت الواقعة كما قدّرها الله فما كان لها من مستقدم ولا مستأخر.

ويصاحب ذلك الانقلاب في الأرض تشقق السّماء وانفراط عقد كواكبها وأجرامها: **﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ، وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾**، وبعد ذلك المشهد المرعب للدمار والخراب يدمج النصّ مشهد البعث والنّشور الذي يكون بعد النّفخة الثّانية فإذا بجلال الله وهيبة سلطانه يسودان الموقف، وقد حفّت صفوف الملائكة أرجاء السّماء، وخشعت الأصوات ودانت لعرش الله، تحمله ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم، والتّعبير بالحمل مجازي؛ لأنه تعالى يجلّ عن الحلول، وما العرش إلا كناية عن الهيمنة والسّلطان حسب ما هو متعارف بين الناس، ولا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، فيومئذ يكون العرض الكبير، والخلائق كلها مكشوفة لعلم الله في ظواهرها وبواطنها، لا يملك فيها الإنسان أن يستتر على شيء مما كان يتحايل فيه من أمور الدنيا، إنه يوم الكشف والفضح فلا مواربة ولا مداجاة، ولا يخفى على الله منهم شيء، والله أعلم.

حال الناجين الأبرار،

وحال الهالكين الكفّار يوم الحساب.

أ)- النص:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾: ﴿هَاؤُمُ﴾: اسم فعل أمر بمعنى: خذوا، والأصل فيه: هاكم. ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ﴾: أي أيقنت وعلمت. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: أي ذات رضى يرضى بها أصحابها. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾: أي ثمارها قريبة التناول للقائم والقاعد. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: ﴿هَنِيئًا﴾: منصوب على الحال، ﴿الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: هي الأيام الماضية في الدنيا بما قدموا فيها من العمل الصالح. ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾: ﴿يَا﴾: للتنبيه و﴿لَيْتَ﴾: تفيد التمني أن لم يعط كتابه أصلاً. ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾: يتمنى الكافر أن

تكون الميتة الأولى هي النهاية فلا يبعث بعدها. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾: ﴿مَا﴾: إما استفهامية فتكون في موضع نصب بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، ويجوز أن تكون نافية، أي لم ينفعني مالي في صدّ عذاب الله كما زال عنه نفوذه وجاهه. ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾: الأمر لملائكة العذاب أن يقيّدوا ذلك المجرم بالأغلال وأن يلقوه في جحيم النار، و﴿الْجَحِيمَ﴾: منصوب على الاختصاص. ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾: الحميم: هو القريب الناصر، والغسلين: هو ما يسيل من أجساد أهل النار. ﴿الْخَاطِئُونَ﴾: المذنبون.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْخَاطِئُونَ﴾: قرأ الجمهور بإظهار الهمزة، وقرأها أبو جعفر: ﴿الْخَاطُونَ﴾ بضم الطّاء بعدها واو، على حذف الهمزة تخفيفاً.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان الوصف المهول لأحداث يوم القيامة يعرض الله تعالى مشهد الناجين الأبرار وكيف تغمرهم السّعادة والسرور وهم يعرضون لمن حولهم صحيفة أعمالهم، ثم يقابله المشهد الكئيب للهالكين الكفار في تفصيل وتصحيح أكثر مما يناسب جوّ السّورة المثير فيقول تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.**

وإيتاء الكتاب باليمين سواء أكان حقيقة أو تمثيلاً فهو دليل الفوز والنجاة والجوار الذي يستحق به دخول الجنّة، فهو في غمرة السّرور والفرح يريد أن يعلن للأشهاد فوزه ونجاحه بعرض صحيفة أعماله عليهم ليقرأوها فيتأكدوا بفوزه ونجاحه حتى يتضاعف سروره بذلك لأنه قد حاز رضا ربّه، إذ كان في دنياه موقناً بيوم

الحساب، وأنه سيجازى على أعماله، ومن ثم يذكر الله شيئا من ذلك الجزاء، فهو في حالة نفسية مطمئنة راضية بما تتم لها من رضوان الله، وهو أعظم متاع ونعيم إلى جانب ذلك النعيم الحسّي من خيرات الجنة وثمراتها الدّانية القطوف في متناول الأيدي ويقال لهم تكريما وتشريفا: كلوا واشربوا هنيئا مريئا جزاء لكم بما قدمتموه من الأعمال الصالحة في حياتكم الدّنيا. وماذا عن الأشقياء الهلكى؟.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾. إنه النّدم والحسرة والأماني المستحيلة الكاذبة، وإيتاء الكتاب من الشّمال نذير شؤم وعلامة خزي تدفع صاحبها إلى الانعكاف على نفسه يوسعها حسرة وندما، متمنيا أن لو لم يعط ذلك الكتاب، ولم يكشف الحساب عما يسوءه، فبئس ذلك الموقف المفجع الذي يواجه فيه الإنسان قبح فعاله وسوء أعماله، وهو لا يملك في موقفه ذلك أن يبرّر ما صدر منه، بل ولا حتى الدّفاع عن نفسه، حتى يدفعه اليأس إلى طلب الموت كما قال المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وكذلك يكون شأن هذا المخدوع فهو يتمنى أن لو كانت الميتة التي ماتها في الدّنيا هي القاضية التي تنهي وجوده، ثم يتحسّر على الأيام التي قضاها في جمع المال، واغترّ فيها بالجاه والسّلطان، إذ لم ينفعه شيء من ذلك في كشف العذاب عنه.

وها هو الأمر الإلهي يصدر إلى ملائكة العذاب في جلاله وروعته: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾، يا للهول ويا للشقاء في ما يجسّده النصّ من ألوان العذاب والنّكال وقد ابتدرت الزّبانية ذلك الشقي بالأخذ الشديد والتكبيل بسلاسل الحديد، ولا يخفى ما في ذكر الأذرع السبعين من التهويل والتضخيم لما أعدّه الله للكافرين في عذاب الجحيم، وهو ما

يناسب قساوة الطباع والناس ما يزالون قريبي العهد بالجاهلية.

ويختم المشهد الرهيب ببيان أسباب ذلك العذاب: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ، لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾:

اقتصر البيان على ذكر سببين:

أ)- ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾: والإيمان بالله هو القاعدة والأساس في الدعوة الإسلامية بمكة، وقد خلا قلب هذا الشقي من الإيمان، وكل ما في الوجود يؤمن بخالقه ويسبّح بحمده إلا هذا الشقي فهو مقطوع الصّلة بربّه ولوصف العظمة للخالق وقعه المناسب في التعبير.

ب)- ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: أي هو عار من الرحمة بعباد الله، فهو لا يرحم ولا يحض على الرّحمة، وفاقد الشيء لا يعطيه، ويعطي ذلك انطباعا لما كان يسود تلك البيئة الجاهلية من غلظة وقساوة وامتهان للضعيف والمسكين، وكان الجزاء لهذا الشّقي مواتيا لجريرته بالحرمان من الطّعام النافع إمعانا في زيادة العذاب، وقد انفضّ عنه الأقرباء والأنصار، فلا ناصر ولا مغيث، كما حرم من الغذاء النافع إلا من غسلين، وهو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد، ولا يتناوله إلا الأشقياء من أمثاله الذين ارتكبوا الخطايا والآثام فنعوذ بالله من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة، والله أعلم.

إثبات حقية القرآن وصدق المنزل عليه.

أ)- النص:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ
قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا
مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم
مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ
رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾: ترد في ﴿لَا﴾ التخريجات المختلفة للغويين كما تقدم في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (الواقعة:٧٥). وأبسط ما قيل فيها: إنها زائدة للتوكيد لتحقيق القسم. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾: الضمير عائد إلى القرآن، وإضافة القول إلى الرسول محمد ﷺ؛ لأنه هو الذي بلغه عن الله، فهو قوله تعالى أجراه على لسان رسوله. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾: ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الصفة لمصدر محذوف تنزيه للرسول عن الشاعرية والكهانة. ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف. ﴿هُوَ﴾، أي القرآن. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾: ﴿تَقَوَّلَ﴾: نسبة القول إلى من لم يقله. و﴿الْأَقَاوِيلِ﴾: جمع أقوال، أي الأقاويل الباطلة. ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾: أي بالقوة إهانة له والباء للسببية. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾: ﴿الْوَتِينَ﴾: شريان الدم الذي يغذي الجسد إذا قطع مات الحيوان. ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾: أي لا يستطيع أحد منكم منع ذلك عنه. ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أي القرآن. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ، وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: أي يتحسر المكذبون بالقرآن في الدنيا والآخرة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾: قرأها الجمهور بالمثناة الفوقية، وقرأها ابن كثير وهشام عن ابن عامر ويعقوب بالياء التحتية على الالتفات من الخطاب إلى

الغيبة.

د)- البيان والتفسير:

على بيان أهوال يوم القيامة وذكر أحوال الناجين والهالكين وما أعدّ للفريقين في كل من الجنة والنار وهي كلّها من أخبار الغيب لا تعرف إلا عن طريق الوحي جاء ختام السورة تنويها بشأن القرآن الكريم وإشادة بصدق رسول الله ونفيا لما يفتريه عليه الكافرون فقال جلّ من قائل: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لا تُبْصِرُونَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. لقد تقدم القول في معنى قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾، مع القول بأنّ ﴿لاَ﴾ زائدة، أي لا حاجة تدعو إلى القسم في هذا الأمر الواضح، والله يقسم لخلقه بكافة مخلوقاته مما هو مشاهد لديهم ومما غاب عنهم من الفضاء الكوني الفسيح في الوجود كله من مادة وما وراءها، ولئن اكتشف العلماء كثيرا من أسرار المادة بما سخروه من مختلف الآلات وتبيّنوا من خلالها عظمة الخالق وقدرته، فإن ما يزال خفيّا محجوبا هو أعظم بكثير، ذلك في عالم المادة، فما بال عالم الروح الذي قال عنه تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥).

يقول الدكتور زغلول النجار في كتابه القيم: (الآيات الكونية في القرآن الكريم)، يقول بعد أن قسّم العالم إلى عالم الشهادة المنظور وإلى عالم الغيب غير المنظور: "الغيب قسمان:

أ)- غيب مرحلي: لا يراه الإنسان بطريقة مباشرة، ولكن يكتشفه على مراحل متتالية مع اتساع دائرة علومه وبحوثه. ومن أمثلة هذه الغيوب المرحلية ما كشفه العلم من حقائق وظواهر لم تكن معروفة من قبل في مجال الأنفس والآفاق وتطبيقاتها العملية في مختلف المجالات.

ب)- غيب مطلق: لا سبيل للإنسان في معرفة شيء منه إلا عن طريق وحي السّماء، فقد استأثر الله بعلمه أو اختصّ نفرا من خلقه بطرف منه، وإن بقيت الغالبية الغالبة منه في علمه سبحانه وتعالى، ومن هذه الغيوب المطلقة الذات الإلهية والملائكة والرّوح، والسّاعة والبعث والجنة والنّار وغير ذلك".[1]

قلت: وفي مجال الغيب المرحليّ يقول تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة:٢٥٥). والآية تؤكّد أن عين الإنسان محدودة المجال في حاسة البصر لا ترى كل شيء إلا بقدر ما يحتاجه الإنسان لعمارة الأرض.

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، والضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود إلى القرآن، ولم يضف إليه القول بصفته الشّخصية بل بصفته رسولا مبلغا عن الله، وقد وصفه الله بـ"كريم" شهادة من الله على صدقه وأمانته. وبما أن المكذبين به يلفقون له أوصافا كاذبة للتشويش على دعوته فيصفونه تارة بالشّاعرية وتارة بالكهانة، وكل منها لها خصائص معينة عندهم فقد نفى الله عنه نفيا مؤكّدا تينك الصّفتين، ففي الشّاعرية يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ (سورة يس:٦٩). وفي الكهانة يقول: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٠- ٢١٢).

والجاهليون يعتقدون أنّ لكلّ شاعر رئيا يلازمه ويوسّع من تصوراته وخياله، كما أنّ لكلّ كاهن شياطين من الجنّ يطلعونه على بعض الغيبيات، وهي كلها أوهام باطلة لا تناسب مع حقائق القرآن وإعجازه وبلاغته ولذلك جاءت شهادة الله بحقّيته وأنّه تنزيل من ربّ العلمين، والرّسول مؤتمن في تبليغه بأمر الله وقد تكفّل بحفظه وعصمة رسوله من شرور النّاس.

ثم أكّد الله بأنه لا يستطيع أحد أن يفتعل القرآن من عنده ولو كان محمدا نفسه

(١)- الآيات الكونية في القرآن الكريم: ٤/١٩١- ١٩٢ (بتصرف).

فإنه يتهدده تعالى بالحق والهلاك إذ قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾. والتقوّل معناه اختلاق القول افتراء وكذبا، والأقاويل جمع أقوال، ويغلب أن تكون في الأقوال الكاذبة، والمعنى أنه لو فرضنا أنّ محمدا تقوّل القرآن من عنده كما تدّعون، ونسبه إلى الله كذبا، لانتقمنا منه وعاجلناه بالعقاب بأن نأخذ منه باليمين، وهو كناية عن التمكن والغلبة والبطش، ولقضينا على حياته بأبشع صورة للقتل وهي الذبح بقطع عروق الرأس كما يفعله الطغاة بخصومهم، فلا يملك أحد أن يمنعنا من ذلك فيرد نقمتنا عليه إن صدر منه كذب علينا -حاشاه-.

وترد هنا إشكالية من ادّعى النّبوة مثل الأسود العنسي ومسيلمة الكذّاب وسجاح وغيرهم كيف لم يعجّل الله الانتقام منهم، بل أمدّ لهم حتى فتنوا الناس فنجد الإمام ابن عاشور يجيب على هذه الإشكالية إجابة معقولة إذ قال: "فأمّا من يدّعي النّبوة دون ادّعاء قول أوحي إليه فإن الله قد يهلكه بعد حين كما كان في أمر الأسود العنسي الذي ادّعى النّبوة باليمن ومسيلمة الحنفي الذي ادّعى النّبوة في اليمامة، فإنهما لم يأتيا بكلام ينسبانه إلى الله تعالى، فكان إهلاكهما بعد مدة".[1]

وفي ختام السّورة ينوه الله بشأن القرآن الكريم ويقول: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ، وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، فالضمير يعود إلى القرآن، وتعليق التذكرة بالمتقين لأنهم بتقواهم يدركون عظمة القرآن ويتجاوبون مع نصوصه ويتبينون مزاياه، فلا تعتريهم الغفلة.

وقبل متابعة الأوصاف الحميدة للقرآن، تأتي الجملتان: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم

(١)- التحرير والتنوير: ١٦/١٤٧- ١٤٨.

مُكَذِّبِينَ، وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، والمراد بالإخبار بعلم الله أنه تعالى راصد لأحوالهم فمجازيهم عليها فيكون القرآن حسرة عليهم يوم القيامة حين يرون ثواب المؤمنين المصدقين بهديه، بل يكون القرآن حسرة على المكذبين به في الدنيا حين يقدّر الله نصرته وتطبيق أحكامه وانتشار نوره في مشارق الأرض ومغاربها، فإنّه الحق الثابت الذي لا ريب فيه حباك الله به أيها الرسول.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: تفريع على ما سبق خلال السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن ومن التنزيه لمقام الرسول، والتسبيح هو تنزيه الذّات العلية عن كل النقائص بالاعتقاد والقول وبالتّطبيق العملي.

والتّسبيح باسم الرّب هو أن تقول: سبحان الله العظيم، ومع ذلك فإنّ العبد لا يبلغ أبدًا الشّكر الحقيقي لما أغدق الله عليه من النعم، وللحمد في ذلك على إخلاص النّية والقول، وختام السّورة شبيه بختام سورة الواقعة.

والله أعلم.

سورة المعارج مكيّة، وآياتها ٤٤

- بين يدي السّورة الكريمة:

تسمى في أغلب المصاحف وفي كتب السنة بسورة المعارج، لوقوع هذه الكلمة في أولها، وقد تسمّى سورة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، أي الجملة التي في مفتتحها، إذ لم يرد مثلها في غيرها، وهي مكيّة باتفاق، وتعدّ الثامنة والسّبعين في ترتيب نزول السّور، وهي السّبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف، وآياتها أربع وأربعون.

وتتناسب مع سورة "الحاقة" في بيان أوصاف يوم القيامة وأحوال المؤمنين والمجرمين مع تثبيت النبي في دعوته وتسليته مما يلقاه من خصومه، كما عرضت لبيان الطّبيعة البشرية في الجزع والبطر والبخل. واستثنت من ذلك المؤمنين المصلين لما يتمتعون به من الخصال الحميدة التي بثها فيهم الإسلام، وفي الختام ندّد الله بالكفار وتوعّدهم بسوء المصير يوم القيامة.

التأكيد على وقوع عذاب يوم القيامة، وتهديد المشركين بعذابه.

أ) - النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ
﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ
بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ

حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ
﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً
لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾: عدّي الفعل: ﴿سَأَلَ﴾ بالباء، قيل: ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام، والدعاء والاستعجال، لأن الباء تأتي بمعنى "عن". ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ﴾: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو. ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾: جمع معرج، بكسر الميم، وهو ما يصعد به إلى الأعالي، ووصف الجلالة به لاستحضار عظمته، فمنازل القرب عنده درجات، وقيل: هي السماوات ومراتب الملائكة فيها. ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: ﴿تَعْرُجُ﴾: تصعد. ﴿وَالرُّوحُ﴾: هو جبريل عليه السلام، خصّص بالذّكر لعلوّ شأنه ومنزلته. ﴿إِلَيْهِ﴾: بمعنى إلى مهبط أمره في السّماء، يقول ابن عباس: إنّه يوم القيامة، وتلك المدّة الطويلة إنما هي بالنّسبة للكافرين في محاسبتهم ومعاقبتهم حتى يفصل الله بينهم، وأما بالنسبة للمؤمنين فهو قصير الوقت يقول فيه الرّسول ﷺ: **«يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة»**[1]. ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾: ﴿الْمُهْلِ﴾: درديّ الزّيت، وذلك لانحلال أجزائها، والعهن هو الصّوف المصبوغ والمنفوش. ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا، يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: الحميم هو القريب. لا يهتم لقريبه الآخر لشدة ما يعانيه النّاس من الكرب. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: أي يبصر الأخلاء أحوال خلانهم ثم يفرّون منهم. ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾: ﴿يَفْتَدِي﴾: أي يدفع الفدية ليتخلص

(١)- رواه أحمد في المسند من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ١١٧١٧.

من العذاب. ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾: هي عشيرته وقومه. ﴿إِنَّهَا لَظَى، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾: اللظى من أسماء جهنم، ﴿نَزَّاعَةً﴾: أي تميل إلى إحراق أعضاء الإنسان المحرم في الأيدي والأرجل. ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾: أي جمع الأموال وكنزها في أوعية بخلا بها على الفقراء والمساكين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿سَأَلَ﴾: قرأ الجمهور بإظهار الهمزة، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿سَالَ﴾ بتخفيف الهمزة ألفا ووقف حمزة بالتسهيل. ﴿تَعْرُجُ﴾: قرأ الجمهور بالتاء وقرأ الكسائي: ﴿يَعْرُجُ﴾ بالياء. ﴿وَلَا يَسْأَلُ﴾: قرأ الجمهور بفتح ياء "يسأل" على البناء للفاعل، وقرأ أبو جعفر والبزي عن ابن كثير: ﴿يُسْأَلُ﴾ بضمّ الياء على البناء للمفعول، والمعنى: لا يسأل حميم عن حميمه. بحذف حرف الجرّ. ﴿يَوْمِئِذٍ﴾: قرأ الجمهور بكسر ميم ﴿يَوْمِ﴾، مجرورا بإضافة عذاب الله، وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم على بنائه لإضافة "يَوْمَ" إلى "إذ". ﴿نَزَّاعَةٌ﴾: قرأ الجمهور بالرفع، خبر ثان عن "إنّ"، أو هو خبر عن "لظى"، إذا جعل مبتدأ، وقرأ حفص بالنصب على الحال.

د)- البيان والتّفسير:

تعالج سورة المعارج في مفتتحها ما واجهته الدّعوة الإسلامية في انطلاقتها بمكة من تعنت الكفار وموقفهم المتاخر من قيام السّاعة والبعث والنّشور واستعجالهم لمجيء ذلك اليوم، كما يسألون أن يوقع الله عليهم عذابا إن كان القرآن حقا من عند الله بمثل قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يس:٤٨). ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وسواء كان السائل فردا أو جماعة فإنه تعالى يقرر حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء وعذاب للكافرين ويأمر رسوله بالصبر الجميل على تعنتهم فيقول: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ، مِّنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

إنه سؤال تكذيب وسخرية واستهزاء، وفي رواية أسباب النزول أن السائل هو النضر بن الحارث الذي قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢). وسواء كان السائل فردا أو جماعة كما ذهب إلى ذلك ابن عباس فإن حقيقة الآخرة كانت من القضايا التي كان يتلقاها المشركون بالدهشة والاستغراب، ولا يتصورون وقوعها، ولذلك كانوا يتحدّون رسول الله أن يأتيهم بذلك اليوم، فالله تعالى يجيبه عن سؤالهم ويقرر أن يوم القيامة واقع لا محالة وأن ذلك محدّد في علم الله وأن أحدا لا يستطيع دفعه وعذابه نازل بالكافرين مطلقا سواء منهم أولئك السائلون أو من يكون على شاكلتهم إلى يوم القيامة، يوقعه الله عليهم، وهو صاحب العظمة والعلا، رفيع الدرجات ذو العرش العظيم. والمعارج هي المصاعد.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ﴾: أي تصعد إليه بإذنه في منازل القرب عنده تشريفا لذلك الخلق الكريم لتلقي أوامره تعالى وتصريفها وفق إرادته في شؤون ملكه، والرّوح هو جبريل عليه السلام خصّه الله بالذّكر تنويها بشرفه ومقامه من بين الملائكة، إذ هو أمين من في السّماء. وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قيل: إن المراد بـ"يوم" يوم القيامة، فهو بالنسبة للكفار يوم عسير طويل الأمد لشدة أهواله وتدقيق الحساب فيه، كما أن تقدير تلك المسافة بمقاييسنا -نحن البشر- هو لتمثيل عظمة تلك المنازل

بالنسبة لأهل العالم العلوي فهناك لا وجود لحدود الزمان والمكان، فالله وحده أعلم بكيفية ذلك العروج.

وعلى طول ذلك اليوم بالنسبة للكفار فهو بالنسبة للمؤمنين قصير سريع الانطواء، وقد سئل رسول الله عن ذلك اليوم سؤال تعجّب من طوله فقال: **«والذي نفسي بيده إنه ليخفّف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدّنيا»**.[1]

ومن ثمّ جاءت دعوة الله لنبيّه بالصّبر الجميل، ومن خلاله لكلّ مؤمن على إذاية الكافرين وتكذيبهم بذلك اليوم الذي يرونه بعيدا، بينما هو واقع ثابت في علم الله قريب.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾: وصف الصّبر بالجميل يقتضي النّوعية الكاملة من أنواع الصبر الذي لا يخالطه شيء من التذمر أو القلق رضاء بقضاء الله ونزولا عند حكمه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ جملة تعليلية لحقيقة ذلك اليوم المهول، فالرسول والمؤمنون معه مطمئنون لتقدير الله وعلمه وتدبيره فلا يخالطهم شك ولا ريب في ما يخبر به عن تلك الغيوب، بينما يخطئ البشر في تقديراتهم المحدودة، بينما إذا متعهم الله بنعم الدّنيا فهم عن تلك الحقائق الكونية غافلون.

ولمزيد من التّضخيم لأهوال ذلك اليوم المستبعد لدى الكافرين يرسم الله تعالى بعض المشاهد التي تقع فيه فقال: **﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ، وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾**.

---

(١)– تقدم تخريجه: ص ١٤٤.

إنه يوم مهول تنقطع فيه الأواصر بين الأقرباء والأحباء فلا يهتمّ أحد بأحد ولا يسأل عن شأنه وأحواله؛ لأنه مشغول بخاصّة نفسه، وقد اختل نظام الكون فأصبحت السّماء كالمهل، أي ذوب المعادن ودرديّ الزيت وذلك لانكدار نجومها وتكوير شمسها، وأما الجبال فتدك حتى تصير كالعهن المنفوش، أي الصّوف المصبوغ المنفوش، ولكل ذلك أثره البالغ في النفوس وهي تواجه تلك الأهوال، فالناس في ذلك الحشد يعرض بعضهم على بعض، ولكنهم لشدة ذهولهم ينحصر همّ كل واحد منهم بنفسه، ينظر صاحبه ولا يستطيع أن يتحدث إليه، وذلك لعموم الخلق، فما بال المجرم وقد انكشف له الغطاء، وحُمّ عليه القضاء قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

وصف الكافر بالمجرم في ذلك الموقف هو الوصف المناسب لكلّ من مات على كفره أو مات على غير توبة من الذنوب والآثام التي كان يرتكبها في حياته، إذ الناس يبعثون على ما ماتوا عليه، فالمجرم لا يجد متنفسا أمام ذلك الهول إلا في الأماني الكاذبة تجول في خاطره أو يحدث بها نفسه أن لو يفتدي من العذاب الذي ينتظره بأعزّ الناس لديه ممن كان ينافح عنهم في الدّنيا بأعزّ ما يملك وهم بنوه وزوجه وإخوته وعشيرته التي كانت تحميه وتؤويه، ويلاحظ هنا في مقام الفداء عدم ذكر الأبوين، وذلك لشرف مقامهما وحقهما على بنيهم، فلا يليق بهما أن يقدموا فداء لولدهما العاصي. وفي غمرة الشّعور بالخوف والهلع واللهفة على النجاة يودّ لو يجد الفداء بأهل الأرض جميعا، ولكن هيهات.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ، نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ، وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾: ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع يبطل الكلام السابق، أي لا فداء لك أيها المجرم، ولا

نجاة بل هي "اللظى" وعذاب جهنم ينتظرك، ثم في تمثيل رهيب كأنما لظى غول موحش ملهوف لاقتناص فرائسه من أولئك المجرمين الطغاة ممن كان يدبر عن سماع الهداية القرآنية وهم كانوا في حرية واختيار يدعوهم الرسول فلا يستجيبون، وهاهم اليوم يدعون إلى العذاب والهلاك بقلع أطرافهم وجلود رؤوسهم فلا يملكون هروبا ولا نجاة، وقد كانوا إلى جانب كفرهم وعنادهم في الدّنيا يكنزون الأموال ويخبئونها في مختلف الأوعية يجمعونها من سحت وحرام، ويمنعون حق الفقراء والمساكين في جشع وحرص.

وقد كثر في السّور المكيّة التنديد بقساوة الجاهلين وحرصهم على المال والبخل به على المستضعفين، واعتبر ذلك من علامات التكذيب بيوم الدّين، كما تقدم في السّور السّابقة ويكرر بيانه في السّور اللاحقة، والله أعلم.

بيان الأحوال النفسية للإنسان، وتأثر سلوكه بوازع الإيمان.

أ – النص:

إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ
﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: الجملة في موضع رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾. ﴿هَلُوعًا﴾: منصوب على الحال، والهلع قلة الصّبر لشدة الحرص، وقد بيّن الله ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾: ﴿مَسَّهُ﴾: بمعنى أصابه. ﴿جَزُوعًا﴾: أي حزينا متضجرا، ﴿مَنُوعًا﴾: أي بخيلا بماله. قيل: إنهما منصوبان في خبر كان المقدرة، أي يكون منوعا. ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ منصوب على الاستثناء، والصّلة والموصول نعت لـ"المصلين". ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: الجملة عطف على سابقتها، والحق المعلوم: قيل هو الزكاة المفروضة والنّذر، ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: أي الفقير الذي يسأل النّاس والمحروم الذي يتعفف. ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾: أي يؤمنون باليوم الآخر ويستعدون له بالعمل الصّالح. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾: أي عذاب الله نازل لا محالة لا يستطيع أحد دفعه. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾: أي هم أصحاب طهر وعفة لا يقربون الفاحشة. ﴿إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: استثنى الله من ذلك الأزواج الشّرعيات، وما تملك الرّجل من الرّقيقات والجواري. ﴿أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾: مبتدأ وخبر، أي مكرمون بثواب الله ورضوانه.

ج) - أوجه القراءة:

﴿أَمَانَاتِهِمْ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الجمع، وقرأه ابن كثير بالإفراد، والمراد الجنس. ﴿بِشَهَادَتِهِمْ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الإفراد اسم جنس يعمّ جميع الشّهادات، وقرأ حفص ويعقوب: ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ بصيغة الجمع، على اعتبار جمع المضاف إليه.

د) - البيان والتّفسير:

بعد تصوير أهوال يوم القيامة وكيف يحاول المجرم المكذّب بآيات الله أن يفتدي

نفسه بكل عزيز لديه فلا يملك ذلك، نبّه الله إلى طبيعة النفس البشرية في مواجهتها للخير والشر، في حالتي جحودها وكفرها، وفي حالة خضوعها وإيمانها بربها وكيف يكون مصيرها في الحالتين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾.

المراد بالإنسان جنسه لا فرد معيّن بعينه، فإن الهلع هي الصفة الغالبة عليه في أصل خلقته، وقد اختلف اللغويون في تفسير صفة الهلع لغويا وقال ابن عباس: هو الحرص على ما لا يحل، ويقول الإمام ابن عاشور: "والذي استخلصه من تتبع استعمالات كلمة "الهلع" أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرّها، أو عند توقع ذلك والإشفاق منه".[1]

قلت: وقد فسّره الله تفسيرا بيانيا بقوله بعد ذلك: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، أي هو لا يصبر على بلاء ولا يشكر نعمة، لا يصبر على البلاء لأنه لا يؤمن بمن يكشفه عنه، ومن ثمّ لا ينتظر فرجا يخفف عنه وطأة الشر، أما كونه منوعا للخير فلأنه لا يدرك حقيقة الرزق وليس له إيمان بمقسّم الأرزاق، فهو يظن أن ذلك من حيلته وكسبه، ومن ثمّ فهو حريص على الاستحواذ على ذلك الخير لنفسه حريص عليه شحيح به فهو لعدم إيمانه هلوع في الحالتين، ثم استثنى الله تعالى من ذلك المؤمنين به إذ وصفهم بعشر خصال حميدة كل منها لها أثرها الفعال في تكوين شخصيتهم فقال تعالى: ﴿**إِلاَّ الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾.

عدّد الله صفات حميدة هي من خصال المؤمنين الأوفياء قابلها بأحوال المجرمين السابقة، فجعلها مستثناة من صفات الهلع التي تغلب على طبع الإنسان، فبدأ بالصلاة والمواظبة عليها فقال:

أ)- ﴿**إِلاَّ الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾: فالصلاة هي الركن

(١)- التحرير والتنوير: ١٦٧/٢٣.

الأساسي في البناء الإسلامي المتكامل، وهي التعبير الصادق للإيمان إذ هي وسيلة الاتصال بالله ومظهر للعبودية الخالصة والطاعة التامة، فلا يتصور إيمان بدون صلاة، ولذلك ورد في الحديث الشريف: «**ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصّلاة**».(١)

وقد أضاف الله إليها صفة "الدوام" فهي صلاة لا يتطرق إليها الكسل والإهمال بله الترك والانقطاع، وذلك يقتضي القيام بجميع شروطها وأركانها وضبط مواقيتها، فهؤلاء يمتعهم الله بالسكينة والطمأنينة فلا يهلعون ولا يخدعون بل تدفعهم صلاتهم إلى الإحسان وفعل الخير.

ب)- ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾: الحق المعلوم في الأموال هو الزكاة المفروضة، وكل ما ألزم الإنسان به نفسه من أنواع الصّدقات والنذر، وكون ذلك حقا للسائل والمحروم، فيه معنى التكليف والإخبار من الله للمحتاجين سواء سألوا الناس أو تعففوا، وفي ذلك العمل الخيريّ تخلّص من الشحّ والحرص على المال وإرساء لقواعد التكافل الاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية.

ج)- ﴿**وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**﴾: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ هو اليوم الآخر في كل مراحله، والتّصديق به ركيزة أساسية في الإيمان الصّحيح والذي هو المحور الرّئيسي في السّورة الكريمة، والإيمان بيوم الجزاء له الأثر البليغ في النفس المؤمنة شعورا وسلوكا، فتستقيم بذلك موازين الحياة الدّنيا لديه على اعتبار أنها معبر للآخرة التي هي دار القرار، وبالتالي فهو لا يقصّر في حب الله ولا يفرّط في واجباته الدّينية، ولذلك قال عمر ﷺ: "لولا الآخرة لكان غير ما ترون".

د)- ﴿**وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**﴾: إن المؤمن في حياته الدّنيوية العاجلة متأرجح بين الخوف والرّجاء؛ لأنه يجد نفسه مفتونا بكثير من الملهيات والمغريات، تجعله -أحيانا- مقصرا في حب الله،

---

(١)- رواه النسائي من حديث جابر بن عبد الله، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم ٤٦٤.

ويحكم إيمانه باليوم الآخر واستشعاره لموقف الحساب تجده مرهف الإحساس بتوقع عذاب الله في كل لحظة سهوا وغفلة، فهو لا يأمن مكر الله مهما بالغ في الحيطة والحذر كما كان رسول الله، وهو من هو في طاعته وخشيته لله إذ كان دائم الخوف والحذر وكان يقول لأصحابه: «**لن يدخل الجنة أحدا عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته**».[1]

د)- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾:

جاء نظير هذه الآية في سورة "المؤمنون" وهي تشيد بالطّهر والعفاف في المجتمع المسلم فردا وجماعة، فلا مكان فيه للزنى والبغاء وفوضى العلاقات الزوجية، فالأسرة فيه قائمة على الأسس الشرعية المتينة، والأنساب نظيفة الأصول، واضحة الانتماء، لا يخجل فيه أحد من وضاعة نسب. ومن ثم فإن المسلم يعيش طاهر الذيل يصون عرضه من لوثة الفواحش، ولا يقضي شهوته إلا في ما أباحه الله من أزواجه وما ملكته اليمين من الإماء الرقيقات اللائي يملكهن المسلم بسبب مشروع كالسبي عند القتال في سبيل الله. وكل ما وراء ذلك من الفروج الحرام يقضي فيها العبد حاجته فتعتبر من عمل المفسدين بما ينشأ عن ذلك من الفوضى والعار.

و)- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾: اختار الله للأمانات والعهود صفة الرّعي، وهي الحفظ والرّعاية والحراسة كما ترعى الإبل والأغنام، وكل من الأمانات والعهود تشمل ما يكون من جهة الخالق، كالشرائع والأحكام، وما يلزم العبد به نفسه من النذر ونحوها، كما تشمل ما يكون من جهة المخلوق من الودائع ونحوها، فالمسلم مؤتمن في كل ذلك لا تندّ عنه خيانة ولا خداع. وقد شدّد الإسلام وأكّد في ذلك حتى يقوم المجتمع المسلم على الثقة المتبادلة بين أفراده وتسود العدالة

---

(١)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧٣.

والطّمأنينة.

ز)- ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾: والقيام على أداء الشّهادة وثيق الصّلة برعي الأمانات والعهود، لأن بالقيام بما للمشهود له بالحق والعدل تصان حقوقه بين النّاس وذلك واجب إذا طولب به الشّاهد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة:٢٨٢).

ح)- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: تجدد الأمر بالمحافظة على الصّلاة في ختام هذه الصّفات الحميدة للمؤمنين كما بدئت بالأمر بالدّيمومة عليها مما يدلّ على فضل الصّلاة وأهميتها عند الله إذ هي ملاك الأمر كله في علاقة المرء بربّه خشوعا وطاعة. وتتمّ المحافظة عليها بإتمام شروطها وأركانها ومراعاة أوقاتها كما شرع الله، واختيار صيغة المضارع: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ لإفادة التجدّد والاستمرار. فما هو مصير الذين يتصفون بهذه الصفات؟. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، جيء باسم الإشارة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للتنبيه على استحقاقهم لما بعده، وهو الإكرام في جنات النعيم، فيجمع لهم بذلك النّعيم الحسّي بخير الجنة والنعيم الرّوحي بإكرام الله لهم بمغفرته ورضوانه، فاللهم احشرنا في زمرة هؤلاء الأبرار، والله أعلم.

التّعجيب من أحوال المكذّبين بالرّسول في الدّنيا والآخرة.

أ)- النصّ:

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا
أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ

مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: سؤال إنكار وتعجيب، ﴿مَا﴾: مبتدأ، للذين كفروا: خبره. ﴿قِبَلَكَ﴾: ظرف مكان في موضع الحال، أي حولك. مهطعين: من الإهطاع، هو مدّ العنق عند السير، وهو حال. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾: ﴿عِزِينَ﴾: جمع عزة، وهي الفرقة من النّاس. و﴿عِزِينَ﴾: حال من الذين كفروا. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾: أي من نطفة أمشاج وهم يعلمون ذلك، فكذلك نعيد خلقتهم بكيفية لا يعلمونها. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾: جمع المشارق والمغارب على اعتبار تعدد مشارق الشمس ومغاربها على الأرض في فصول السنة، وتقدم القول في دخول ﴿لَا﴾ النافية على: ﴿أُقْسِمُ﴾. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: المسبوق هو المغلوب على أمره، شبه بالمسبوق في السّير، والمعنى: لسنا بعاجزين على أن نبدّل خيرا منهم. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾: الخطاب للرسول، يأمره الله أن لا يهتم لعنادهم. ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾: حالان من الضمير في قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾: ﴿الْأَجْدَاثِ﴾: جمع حدث، أي القبر، أي يخرجون من قبورهم عند البعث سراعا، حال من الضمير: ﴿يَخْرُجُونَ﴾. ﴿نُصُبٍ﴾: والنصب: -بفتح فسكون- الصنم، أو الشيء المنصوب كمَعلم. ﴿يُوفِضُونَ﴾: يسرعون. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي تغشاهم الذّلة -وهي حال-، والمهانة. ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: أي يوم القيامة.

ج) - أوجه القراءة:

﴿يُلَاقُوا﴾: قرأ الجمهور بألف بعد اللام من الملاقاة، وقرأ أبو جعفر بدون

ألف، من اللقاء. ﴿يَخْرُجُونَ﴾: قرأ الجمهور بفتح التحتية على البناء للفاعل، وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمها على البناء للمجهول: ﴿يُخْرَجُونَ﴾. ﴿نَصْبٍ﴾: قرأ الجمهور بفتح النون وسكون الصّاد، وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم بضم النون والصاد: ﴿نُصُبٍ﴾.

د)– البيان والتفسير:

بعد بيان الإكرام في جنات النّعيم للمتقين المتصفين بالصفات الحميدة التي دعا إليها الإسلام، انتقل السّياق إلى عرض مشهد من مشاهد سلوك الكفّار مع دعوة رسول الله في مكة إذ كانوا يسرعون إلى حيث يكون الرّسول وهو يتلو القرآن، ثم يتفرقون عنه ساخرين مستهزئين مما يسمعون من وعد الله للمؤمنين بالجنة، ثم أمر الله رسوله بالإعراض عنهم حتى يفاجئهم يوم البعث والحشر، فقال تعالى: **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ، عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ، أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ، كَلَّا﴾**.

كان المشركون عندما يجتمعون حول رسول الله وهو يتلو القرآن يستمعون لتلك التلاوة لا لينتفعوا بها، ولكن للاستهزاء والسّخرية وهم يقولون: لئن دخل المسلمون الجنة كما يقول محمد لندخلها قبلهم، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم، فجاء هذا الرّدّ الإلهي الحاسم في تهكّم وتعجيب، كيف يسرعون مادّين أعناقهم نحوك –أيها الرّسول– وهم جماعات متفرقة شتى عن يمينك وشمالك، وهم لا يقصدون بذلك الهدى والانتفاع بما يسمعون، ولكن ليستهزئوا ويسخروا؟. ومع ذلك يتمنى كل واحد منهم دخول الجنة؟. ولكنه تعالى أيأسهم من دخولها فقال: **﴿كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ، فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾**، ﴿كَلَّا﴾ للرّدع في تيئيس وتحقير، أي لا يطمع أحدهم دخول الجنة وهو على ذلك الكفر والإعراض.

ولإبطال شبهتهم في إنكار البعث دمغهم الله بذكر نشأتهم الأولى التي يعلمونها، أي أنه تعالى خلقهم من ماء مهين، وفي التذكير بذلك تهوين لشأنهم وكسر لكبريائهم، وهو من جهة أخرى تقرير لوقوع النشأة الثانية ليوم المعاد، الذي أنكروا حدوثه، ولتأكيد ذلك التقرير أقسم الله بأنه قادر على إهلاكهم والمجيء بقوم آخرين يكونون خيرا منهم، وقد أقسم الله بالمشارق والمغارب للنجوم الكثيرة في أرجاء الكون، أو لمشارق الشمس ومغاربها المتوالية على أرجاء الأرض بحسب الفصول الأربعة، أقسم الله بأنه غير عاجز على إهلاك أولئك المتعجرفين، فما هم بشيء أمام عظمة الكون الدّالة على قدرة الله، فإنما هي سنة الله في الاستدراج والإملاء.

ثم يوجه الله الخطاب لرسوله مسليا له في دعوته إياهم أن لا يكترث لشأنهم ولا يهتم لعنادهم، بل يدعوهم لذلك اليوم الموعود: ﴿**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾.

فأمر النبي بتركهم هو كناية عن التحقير والسخرية منهم؛ لأنهم في موقفهم ذلك أهون من أن يوليهم الرسول عنايته بهم، والله يثبته ويسليه بمثل قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨). ومواجهة الخصم العنود بمثل هذه التسلية تقتله وتفتّ في عضده، فهم مستمرون في خوضهم ولعبهم حتى يباغتهم اليوم الذي يوعدون به يوم البعث والنّشور. وقد رسم الله لذلك اليوم مشهدا مروّعا، وهم يخرجون من قبورهم مسرعين حيارى، حتى لكأنهم يتسابقون -كما كانوا في الدّنيا- إلى أصنامهم أيهم يسبق إليها. وفي إدماج هذا التشبيه تفظيع لحالهم في عبادة الأصنام، غير أنه شتان بين إفاضة وإفاضة، فهناك في الجزاء الأخرويّ إسراع قهر وإذلال وعنف، ترتسم المهانة على وجوههم انكسارا في الأبصار ورهقا في الأجساد. ويأتي ختام السّورة ملائما لبدئها جوابا للعذاب المسؤول عنه: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، فها هو ذا ذلك اليوم الذي كانوا يرونه بعيدا، والله أعلم.

سورة نوح مكيّة، وآياتها ٢٨

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة "نوح عليه السلام" لورود قصته مع قومه فيها، كما جاء في مفتتحها: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، وهي مكيّة، وآياتها ثمان وعشرون آية، وهي في ترتيب نزول السّور الثالثة والسّبعون، والحادية والسبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف. وفي قصة نوح مع قومه وإهلاكهم بالطّوفان بعد إقامة الحجة عليهم بإنذار رسولهم، وبعد إصرارهم على الكفر والعناد، في كل ذلك ضرب المثل لمشركي قريش وكل من كان على شاكلتهم وأنه تعالى قادر على أن يبدل غيرهم، كما ذكر ذلك في أواخر سورة المعارج.

– لخص الله دعوة نوح قومه إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام في مفتتح السّورة.

– بيان لمناجاة نوح ربه وشكواه إليه على عصيان قومه وإصرارهم على الشّرك، وقد استنفد معهم كلّ أساليب الدعوة مع تسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها.

– دعوة نوح على قومه بعذاب الاستئصال.

– وفي الختام يأتي دعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين معه وبالهلاك للكافرين.

دعوة نوح لقومه، وبيان شكواه لربّه منهم.

أ) – النص:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

(٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥)
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨)
ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا
(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ
تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجًا (٢٠)

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: ﴿إِنَّا﴾: الأصل "إننا"، حذفت النون للتخفيف، وهي تفيد التوكيد. ﴿نُوحًا﴾: اسم أعجمي انصرف، لأنه على ثلاثة أحرف، ﴿قَوْمِهِ﴾: اسم جمع. ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾: جملة تبيينية لمضمون ما أرسل به نوح إلى قومه، ويجوز أن يقدّر حرف جرّ لـ"أن" أي "بأن أنذر قومك". ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: جملة تفسيرية، أي نذير بأن اعبدوا الله. ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾: عطف عليه. ﴿يَغْفِرْ﴾: مجزوم في جواب الأمر. ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾: منصوبان على الظرفية. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾: ﴿فِرَارًا﴾: مفعول ثان لـ"زاد". ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا

أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾: ﴿كُلَّمَا﴾: مركبة من: ﴿كُلّ﴾ و﴿ما﴾ المصدرية، والمصدر ظرف زمان بمعنى: "إذا". جوابه: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا دعوة رسولهم. ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: أي غطّوا رؤوسهم بثيابهم إمعانا في عدم السّمع. ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾: الإصرار على الشيء الدّوام والاستمرار عليه. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾: منصوب على المصدرية، وكذا ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. بين ﴿جهارا﴾ و﴿إسرارا﴾ طباق، وكذا بين ﴿أسررت﴾ و﴿أعلنت﴾، وبين ﴿ليلا﴾ و﴿نهارا﴾. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: ﴿يُرْسِلِ﴾: مجزوم في جواب الأمر: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾. ﴿مِدْرَارًا﴾: منصوب على الحال، على وزن: مفعال للمؤنث بغير "ها"، بمعنى: مطرا متتابعا. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾: الاستفهام للإنكار أن لا يروا لله عظمة. وجملة: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال، والأطوار: يدخل فيها أطوار الجنين في بطن أمه، وأطوار العمر من الصّبا والطّفولة والكهولة إلى آخره. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾: ﴿طِبَاقًا﴾: منصوب على المصدر، ويجوز أن يكون نعتا لـ"سبع". ﴿طِبَاقًا﴾: بمعنى بعضها فوق بعض. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾: تشبيه بليغ للقمر بنور وللشمس بسراج، وهما مفعولان لـ"جعل". ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: على اعتبار أن آدم خلق من تراب. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾: أي يميتكم ثم يحييكم للبعث. ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾: أي لتقطعوا وتسيروا على الأرض في طرق واسعة.

ج)- البيان والتّفسير:

تقدمت لقطات من قصة نوح مع قومه في عدة سور من القرآن في معرض القصص الأخرى مع أنبيائهم، ولم تفرد سورة من أولها إلى آخرها بقصة نوح إلا هذه السّورة، ولذلك كانت جديرة بأن تسمّى باسمه تشريفا له وتعظيما على ما تحمّله من

الأذى وعلى طول نفسه في تبليغ دعوته إذ استمرت لألف سنة إلا خمسين عامًا، وعلى ما ذكره الدكتور شوقي أبو خليل في كتابه "أطلس القرآن" في تحديد موطن قومه قال: "كان قوم نوح في جنوبي العراق حول موقع مدينة الكوفة حاليا، والجودي: جبل قبالة جزيرة ابن عمر عند ملتقى الحدود السورية التركية حاليا على الضفة الشرقية لنهر دجلة ويرى الجودي بوضوح من بلدة عين ديوار السورية".(١)

قلت: خصّص الله هذه السورة المكية بقصّة نوح عليه السلام مع قومه لما فيها من التناسب والتشابه بين أولئك الأقوام وبين مشركي مكة، فكلهم عبدوا الأصنام وكلهم واجه دعوة رسوله بالصدود والإعراض وبالسخرية والاستهزاء، فأراد الله تعالى أن يبيّن عاقبة ذلك بعذاب الاستئصال الذي حلّ بقوم نوح، وفي ذلك إنذار وتحذير لكفار قريش وتسلية لرسول الله في دعوته وما يتعرض إليه من الأذى.

قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، جاءت الافتتاحية بالتوكيد وبنون العظمة لبيان أن مصدر الرسالات كلها هو الله سبحانه وتعالى، والإنسان في فطرته قد يهتدي إلى معرفة خالقه وبعده، وعندما ينصرف عن تلك الفطرة فإنه تعالى يرسل إليه رسلا لهدايته وتحذيره من عذاب الله إن بقي على كفره كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء:١٥). وأمر الله له بإنذار قومه في منطلق دعوته يدلّ على ما كان عليه أولئك القوم من ضلال وكفر ليس فيهم رجل رشيد، ولا في حياتهم أثارة من إيمان، ولذلك كان التخويف من نزول العذاب الأليم هو العلاج المناسب لتلك النفوس المريضة بلوثة الكفر والشرك.

---

(١)- أطلس القرآن: ص ٢٤-٢٥.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: كان نوح في دعوة قومه جليًّا واضحا حين ركّز دعوته على الإنذار والتخويف بعد أن كلّفه الله بذلك، إذ هم في حالة مرضية مستعصية تتطلب استئصال المرض من جذوره كما يتضح ذلك من خلال دعائه عليهم في نهاية المطاف، وتركز دعوته على دعائم ثلاث:

أ- ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾: وعبادة الله وحده لا شريك له هي الاستجابة التلقائية لنداء الفطرة التي تربط الإنسان كغيره من المخلوقات بمصدر الوجود، وبذلك تتوحّد القلوب وتتجه كلها إلى إله واحد، ومن ثم تستقيم أمور الحياة إذ تقوم على موازين الحق والعدل. والدعوة إلى عبادة الله وحده هي الدعوة العامة لجميع الرّسل لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

ب)- ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: وتتمثل التقوى في وقاية النفس من الذنوب والآثام بإتباع أوامر الله واجتناب نواهيه دونما نفاق أو احتيال، فيستقيم بذلك سلوك الناس على منهج الله خوفا من عذابه والتماسا لمرضاته.

جـ)- ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: وطاعة الرّسول هي من طاعة الله، لأنه هو المبلغ لرسالة الله التي شرعها لخلقه تكفل لهم الهداية على منهجه السويّ وتضمن لهم السعادة في الدّنيا والآخرة.

تلكم هي الدّعائم الثلاث التي دعا نوح إليها قومه في فجر التّاريخ البشري وهي الدّعوة التي يتوارثها الأجيال من بعده، وقد وعد الله عليها عباده المؤمنين بما وضّحه

نوح لقومه بقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

رتب نوح عليه السلام على دعوته ثمرة الإيمان والتقوى وطاعة الرّسول بمقتضى وعد الله للمؤمنين المسبحين، ويتمثل ذلك في التّطهير من الذّنوب، سيما تلك التي اثقلت ظهورهم من عهود الكفر فتكون: ﴿مِن﴾ للتبعيض، وأما التي قد تخالط إيمانهم، فإنه تعالى يمهلهم في الدنيا إلى الأجل الأقصى الذي قدّره لآجالهم ولكنهم في حال إصرارهم وتماديهم على الكفر فإنه تعالى سيعجّل لهم بعذاب الاستئصال، وهو الأجل الذي يجيء في موعده المضروب، يأتيكم بغتة، ويبدو أن المراد بالأجل الثاني المضاف إلى لفظ الجلالة هو اليوم الآخر.

وقد طال الأمد بجهاد نوح ولجّ قومه في الإعراض والصدود. وبعد مشواره الطّويل ومعاناته راح يشكو إلى ربّه واقعه مع قومه وهو لم يدخر معهم وسعا في وسائل التبليغ فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

هكذا يقيم نوح جهاده الطّويل ويعرضه على ربّه وهو يصوّر كراهية قومه لدعوته التي لم تنقطع في ليل أو نهار، ولم تفتر عزيمته في اتخاذ كل وسائل التبليغ، ولم ييأس أمام الصدود والإعراض حتى كانوا يفرّون عن سماع دعوته، وكلما اقترب منهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وغطوا رؤوسهم حتى لا يسمعوا دعوته ولا يروا شبحه، وهو في دعوته لا يطلب منهم أجرا ولا يرجو منفعة، فهم يصرون على الضّلال ويستكبرون

عن سماع الحق مهما تفنّن معهم في أساليب دعوته فتارة بالجهر وتارة بالإسرار مراعاة لمقتضى أحوالهم المختلفة، عساهم يتصاغون ويتأثرون.

ولم تكن دعوة نوح جافة عارية عن أساليب الإغراء والتشويق بل لحده يمزج بين النصح والإرشاد ويعدهم بمغفرة ربهم وإنعامهم بخيرات من السماء والأرض: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

وعلى ما جاء في آيات أخرى من أن الاستغفار من الذنوب والتوبة إلى الله منها ينجرّ عنهما البركة والنماء في الرزق، بينما يكون الشوم والقحط والآلام بكثرة المعاصي، فعلى ذلك النسق ربط نوح عليه السلام بين استغفار قومه من ذنوبهم بنية وإخلاص وبين توفير الأرزاق لهم من السماء والأرض كما جاء ذلك عامًا لجميع الأمم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

ومع الخصب ونزول الأمطار تتوفر الأرزاق وتتداول الأموال وتتكثر الذرية ويعمّ الرخاء بسبب الأمن والاستقرار وتتزين الأرض بالجنات الخضراء تجري من تحتها الأنهار. هذه هي القاعدة الاجتماعية التي تقرّها القرآن في كثير من نصوصه، فإذا ما وجدنا أمّة لا تخشى ربّها ولا تقيم لشريعته وزنًا، ومع ذلك يمكّن الله سلطانها ويوسّع أرزاقها، فليس ذلك نقضًا لتلك القاعدة العمرانية بل هو ابتلاء واستدراج برخاء مؤقت لا يخلو من منغّصات اجتماعية تكدّر صفوه، والله يقول في هذا المعنى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٤٤-٤٥).

ويمضي نوح في دعوته لقومه يدعوهم إلى النظر في دلائل قدرة الله في خلق أنفسهم وفي صفحة الكون الفسيح فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، ينكر عليهم في استفهام توبيخي عدم إحساسهم بعظمة الله، فهم مستهترون مفتونون بقوتهم، لا يذكرون كيف كانوا في بطون أمهاتهم يتدرجون من طور إلى طور بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، وبعد أن أبصروا نور الحياة لا يذكرون كيف تدرّجوا في أطوار العمر من ضعف إلى قوة ثم من قوة إلى ضعف وشيبة. وقاعدة أطوار الخلق لا تقتصر على خلقة الإنسان بل هي أعمّ وأشمل في مجال الخلق لجميع الكائنات مما نعرفه ومما لا نعرفه.

ومن النظر في الأنفس إلى النظر في صفحة الكون الفسيح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

وجه نوح أنظار قومه إلى التأمّل في صفحة الكون الفسيح، وخاطبهم بما كان معروفا لديهم من الكواكب السبع السيّارة، غير أن السماوات السبع الطّباق لا يمكن حصرها في ما توصلت إليه النّظريات العلمية في التعريف بالكون، لأن حقيقة ذلك لا يعلمها إلا الله تعالى، فقصارى أمر نوح في دعوته أن ينبههم إلى ما يشاهدونه فوق رؤوسهم من بديع صنع الله وهم يرون قبة السّماء الزرقاء ويرون الشّمس والقمر دائبين في حركاتها، وما أروع التشبيه لكليهما بما يتناسب مع طبيعة كل منهما، فالشمس سراج ذو ضوء ذاتي وحرارة تنبعث من كتلتها الداخلية، وأما القمر فهو نور ينعكس على وجهه من وهج الشمس.

ومع الدليل الفضائي لعظمة الله يوجه نوح أنظار قومه إلى نشأتهم من الأرض: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

والتعبير بإنباته الإنسان من الأرض يدلّ على العلاقة الوطيدة بين عنصر النبات في الأرض وحياة الإنسان، فكلاهما وليد تربة الأرض ذات العناصر المكونة لخلية النبات وخلية الحيوان ومدى تكاملهما في خلق الحياة بتدبير الخالق الحكيم، وكثيرا ما يربط القرآن بين ظاهرة الإنبات على وجه الأرض بعد إنزال الماء من السّماء وظاهرة إخراج الإنسان إلى الحياة الأولى أو الثانية، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي للبعث والنشور.

ومع الحياة على وجه الأرض يوجه نوح قومه إلى نعمة الله عليهم في تذليلها لهم وتيسير أسباب العيش لهم في السّير على أرجائها ومهّد لهم السّبل في السّهول والجبال يمشون راكبين أو راجلين لا يضلون في متاهاتها كيفما كانت وسائلهم، ونحن في عصرنا الحاضر أشدّ إدراكا لهذه النعمة بعد أن أقدر الله الإنسان بالوسائل العلمية لشق طرق الأسفار في البرّ والبحر والجوّ، فهل وعى قوم نوح نصائح رسولهم؟ ذلك ما سنبينه في ما يأتي، والله أعلم.

شكوى نوح إلى ربّه من مساوئ قومه والدعاء عليهم.

أ) – النصّ:

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا
(٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ
وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ
اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ

يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾: أي: اتبع قوم نوح رؤساءهم ممن أنعم الله عليهم بالمال والولد، اتبعوهم تقليدا أو طمعا وخوفا. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾: المكر: هو إخفاء العمل أو الرأي الذي يراد به ضرّ الغير؛ منصوب على المصدرية. ﴿كُبَّارًا﴾: مبالغة أي كبيرا جدًّا. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: قال بعضهم لبعض: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وذكروا أسماء أصنامهم. قيل: أنها أسماء قوم صالحين من قوم نوح اتخذوا لهم تلك التماثيل. ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾: ﴿من﴾ تعليلية، و﴿ما﴾ مؤكدة لمعنى التعليل، أي بسبب خطيئتهم من الشرك والضلال أغرقهم الله بالطوفان. ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾: أي لا تترك على الأرض منهم من يسكن دارا، أو هو بمعنى: يدور. ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾: جملة شرطية تعليلية لسؤال نوح ربه أن لا يترك على الأرض من قومه الكافرين ديارا، بأنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: إلا هلاكا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَوَلَدُهُ﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح الواو وفتح اللام، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿وَوُلْدُهُ﴾ ضم الواو وسكون اللام؛ فقيل: هو لغة في: ﴿وَلَد﴾، فيستوي فيه الواحد والجمع، وقيل: هو جمع وَلَد، مثل أُسْد وأَسَد. ﴿وُدًّا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بضمّ الواو، وقرأه غيرهما بفتح الواو، وهو اسم أعجمي منصرف. ﴿خَطِيئَاتِهِم﴾: قرأ الجمهور بصيغة الجمع

لـ"خطيئة" بالهمز، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿خطاياهم﴾، جمع خطيئة، بالياء المشددة مدغمة فيها الياء المنقلبة عن همزة. ﴿بيتي﴾: قرأ الجمهور بسكون ياء المتكلم، وقرأه حفص عن عاصم بتحريكها.

د)- البيان والتفسير:

بعدما استفرغ نوح عليه السلام جهده في تبليغ رسالة ربّه إلى قومه بمختلف الأساليب، ولم يجد منهم أدنى استجابة بعد جهد جهيد، وأمد مديد، عاد إلى ربّه يبثه شكواه منهم ويعلن عصيانهم في لهجة مؤثرة وهو يبيّن سوء أقوالهم وأفعالهم ويدعو عليهم بالهلاك والثبور بعذاب يستأصل كل وجود لهم ولذريتهم من بعدهم في يأس من كل صلاح يبدو منهم.

ثم طلب المغفرة له ولوالديه، وللمؤمنين والمؤمنات فقال: ﴿**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً**﴾.

بعد الأمد الطويل الذي ضرب الرقم القياسي في الصبر والمثابرة لدعوة نوح قومه إلى توحيد الله وعبادته، والتي تعطي صورة حقيقية للجهاد الدّعويّ المضي في كل الرّسالات السّماوية، وهي تأخذ بيد البشرية الضالة وترسم لها الطّريق السّوي إلى الله استجابة لنداء فطرتها، ويمثل نوح عليه السلام النموذج الأعلى في حسن التبليغ وتحمّل متاعبه ومشاقه، كما يمثّل قومه ذلك النّموذج البشريّ العصيّ الغارق في طغيانه وضلالاته، فبعد أن عرض نوح حصيلة جهاده على ربّه، فها هو ذا يبثه شكواه، لعصيان قومه إياه، يبثّها بلهجة مؤثرة مبيّنا سبب ذلك العصيان والتمرّد، بأنه السّير وراء القيادات الضّالة المفتونة بالمال والأولاد، وهي تستبقي على حظوظها تلك بخداع الأتباع والتفنن في أنواع المكر، فهم لم يكتفوا بالضّلال في أنفسهم بل حرّضوا أتباعهم

على الاستمساك بعبادة الآلهة الباطلة والإعراض عن دعوة الحق، وهم يثيرون حمية أتباعهم بذكر أسماء تلك الأصنام التي عظموها وعبدوها من دون الله، فظلت تعبد من بعدهم لدهور طويلة لقوله تعالى على لسان نوح: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، حتى كان من نوح عليه السلام ذلك الدعاء اليائس من أيّ صلاح أو رشاد لأولئك القوم بعدما أوغلوا في ضلالهم وكفرهم، وهم بذلك قد حقّت عليهم كلمة العذاب: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، فيستجيب الله لنوح ويقرّر العذاب المستحق لأولئك الكفرة.

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾:

أي إن كثرة خطاياهم هي السبب في إغراقهم بالطوفان كما هو مفصّل في سورة هود، فالغرق بالطوفان هو العذاب الدّنيويّ العاجل، وأما إدخالهم النار فهو العذاب الأخرويّ الآجل، واختير له صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع.

وأما إشكالية الربط بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب فللمفسرين في ذلك تأويلات لا تخلو من تكلّف مثل قولهم: قد يكون هو عذاب القبر في الفترة ما بين الدنيا والآخرة، وأحسن ما قيل في ذلك الفاصل الزمني بين الإغراق والإحراق كأنه غير موجود، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئا كما سبق أن قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج: ٦-٧).

والتفريع بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾، هو للتعريض بمشركي مكة من عبدة الأصنام على قاعدة: إياك أعني واسمعي يا جارة. فليس لهم من دون الله وليّ ولا شفيع.

وما يزال نوح عليه السلام لم يشف غليله من الدّعاء على قومه إذ بدت له الأرض كلها موبوءة ملوثة بالشرك بحيث لا يرجى فيها إيمان بالله وإذعان لشرائعه إلا بتطهيرها كلية من تلك الجراثيم فقال: **﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾**.

لقد أدرك نوح ببصيرته الثاقبة ما آل إليه مجتمع قومه من الشرّ والفساد بحيث يستعصي عن أي علاج؛ لأن جراثيم الضّلال والفساد قد تسرّبت إلى جذور تلك البيئة الموبوءة بحيث لم يبق فيها أي فضاء طاهر يكون محضنا لذرية صالحة من بعدهم، ولذلك دعا ربّه على قومه بعذاب الاستئصال كما قال الشاعر:

إذا فسد العضو في أصله فأولى العلاج له أن يبين

وقد علّل دعاءه ذلك بقوله: ﴿**إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾، فهم ببقائهم أحياء على الأرض يقفون سدًّا منيعًا أمام دعوة الحق، ويصرفون الناس عن اتباع الهدى، وهكذا يهتمّ الأنبياء والرّسل وكل الدّعاة المصلحين بتوفير وسائل الخير والصّلاح في زمانهم ويمدّون جسور التّواصل على ذلك إلى الأجيال من بعدهم، ولذلك اتجه نوح في ختام دعائه إلى طلب المغفرة من ربّه لأنه بشر قد يقصّر ويخطئ ثم هو لا ينسى الوفاء بوالديه في طلب المغفرة لهما ولسائر المؤمنين والمؤمنات: ﴿**رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا**﴾.

إنه الخشوع لعظمة الله والوفاء للوالدين والمحبة لسائر المؤمنين يختم به نوح دعاءه، وهو لا يرتاح لظلم الكفرة الآثمين فيطلب لهم من الله مزيدا من الدمار والهلاك.

والله أعلم

سورة الجنّ مكيّة، وآياتها ٢٨

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة "الجن" في كتب التفسير وفي المصاحف المتداولة، لأنّها تعرضت في قسم منها لذكر أحوالهم، وقد تسمّى بالجملة الواردة في أوّلها فيقال: سورة: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وهي مكيّة نزلت في حدود سنة عشر من البعثة وآياتها ثمان وعشرون.

وتعدّ الأربعين في ترتيب نزول السّور نزلت بعد الأعراف وقبل يس، وهي الثّانية والسّبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف. وتعالج السّورة محورين:

أ)- الإخبار عن حقائق تتعلق بالجن في استماعهم للقرآن وكيف كان ردّ فعلهم في ذلك.

ب)- توجيهات للرسول في تبليغه الدعوة للناس، ويخاطب قريشا يدعوهم إلى استخلاص الدرس من إسلام الجن.

ونجد خلال معالجة المحورين بعض البيانات في:

- إبطال عبادة الجنّ.

- إبطال الكهانة وادّعاء علم الغيب بمنع استراق السمع.

- بيان أنّ الجنّ أصناف: منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك.

- توجيهات للرسول في تبليغ دعوة ربه إلى النّاس وإنذار المشركين بأنّهم سيندمون على مناوأتهم لرسول الله.

- بيان استئثار الله بعلم الغيب، وإحاطة علمه بأحوال جميع الخلائق وإحصاء عددها.

إيمان الجن بالله تعالى وبالقرآن.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ
نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ
سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ
ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾: في موضع رفع نائب فاعل لـ﴿أوحي﴾. ﴿نَفَرٌ﴾: والنفر: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة. ﴿الْجِنِّ﴾: مخلوقات غير مرئية خلقت من نار. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: ﴿إِنَّا﴾: كسرت لأنها بعد القول، ومعنى: عجبا، أي، عجيب يثير الدهشة و﴿الرُّشْدِ﴾: هو الهدى والصواب. ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: الجَدّ: بفتح الجيم، العظمة والجلال، ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: الصاحبة: الزوجة، والجملة بدل اشتمال من جملة: ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾. ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾: السفيه: الجاهل الخفيف العقل، والشطط: مجاوزة الحد، أي هو بعيد عن الحق والصواب. ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: العوذ: الالتجاء إلى ما ينجي من شيء يضر، والرهق: الذل، أي كان بعض الناس يعبدون الجن اتقاء لشرهم فزادتهم تلك العبادة ذلا وضلالا. ﴿وَأَنَّهُمْ

ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾: أي أن بعض الإنس والجن ينكرون البعث.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: ﴿إِنَّهُۥ﴾: قرأه الجمهور بكسر الهمزة، على اعتباره معطوفًا على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾. وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح همزة "أنّ"، أي وآمنا بأنه تعالى جدّ ربنا. ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بفتح الهمزة، كما تقدم في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ﴾. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾: قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة، وقرأها بالفتح ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف. ﴿أَن لَّن تَقُولَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿تَقُولَ﴾ بضمة القاف وسكون الواو. وقرأه يعقوب بفتح القاف والواو مشدّدة، من التقوّل. ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾: قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر همزة ﴿وَإِنَّهُمْ﴾، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتح الهمزة، على اعتبار ما تقدم.

د)- من هُم الجنّ؟.

لقد كثر الكلام عن الجن قديما وحديثا والناس فيه ما بين مفرط ومفرّط. مفرط في تحمّل أوهام ومعتقدات حول وجود هذا الخلق الخفيّ، حتى رفعوه إلى مصاف الآلهة وعبدوها من دون الله، ومفرّط ينكر تماما وجود هذا النّوع من الخلق ويعتبر كل ما قيل عنه من قبيل الأساطير والخرافات.

أما الإسلام فقد فصل الأمر في هذا الموضوع إذ أثبت وجود الجن وبيّن حقيقتهم وحرّر قلوب المؤمنين من الخوف والخضوع لسلطانهم.

نجد في النصوص القرآنية أسماء لهذا الخلق الخفيّ في ثلاثة ألفاظ: الجن، إبليس، الشّيطان. ويقرر القرآن بأن الشّيطان كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، كما يذكر

الشيطان تارة باسم "إبليس"، وقصته في إغراء آدم في بدء الخليقة معروفة وأنه عدو للإنسان إلى يوم القيامة، ويقول عنه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧). ويبين أنّ الجنّ كانت مسخرة لسيدنا سليمان يعملون له ما يشاء، وأنهم يملكون القوة للغوص في أعماق البحار وقطع المسافات، ولكنهم كغيرهم من الخلق لا يعلمون الغيب، أما عن ماهية خلقتهم فيقول القرآن: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن:١٥).

وليس عبثا أن يخصّ الله الجن بسورة كاملة تعرضت لبعض أحوالهم سيما في الجانب العقديّ، وأنهم كالإنس مكلفون وموقوفون ليوم الحساب، ويقول القطب في التعريف بهم: "قيل: الجنّ حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة، وقيل: جوهر لا أجسام ولا أعراض، بعضها شريرة كريهة محبّة للشرور، وبعضها خيّرة كريمة محبة للخيور، ولا يعلم عدة أنواعهم إلا الله تعالى، وقيل: أجسام مختلفة، لطيف وكثيف، علويّ وسفليّ، أقدرها الله تعالى على أفعال عجيبة".[1]

هـ)- البيان والتفسير:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، الخطاب لرسول الله، يأمره الله فيه أن يخبر المسلمين وغيرهم بأنّ الله أخبره عن طريق الوحي بوقوع حدث هامّ أقامه الله تعظيما لشأن رسوله وتنويها بشرف القرآن المنزل عليه، وهو أنه ألهم جماعة من الجن، قيل: إنهم كانوا سبعة؛ لأن النفر هم جماعة من الثلاثة إلى العشرة، سخّرهم الله لسماع القرآن ففهموا ما سمعوه وتأثروا به، فلما رجعوا إلى قومهم: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، أي هو كلام مثير للدهشة والغرابة من حيث

(١)- تيسير التفسير: ١٥/٣٢٧.

فصاحته وبلاغته، وما يحمله من بالغ العبر وأنواع الإرشاد، تجاوبنا معها وآمنا بها في توحيد لربنا ونبذ أيّ شريك له في عظمته وقدرته، ولم يكن الرّسول قد شعر بهم أو خاطبهم.

إذ روي في أسباب النّزول عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «ما قرأ رسول الله على الجنّ ولا رآهم، وإنما انطلق النبيّ بطائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الجن وخبر السماء بانقضاض الشّهب عليهم، فقال الجن: ما ذاك إلا لشيء حدث، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا هذا الأمر، فانطلقوا فصادفوا النبي وهو يصلّي الفجر بأصحابه في "وادي نخلة"، فلما استمعوا له وهو يقرأ القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السّماء، ورجعوا إلى قومهم يحدثونهم بما رأوا».[1]

وقد ألهمهم الله فانكشف لهم من صدق القرآن وإعجازه ما جعلهم يقرّون بدلالته على الحق والرّشد، فعرفوا الله وعظّموا صفاته، كما تيقنوا بصدق رسول الله وحقيّة القرآن، وبالتّالي شرفهم الله بالإيمان وعاهدوا الله أن لا يشركوا به شيئا في ما يستقبل من حياتهم، وأكدوا ذلك بـ"لن" التأبيدية، وفي هذا الإخبار تعريض بل توبيخ لمشركي مكة إذ آمن الجن بصدق القرآن لسماع واحد، بينما هم لم ينتفعوا به ولم يؤمنوا بسماعه عدّة مرات.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: معطوف على قول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، وقوله: ﴿أَنَّهُ﴾ ضمير الشّأن، خبره جملة: ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، مزيد تعظيم لجلال الله وقدرته، وحاشاه أن يتخذ زوجة أو ولدا، والتّأكيد على نفي ذلك عن الله تعالى هو للإعلان عن صدق إيمانهم ونبذ ما كان شائعا في عالم الجنّ من معتقدات فاسدة يوحي بها الشّياطين إلى المشركين من أن الملائكة

(١)- رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم ٤٤٩.

بنات الله من سروات الجن، كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. وذلك ما أنكره المؤمنون من الجن إذ وصفوا من كان يعتقد ذلك منهم بالسفاهة والضلال فقالوا: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾. والشطط هو مجاوزة الحدّ والخروج عن الصّواب، فالجنّ قبل إسلامهم كانوا بعيدين عن الصّواب في نسبة الصّاحبة والولد لله تعالى وذلك مجاراة لرفاقهم إذ كانوا يظنّون أنّ الإنس والجنّ لا يكذبون على الله حين نسبوا إليه الصّاحبة والولد، وهم يأسفون لذلك ويقدمون عذرهم لما سلف منهم من الإشراك بالله بسبب التّقليد الأعمى، وقد حمدوا الله أن هداهم للإيمان.

﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾: العوذ: هو الالتجاء إلى ما يحمي من شيء يضرّ، ولا يكون ذلك من العبد المؤمن إلا بالله تعالى، إذ هو القويّ القاهر فوق عباده، كما علّمنا أن ندعوه بذلك في المعوذتين، ويروى أن الجاهلين قبل الإسلام يلجؤون إلى الجنّ ليدفعوا عنهم بعض الإضرار، كأن ينزل أحدهم في واد ليبيت فيه فينادي بأعلى صوته: يا سيد هذا الوادي، إني أعوذ بك من السّفهاء الذين في طاعتك معتقدا أن كبير الجنّ يمنعه ويحميه، وقد أدّى ذلك إلى اجتراء الجن على الإنس وظلمهم وإرهاقهم.

﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾: أي الإنس، كما ظنّ كفّار الجنّ، أنّه لا يبعث الله من يموت، وبالتالي فلا حساب ولا جزاء، ويحتمل أن يكون المراد: لن يبعث الله رسولا إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده، وفي هذا الإخبار -أيضا- تعريض بالمشركين في فساد اعتقادهم باستحالة البعث إذ تجاوز اعتقادهم الفاسد إلى عالم الجن، والله أعلم.

حديث الجنّ عما عرفوه من شأن رسالة الإسلام في جنبات الكون، وعن أحوالهم.

أ)- النصّ:

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ
لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى
ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ
قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا
ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا
ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)
وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ
عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾: اللمس: المسيس للاختبار، أي طلبنا خبر السماء، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾: ﴿وَجَدَ﴾: يتعدّى إلى مفعولين، ﴿هَا﴾: مفعول أول، ﴿مُلِئَتْ﴾: مفعول ثان، وإن تعدى: ﴿وَجَدَ﴾ إلى مفعول واحد، فتكون: ﴿مُلِئَتْ﴾ في موضع نصب حالا. والشهب: جمع شهاب، شعلة من نار محرقة. ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾: أي نحاول الاستماع والترصّد على أخبار السّماء. ﴿يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾: ﴿يَجِدْ﴾: مجزوم في جواب الشّرط. ﴿رَصَدًا﴾: أي مهيّأ ليرمى به. ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾: ذكروا الله في الخير ولم يذكروه في الشّر تأدّبا

وتماشيا مع اعتقادهم، أي أراد الله الرّشاد بأهل الأرض ببعثة الرّسول وغلق أبواب السّماء عن الشّياطين. ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾: ﴿هَرَبٗا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال والتّقدير: هاربين. ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾: ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾: من فعل: قسط، إذا حاد عن طريق الحق. ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾: ﴿قِدَدٗا﴾: جمع: قِدة، أي قطع متفرقة. ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾: ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة واسمها محذوف، بمعنى: لو استقاموا على منهج الإسلام لوسّع الله تعالى في أرزاقهم. ﴿نَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾: جواب الشرط، ﴿نَسۡلُكۡهُ﴾: تعدّى إلى مفعولين، ﴿صَعَدٗا﴾: نعت لـ"عذاب"، بمعنى عاليا عاليا للمعذب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: ﴿وَأَنَّا﴾: قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها. ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ﴾: قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة، وهو ظاهر المعنى، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها، عطفا على المجرور بالباء -كما تقدم-. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها، وكذا قرأ الفريقان في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾. كما اتفق القراء العشرة على فتح همزة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾. ﴿نَسۡلُكۡهُ﴾:قرأ الجمهور بنون العظمة، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ بياء الغائب، والضمير المستتر يعود إلى: ﴿رَبِّهِۦ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

يتابع الله حكاية أشياء على لسان الجن مما عرفوه عن شأن الرّسالة الإسلامية في جنبات الكون، وكيف تفاعلوا معها بعد أن أذعنوا لإرادة الله بما قدّره لخلقه بتلك

الرسالة فقال: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

كان المعتقد السائد عند الجاهليين أنّ الكهنة والعرافين لهم إلمام بأمور الغيب بواسطة الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع من الملإ الأعلى في شأن شؤون البشر فيستغلون ذلك عند أتباعهم لتقديم الأموال والقرابين، وكان ذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ فلما قدّر الله إنزال الرسالة الخاتمة لهداية البشر وتطهير الأرض من الكفر والباطل أغلقت دون الشياطين أبواب السماء بإقامة حرس أقوياء من الملائكة عليها وتسخير الشهب المحرقة لرجم الشياطين، وبذلك حفظ الله كتابه من باطل الكهنة واحتراق الشياطين. ذلك ما تحكيه هذه الآية على لسان الجن معلنين أنهم لا يعرفون عن الغيب شيئا بما يقدره الله للبشر إذ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فقد أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: «كان للشياطين مقاعد في السماء يستمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما الكلمة فتكون حقا، وأما ما زادوا فيها فيكون باطلا، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله قائما يصلّي بين جبلين بمكة فأتوه فأخبروه فقال: هذا هو الحدث الذي حدث في الأرض».[1]

قلت: وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢١٠-٢١٢).

---

(١)- رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الجن، رقم ٣٣٢٤، وقال: حسن صحيح.

نعم، إنها إرادة الله ووعده في حفظ كتابه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأقام ذلك السدّ المنيع بين شياطين الإنس والجن، فها هم الجن يعلنون صراحة بأنهم لا يعلمون شيئا من الغيب فهم لا يعلمون ما قدّره الله لعباده في الأرض بذلك الإجراء السّماوي أقدّر لهم أن ينزل بهم الشرّ أم أنه تعالى قدّر لهم الرّشد والخير، والأمر موكول إلى الله وحده، فقد انتهى أمر الكهانة وادّعاؤها بمعرفة الغيب. وبذلك يتحرّر العقل البشري من الخرافات والأوهام إذ وجد رشده في القرآن الكريم، وما ألطف تعبير الجن في عدم نسبتهم الشر إلى الله في مقابل نسبتهم الرّشد له، وذلك دليل على تغلغل الإيمان في قلوبهم.

هذا ويعقب سيد قطب على مقولة الجن في هذه الآية فيقول: "أما أين يقف ذلك الحرس؟، ومن هو؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئا، وليس لنا مصدر سواهما نستقي منه عن هذا الغيب شيئا، ولو علم الله أن في تفصيله خيرا لنا لفعل، وإذ لم يفعل فمحاولتنا نحن في هذا الاتجاه عبث، لا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا لشمرة شيئا".[1]

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا، وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾:

يتابع الجنّ الحكاية عن أحوالهم المختلفة بما يصحح كثيرا من الأوهام التي يحملها البشر بخصوص معرفة طبيعة ذلك الخلق المستتر العجيب، فهم ذوو طبيعة مزدوجة إلا من تمحّض منهم للشرّ كإبليس وذريته، فقد قرّر هذا النّفر المؤمن من الجن

(١)- في ظلال القرآن: ٢٩/٣٢٥.

بأن منهم صالحين، ومنهم دون ذلك، كما أنّ منهم مسلمين وقاسطين، أي جائرين فاسدين بمعنى أن لهم قابلية واستعداد للخير والشرّ كالإنسان، لذا فهم مكلفون محاسبون على أعمالهم وأنهم في الدّنيا يشكلون فرقا مختلفة متباينة في توجهاتها، ولكن الفريق المؤمن منهم يدركون قوة الله ويذعنون لسلطانه وقهره، لا يملكون الانفلات من قبضته على عكس ما يعتقد فيهم الناس من القوة والتمرّد، إذ هم عاجزون وهم في الأرض لا يقدرون على الهرب للانفلات من سلطان الله، وهم يحمدون الله على نعمة الهداية، إذ أنهم بمجرّد ما سمعوا القرآن صدّقوا وأقرّوا بأنه من عند الله حقا، فاكتسبوا بذلك ثقة بربهم واطمئنانا على رحمته وعدله فعرفوا بذلك حقيقة الإيمان، وأن المؤمن بربّه لا يبخس حقه أبدا ولن يرهقه الله بما فوق طاقته في مجال التكليف، بل هو العدل والإنصاف والرّحمة والإشفاق يعامل بها المؤمن في كنف الله، فلا قلق ولا أزمات نفسية، والمؤمن يعيش في توازن حتى إذا كانت الضّراء صبر فلم يهلع ولم يجزع وهو يرجو الفرج من ربّه وإذا كانت السّرّاء شكر وحمد الله عليها، فلا يتكبّر ولا يطغى، فهو في الحالين على خير، كما قال رسول الله ﷺ.

وعلى ذكرهم لحقيقة الإيمان وثمراته في سلوك المؤمن، فإنّ الجنّ يقرّون بالجزاء الأخرويّ على الهدى والضّلال، وهم يركزون في معرفتهما على التحدّي والبحث والتمحيص، وذلك هو ما اعتمد عليه فريق المسلمين منهم للتوصل إلى معرفة الهدى والرّشاد، فكان إسلامهم مبنيا على النظر والتأمّل يتركز على القناعة الذاتية بحقائقه وعدل أحكامه، بينما القاسطون المنحرفون عن منهج الله فمصيرهم إلى جهنم يكونون وقودا لها تماما كما ينطبق ذلك على بني الإنسان.

وعلى ذكر الجزاء الأخرويّ على لسان الجن، بيّن الله منته في مكافأة خلقه في الدنيا إذا سلكوا سبيل هدايته فقال: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا. لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**﴾.

يبدو أن هذه الآية منفصلة عن مقالة الجن فيكون التقدير: وأوحي إليّ ...إلخ. والضمير في قوله: ﴿لَوِ اسْتَقَامُوا﴾ إما أن يكون راجعا إلى الناس كلهم ويفهم ذلك من السياق، أو يكون راجعا إلى القاسطين.

والطّريقة هي ملّة الإسلام، لو استقام النّاس واتبعوا هديها كما أمرهم الله لكان من نتيجة ذلك الإنعام من الله بأنواع الخيرات، والتي من أسبابها نزول الأمطار وتوفر المياه التي يزدهر بها العمران.

وقوله تعالى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ هو تذكير بأنّ بسط النّعم على الخلق هو ابتلاء واختبار لهم من الله أيشكرون أم يكفرون؟، فمع الشكر دوام النّعمة، ومع الكفر بها يقول تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، والإعراض عن ذكر الله يصحبه العيش الضّنك وحلول نقمة الله بأنواع البلايا في عذاب شاقّ أليم.

تلكم هي الحقيقة الاجتماعية التي كررها القرآن في سور شتى، فإذا ما وجدنا أمّة لا تستقيم على أمر الله، ثم هي تتمتع بوفرة الغنى ظاهريا، فإن الله تعالى يسلط عليها من جهة أخرى شرورا أخرى تسلب أمنها وتقلق راحتها بحيث تمتهن كرامتها ويتيه أبناؤها في متاهات الانحرافات فلا تذوق طعم الرّاحة ولا يتحقق لها رخاء.

وصدق وعد الله في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ (الطلاق:٨-٩).

والله أعلم.

بيان بعض ما أوحي به لرسول الله ﷺ، والتأكيد على اختصاص علم الغيب بالله تعالى.

أ)- النص:

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ
كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ
إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾
قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ
عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾
لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: الجملة في موضع رفع بالعطف على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ أو في محل جرّ بتقدير حذف حرف الجرّ: لأن المساجد. و﴿الْمَسَاجِد﴾: المقصود هو المسجد الحرام، ولفظ الجمع للتعظيم. ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾: هو رسول الله والإضافة للتشريف. قام يدعوه: اجتهد في الدعوة إلى الله، ﴿لِبَدًا﴾: اسم جمع لبدة، وهو ما تلبّد بعضه على بعض، ولبدة الأسد الشعر المتراكم على رقبته، أي يكون المشركون متزاحمين حوله. ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي﴾: لن

يدفع عني عذابه، و﴿مُلْتَحَدًا﴾: الملتحد: الملجأ والمكان الذي يعصمه من الضرّ. ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾: منصوب على الاستثناء المتصل بمعنى: من يجيرني من الله إن لم أبلّغ رسالته، وإما منقطع بمعنى: لن يجيرني أحد. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾: ﴿مَنْ﴾ إما استفهامية فهي مبتدأ، ﴿أَضْعَفُ﴾: خبره، ﴿نَاصِرًا﴾: تمييز، وإما بمعنى: الذي، فهي في موضع نصب مفعول: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾. ﴿أَضْعَفُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف: هو أضعف. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: أي هو عالم الغيب، وهو ما خفي علمه عن العباد، ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾: فلا يطلع عليه أحدا إلا من اختاره الله لرسالته. ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾: بمعنى: من ارتضى الله من رسله لإنزال وحيه، فإنه يحيطه لجماعة من الملائكة حراسا يحفظونه ويحفظون ما ينزل عليه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: اتفق القراء العشرة على فتح الهمزة في: ﴿أَنَّ﴾، فهي معطوفة على مرفوع قوله: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، والتقدير: أوحي إليّ اختصاص المساجد لله. ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾: قرأ نافع وحده وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة، وقرأه الباقون بفتحها. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾: قرأ الجمهور: ﴿قَالَ﴾ بصيغة الماضي، وقرأه حمزة وعاصم وأبو جعفر: ﴿قُلْ﴾ بدون ألف، على صيغة الأمر، فتكون الجملة استئنافا. ﴿لِيَعْلَمَ﴾: قرأ رويس عن يعقوب: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بضمّ الياء وفتح اللام، مبنيا للمفعول.

د)- البيان والتّفسير:

لقد بيّنا عند التّمهيد لتفسير السّورة بأنها تشتمل على قسمين:

أ)- قصة استماع نفر من الجن للقرآن وكيف كانت ردود فعلهم في ذلك، وينتهي هذا القسم عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (الجن:١٧).

ب)- وهنا نحن نشرع في القسم الثاني منها، وهو موجّه إلى قريش يدعوهم فيه الرّسول إلى استخلاص الدّروس من إسلام الجنّ بنبذ عبادة الأصنام، وتخصيص العبادة لله وحده في المساجد ثم يبين لهم مصيرهم عند قيام السّاعة التي يسألون عن وقتها بينما أمرها عند الله وحده.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾: ﴿الْمَسَاجِدَ﴾: جمع مسجد، أي مكان السّجود، وهي الأماكن التي خصّصت للصلاة وعبادة الله، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ هي للاستحقاق، فهي لله وحده دون الأصنام، فالدّنيا بكل مفاتنها تقف وراء جدران بيوت الله، فتتوارى في رحابها القيم المادية، فلا اعتبار للمال ولا للجاه ولا لغيرها من الاعتبارات التي يتفاضل بها النّاس، ولذلك جاء التفريع بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، أي يجب أن تتمحض عبادة المؤمن لله وحده، وجيء بصيغة الجمع "المساجد" ليشمل كلّ المساجد في جميع أنحاء الأرض، والخطاب فيه لكل مؤمن وتقي، وقيل: الخطاب للجن. لما روي أنهم قالوا: كيف نشهد الصّلاة معك يا رسول الله على بعدنا عنك فنزلت. بمعنى: أعبدوا الله حيثما كنتم تقبل عبادتكم إن لم تشركوا.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا، قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾: هو الرّسول ﷺ، والإضافة تكريم وتشريف له، وقد كان يصف نفسه بذلك تواضعا فيقول: «إني عبد الله ورسوله»[1]، والضّمير

---

(١) - رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم... ﴾، رقم ٣٤٤٥.

في: ﴿وَأَنَّهُ﴾ للشأن، وأما في قوله: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ﴾ فهو إمّا للجنّ الذين حضروا صلاته بأصحابه معجبين، وإمّا يعود لمشركي قريش وغيرهم وهم يتجمّعون حول رسول الله متراكمين في جماعات ليشوّشوا عليه ويبطلوا أمر الدّعوة، ولا يبعد أن يعود الخبر إلى الجنّ لتصوير تعجّبهم من أفعال الصّلاة التي ما كانوا يعرفونها من قبل.

والله يأمر نبيّه بالتفرّغ لتبليغ دعوته جاعلا من نفسه القدوة في ما يدعو إليه من بيان حقيقة الإسلام بتصحيح المفاهيم الباطلة التي تسيطر على العقول، فبدأ بتركيز عقيدة التّوحيد.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾: فمبدأ الوحدانية لله تعالى هو الرّكيزة الأساسية للدعوة الإسلامية يعلنها رسول الله على مسمع الدّنيا تأكيدا لما أعلنه الجنّ من قبل إذ قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ٢). فيتحقق بذلك كون الرّسول مبعوثا رحمة للعالمين بما في ذلك الإنس والجن، ثم هو يتجرّد من كلّ ادّعاء مما نسبه البشر إلى أنبيائهم من بنوّة لله أو اختصاصهم بصفة من صفات الألوهية، فيأمره الله أن يعلن أنه بشر لا يملك لغيره نفعا ولا ضرّا: **﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا. قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا. إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾**.

والرّشد هو معرفة الصّواب، يقابله الغيّ، والضرّ يقابله النّفع، جمع بينهما على طريقة الاحتباك، ومعنى: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ لا أقدر لأجلب لكم نفعا أو أدفع عنكم ضرّا؛ لأن ذلك من اختصاص الله وحده، بل أمره الله أن يؤكد ذلك العجز عن النّفع والضّرّ حتى لخاصّة نفسه وشؤونه، إذ لا ملجأ لي عند النّوائب والشّدائد إلا إلى الله وحده يعصمني ويحميني إن أنا قصّرت في إبلاغ رسالته، وقد كان قومه من المشركين قالوا له: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت النّاس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك، فنزلت هذه الآية، كما روي ذلك في أسباب النّزول.

وهكذا يؤكد الإسلام بشرية الرّسول وأنّه خاضع كغيره من النّاس لقانون الجزاء في الثّواب والعقاب، وحاشا لرسول الله أن يقصّر في تبليغ رسالة ربّه، وإنما هو تجريد لشخصية الرّسول من رواسب أهل الدّيانات السّابقة كما قال الإمام البوصيري:

دع ما ادّعته النّصارى في نبيّهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فإنّ فضل رسول الله ليس له حدّ فيعرب عنه ناطق بفم
فمبلغ العلم فيه أنّه بشر وأنّه خير خلق الله كلّهم

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: لم تجد محاولة المشركين مع رسول الله للتخفيف من لهجة دعوته كما اقترحوا عليه، وقد ازدادوا إصرارا وعنادا فكان من المناسب أن يجيء هذا التعقيب بتهديدهم بنار جهنم حيث لا ينفعهم النّصراء ولا كثرة الأتباع. والإتيان بصيغة المضارع المقرونة بسين التنفيس للدلالة على قرب ذلك عندما تنقلب الموازين في الدنيا والآخرة؛ فيصبح الرّسول والمؤمنون معه قوة ضاربة، فيعلم الذين كفروا أي الفريقين الضعيف المخذول.

ولما كان ذلك مما يكشف عنه الغيب فقد أمر الله رسوله أن يتجرد من أمر الغيب: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا، عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾: على كثرة سؤال المشركين عن موعد السّاعة على وجه التحدّي والتعجيز لرسول الله يأتي أمره له بأن يقول لهم: لست أعلم ذلك الموعد أقريب هو أم بعيد؟، إذ هو من الغيب المطلق الذي استأثر الله به، وليس للرسول من أمر ذلك شيء إلا أن يبلغ ما كلّفه الله به، وقد استثنى الله حالة واحدة في ما يأذن به أن يطلع عليه رسله من تلك المغيبات ليستدلوا بها على نبوءتهم في تبليغ دعوتهم إلى النّاس فيكشف الله لهم ما يشاء منها عن طريق الوحي فيحيطهم الله بهالة من حراس ملائكة يحفظونهم من الشياطين ويشدّون أزرهم في تحمّل أمانة الرّسالة الثقيلة، فلا

يتناهم الضّعف البشري من العجز والسّهو والنّسيان، فهي رقابة شديدة محكمة الرّصد. وبذلك ينتهي أمر الكهانة والسّحر والتنجيم ويتحرّر العقل البشريّ من تلك الأوهام والخرافات، ويبقى وحي الله النّور الهادي في ظلمات الحيرة والضّلال.

ويذكر الله في ختام السّورة حكمة تلك الرّقابة المشدّدة على وحيه فيقول: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وعلم الله هنا هو علم ظهور وانكشاف في الواقع عن تبليغ رسله ما كلّفوا به من الرّسالات الإلهية كاملة محفوظة دون زيادة أو نقصان، وأنّه تعالى عليم بكلّ أحوالهم ما ظهر منها وما بطن، ولا يقتصر ذلك على الرّسل، بل الله محيط علمه بكلّ شيء إحصاء وعدًّا، لا يندّ عن قبضته شيء.

ويحتمل أن يعود الضّمير في: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إلى النبي الموحى إليه أنّ جبريل والملائكة قد بلّغت عن الله ما كلّفت به من الوحي تماما من غير تبديل، إذ أوصلوه إلى الرّسل محفوظا من عند الله. وتبقى الآية الختامية على معناها العامّ في إحاطة علم الله وشموليته بكلّ ما في الكون.

والله أعلم.

سورة المزمّل مكّيّة، وآياتها ٢٠

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة المزّمل إضافة إلى اللّفظ الواقع في أوّلها "المزمّل"، أي المتلفف بثيابه، ويجوز أن يراد به النبي موصوفا بذلك، يأمره الله أن يترك التزمّل وينهض إلى تبليغ رسالة ربه.

وهي مكّيّة كلها، إلا أن الرّواية تقول بأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ...﴾ إلى آخر السورة نزل مفصولا عما قبله بمدّة. وقيل: إن هذا الجزء نزل بالمدينة. وآياتها عشرون آية.

أما عن ترتيب نزولها فقد وقع فيه -أيضا- خلاف، ويرجح الإمام جابر بن زيد أنها هي الثالثة أي بعد نزول المدثر، وهي الثالثة والسّبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وتنقسم السّورة إلى ثلاثة محاور:

أ)- المحور الأوّل من الآية الأولى إلى الآية العاشرة: يتضمّن أوامر ووصايا لرسول الله تتعلق ببعض التكاليف التعبدية كقيام اللّيل وترتيل القرآن وإقام الصلاة وبالتفرغ للقيام بتبليغ دعوة الله.

ب)- المحور الثاني: من الآية الحادية عشر إلى التاسعة عشر، يتضمن وعيد الكافرين بالعذاب العاجل والآجل، والتأكيد على أن رسالة الإسلام رسالة تذكير وإقناع وقد أمر الله رسوله بالإعراض عن الكافرين وهو يتكفل بنصره.

جـ)- المحور الثالث: تتضمنه الآية الأخيرة، وهو ملحق بالدّرس الأول من السّورة، إذ فيه نسخ لقيام معظم الليل وتخفيفه إلى الثلث وجعله الحدّ الأدنى رعيا

للأعذار والاكتفاء بتلاوة ما تيسر من القرآن مع مداومة الاستغفار والتفرغ في النهار لشؤون التبليغ.

إرشاد النبيّ ﷺ وتثبيته في بدء الدّعوة.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا
سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾: نداء فيه تلطف برسول الله. و﴿الْمُزَّمِّلُ﴾: هو الملتف بثيابه، أصله: المتزمل. أبدلت التاء زايا، وأدغمت الزاي في الزاي. ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾: المراد به القيام للصلاة، ﴿اللَّيْلَ﴾: منصوب على الظرفية، وقيل: هو مفعول به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿نِصْفَهُ﴾: بدل من الليل. ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾: أي القرآن الكريم لما فيه من التكاليف، وإلقاؤه عليه هو إبلاغه له عن طريق الوحي، وهو ثقل مجازي مستعار لصعوبة حفظه ولما فيه من التكاليف. يقول عبادة: «**كان الرّسول ﷺ إذا**

أنزل عليه كرب لذلك وتربد له جلده»[١]. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: تعليل لتخصيص الليل بالقيام، بأن فيه تزكية وتصفية للنفس، والمراد بها أعمال العبادة التي تنشأ في الليل. ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾: من الوطء على الأرض، وهو مستعار لتمكن المصلي من صلاته خشوعا وتذللا. ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾: ﴿سَبْحًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿طَوِيلًا﴾: نعت، والسبح: حركة الانتقال من مكان إلى آخر. ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ﴾: مجال للتفرغ لشؤون الدعوة. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: التبتل: الانقطاع، وهو هنا تفرغ البال والفكر إلى ما يرضي الله. ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: أي دارهم وتجنب إثارتهم مفوضا أمرك إلى الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَطْئًا﴾: قرأ الجمهور بفتح الواو وسكون الطاء بعدها همزة، أي من الوطء، وأصله وضع الرجل على الأرض، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وحده: ﴿وِطَاءً﴾ بكسر الواو وفتح الطاء ومدّها، مصدر واطأ، والوطاء: الوفاق والملاءمة. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر، قرأوا برفع ﴿رَبُّ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف بخفض ﴿رَبِّ﴾، على البدل من ﴿رَبِّكَ﴾.

د)- البيان والتفسير:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾: يروى في سبب النزول عدة روايات منها: حادثة بدء الوحي في غار حراء عندما جاءه جبريل فرجع النبي إلى بيته مرتعدا وآوى إلى فراشه وهو يقول: زملوني،

---

(١) - رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، رقم ٢٣٣٤.

زمّلوني، فبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل وقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وعلى إثرها نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾. ومنها ما قيل: إنّ قريشا اجتمعت في دار الندوة تدبّر كيدها للنبي ﷺ لصدّ النّاس عن دعوته، فبلغ ذلك لرسول الله فاغتمّ له وتزمّل في ثيابه ونام مهموما فجاءه الملك جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

ومهما يكن السّبب في نزول هذا النّداء العلوي على رسول الله، فقد وعاه تمام الوعي وعلم أنّ هناك تكليفا ثقيلا وجهادا طويلا ينتظره.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، إنّه النّداء العلوي جاء بهذه الصّفة لرسول الله لينشط من عقال ويقوم للجهد والكدّ في حمل الأعباء الثّقال فهو نداء تلطف وارتفاق ونداء تحفيز وتشجيع، فلات وقت راحة ونوم، بل هو تجافي الفراش للقيام بعبادة الله والنّاس نيام.

إنه الإعداد الرّوحي للمهمة الكبرى، مهمة الدعوة إلى الله، وقد جعل الله نصف اللّيل هو معدّل الوقت لتلك العبادة بزيادة أو نقصان قليلين على أن لا يتجاوز الوقت كله مقدار الثلثين، ولم يكن أصحاب رسول الله بمعزل عن وعي ذلك النداء إذ علموا واجب الاقتداء بالرّسول فكانوا يقومون اللّيل حتى تورمت أقدامهم لمدة سنة ثم أنزل الله التخفيف في آخر السّورة فأصبح قيام اللّيل تطوّعا.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾: فإلى جانب الصّلاة في جنح اللّيل وما يكون لها من التأثير المطلوب في تهذيب النّفس وصقل الرّوح في اتصالها بالخالق، أمر الله رسوله بترتيل القرآن، وذلك بتلاوته في إمعان وتدبّر وقراءته بتمهّل لتستبين حروفه بحسن إخراجها من مخارجها مع تزيين الصّوت بدون تكلف لما ورد في الصّحيحين من قوله

ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[(١)]، وسئلت عائشة عن قراءة النبي فقالت: «**إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم**».[(٢)]

ثم نوه الله بعظمة القرآن وبما يحمله من تكاليف فقال: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾، الجملة تعليل للأمر بقيام الليل والذي يهيئ نفس الرسول لتحمل شدة الوحي، وقد عرفنا معاناة رسول الله في بدء تلقي الوحي بغار حراء، كما ورد في حديث عائشة في إجابتها عن الذي سأل، كيف يأتيك الوحي يا رسول الله، عندما قالت: «**فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد**»[(٣)]، ولا شك أن القول الثقيل الملقى على رسول الله هو نزول القرآن عليه، وثقله مجازي -لا محالة- وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان ذلك من عدة أوجه.

ويلخص الإمام ابن عاشور ذلك في قوله: "ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه، وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء، فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه".[(٤)]

قلت: وللقرآن ثقله المعنوي في جوانب أخرى متعددة في ميزان الحق، ومعايير العدل، وفي مجالات السلوك.

---

(١)- رواه النسائي من حديث البراء بن عازب، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم ١٠١٥.

(٢)- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم ٣٥٦٨.

(٣)- رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم ٢.

(٤)- التحرير والتنوير: ٢٩/٢٥٤-٢٦٠.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: ﴿نَاشِئَةَ﴾ وصف من النشء -أي الحدوث-، والمراد بها الصّلاة التي ينشئها المصلّي بعد نومه كما فسرتها أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بكونها أشدّ وطأً.

وقد فسّره بعضهم بتمكن المصلّي من صلاته خشوعا وتذللا، فإن التعبير يمكن أن يدلّ -أيضا- على الجهد البدني في مغالبة لذة النوم وجاذبية الفراش. كما أن قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ يدلّ على إشراقة الروح وأُنسها بمناجاة ربّها مما يسكب الطّمأنينة في القلب ويطلق اللّسان من عقاله تسبيحًا وتعظيمًا وذكرًا لجلال الله وعظمته، فإذا كان المؤمن العادي يجد في قيام اللّيل ذلك الجوّ الملائكيّ الربّاني، فما بال رسول الله وهو الموصول بالملأ الأعلى وهو الأتقى لله والأشدّ معرفة بقدره وجلاله، ولا شك أن اختيار الله له قيام اللّيل، هو إعداد له لتلقيه ذلك القول الثقيل من وحي الله، ولأنّ له في النّهار مشاغله الكثيرة في تبليغ الدّعوة والقيام بشؤونه الخاصة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

فليس الانشغال بشؤون الحياة نهارا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ:١١). ليس ذلك الانشغال بصارف عن ذكر الله، بل إن ذكر الله بالقلب واللّسان مطلوب من المؤمن في كل وقت من ليل أو نهار، على الكيفية التي تناسب الظّروف والأحوال، فيكون الذّكر تارة بالصّلاة وتارة بتلاوة القرآن وأخرى ذكرا بالقلب واللّسان تكبيرا وتسبيحًا وتحميدًا، فالمهمّ هو الإخلاص لله في ذلك والانقطاع إلى حضرته العلية وحصر التوجّه إليه وحده.

وتبتل المؤمن إلى ربّه لا يعني في الإسلام رهبانية النصارى بالانقطاع الكلي في المعابد عن الدّنيا وشواغلها وإنما يعني دوام استحضار جلال الله وعظمته في كل الأحوال والتّوجه إليه بخالص الأعمال، لأنه الواحد القهار الكبير المتعالي.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: جاء ذكر المشرق والمغرب على ذكر النّهار واللّيل، وهما ظاهرتان لشروق الشّمس وغروبها. والمراد استيعاب جميع جهات الأرض، فالله وحده هو ربّ كلّ متجه في هذا الكون وهو الواحد الأحد الفرد الصّمد، وإذ كان الله كذلك حقا وصدقا فقد فرّع عليه قوله مخاطبا رسوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، فهو الذي يتولى نصره على أعدائه، وهو الذي يرزقه الثّبات والصّبر في القيام بمهمته الثقيلة. ولذلك أمره بالصبر على ما يلقاه من قومه فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

فبعد التّوجيه إلى القيام والذّكر وتفويض الأمر إلى الله وحده يعقبه هنا الأمر بالصّبر على أذى القوم مما ينالون به الرّسول من السّبّ والشّتم والاستهزاء، ووصى الله رسوله أن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل، ولا يستعجل لهم، لأن الصّبر هو عدّة الدّاعين إلى الله في كل زمان ومكان، فهو الزّاد الروحيّ في جهادهم الشّاق وهو عتادهم في مواجهة الأعداء. ومن الصّبر أن يداريهم ويهجرهم هجرا جميلا فلا يعاملهم بالمثل -أي أذى بأذى-.

ولا ينسحب ذلك على الدّعوة نفسها، بل يجب أن تستمرّ مع ذلك بالوسائل المتاحة لأنها تبليغ عن الله، يقول الشّاعر في هذا المعنى:

اصبر على كيد الحسو ... د فإن صبرك قاتله

كالنّار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

والله أعلم

تهديد المكذبين برسالة الإسلام، والتأكيد على أنها تذكرة لمن شاء الذكر.

أ)- النص:

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا
ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ
فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ
شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾: أي دعني أتولى الانتقام منهم، ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ﴾: منصوب على المفعول معه والواو للمعية. ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾: بفتح النون، اسم للترفّه، تجمع على "أنعم". والنّعْمَة -بكسر النون- الحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية ورزق، تجمع على: "نِعَم" -بكسر النون وفتح العين- وقد تجمع جمع سلامة: نعمات. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾: التمهيل الإمهال الشديد، أي تأخير العقوبة. ﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر محذوف. ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: ﴿أَنكَالًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، واحده: "نِكل" -بفتح النون وكسرها- القيد الثقيل. ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: من غصّة الحلق بالطّعام ونحوه، أي عندنا هذه الوسائل من العذاب. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا

مَّهِيلًا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية. ﴿تَرْجُفُ﴾: تزلزل وتضطرب. ﴿كَثِيبًا﴾: جمع: كثبان، الرمل المتجمع. مهيلًا: من مهل الشيء إذا نثره، وهلت التراب أي حركت أسفله فسقط أعلاه. ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: الأخذ مستعمل في الإهلاك. ﴿أَخْذًا﴾: مفعول مطلق، ﴿وَبِيلًا﴾: شديدًا، من وبُل المكان إذا فسد هواؤه. ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾: ﴿مُنفَطِرٌ﴾: أي منشق متصدّع. ﴿بِهِ﴾: الباء بمعنى "في"، أي السماء على عظمتها تنفطر كذلك اليوم. وضمير: ﴿وَعْدُهُ﴾ عائد إلى: ﴿يَوْمًا﴾ الموصوف. ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾: ﴿هَٰذِهِ﴾: الإشارة إلى الآيات المتقدمة. تذكرة: من الذُّكر -بضم الذال- خطور الشيء على بال الإنسان.

ج)- البيان والتفسير:

بعد تلك الإرشادات الموجهة لرسول الله في الانطلاقة الأولى لدعوته، هدّد الله للمكذبين المغرورين بحظوظهم الدنيوية، وتوعّدهم بما ينتظرهم من العذاب العاجل والآجل، وطمأن الله رسوله بأنّه هو الذي يتولّى أمرهم وينتقم منهم، ثم أكّد على أن رسالة الإسلام تذكرة لمن شاء أن يذّكر ويسلك الطريق القويم إلى مرضاة ربّه فقال جلّ من قائل: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾، إذا أمر الله رسوله هجر المكذبين فلأنه بشر مثلهم لا حول له ولا قوة تدفعهم إلى الطاعة والامتثال إلا أن يكل أمرهم إلى القويّ المتعالي الذي خلق أولئك المكذبين، وها هو ذا يوجّه نقمته ويصبّ جام غضبه لنصرة رسوله بأن يتكفل هو بهم ويكفيه أمرهم، وليتفرغ الرسول إلى البلاغ وليستريح من التفكير في شأن المكذبين، أولئك المغرورين بالمال والرفاه في الدنيا، فانتظرهم قليلًا لترى عاقبة أمرهم لأن متاع الدنيا قليل أيًا كان أمرها كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧).

ثم تهدّدهم الله بأربعة أنواع من العذاب تقابل ما لديهم من زينة ومتاع فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، إنما الجزاء المناسب الذي ينتظر أولئك المترفين الذين أبطرتهم النعمة ناسين فضل المنعم عليهم، ذلك لأن تصديقهم برسالة الله وتطبيق أحكامها يقتضي منهم ترك بعض ملذاتهم وصرف البعض من أموالهم إلى من يستحقونها من المحرومين، وهم يريدون الاستئثار بذلك لأنفسهم، فها هي ذا ألوان من عذاب الله ينتظرهم مقابل ما كانوا عليه من المتاع الدّنيوي. فالأنكال، وهي القيود الثقيلة مقابل المتاع الصّحي والحرية الحركية. ونار جهنم مقابل التبرّد والاستظلال. والطّعام ذو الغصة مقابل التلذذ بأطايب الطّعام والشّراب.

ويجمع كل ذلك العذاب الأليم في يوم رهيب يصفه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾، إنه اليوم الذي يشمل فيه الهول الأرض نفسها بكلّ من عليها إذ تزلزل وتضطرب وجبالها الرّواسي تصير كالكثيب المهيل أي الرّمل المتجمع المهلهل، إذ تفكك كتلتها الصّخرية فتكون كالعهن المنفوش، ودخول: ﴿كَانَتِ﴾ على الجملة للدلالة على تحقق الوقوع.

وإذ كان هؤلاء المكذبون لا يؤمنون باليوم الآخر فقد هدّدهم الله بالعذاب الدّنيويّ الذي حلّ بالأمم السّابقة فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾.

انتقل الخطاب إلى المشركين من قريش ومن يكون على شاكلتهم بضرب المثل بفرعون مع موسى ، وهو مناسب لأهل مكة في جبروتهم وعنادهم وفي افتتانهم بزينة الدّنيا كفرعون الذي جعله الله سببا للإعراض عن دعوة الرّسول، إذ كلّ من فرعون وأهل مكة قد استخف برسوله واحتقره، فقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢)، وقال أهل مكة: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ (الفرقان:٤١). فكلا الرسولين يشهد على قومه يوم القيامة بما صدر منهم من كفر وعصيان.

وقد هدّد الله الكفار بأن يعاقبهم عقابا شديدا كما عاقب فرعون بأن أهلكه وجنوده غرقا في اليمّ وذلك هو الأخذ الوبيل، ثم هم مقبلون على عذاب أعظم وأشدّ هم عاجزون عن اتقائه ودفعه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.

تفرّع على ما تقدم هذا الاستفهام التعجيزي، وقد انتقل من التهديد الدنيويّ إلى التهديد الأخرويّ، وذلك على فرض إمكانية تحمّلهم للعذاب الدنيوي، فهل يستطيعون تحمّل العذاب الأخرويّ وقد ضخّم الله أهواله من وجهين:

أ)- ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾: فهو يوم مشحون بالأهوال والأحزان، وقد شاع عند النّاس بالتجربة أنّ شدة الهمّ والحزن تسرّع الشّيب، وأعجبه ما يصيب الولدان وهم في زهرة العمر، مبالغة في تضخيم وطأة الخوف.

ب)- ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾: وانفطار السّماء يعني تشققها وانصداعها، وهو منظر مهول أعظم من منظر رجفة الأرض ونسف الجبال، إنّما صورة للفزع الأكبر في ذلك اليوم الذي يؤكد الله وقوعه -لا محالة- بقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، على أن الضمير في: ﴿وَعْدُهُ﴾ يعود إلى ذلك اليوم المهول.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾: بعد ذلك التهويل في تصوير مشاهد يوم القيامة يجيء هذا التّذييل الحامل للتذكرة والموعظة وقد تصدّر باسم الإشارة إلى الآيات المتقدمة التي من شأنها أن تحمل المنكر للبعث على الإيمان به والإقلاع عن كفره وتنبه المؤمن الغافل لاستدراك ما فاته حتى يعود إلى سبيل الله، لأنها الضامنة للنجاة والأمن والموصلة إلى الخير، إذ لا حائل يصدّ أحدا عن ذلك إلا مشيئته وإرادته. ففي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ تحريض على الإيمان وانتهاج سبيل الله القويم، وفيه تنويه بشأن تدبّر القرآن لما فيه من الاتعاظ والتذكّر، والله أعلم.

التذكير والإرشاد بأنواع من وسائل الهداية.

أ]- النص:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

ب]- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾: خطاب للنبي ﷺ مؤكّد: بـ﴿إِنَّ﴾ للاهتمام به، وهو صريح بأنه كان يقوم من اللّيل قبل نزول هذه الآية، وأن جماعة من أصحابه كانوا يتأسون به عملاً بالأمر الذي في أول السّورة لأن: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ مرفوع بالعطف على الضّمير في قوله: ﴿تَقُومُ﴾ وقوله: ﴿أَدْنَىٰ﴾ بمعنى: أقل. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي يقدّر أوقاتهما ويعلم ما تقومون به فيهما. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: الضّمير في ﴿تُحْصُوهُ﴾ عائد إلى قيام اللّيل المستفاد من قوله: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾. والمعنى: لا تستطيعون تقدير الأوقات وضبطها فيشق ذلك عليكم فتاب عليكم بالتيسير والتّخفيف. ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: قيل: المراد بذلك هو الصّلاة ذاتها؛ لأن قراءة القرآن ركن فيها؛ من التّعبير بالجزء وإرادة الكل. وقيل: المراد تلاوة القرآن بإمعان وتدبّر. ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: من

الضرب في الأرض لاكتساب الرزق، أي التجار المسافرون. ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: استعير لتشبيه الصّدقة على المحتاجين بإقراض الله تعالى، إذ يعطي على ذلك الثواب الجزيل. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾: ﴿مَا﴾ شرطيّة، وتقديم الخير هو ما يقدمه الإنسان في حياته من أنواع الخير بصفة عامّة. ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾: جواب الشرط، أي تجدون جزاءه وثوابه عند الله أضعافًا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ثُلُثَيِ﴾: قرأ الجمهور بضمّ اللام على الأصل، وقرأه هشام عن ابن عامر بسكون اللام على التخفيف. ﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب قرأوا بخفضها، عطفا على ﴿ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾، وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب: ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾، على أنهما منصوبان على المفعول لـ: ﴿تَقُومُ﴾.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان أحوال المكذبين الأشقياء، وأنه تعالى يتولّى أمرهم ويكفي رسوله والمؤمنين شرهم يأتي ختام السّورة تنويها وشهادة من الله لرسوله وطائفة من المؤمنين معه بأنهم واظبوا على قيام اللّيل وفق ما أمرهم به في أوائل السّورة، وأنه تعالى قد خفف عنهم تلك المعاناة من قيام اللّيل فأرشدهم إلى أنواع أخرى من وسائل الهداية وهو أعلم بأعذارهم فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾**.

لقد تقدم في تمهيدنا للسورة بناء على ما ذكره الرواة في أسباب النزول، بأن

الآية العشرين تمثل ما نزل من هذه السورة في المدينة المنورة. وأن المدة بين شطري المكيّ منها والمدنيّ في النزول هي سنة كاملة، وكانت فترة جهد وعنت تحملها المؤمنون مع الرسول تنفيذا لأمر الله بقيام اللّيل حتى تورّمت أقدامهم كما قيل، ويدلّ على ذلك صريح هذه الآية الذي يتضمّن شهادة الله، وكان من رحمته تعالى ولطفه أن قدّر التخفيف والتيسير، فجاء الإخبار الإلهيّ تطمينا وعنوانا للقبول عند الله وهو يعلم مدى إخلاصهم وإقبالهم على ربّهم في ذلك، فأراد أن يخفف عنهم ويعطف عليهم؛ لأنه أعلم بمقادير اللّيل والنّهار وما يتحرون فيهما من الأعمال. وما كان الله يريد لنبيّه ولا للمؤمنين معه الإعنات والمشقة، وهم كانوا يقومون أقل من ثلثي الليل أو يقومون نصفه وثلثه، والله يعلم الضّعف البشري، وقد تزوّدوا بالزّاد الكافي في تلك الفترة، وهم لا يطيقون الاستمرار على ذلك، فرفع عنهم التبعة في ترك قيام الليل، وأمرهم بتلاوة ما تيسر من القرآن بديلا عن ذلك بإمعان وتدبّر وتجاوب مع معانيه. وقيل: إن المراد بتلاوة القرآن هو القيام بما تيسّر من الصّلاة؛ لأن تلاوة القرآن ركن من أركانها. أما عن الحكم الشّرعي في ذلك ففيه خلاف فقهيّ يقول سيد قطب في تعليقه على ذلك: "إنها لمسة الرّحمة والودّ والتيسير والطّمأنينة تجيء بعد عام بعد الدّعوة إلى القيام، ولقد خفّف الله عن المسلمين، فجعل قيام اللّيل لهم تطوّعا لا فريضة، أما رسول الله فقد مضى على نهجه مع ربّه، لا يقلّ قيامه عن ثلث اللّيل، يناجي ربّه، ويستمدّ من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد".[1]

ثم يبين الله الأسباب المخففة لرفع الوجوب عن قيام اللّيل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

(١)- في ظلال القرآن: ٢٩/١٣٦.

أبان الله حكمة ذلك التخفيف فذكر بعض العلل التي تستنفد من المؤمنين الطاقة والجهد، وهو أعلم بمن خلق، فذكر أمورا ثلاثة:

أ)- ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾: أي اختلال صحة الإنسان مما يتعذر معه قيام الليل.

ب)- ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: والضرب في الأرض يعني السفر لما تدعو إليه ضرورة العيش من تجارة وصناعة وزراعة وغير ذلك من دواعي الأسفار والضرب في فجاج الأرض.

جـ)- ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وهم المجاهدون الذين يعملون لنشر الإسلام وحماية بيضته مما يحفظ المصالح العامة للأمة.

ويلاحظ أنّ الله قد جمع بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال للنفقة على النفس وعلى العيال وللصدقة في سبيل الله، كما جاء في الحديث: «**الساعي على الأرملة وكافل اليتيم كالمجاهد في سبيل الله**»[(١)]

ثم ذكر الله ما يلتزم به المؤمنون بعد الترخيص فقال: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾، فرّع على ذكر الأعذار الثلاثة للتخفيف مثل التفريع الذي قبله في المداومة على تلاوة ما تيسّر من القرآن، كما ذكّرهم بالصّلاة المفروضة، وهي الصّلوات الخمس التي فرضت ليلة الإسراء، وبالزّكاة الواجبة في الأموال وقد فرضت بالمدينة مقاديرها، ثم دعاهم بصفة عامة إلى الإنفاق في سبيل الله ووجوه الخير.

وقد اعتبر الله ذلك الإنفاق الخيريّ بمثابة القرض الحسن لله، والله الغنيّ عن العالمين، وإنما هو تعبير لحسن الجزاء والمكافأة كما أكّد ذلك بقوله: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا**

(١)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم ٥٣٥٣.

لأنفسكم مِّنْ خَيْرٍ تجدوهُ عند الله هُوَ خَيْرًا وأعظمَ أجرًا واستغفِرُوا الله إنّ الله غفورٌ رّحِيمٌ﴾.

أي إن المحسنين سيجدون في الآخرة ثواب ما قدّموه في دنياهم من أنواع الخير والإحسان. والقيد: ﴿لأنفسكم﴾ يفيد أنّ العمل الذي يقدّمه المؤمن لنفسه هو الذي يكون لوجه الله وينال منه الثّواب العظيم.

وقوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ هو كلّ ما حسّنه الدّين وحرّض عليه ورتّب عليه الثواب الجزيل، وجواب الشّرط هو قوله: ﴿تجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، ويدلّ على مضاعفة الأجر.

وفي الختام حرض الله المؤمنين على الاستغفار من ذنوبهم؛ لأن البشر معرّضون للذنوب والخطايا، سيما وهم في حاجة ماسّة إلى ما يسدّ مسدّ قيامهم اللّيل الذي هو من أعظم أبواب الخير.

والله أعلم.

سورة المدثر مكيّة، وآياتها ٥٦

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة "المدثّر" لافتاحيتها بما وصف به النبي ونودي به، والمدثر: هو الذي يتدثر بثيابه، ويسمّى ذلك الثوب بالدّثار، وهو ما فوق الثوب الذي يلي البدن، والأصل أن يقال: المتدثر، فأبدلت التاء دالا وأدغم، ويقال: الشّعار، للثوب الذي يلي البدن. والسّورة مكيّة وآياتها ست وخمسون آية، وتختلف الروايات في ترتيب نزولها، فرجّح الإمام جابر بن زيد أنها رابعة السّور، أما في المصحف الشّريف، فهي الرّابعة والسّبعون، وتنقسم السّورة إلى الموضوعات التالية:

– تكريم النبي وأمره بإبلاغ الدّعوة، وإعلان وحدانية الله وتهديد المشركين بأمر البعث.

– تهديد من طعن في القرآن بزعمه أنه قول البشر ووصف أهوال جهنم.

– بيان الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم وهو يتضمّن الرّدّ على المشركين الذين استحقوا بذلك.

– الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين.

– في الختام بيّن الله سبب إعراض المشركين عن التذكرة والعظة.

أمر النبي بإبلاغ الدّعوة، والإعلان عن وحدانية الله.

أ)– النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ
﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ

فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾: ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾: المتلفف بثيابه، فهو إما حقيقة، إذ كان متدثرًا بثوبه عند نزول الوحي عليه، وقيل: هو مجاز، بمعنى تكريمه بالنبوة. ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: أي بادر بجدّ وعزم في التخويف من عذاب الله. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أي عظّمه بالعبادة وحده. انتصب لفظ ﴿رَبَّكَ﴾ على المفعولية، وقدّم على عامله لإفادة الاختصاص. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: وتطهير الثياب يقتضي تطهير البدن وذلك شرط للصلاة، وفي المعنى المجازي يكون لتزكية النفس وطهارة القلب. ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: ﴿الرُّجْزَ﴾: يقرأ بكسر الراء وضمّها، ويراد به النجاسة والمعصية وقد يعبّر به عن الوثن. ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾: أي لا تعط شيئًا فتطلب أكثر منه، والجملة: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾: في موضع نصب حال. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾: أمر بالصبر لتثبيت النبي على ما يلقاه في دعوته. ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾: أي إذا نفخ في الصور، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: بدل. ﴿يَوْمٌ﴾: خبر ﴿عَسِيرٌ﴾، نعت.

ج)- البيان والتفسير:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾: قيل في سبب النزول ما أخرجه الشيخان عن جابر بن عبد الله ما ملخصه: «أن رسول الله ﷺ قال: جاورت بحراء شهرًا، فلما

قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت فقلت: دثروني، فأنزل الله الآية».[1]

أي كان ذلك في فترة انقطاع الوحي عنه ﷺ بعد ما حصل له ما حصل في بادئ الأمر بحراء، ونزول فواتح سورة العلق، والحكمة في ذلك الانقطاع هي تهدئة روعه، وحصول الشوق والحنين إلى الوحي، وقيل: إنه رأى الملك بين السماء والأرض على الصورة التي خلقه الله عليها، فاشتد خوفه منه حتى جثا على الأرض، وقد خاطبه الله بصفة: ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾، أي المتلفف بثيابه حقيقة أو مجازا كما تقدم.

إنه النداء الإلهي للنهوض والقيام بمهمة النذارة للبشرية جمعاء وهي سادرة في غفلتها وضلالها، لتخلصها من الشرّ والعذاب.

والأمر بالقيام يعني المبادرة إلى الجدّ والعزم للأخذ بمهمة الإنذار، أي التنبيه إلى خطر داهم يترصّد الغافلين السادرين في ضلالهم، وفي ذلك إقامة للحجة من الله على عباده، وهو مظهر لرحمته ولطفه بهم حتى ينجيهم من عذاب الآخرة وشقاء الدّنيا.

ولما كانت مهمة الدّعوة ثقيلة شاقة تتطلب من القائم بها خصائص نفسية وكمالات فطرية جاءت تلك التوجيهات الرّبانية لرسوله في خاصّة نفسية لإعداده الكامل في تحمّل مسؤوليته فقال تعالى: **﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾**.

يتضمّن التوجيه الرّباني مبادئ أساسية تعتبر ركائز لهذا الدّين وهي بمثابة عناوين لموضوعات كبرى يتولى الوحي إيضاحها وبيانها.

أ- **﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾**: جاء التعبير بصيغة الاختصاص، وذلك بتقديم المفعول به ﴿وَرَبَّكَ﴾ على الفعل: ﴿فَكَبِّرْ﴾، أي خصّ ربك وحده بالتكبير والتعظيم لأنه

---

(١) – رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المدّثّر، رقم ٤٩٢٤.

هو الخالق لكل شيء، وتكبيره تعالى يتضمن بيان عظيم صفاته وأسمائه الحسنى بما يتطلب ذلك من الأدلة والبراهين، ويتمّ تكبير الرّب تعالى بالقلب واللّسان وتجاوب الجوارح كلها مع جملة: "الله أكبر" التي شرعت في أفعال الصّلاة، وإذا تفاعل العبد مع "الله أكبر" فإنه يستسهل كل صعب، ويستصغر كل مستعل جبار، ويحتقر مكايد الأشرار، وهو في كنف الواحد القهار.

ب)- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: والطّهارة في معناها الحقيقي والمجازي هي من سمات هذا الدّين الحنيف، ومن شروطه الأساسية في أداء العبادات فطهارة الثّياب تقتضي طهارة لابسها، وهي الحالة اللازمة للداعية إلى الله، وهو يتصدى لتطهير غيره من لوثة الضّلال والشّرك، وقد أشاد الرّسول بالطّهارة في قوله: «**الطّهور شطر الإيمان**».[1]

وغالبا ما يكون بين الطّهارة الحسية والطّهارة المعنوية تلازم ويُبقي فحد للمسلم الوفيّ في إيمانه جميل السّمت والمظهر والعكس صحيح.

ج)- ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: ﴿وَالرُّجْزَ﴾: -بضم الرّاء أو كسرها- يعني العذاب وكل ما يؤدّي إليه من الذّنوب والمعاصي وموجبات الشّرك، وحاشا لرسول الله أن يكون قد اقترف رجزا أو تلوث بدنس الشّرك حتى قبل أن يبعثه الله رسولا، وإنما الأمر الإلهي له بهجر الرّجز يعني حضه وتثبيته على الاستمرار على ما هو عليه من الطّهر المعنويّ، ومن خلال شخصه الكريم هو أمر لأمته لتنفيذ ذلك الأمر بهجر كل إثم ومعصية.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾: والمنّ هو تعداد المزايا للغير في ما يفعله الإنسان له من خير، وهو التوجيه الإلهي لرسوله بما نسمّيه نحن نكران الذّات،

(١)- رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٢٢٣.

في ما تقدمه إلى الغير من الخير والإحسان، فإن الرسول ﷺ سيقدم الكثير من الجهد والعناء في إبلاغ دعوته، فلا يستكثر ذلك على أصحابه، وبصفة عامة لا يعط أحدا شيئا طمعا في أن يعطيه أكثر من ذلك، فإن ذلك نقيصة في حق الأبرار.

وقيل: المعنى لا تمن على ربك بما تقدمه له من الطاعات معتقدا كثرتها، فإن ذلك مبطل للأعمال لأن الإخلاص في العمل يقتضي الشعور بأن كل ما يقدمه الإنسان هو من فضل الله ومنه، فلا يرجو من وراء ذلك إلا قبوله ورضاه.

ثم يوجه الله رسوله أخيرا إلى الصبر: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، وهي الوصية التي تتكرر لرسول الله في القرآن لأن الصبر هو السلاح القوي في الدعوة إلى الله وهو الزاد الروحي الأصيل للداعية في تحمل المتاعب والمصائب ومواجهة أعداء الله ومكايد الشياطين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾: بيان لما ينتظر المنذرين -بفتح الذال- من أهوال يوم القيامة، فالنقر هنا بمعنى الصوت، والناقور هو مسببه ولازمه، وهو ما عبر عنه في آيات أخرى بالنفخ في الصور الذي هو إيذان بقيام الساعة الكبرى.

ويرجح أكثر المفسرين على أن المقصود به هو النفخة الثانية عند البعث إلى الحياة الأخرى، بدليل وصفه باليوم العسير على الكافرين، إذ تكون أبدانهم قد روحت بأرواحهم ليوم الحساب وفصل القضاء.

وجاء التأكيد لمعنى: ﴿عَسِيرٌ﴾ بنفي نقيضه فقال تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، فلا مجال فيه لأي نوع من اليسر على الكافرين.

وقد استنتج ابن عباس بدليل الخطاب كون ذلك اليوم يسيرا على المؤمنين، والله أعلم.

تهديد زعماء المشركين ذوي المال والجاه.

أ) - النص:

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ
لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ
﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا
تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾: ﴿ذَرْنِي﴾: بمعنى دعني وفوّض أمره إليّ وأنا أكفيكه، ﴿وَمَنْ﴾: في موضع نصب على أنه مفعول معه، ﴿وَحِيدًا﴾: منصوب على الحال، أي خلقته وحدي ولم يشاركني أحد. ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا﴾: أي أعطيته مالا وفيرا، ﴿لَهُ﴾: في موقع المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْتُ﴾. ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾: أي حاضرون معه في مكة لا يغيبون عنه في سفر. ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾: منصوب على المصدرية، أي مكنته من الرئاسة والجاه ويسّرت له كل الوسائل في ذلك وهو يطمع في الزيادة على ذلك. ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾: ﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر، ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾: أي سأحمّله عذابا شاقا لا يطاق كمن يصعد عقبة كأداء. ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ﴾: علّل الله ذلك الوعيد بتشخيص ساخر للمتحدث عنه في الآية الكريمة، بأنه فكّر وتأمّل آيات القرآن وقد حضّر في نفسه ما يقوله بشأنها، وقوله:

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، هو تعجبٌ ولعن لموقفه ذاك، وكرّر الجملة للمبالغة، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾: أي تأمّل وجوه قومه ليقرر ما يقوله. ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي اكفهرّ وجهه وقطب بين حاجبيه وتغيّر لونه، ثم أعرض عن الإيمان بالقرآن وتكبّر عن دعوة رسول الله فقال عنها: ﴿إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾. ﴿إِنْ هَذَآ﴾: ﴿إِنْ﴾ نافية، والإشارة إلى القرآن، اعتبره سحرًا مما ينقل عن القرون الأولى وأنه من أقوال البشر. ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾: ﴿أُصْلِيهِ﴾ من فعل صلي النار، إذا احترق فيها، ﴿سَقَرَ﴾: من أسماء جهنم، غير منصرف؛ لأنه مؤنث. ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، يقال: لوّحت الشمس لون البشرة أي سوّدت لون الجلد بحرارتها، ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: في موضع رفع بالابتداء، وهو مبني على الفتح، والمعدود هم خزنة جهنم من ملائكة العذاب.

ج) – أوجه القراءة:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: قرأ الجمهور بفتح العين من ﴿عَشَرَ﴾، وقرأ أبو جعفر ﴿تِسْعَةَ عْشَرَ﴾ بسكون العين، من: عْشَرَ، تخفيفًا من توالي الحركات في ما هو كالاسم الواحد.

د) – البيان والتّفسير:

بعد ذكر ما ينتظر الكافرين من العذاب يوم القيامة وتحريض الرّسول على الصّبر لأذاهم، انتقل السّياق إلى تهديد أحد زعماء قريش -وهو الوليد بن المغيرة- إذ هو عرّابهم في اختلاق المطاعن في القرآن، وقد هدّده الله بوعيد جهنّم بعد أن عدّد النّعم التي أنعمها عليه فكفر بها وجحدها، وبدأ الله بتسلية رسوله، بأنه هو الذي

يكفي شرّ ذلك العنود فقال: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلاَّ**﴾.

قيل في أسباب النزول بأنّ الآيات نزلت في شأن الوليد بن المغيرة الذي كان من أشراف قريش وأغنيائها إذ جاء رسول الله فقرأ عليه القرآن حتى رَقَّ قلبه له، فبلغ ذلك أبا جهل، فما زال به يستعديه على رسول الله ويحاوله أن يقول في ما جاء به الرّسول من القرآن قولا يدلّ على أنّه منكر له وكاره لما جاء به، فيرضي بذلك قومه، فقال الوليد لأبي جهل: دعني حتى أفكّر فيه. فقال بعد التفكير الطّويل: إنه سحر يؤثر، أما ترون أنه يفرّق بين المرء وأهله، وولده ومواليه، فنزلت الآيات.[1]

وقد اتفق زعماء قريش أن يذيعوا ذلك في وفود العرب التي ستقدم عليهم عند الموسم، ووفق هذه الرّواية فإن المعنيّ بقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ يكون هو الوليد بن المغيرة. فالخطاب موجّه لرسول الله على وجه التّسلية والتّثبيت بعد أمره تعالى له بالصّبر.

وقوله: ﴿وَحِيدًا﴾ يكون بمعنى: دعني وحدي أكفيك شأن هذا المكذب الجحود، فأنا الذي أتولّى حربه، وأكفيك كيده، ويحتمل أن يكون المعنى: خلقته وحيدا إذ خرج من بطن أمّه عاريا لا مال له ولا ولد ولا جاه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسط الله من أنواع النّعيم ويسّر له من أسبابها ما جعله محظوظًا لا تعترضه مشاكل ولا عقبات وهو مع ذلك يطمع في المزيد، وذلك لا يتأتّى إلا من الله، ولذلك نسب فعل الزّيادة إليه، وهذا الرّجل هو

(١) - رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس، رقم ٥٠٦.

نموذج لطلاب الحياة الدنيا الذين قال فيهم رسول الله: **«لو أن لابن آدم مثل واد مالاً لأحب أن له إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب»**.(١)

وبعد إغراق الرجل في طمعه يأتي التعقيب عليه بالردع والتبكيت بقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، ثم يعلّل ذلك فيقول: **﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾**، أي إنه بعد أن أدرك حقيّة القرآن وعظمة ما سمع من آياته، أصبح معاندا جاحدا مستكبرا عن الإيمان واقفا في وجه الدعوة استبقاء لمكانته الاجتماعية بين قومه، ويعقبه الله على الردع بالوعيد في تصوير بليغ بتشبيهه بمن يصعد عقبة كأداء يتحمّل فيها ما لا يطيقه من المشقة والإرهاق في عذاب يوم الدين وهو -أيضا- تهديد بما سيتعرض إليه في الدنيا من الشدة والعسر بعد تلك الوضعية المريحة التي كان عليها.

ثم يرسم الله له صورة مثيرة للسخرية يجلّي الله الحالة النفسية المضطربة وآثار ذلك على حركته وعلى قسمات وجهه فيقول: **﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾**.

إنه لقرار خطير ينتهي إليه هذا المستكبر العنود، وقد رسم الله له تلك الصورة المثيرة للسخرية والعجب وهو يحاول إيجاد وصف للقرآن يحطّ من قيمته وإعجازه في مسامع قومه وينفّر الناس عنه وهم مقبلون إلى موسم الحج، وقد كشف الله ما يعتلج في باطنه من الصّراع بين الحق والباطل وهو في قرارة نفسه يقرّ بأن القرآن حق من عند الله ولكنه ينكر ذلك بلسانه التماسا لرضى قومه بعدما ألحّوا عليه أن يقول في القرآن شيئا ينفر الناس عنه، ومن ثم أخذ يفكّر ويقدّر وينظر ويجهد نفسه في تزييف الحقيقة

---

(١) - رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، رقم ٦٤٣٧.

وقد تتبع الله مراحل تفكيره وتقديره خطوة خطوة، ويعطف كل مرحلة بـ"ثم" التي تدلّ على التروّي في التفكير والتقدير.

وتعترض ذلك جملتان تتضمّنان دعوة طرد ولعنة وتدلان على الاستنكار والتعجب من ذلك الموقف: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ﴾، نظر تأمّل طويل فيه تكلّف وتصنّع في محاولة إيجاد مقولة تنقص من شأن القرآن حتى ظهر أثر ذلك على وجهه تقطّبًا وعبوسًا، لأنه متناقض مع ما في نفسه من الإعجاب بأسلوب القرآن الكريم وقد قال عنه: والله إن لقوله لحلاوة وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.

ولكنه بعد تلك المعاناة والمجاهدة في التفكير أدبر عن الحق، واستكبر عن الإيمان معلنا مقولته التي لفقها عن القرآن وهو يعلم أنها كذب وباطل إذ أعلن أن هذا الذي يتلوه محمد ما هو إلا سحر يؤثر، أي ينقل عن القرون الغابرة وما هو إلا من قول البشر يتعلمه محمد وينقله للناس مدّعيا أنه تنزيل من ربّ العالمين.

إن ما رسمه الله لهذا الرجل الكافر بتلك الصورة المزرية الداعية للسخرية والهزء هي النموذج الحيّ لتلك النفوس الناكرة للحق وهي تتيقن من نصاعته وثباته كوضوح الشمس، ولكنها ترفضه إيثارا للجاه والمنزلة عند الآخرين، وإنها لنفوس سقيمة لا ينفع معها نصح ولا إرشاد.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبعد ذلك العرض المثير لهذا الصنف من الناس عقّب الله عليه بالوعد الذي ينتظره فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

سقر من أسماء جهنم، والإصلاء فيها بمعنى الاحتراق بلهيبها، وزاد الوعيد بسقر تهويلا وتضخيما بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾، أي إنها لشدة هولها لا يحيط بها إدراك البشر. ثم ذكر الله شيئا من تلك الأوصاف المهولة فقال:

- ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾: فهي لا تبقي على شيء إلا أهلكته فما بال الأجسام البشرية المحرمة؟.

- ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾: يقال: لوحت الشمس البشرة أي تلفح الجلد فيصير أسود. للبشر: جمع بشرة، أو المراد بهم الإنس من البشر كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦).

- ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: أي يقوم على أمرها من الحرس الغلاظ الشداد تسعة عشر من الملائكة، وهم خزنة جهنم، على تقدير للمعدود بأن يكونوا أشخاصا أو أصنافا، والله أعلم. وبما أن ذكر هذا العدد كان مثار سخرية واستهزاء من طرف المشركين، فقد اقتضت حكمة الله أن يعقب على ذلك بأن يكشف خبايا من غيبه في ذلك، والله أعلم.

بيان الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم، -أي التسعة عشر-.

أ)- النص:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ

﴿٣٢﴾ وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن
شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ﴿أَصْحَابَ﴾: جمع صاحب أي الرفيق الملازم للشيء أو القائم على أمره. ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾: منصوب على المفعول الثاني لفعل: ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: جعلنا عدد خزنة النار مادة اختبار للذين كفروا. ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾: منصوب بـ"أن" مضمرة بعد اللام التي هي بمعنى: كي. ﴿وَيَزْدَادَ﴾: منصوب على العطف. ﴿مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: ﴿مَا﴾: في موضع نصب بـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿مَثَلًا﴾: تمييز أو حال. ﴿وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾: ﴿وَالَّيْلِ﴾: أقسم الله به، ﴿إِذْ﴾: ظرف للماضي و﴿أَدْبَرَ﴾: بمعنى تولّى. و﴿إِذَا﴾: للمستقبل، أسفر الصبح بمعنى ظهر وتجلى. ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ، نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾: الضمير في: ﴿إِنَّهَا﴾ يعود إلى النار وصفاتها بأنها من الأمور العظام. و﴿الْكُبَرِ﴾: جمع: كبرى، ﴿نَذِيرًا﴾: منصوب على المصدر أو على الحال من: ﴿إِحْدَى﴾. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾: يتقدم إلى الخير ونعيم الجنة أو يتأخر إلى الكفر ونار الجحيم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾: قرأ نافع وحمزة وحفص ويعقوب وخلف بسكون ذال: ﴿إِذْ﴾، وبفتح همزة: ﴿أَدْبَرَ﴾، وإسكان داله. وهو قسم بالليل إذا تولّى، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم والكسائي وأبو جعفر: ﴿إِذَا دَبَرَ﴾ بفتح الذال المعجمة من ﴿إِذَا﴾ بعدها ألف، وبفتح الدّال المهملة من: ﴿دَبَرَ﴾، على أنه فعل ماض مجرّد، ويقال: دبَرَ بمعنى: أدْبَرَ، ومنه قولهم: أمس الدابر.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن ذكر الله عذاب النّار مهدّدا بها الذي عرف حقّية القرآن وأنكره ممن هم على شاكلة الوليد بن المغيرة وقد جعلوا من ذكر عدد خزنة جهنم مادة سخرية واستهزاء أعقب الله ذلك ببيان الحكمة من كشف ذلك الجانب من الغيب فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾.

تعدّدت الرّوايات في أسباب النّزول لهذه الآية، منها ما رواه ابن عباس وجابر بن زيد أنّ أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، إن ابن أبي كبشة يخبركم إن خزنة النّار تسعة عشر، وأنتم الدُّهم -بفتح الدال وسكون الهاء- أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة النّار؟ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾.

وقال أبو الأشد أسيد بن كلدة -وكان قويا جلدا شديد البطش-: يا معشر قريش لا يهولكم التّسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التّسعة، فأنزل الله الآية.[1]

فيا لهؤلاء الضّعاف المغرورين يظنون أن خزنة جهنم كالرجال الأنداد لهم في القوة والبطش فأنبأهم الله بأنهم من الملائكة الغلاظ الشّداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم من القوة وشدة البأس ما لا يعلمه إلا خالقهم الذي قال في

(١) - أنظر، الطبري، جامع البيان: ٢٤/٢٨.

شأن جبريل مثلا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (التكوير:١٩-٢٠)، وقال عنه -أيضا-: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ (النجم:٥-٦)، وحسبه من تلك القوة أنه -كما روي- هو الذي قلب قرى قوم لوط فجعل عاليها سافلها.

ثم بيّن الله الحكمة من ذكر ذلك العدد من خزنة جهنم لإبطال وهم الكفار حقارة عددهم فصنّف النّاس وفق تلقيهم لآيات القرآن ومدى تأثيره في نفوسهم، وهم كالتالي:

أ)- ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: إذ قال الله فيهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فهذا البيان للعدد هو بالنسبة إليهم فتنة أي اختبار وامتحان يتيهون في جدل عقيم، إذ لا يدركون الأمر الغيبي وأن شأنه كله من أمر الله لا علم للبشر فيه قليلا أو كثيرا، والوحي هو المصدر الوحيد لبيان الحقائق الغيبية، فليس للبشر إلا تلقيه بالتسليم والاطمئنان، لأنه تعالى هو الخالق لكل شيء وهو المقدّر للأعداد والأحجام في سائر الكون بدءا من خلقنا نحن لتسعة أشهر في بطون أمهاتنا، فمن ذا ينازع الله في ذلك؟.

ب)- ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: قال تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنّصارى، ويبتني اليقين على الإيمان، فهم يعرفون هذه الحقيقة الغيبية من كتبهم وبذلك يدركون أن الرّسول حق إذ جاءهم مصدّقا لما بين أيديهم.

ج)- ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُومِنُونَ﴾: أي المؤمنون بما أنزل على محمد أنه الحق من ربّهم يزدادون إيمانا إذ تفتحت قلوبهم واستنارت بهدي الله، فهي تتلقى كل ما ينزل من عند الله بالرّضى

والاطمئنان: لا تناوشهم الشكوك في ذلك وهم سواء في ذلك مع أهل الكتاب إذ استقرت تلك الحقيقة في قلوب الجميع.

د)- ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: فأما الكفّار، فإنّ الفتنة قد طوّحت بهم في متاهات الضّلال فتفننوا في السخرية والاستهزاء -كما تقدم-، ويشاركهم في ذلك مرضى القلوب من المنافقين فراحوا يتساءلون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

والإشارة إلى عدد التسعة عشر من الملائكة خزنة جهنم، فهم لا يدركون حكمة الله في تقدير كل خلق، بل لا يؤمنون ابتداء باليوم الآخر، إذ المقصود في ذلك التساؤل الغريب هو إنكار أصل تلك الحقيقة الغيبية، وإن الخبر هو من تلفيق محمد.

ونظرا لهذا الاختلاف العقديّ لدى قلوب البشر ذكر الله سنته في الهداية والإضلال فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، الإشارة إلى مضمون ما تقدم من بيان تلك الأصناف إزاء تأثرها بآيات الله، أي بمثل ذلك الضّلال الحاصل في قلوب الكافرين والذين في قلوبهم مرض يضلّ الله من يشاء أن يضله من خلقه بناء على سوء استعداده وتوجيه نفسه لمواقع الشرّ والضّلال، فهو يتصرف باختياره في حدود مشيئة الله المطلقة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المهتدي إذ الكلّ خرج من يد القدرة الإلهية باستعداد مزدوج للهدى والضّلال.

ولكن الله ليس بمجبر أحدا على الهدى أو الضّلال، وإلا لما كان للتكليف حكمة، بل لإرادة المكلف دور أساسي في اختياره لأحد النهجين بعد أن حدّد الله لنا بوضوح طريق الهدى وطريق الضّلال، وكل إنسان يختار لنفسه ما يوافق استعداده وهو محاسب على ذلك الاختيار، ولم يكلّفنا ربّنا أن نعلم ما وراء ذلك من أسرار القدر والغيب.

ثم أكّد الله أنّ العدد تسعة عشر هو من الغيب الذي يختصّ بمعرفة حكمته، فخزنة جهنم وإن بدا عددهم قليلا فإنّ لهم من الأعوان والجنود ما لا يعلمه إلا الله، فيكشف عما يريد الكشف عنه فيقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾. وفي هذا ردّ على المشركين الذين استقلوا ذلك العدد، إذ لا يعسر على الله أن يمدّهم بأعوان كثير لا يعلمهم إلا هو، ويكشف عما يريد، فلا سبيل لمعرفة ما لا يكشفه الله من أمور الغيب، وما ذكر سقر أو من يقوم على أمرها من الملائكة إلا تنبيه وتذكرة للخلق كي يدركوا عظمة الله وقدرته فهو غني عن الأعوان والجنود وإنّما جاء ذكر العدد في معرض توصيف دار العذاب ليكون موعظة وذكرى.

ولمزيد من التحذير لمن أنكرها قال: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ، إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ، نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ، لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر، وعلى ذكر القدرة الإلهية في العوالم الغيبية وكشف بعض حقائقها يعود الحديث لنفس الغرض من بيان القدرة الإلهية، يعود إلى ذكر بعض الظّواهر المشاهدة التي توحي بتلك القدرة وتلك العظمة زيادة في ردع أولئك المنكرين للحياة الأخرى، فأقسم الله بالقمر الساطع الضّحوك وباللّيل حين يدبر في هدأة وسكون.

وبالصّبح حين يسفر ويتحرك معه الوجود، يقسم الله بهذه الظّواهر الكونية الثلاث، بأنّ نار جهنّم أو الملائكة الذين يقومون على أمرها هي إحدى الدواهي العظيمة المتميزة بشقائها وعذابها من بين البلايا الكبرى لإنذار البشر وتخويفهم من المصير الذي ينتظرهم، إن هم تمادوا في الكفر والعصيان، وقد جعل الله لهم حق

الاختيار للطريق الذين يسلكونه في دنياهم إلى الجنة يتقدمون إليها بصالح الأعمال أو إلى النار بالكفر والعصيان.

فليختر الإنسان لنفسه ما دام له الاختيار.

الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين، واعتراف هؤلاء بأخطائهم.

أ) - النص:

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ
الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا
الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾
كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ
أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ
﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ
الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾: تقرير التبعة الشخصية لكل إنسان، ﴿رَهِينَةٌ﴾: بمعنى مرتهنة بكسبها أي بعملها عند الله مؤاخذة عليه. ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾: ﴿أَصْحَابَ﴾: منصوب على الاستثناء، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: حال منهم، ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾: يسأل بعضهم بعضا أو

يسألون عن حال غيرهم. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾: أي ما الذي أدخلكم في جهنم؛ والاستفهام للتندم والتوبيخ. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾: أي نجاري أهل الباطل في باطلهم. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾: ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ﴾: البعث للحساب والجزاء إلى أن جاءنا الموت ومتنا على الكفر. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾: شبه الله إعراضهم عن مواعظ القرآن بحمر وحشية تنفر هاربة من الأسد. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿صُحُفًا﴾: جمع صحيفة. منشّرة: أي منشورة، أي مفتوحة، سألوا أن يأتي كل أمر أو نهي لأحد منهم في صحيفة. ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾: ﴿كَلَّا﴾: إبطال لكلامهم، ﴿إِنَّهُ﴾: الضمير يعود إلى القرآن بأنه نزل للموعظة والتذكير. والضمير في: ﴿ذَكَرَهُ﴾ إما أن يعود إلى القرآن أو إلى منزله وهو الله تعالى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مُسْتَنفَرَةٌ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الفاء، أي استفرها مستفر، وقرأها الجمهور بكسر الفاء، أي استنفرت، هي مثل استجاب، فتكون جملة: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ بيانا لسبب نفورها. ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ﴾: قرأ نافع ويعقوب بتاء فوقية، على الالتفات، وقرأ الجمهور بتحتية، على الغيبة.

د)- البيان والتفسير:

بعد تأكيد الوعيد بنار جهنم للعصاة المجرمين بالقسم، وأنها إحدى الكبر والدواهي العظام، والتي لا ينجي منها إلا العمل الصالح، أعقب الله ذلك بتقرير المسؤولية الشخصية لكلّ امرئ بما كسبت يداه في موقف الحساب والجزاء، ثم ذكر الله الحوار الدائر بين أصحاب اليمين والمجرمين لبيان سبب دخول الفريق الثاني نار جهنم،

وأنّ القرآن الكريم إنما هو تذكرة وموعظة لمن شاء الله هدايته من خلقه فقال جلّ من قائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ، مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ، فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

إنه تقرير لعالمية اختيار الإنسان ما يقدمه من خير أو شرّ، فكل امرئ يحمل تبعة نفسه في ما يختاره لها، إذ هي مرتهنة بما كسبت، فليست مؤاخذة بخطايا غيرها، كما أنها لا تنتفع -وهي آثمة- بصالح أعمال آبائها وأجدادها، وقد أقام الحجة على خلقه ببيان طريق الخلاص وطريق الهلاك ليكونوا على بصيرة من أمرهم في ما يختارون، ويستثني الله من تلك القاعدة أصحاب اليمين، وهم السعداء الناجون في الآخرة ممن يتناولون صحائف أعمالهم بأيمانهم وقد جعل القرآن ذلك علامة للخير والنجاة فهؤلاء وهم في الجنات ينعمون يتساءلون في ما بينهم، أي صدور الفعل من جانبين، فيأتي الجواب ممن سأل بعض المجرمين فتلقى ذلك الجواب منهم، حتى لكأن مشهد الحوار قائم في تلك اللحظة، فيكون التساؤل مجازيا للتوبيخ والتبكيت.

ويقول الإمام ابن عاشور: "فإن كان التساؤل على حقيقته مستعملا في أصل معناه كان الباعث على السؤال، إما نسيان الذي كانوا علموه في الدّنيا من أسباب الثواب والعقاب فيبقى عموم "يتساءلون" الراجع إلى أصحاب اليمين وعموم "المجرمين" على ظاهره، فكل من أصحاب اليمين يشرف من أعالي الجنة على المجرمين فيسألهم عن سبب ولوجهم النار فيحصل جوابهم، وذلك إلهام من الله ليحمده أهل الجنة على ما أخذوا به من أسباب نجاتهم مما أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك".(١)

---

(١)- التحرير والتنوير: ٣٢٦/٢٩.

قلت: ليس من الضّروريّ أن تكون المساءلة بين الفريقين بالمشاهدة والمعاينة؛ لأنّ الله قادر على أن يتيح لأصحاب اليمين وسائل للاتصال بمعارفهم من المجرمين وهم يعذبون في جهنم فيتحدثون بما معهم، ويتلقون منهم تلك الإجابات، وقد أصبح هذا ممكنا اليوم بين البشر في الدّنيا، فكيف بأحكام النّار الآخرة، وقد جاءت إجابات المجرمين بذكر أمور أربعة:

أ)- ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾: والبدء بهذا الرّكن العظيم دليل على أهميته في كيان الإيمان، فالصّلاة هي عماد الدّين، فليس لتاركها حظ في الإسلام وهي الصّلة الوثقى بين العبد وخالقه اعترافا بالعبودية له وشكرا لأنعمه.

ب)- ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾: فإذا كانت الصّلاة عبادة لذات الله واعترافا بجلاله وعظمته، فإنّ الإحسان إلى الفقراء والمساكين هو أيضا عبادة لله في خلقه، وقيام بالتكافل الاجتماعي وشعور بالرّوح الإنسانية الرّحيمة، وقد تكرّرت الدعوة إلى إطعام المسكين في القرآن المكيّ مما يدلّ على الوضعية المزرية في الحالة الاجتماعية للمجتمع الجاهلي بما كان عليه من القساوة والغلظة على الطّبقة الفقيرة، ولذلك قرَنَ الله الصّدقة في قرن واحد مع الصّلاة على اعتبارهما ركنين أساسيين في العقيدة.

ج)- ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾: والخوض في الكلام مع الخائضين هو بمعنى الاستخفاف بأمور العقيدة بكلّ ما يتّصل بشخصية الرّسول وبالقرآن المنزل عليه وباليوم الآخر، والعقيدة هي الأساس الذي ينبغي أن ترتكز عليه أعمال المسلم ويقوم عليها تصوّره وشعوره.

د)- ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾: ويوم الدّين هو اليوم الآخر في جميع مراحله، لأنّ الذي لا يرجو حسابا ولا يخاف عقابا قد نفض يديه من

أي التزام بأحكام الشرع الحنيف، وتخلى عن موازين القيم والأخلاق، وبالتالي يعيش عبد الشهوات فهو ساه في غفلته حتى يعاجله الموت وهو على تلك الحالة، فلا مجال لتوبة ولا ندم. ولذلك يعقب الله على ذلك المصير المشؤوم لأولئك المجرمين الأشقياء ويقول ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، فقد حمّ القضاء وحسم الأمر، وتقرر المصير، فلا شفيع لهم ولا نصير، بل إن وجدوا لهم شفعاء، فإن تلك الشفاعة مرفوضة من أساسها، إذ أنهم قد ضيّعوا الفرصة في الدنيا حين دعاهم داعي الله وذكّرهم بما ينتظرهم ولكنهم أعرضوا.

وقد رسم الله لهم صورة مثيرة للسخرية والتعجب من أمرهم فقال: ﴿**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**﴾، وهذا المشهد من الحمر الوحشية النافرة من زئير الأسد أو من الصيادين الذين يستفزونها لمطاردتها، إنه مشهد حيّ حاضر في أذهان المخاطبين، مشهد مضحك، شبه الله به أولئك المعرضين حين يذكّرون بما هو في صالحهم وبأسلوب هادئ لا يدعو للاستنفار ولا للخوف، إنما دعوة القرآن الكريم إلى ربّ رحيم، يتيح لهم الفرصة إلى النجاة من ذلك المصير المشؤوم فما الذي يدفعهم إلى ذلك الموقف المهين؟.

إنه الحسد والغيرة من رسول الله، فإن ذلك النفور الخارجيّ هو انعكاس لما يعتلج في دواخل أنفسهم من مشاعر يقول الله عنها: ﴿**بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً، كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ**﴾، أيّ هذا التطاول وهذه العنجهية تدفع هؤلاء إلى الطّمع في ما لا مطمع فيه من تلك الرّغبة الملحة منهم أن يتطاولوا إلى تلك المنزلة عند الله فينزل عليهم صحفاً من السماء تنشر على النّاس وتشهد لهم بالمقام الرفيع كمحمد ﷺ ألم يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١).

وكانت الإجابة الإلهية: بـ﴿كلاَّ﴾، إذ لا مطمع لهم في بلوغ تلك الأمنية. ثم يضرب عما ذكر ليبيّن السّبب الحقيقي لذلك الإعراض، وأنه إنكارهم ليوم البعث والحساب وعدم خوفهم من ذلك المصير المحتوم هو الذي جرّأهم على ذلك الإعراض.

والخوف من الآخرة عند المؤمن هو الحصن الحصين ضدّ تلك المشاعر الآثمة، ثم يكرّر الله كلمة الرّدع ليبين لهم مهمة القرآن والرّسول ويقول: **﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ، وَمَا تَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾**.

أكّد الرّدع الأول بالرّدع الثاني، عساهم يرتدعون عما هم عليه من الاستخفاف والإعراض، والضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود للقرآن، أي هو يذكّرهم وينبّههم بالحجة والإقناع، وهم بعد ذلك موكلون إلى إرادتهم واختيارهم في التذكّر به أو عدمه، لأنّ ذلك مناط التّكليف، ثم يعقب الله في ختام السّورة بطلاقة مشيئته تعالى في كامل الوجود إذ يسيطر الله فيه على الأقدار كلها، وإن كنا نحن البشر لا نستطيع أن ندرك توجّه تلك المشيئة، ولكننا نذعن إلى قرار الله ونفوّض الأمر إليه؛ لأنه يستحق أن نتقي غضبه ونخاف عقابه، كما نرجو مغفرته ورضوانه.

فثمرة الذّكر والتّجاوب مع القرآن هو الإحساس والشّعور بطلاقة المشيئة الإلهية في الوجود كله؛ لأنه هو خالقه وهو خالقنا، فإن كنّا لا نعرف مشيئة الله التي تهيمن على الوجود وتصرف أقداره، فإننا نعرف ما يريده الله بنا في مجال التكليف.

فما علينا إلا السّمع والطّاعة وحسن الاختيار، ونفوّض الأمر إليه في تصريف الأقدار.

والله أعلم.

سورة القيامة مكيّة، وآياتها ٤٠

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة "القيامة" في المصاحف وكتب التفسير للقسم الواقع في مفتتحها بيوم القيامة، وقد يقال لها: سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ في الكتاتيب، وهي مكيّة بالاتفاق وعدد آياها أربعون. وتعدّ الحادية والثلاثين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهمزة، وهي السّورة الخامسة والسّبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف. وهي تتضمن المحاور الآتية:

– إثبات البعث والمعاد وبيان دلائله وذكر أشراط السّاعة.

– إثبات الجزاء على الأعمال واختلاف أحوال السّعداء والأشقياء.

– تشخيص حالة الموت وأنه أول مراحل الآخرة والزّجر عن إيثار منافع الدّنيا.

– وتختتم السّورة ببيان قدرة الله على إحياء الموتى بذكر قدرته على النّشأة الأولى. وقد أُدمج خلال ذلك بيان حرص النّبي على حفظ القرآن وضمان الله بحفظه وبيانه.

إثبات البعث والمعاد، وذكر أشراط السّاعة، وبيان حرص النبي على حفظ القرآن، وتكفّل الله بذلك.

أ)– النص:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ
١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن

نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا
جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿لَا﴾: زائدة لتأكيد القسم، ﴿بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أي قيام الساعة عند النفخة الأولى. ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾: أي التي تلوم صاحبها على ما تفعله من الشر، مما ينشأ عنه التوبة. ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾: الجملة تسدّ مسدّ المفعولين لفعل: ﴿أَيَحْسَبُ﴾، والعظام كناية عن الجسد كله، وهذا جواب لسؤالهم: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس:٧٨). ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف إبطال للنفي. ﴿قَادِرِينَ﴾: منصوب على الحال، والتقدير: بلى نجمعها قادرين، والبنان: اسم جمع: بنانة، أطراف أصابع اليدين والرجلين. ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام عن الزمان البعيد وهي بمعنى: "متى". ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: أي تلتهم الشمس القمر، والشمس مؤنث، ولم يؤنث الفعل: "جُمِعَ"؛ لأن التقدير: وجمع بين الشمس والقمر، فحمل التذكير على "بين". ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾: الوزر الملجأ، ﴿لَا﴾: نافية للجنس حذف خبرها والتقدير: لا وزر هناك. ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾: ﴿الْإِنسَانُ﴾: مبتدأ و﴿بَصِيرَةٌ﴾ مبتدأ ثان. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر الأول. وأنّث "بصيرة" لحمل الإنسان على النفس، أو لحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه. والتقدير: عين بصيرة. ﴿مَعَاذِيرَهُ﴾: جمع عذر، على غير قياس. ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ

لسانك﴾: الضمير عائد إلى القرآن، تحريك اللسان بالقرآن أي ترديد آياته للحفظ. ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾: أي أنصت إلى قراءته. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: أي الله يتولى بيان أحكامه من الحلال والحرام بلسانك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بَرِقَ﴾: قرأ الجمهور بكسر الرّاء، بمعنى دهش وبهت، وقرأه نافع وأبو جعفر بفتح الرّاء بمعنى البريق أي اللمعان، ومآل المعنى واحد، وهو الفزع والرّعب.

د)- البيان والتّفسير:

سورة القيامة تكاد تنحصر بموضوع قيام الساعة، إلا ما أدمج فيها من حرص النبي ﷺ بترديد آي القرآن قبل انقضاء وحيها للتأكيد على حفظها. على أن بعض المفسرين القدامى -وهو القفال- قال: "إن قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ (القيامة:١٦) ليس خطابا للرسول، بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة:١٣). أي إذا قيل له في موقف الحساب: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ (الإسراء:١٤). فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة:١٦)".

ويعلق على هذا الاحتمال في التفسير الإمام ابن عاشور بقوله: "إن كان العقل لا يدفعه فإن الأسلوب العربيّ ومعاني الألفاظ تنبو عنه".[1]

قلت: وأنا أوافق الإمام في ملاحظته مع التعليل الذي أورده في نفس الصّفحة، فإذا جارينا الإمام القفال في تخريجه للآيات المدمجة فإن السّورة الكريمة تتمحّض كلها لأهوال القيامة.

---

(١)- التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٥٠.

أما عن سبب نزولها فقد روي: أنّ عدي بن ربيعة قال لرسول الله ﷺ: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون؟. فأخبره رسول الله، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدّقك، ولم أؤمن به، أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها؟ فنزلت: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ، وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.(١)

أقسم الله بيوم القيامة بإدخال: ﴿لَا﴾ قبله، ومن معانيها النفي، غير أن المقصود بها -كما تقدم- هو التوكيد، بمعنى أنّ أمر القيامة واضح بيّن بحيث لا يحتاج إلى أن يقسم عليه، إذ هو آت لا ريب فيه، وهو أولى مراحل اليوم الآخر الذي هو من أسس العقيدة الإسلامية. ويجيء القسم بالشيء لتعظيم شأنه في نفوس المخاطبين ولم يذكر جواب القسم لدلالة ما بعده عليه، وهو ذكر بعض أحواله زيادة في التعظيم والتفخيم، كما أقسم الله: ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، وهي نفس المؤمن تلوم صاحبها عند ارتكاب أي ذنب أو تقصير في استكمال واجب الطاعة لله حتى ترجع إلى الله تائبة، وفي قسم الله بها تنويه بشأنها وترغيب في ضرورة وجودها وتنميتها عند المؤمن لأنها الرادع القوي في السلوك النظيف، وتقابلها عند الفاجر النفس الأمّارة بالسوء التي تنزع به إلى فعل المعاصي والاستمرار عليها.

ويؤخذ جواب القسم من قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ، بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾. ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: يفيد جواب القسم، جاء بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي معناه النفي، و﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجنس، يفيد العموم وهو على غالب الناس، لأن النافي لقدرة الله على ذلك هو الكافر، والتعبير بنفي جمع العظام كناية عن استبعاد إعادة خلقة الإنسان ثانية بعد رمّ عظامه، كما قال قائلهم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ (يس:٧٨). ﴿بَلَىٰ﴾ لإبطال ذلك النفي، إذ هو حسبان باطل أجاب الله عنه بقوله: ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، فلا

(١) - ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص: ٥١٥

تقتصر قدرته على جمع العظام بصفة عامة بل هو قادر على تسوية أطراف الأصابع حتى تعود إلى طبيعتها كما كانت وهي أصغر الأعضاء، وذلك كناية عن إعادة تكوين الإنسان بأدق ما فيه، والملاحظ أنه إذا ما أصاب عطب من كسر أو قرح في أنامل الإنسان وعالجه الأطباء فقلما يعود الأصبع إلى سواء خلقه كما كان.

ثم يبين الله الدافع النفسي للإنسان الجحود في نكران وقوع ذلك اليوم فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ، يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي إلى ذكر الدافع الحقيقي في ذلك النكران، وهو تمادي هذا الإنسان الفاجر في انجرافه لشهواته وإرضاء رغباته؛ لأن الاعتقاد باليوم الآخر يحول بينه وبين ذلك في مستقبل أيامه. والفجور هو فعل السوء الشديد، وتكرار لفظ: ﴿الْإِنسَانُ﴾ هو للتشديد بموقفه. وقوله: ﴿أَمَامَهُ﴾ أي في مستقبل أيامه، فهو يسأل عن يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء، ولذلك جاء الجواب الإلهي شديدا عنيفا.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ، يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ، بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾:

رسم الله هذا المشهد العنيف لأحداث الساعة والحالة النفسية للإنسان أمامهما من قوة الاندهاش والخوف مما يشاهده كمن ينظر إلى شدة لمعان البرق، ويحتار إلى انطماس نور القمر إذ تقترب منه الشمس فتلعه، وينفرط ذلك النظام البديع للكون، فإذا بالإنسان المذعور مما يشاهده يتساءل أين المفر؟. فتجيء الإجابة الإلهية بـ"كلا" التي هي للردع والزجر، والخطاب في: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ هو لرسول الله، أي المصير والمنتهى إلى الله وحده، ويجوز أن تكون تلك الإجابة من كلام الإنسان يخاطب نفسه، ويومئذ تنشر الصحف لتكشف عن أعمال الإنسان بكل تفصيل سواء بما قدمه من خير أو شر بين يديه قبل وفاته أو تركه خلفه بعد موته من آثار

منسوبة إليه، كما ورد في الحديث الشريف: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**»[١]، ويحتمل أن يكون المراد ما عمله في أول حياته وفي آخرها، وإلقاؤه هنا بمعنى محاسنه ومجاراته عنها فيكون هو الشاهد على نفسه في ذلك فلا ينفعه عذر، بل حتى أعضاؤه تشهد عليه، كما جاء في آيات أخرى.

وفي ثنايا بيان ذلك المشهد الرهيب يدمج الله هذه التوجيهات لرسوله في كيفية تلقيه لوحي القرآن فقال: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾.

كان الرسول حريصا على استيعاب ما ينزل عليه من الوحي فيتعجل في ترديده قبل نهاية إلقائه من طرف جبريل عليه السلام خشية أن ينساه، وربما كان يفعل ذلك عندما تعددت حصص الوحي، فأرشده الله إلى كيفية التلقي بأن ينصت إلى ما يلقى عليه إلى نهايته، ثم يأخذ في ترديد ما ألقي عليه، والله تعالى يمنحه القدرة على الاستيعاب والحفظ فلا ينسى منه حرفا، وقد تكفل بحفظ القرآن فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وجاء نظير هذا الإرشاد لرسوله في قوله تعالى بسورة "طه": ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١١٤).

وكما تولى الله حفظ كتابه قراءة وترتيلا فقد تولى كذلك بيان أحكامه وإرشاداته فجعله ميسرا لكل أصناف الخلق دراسة ودراية، ولله الفضل والمنة، والله أعلم.

---

(١)- رواه مسلم من حديث أبي هريرة كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته رقم ٢٦/٨٢.

بيان حال الناس في الآخرة، والتنديد على من أنكرها .

أ)- النص:

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ
التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ
رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ
إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾: ﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر، ﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي، ﴿الْعَاجِلَةَ﴾: دار الدّنيا، ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾: أي تتركون العمل والاستعداد لها. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ، جاء نكرة لتخصّصت بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. ﴿نَاضِرَةٌ﴾: خبر، من النضارة، أي الحسن من أثر النّعمة والفرح. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: من النظر بالبصر عند من يقول بالرؤية في الآخرة، ومن الانتظار لرحمته، عند من لا يقول بها. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: ﴿بَاسِرَةٌ﴾: كالحة عبوسة من تيقن العذاب، ﴿فَاقِرَةٌ﴾: الدّاهية العظمى. ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾: الرّوح أعلى الصدر عند

الحشرجة. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾: أي من يداويه بالرّقيا وينجيه من الموت. ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾: أي التفاف ساقي المحتضر عند الموت. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾: ﴿الْمَسَاقُ﴾: مصدر ميمي، من: ساق، وهو تسيير الماشي، والمعنى إلى الله الرجوع للحساب. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾: ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾: يمشي متبخترا مختالا. ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: كلمة توعّد، بمعنى ويل لك مرّة بعد مرّة، أي قاربك ما تكره. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: الاستفهام إنكاري. ﴿يُتْرَكَ سُدًى﴾: بضم السّين وبالقصر، بمعنى: المهمل، وهو اسم يستوي فيه الفرد والجمع. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: النطفة: القليل من الماء، وهو هنا ماء التناسل. ﴿يُمْنَىٰ﴾: تراق في رحم المرأة. و﴿عَلَقَةً﴾: القطعة الصّغيرة من الدّم المتخثر. ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾: الاستفهام إنكاري للنفي وتقرير بالإثبات، فتكون الإجابة: بلى، هو قادر على ذلك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تُحِبُّونَ﴾، ﴿تَذَرُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء فوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في موعظة المشركين، وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن عمرو ويعقوب بياء تحتية على نسق ضمائر الغيبة السّابقة، والضمير عائد إلى الإنسان. ﴿يُمْنَىٰ﴾: قرأه الجمهور بالفوقية، على أنه وصف لـ﴿نُطْفَةً﴾، وقرأه حفص ويعقوب بالتحتية، على أنه وصف لـ﴿مَّنِيٍّ﴾.

د)- البيان والتفسير:

بعد إدماج تلك التّوجيهات لرسول الله في كيفية تلقيه لوحي القرآن عاد السّياق إلى الموضوع الذي بنيت عليه السّورة وهو الحديث عن أحوال الآخرة وما فيها من أهوال، وما تكون عليه أحوال السّعداء والأشقياء، وبيّن أن الموت هو القيامة

الصُّغرى لكل حيّ. ثم استدلّ على إثبات البعث بقدرته على بدء الخلق فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿كَلَّا﴾: للردع والإبطال يفصله كلمة: ﴿بَلْ﴾، التي هي الأخرى للإضراب الإبطالي أي لا معاذير لهم في ما يدّعون، إذ هم في واقع أمرهم يحبون الحياة الدنيا التي وصفها الله بالعاجلة لسرعة انقضائها وزوال زينتها، لأنّ الإنسان من طبعه العجلة في ما يأخذ وما يذر. ولفظ: ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ يوحي بهذا المعنى. وبما أن الآخرة ما تزال في طيّ الغيب فإن الإنسان -أي الذي لا يؤمن بها- يذرها، أي يترك العمل لها والاستعداد لها. ومن ثمّ يتخلص النصّ إلى رسم أحوال النّاس يوم القيامة في موقف الحساب بالمقابلة بين وجوه السّعداء ووجوه الأشقياء؛ لأن الوجه هو المرآة التي تنعكس عليها الحالة النّفسية لصاحبه كما قال الشّاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: ﴿وُجُوهٌ﴾: جمع وجه، والمراد بها أصحابها بذواتهم وأجسادهم وهي مبتدأ وتنكيره للتكريم والتّعظيم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي يوم القيامة، ﴿نَاضِرَةٌ﴾: خبر، من نضرة النّعيم فهي بيضاء مستقرة، كما جاء في آيات أخرى، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: خبر ثان قدم عليه، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾: للاهتمام وإفادة الحصر، ويتردّد معنى الكلمة بين الانتظار فيقدّر له مضاف، كما قال الإمام علي: ينتظرون إذن ربهم بدخول الجنة. كما يراه الإباضية والمعتزلة، أو هي بمعنى النظر العينيّ البصريّ، وليس بمعايير المألوف الأرضي تعالى الله عن ذلك، ولكن بمعايير النّشأة الأخرى نفوّض فيها الأمر إلى الله في ذلك؛ لأنها من أمور الغيب المطلق كما يراه أهل السنة. ولسنا في حاجة إلى

الخوض في ذلك الجدل الطويل بين المتكلمين، فلكل من النافين للرؤية والمثبتين لها أدلته وحججه، ومن قلّد عالما لقي الله سالما.

وفي المقابل ذكر الله وجوه الأشقياء فقال عنها: إنها كالحة منقبضة عبوسة بخطاياها وهي تستغيثه مما ينتظرها من الخزي والهوان مما يقصم ظهرها ويحطّم كيانها.

فإذا مشاهد القيامة -وهي ما تزال في مجاهل الغيب- تهز الكيان البشري بقوة الأداء والتشخيص الحيّ في النصّ القرآني فتخلع لذلك قلوب الجاحدين وهم يحاولون التجلّد والمقاومة، فإنه تعالى يقترب منها أكثر فأكثر ليرسم مشهد الموت وهم يرونه كل يوم يخطف الأحبة ويفرق بين الأصحاب والعشراء، ولا يملك أحد أن يمنعه أو يدفعه، وهو لا يفرق بين الصغير والكبير ولا يحابي العظيم أو الحقير، والإنسان مع ذلك قلما يعتبر. حتى جاء التعبير المحلي الأمازيغي عندنا في تسمية الموت بقولنا: "تامتانت" ما معناه العربي: ثمانية فنسوه، أي نسوا الموت بعد ثمانية أيام.

يقول الله في ذلك: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ، وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، إنه لمشهد الكئيب لحالة النزع والاحتضار، كأنه حاضر بجوّه الحزين والمحتضر ممدود على فراشه ينازع الموت وأهله لا يملكون حولا ولا قوة لإمساك تلك الروح حتى لا تنفصل عن جسدها وقد صعدت إلى أعالي الصدر لتلحق ببارئها، ويلتفت الحاضرون ويستغيثون لطلب وسيلة الاستبقاء تلك الروح برقية تفيد: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، ولكن هيهات.

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وعندئذ يتيقن كل إنسان بأنه الفراق المحتوم، وفي سكرات الموت ومعاناة النزع تلتف الساق بالساق، أو تقرناد في ثوب الكفن لسياق المخلوق إلى خالقه في خاتمة سعيدة أو شقية وفق اختياره وسعيه، وإلى ربك المنتهى.

وهكذا يسدل الستار على ذلك المشهد الفاجع الذي يكفكف من غلواء الحياة الدّنيا والحرص عليها.

ولا يبنيك عن خلق اللّيالي كمن فقد الأحبّة والصّحابا

وعلى موقف الإنسان المكذّب اللاهث وراء متاع الدّنيا يقرّع الله استكباره لمن أعرض عن طاعته مختالا فخورا ويتوعده بشدة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ، وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ، أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، الضمير في: ﴿لَا صَدَّقَ﴾ يعود إلى الإنسان المنكر للبعث، وهو مفهوم من السّياق، فهو لإنكاره بذلك لم يمتعه له بإيمان ولا طاعة، لأن: ﴿صَدَّقَ﴾ -على الأرجح- من التّصديق بأسس العقيدة الإسلامية، فهو لا يؤمن بالله ورسوله إذ كذّب بالقرآن وبالتّالي أعرض عن عبادة الله وفي ذروتها الصّلاة، ثم يذهب على ذلك متبخترا مختالا إلى أهله، فخورا بفعلته معتزا بإثمه.

وفي التعبير بفعل: ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ تهكم وسخرية؛ لأن تلك الحركة من التّمطط لا تصدر إلا من متعجرف قليل الحياء، وبين الفعلين: ﴿صَدَّقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾ طباق، ولم يذكر مفعولها ليشملا كل الحالات في التكليف، ويواجه الله تلك العجرفة والخيلاء بهذا التوعّد الشّديد المؤكد فيقول: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، بواجهه بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن المواجهة أشدّ إيلاما في التوبيخ، وهذا التعبير اصطلاحي قد جرى مجرى المثل، وهو يتضمن وعيدا شديدا بنزول المكروه بحيث يكون أدنى شيء منه.

وفي ختام السّورة يدمغ الله منكري البعث بحقيقة واقعية من حياتهم في نشأتهم الأول كيف قرّرها الله وهي الدّليل القاطع على قدرة الله للنشأة الأخرى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ

فَسَوَّىٰ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ، أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

تكرر الاستفهام الإنكاري في ختام السّورة ليقرر الإجابة على الاستفهام الوارد في أولها من استبعاد الإنسان الكافر للبعث فبيّن الله حكمته في أن لا يترك الإنسان مهملاً ضائعاً بعد موته فلا يحييه للحساب والجزاء، وهذا كقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (المؤمنون:١١٥- ١١٦).

فلينظر الإنسان إلى أطوار خلقته الأولى كيف قدّرها الله ليخرجه إلى الوجود بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وميزه بالعقل والإدراك وكرّمه على كثير ممن خلق، فإن الله الذي أبدع خلق هذا الإنسان هو القادر على أن يعيد خلقته ثانية بعد الموت والبلى، وقد جاء تقرير تلك الحقيقة في ختام السّورة بالاستفهام الإنكاري للمنفي، وروي أن الرّسول ﷺ قال بعده: «**اللّهم بلى**»[١]، وهذا ينسجم بما ورد في بدئها من الإجابة بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

والله أعلم.

(١) - رواه البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا، ومن حديث ابن عباس موقوفا: شعب الإيمان: رقم ١٩٢٩-١٩٣٠.

سورة الإنسان مكيّة، وآياتها ٣١

- بين يدي السّورة الكريمة:

سورة "الإنسان" هي التّسمية المشهورة لهذه السّورة وذلك للتنويه بخلق الإنسان في مفتتحها وسمّيت في بعض كتب السّنّة بـ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾.

وسمّاها بعض المفسرين بسورة "الدّهر" و"الأمشاج"، وفي تصنيفها ضمن القرآن المدنيّ أو المكيّ خلاف.

يقول في ذلك الإمام ابن عاشور: "والأصحّ أنّها مكيّة فإنّ أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السّور المكيّة".(١)

وعدّها الإمام جابر بن زيد الثّامنة والتّسعين في ترتيب نزول السّور، وهي السّادسة والسّبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف، وآياتها إحدى وثلاثون.

وتتضمن المحاور الآتية:

- بيان قدرة الله في خلق الإنسان وهدايته السّبيل.

- بيان جزاء الكفّار والأبرار يوم القيامة مع الإطناب في جزاء الشّاكرين.

- تثبيت النّبيّ على الصّبر والقيام بأعباء الرّسالة وأنّها من شارات الاختيار والاصطفاء.

- ختام السّورة ببيان أحوال المتمردين، وأنّ القرآن تذكرة لمن شاء الهداية.

---

(١)- التحرير والتنوير، ٢٩/ ٣٧٠.

بيان خلق الله الإنسان وهدايته السبيل، مع ذكر جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ
مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا
وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ
اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ
الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً
وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾: الاستفهام لتقرير أنّ الإنسان كان في حكم العدم فأوجده الله، وهو من براعة الاستهلال للتمهيد لما يأتي بعدها، و"أل" في الإنسان للجنس والمراد بالدهر الزمان غير المحدود.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾: ﴿أَمْشَاجٍ﴾: مشتق من المشج وهو الخلط، و﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: أي نختبره بالتكليف، والجملة في موضع نصب حال. ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾: بيّنا له طريق الهداية بالرّسل والوحي، ثم هو في

اختيار من أمره، ليكون شاكرًا لنعمة ربّه أو كفورًا لها. ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾: في موضع الحال من: ﴿هَدَيْنَاهُ﴾. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا﴾: ﴿أَعْتَدْنَا﴾: بمعنى أعددنا وهيأنا، ﴿سَلَاسِلَا﴾: جمع سلسلة، فتكون من حلقات حديدية يتّصل بعضها ببعض. الأغلال: جمع غلّ: طوق من حديد، يوضع في عنق المجرم أو يديه. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾: الكافور طيّب زكيّ الرائحة، والمزاج: المادة التي يمزج بها الشراب. ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾: النذر في معناه الأعمّ هو كل ما وجب على الإنسان أن يفعله، نذر به أم لم ينذره. ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: بمعنى مع حبّهم لذلك الطعام؛ لأنهم محتاجون إليه وهو ما يسمّى بالإيثار، والأسير الذي يؤسر في الحرب، ولكن المراد به هنا المسلمون المستضعفون الذين أخاهم المشركون. ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾: عبوس كالح الوجه، القمطرير: الشديد الصعب من كل شيء. ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾: ﴿نَضْرَةً﴾: مفعول ثاني، وهي الحسن والبهاء.

ج- أوجه القراءة:

﴿سَلَاسِلَا﴾: قرأ نافع والكسائي وهشام عن ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر قرأوا: ﴿سَلَاسِلًا﴾ منوّنا في الوصل، ووقفوا عليه كما يوقف على المنوّن المنصوب، وإذ كان حقه أن يمتنع من الصّرف لأنه على صيغة منتهى الجمع تعيّن أن قراءته بالتنوين لمراعاة مزاوجته مع الاسمين اللذين بعده وهما: ﴿أَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾. وقرأه الباقون بدون تنوين في الوصل.

واختلفوا في قراءته إذا وقفوا عليه فأكثرهم قرأه في الوقف بدون ألف فيقول: ﴿سَلَاسِلْ﴾ في الوقف، وقرأه أبو عمرو ورويس عن يعقوب بالألف، على اعتباره منوّنا في الوصل، وقرأه البزّي عن ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر وحفص عن عاصم في الوقف بجواز الوجهين، أي بالألف وبتركها.

د)- البيان والتفسير:

ترجّح لدى كثير من المفسّرين مكيّة سورة الإنسان لما وجدوه من الشبه الكبير بين موضوعها وأسلوبها وبين ما تقدم من السّور المكيّة، وقد أطنبت في مشاهد النعيم الحيّ، ممّا كان يولع به أهل مكة في مجالسهم، كما دعت رسول الله إلى الصّبر لحكم ربّه في مواجهة أذى قومه، مما يرجح أنه ما زال في مكة عندما نزلت عليه هذه السّورة قال تعالى في مطلعها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا، إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

افتتحت السّورة الكريمة بالاستفهام التقريري، "هل" التي هي بمعنى "قد"، وفي ذلك تشويق إلى معرفة ما يعقبه من كلام، والخطاب لغير معيّن، ويراد بـ"الإنسان" الجنس، فهو قبل أن يوجد نوعه على وجه الأرض لم يكن شيئا مذكورا إذ كان في طيّ العدم، فمن الذي أوجده؟، ومهّد هذه الأرض في الأطوار التي تعاقبت عليها وهي خمسة أطوار كما يقول الجيولوجيون، لم يظهر الإنسان على ظهرها إلا في الطّور الخامس، أي الأخير، والله وحده هو الذي يقدّر مدّة هذا الطّور لقيام السّاعة لنهاية المسيرة البشرية. والإيجاد من العدم لهذا الإنسان لم يكن صدفة فهلا تدبّر قدرة الذي أخرجه إلى مسرح الحياة بشرا سويّا، ثم تذكّر تلك البذرة النسلية التي انشق منها وتدرّج في أطوار خلقته، وقد وصف الله نطفة الرّجل بالأمشاج، أي مزيج من الأخلاط؟ فهي زيادة على تلقيح بويضة المرأة بخلية الرّجل، فهي تعني -أيضا- كل الجينات الوراثية الحاملة للصفات المميزة للجنس ولخصائص الأسرة مما ضبطه العلم الحديث. فالإنسان لم يخلق عبثا ولا أن يترك سدى، ولكنه مخلوق للاختبار والابتلاء، وقد زوّده

الخالق بوسائل الإدراك والمعرفة من حاسّة السّمع والبصر والعقل ليقوم بمهمة الخلافة في الأرض بما يصلحها، وذلك بتلقيه وحمله لأمانة التّكليف ليختار الطّريق السّويّ طريق الهدى والصّلاح وفق ما جاء به رسل الله أو طريق الغيّ والضّلال، فيكون كافرا لنعمة ربّه، فيجازيه الله وفق اختياره بعدل وإنصاف.

وفي موقف الحساب والجزاء يعرض الله ما ينتظر الفريقين، فيوجز جزاء الأشقياء، ويطنب في جزاء السّعداء بما يناسب جوّ السّورة من النّعيم للغري والوصف للوحي، فيقول عن الكافرين:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾: هي ثلاثة وسائل للعذاب:

أ- أعدّ لهم سلاسل، لتقييد الأرجل.

ب- ﴿وَأَغْلَالًا﴾: جمع: "غلّ" لتقييد الأيدي كما يفعل بالمجرمين.

يقول بشار:

ولا خير في كفّ تقدّ الغلّ أختها ... ولا خير في سيف لم يؤيّد بقائم

ج- ثم يحرقون في نار جهنم مسلسلين مغلولين.

وفي مقابل ذلك يبيّن الله في إطناب بديع ما أعدّه للمؤمنين الأبرار من رخاء نعيم الجنة مشيدا بما كانوا يتصفون به من خلال كريمة فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

إن الله اختار لصنف السّعداء وصف الأبرار، جمع برّ أو بارّ، ووصف عباد الله مرّة أخرى تشريفا لهم وتكريما إذ قاموا بواجبه الطّاعة والإخلاص لربهم وفق ما أمرهم به فها هم يتنعمون في نعيم الجنة بأنواع الملذات التي حرموا أنفسهم منها في الدّنيا

اتقاء غضب الله وسخطه، ومن ذلك مجالس الشراب التي كان العرب يفخرون باستهلاك أموالهم فيها سقيا لهم ولرفاقهم كما قال عنترة:

وإذا شربت فإنني مستهلك   مالي وعرضي وافر لم يكلم

فهؤلاء الأبرار يشربون من كأس ممزوجة تارة بالكافور وتارة بالزنجبيل -كما سيأتي-، وكلاهما طيب الرائحة يضاعف لذة الشراب، ويغرفون تلك الكؤوس من عين متفجرة هي طوع يمينهم غزارة ووفرة حيثما كانوا، فلا يخشون لذلك الشراب انقطاعا ولا نضوبا، وذلك يضاعف من تنعمهم وسرورهم وليس في ذلك الشراب ما يضرّ بأبدانهم وعقولهم.

ثم بيّن الله أسباب ذلك التكريم فقال: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾**.

الأبرار هم من يقومون بواجب الطاعة في حق الله وحقوق عباده، كما وصفهم الله في هذه الآيات، فقد ذكر الله أولا النذر، وهو في المصطلح الشرعيّ كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من بعض الطاعات غير الواجبة عليه من صلاة أو صوم أو صدقة، ويعلق نذره بأمر يلتمسه من الله كأن يقول مثلا: إن حقّق الله نجاحي في الامتحان كان عليّ أن أفعل كذا لله. والوفاء بالنذر واجب شرعا إلا أن يكون في معصية، ويبدو أن الوفاء بالنذر في الآية عامّ يشمل القيام بجميع الطاعات خشية لله وخوفا من أهوال يوم القيامة، وقد وصف الله شرّ ذلك اليوم بالمستطير لشدّة انتشاره وكثرة أضراره، وإنّ العبد الخائف من ذلك اليوم لا بدّ وأن يستعدّ له بالنشاط في طاعة

الله كما قال تعالى في ذلك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (الشورى:١٨).

وأما وفاء الأبرار بحقوق عباد الله فقد بينه الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، وإطعام الطّعام لمن يستحقه من أصناف المحاويج الذين ذكرهم الله هو في ذروة الإحسان والبرّ؛ لأن فيه الغذاء الضّروري لإبقاء الحياة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾، أي يطعمون ذلك الطّعام وهم في حاجة إليه يحبونه ولكنهم يؤثرون به غيرهم، ويدلّ ذلك على أنه من أجود طعامهم، ولكنهم يجودون به ابتغاء ما عند الله من الأجر والثواب، وقد خصّ الله بالذّكر أنواعا ثلاثة من المحاويج.

أ)- المسكين: وهو الذي ليس له من المال ما يكفيه وعياله.

ب)- اليتيم: وهو الذي فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرّجال.

ج)- الأسير: هو في الأصل من وقع في أسر الجيش الإسلامي أو استسلم من جنود الأعداء، ويشمل هنا من كان يعذّبه المشركون في مكّة من المستضعفين المسلمين.

ثم بيّن الله الوازع النّفسي لهؤلاء الأبرار في قيامهم بذلك الإحسان فقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾، إنه الإخلاص لوجه الله وابتغاء مرضاته أوّلا، وهم لا يلتمسون من المنفق عليهم جزاء ولا شكورا.

وثانيا: يتّقون بذلك الإحسان أهوال ذلك اليوم الرّهيب يوم القيامة، فهو يوم عبوس مكفهرّ بعبوس وجوه الخلائق فيه لشدة هوله وشدائده غير أنّ وجوه الأبرار تكون مطمئنة آمنة فيه تعلوها النّضرة والسرور إذ قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

ما أروع الجناس في قوله: ﴿فَوَقَاهُمُ﴾، وَ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾، فقد قابل عبوس ذلك اليوم بالوقاية من تأثيراته على نفوسهم، فهم في أمن مما يخافون، يعلو وجوههم البشر والسرور، ويظهر عليها أثر النعمة فهي ناضرة مستبشرة، وكل ذلك يكون في موقف الحساب وفصل القضاء، ثم ينطلقون إلى مستقرهم في جنات النعيم، والله أعلم.

أنواع المتع والنعم لأهل الجنة جزاء سعيهم لها .

أ)- النص:

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾
قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ
سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا
رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن
فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: الاتكاء إسناد الظهر أو الجنب إلى شيء مريح. ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمع أريكة، سرير عليه وسادة معها ستار. ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: في موضع نصب حال. ﴿زَمْهَرِيرًا﴾: البرد القوي، وفي لغة طيِّئ هو القمر. ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾: دانية: قريبة، منصوب عطفا على ﴿جنة﴾ أو على ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾: أي سهلت ثمارها للقطف. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾، قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾: جمع قارورة، وعاء من زجاج وهي صافية

صفاء الفضة. ﴿قَدَّرُوهَا﴾: أي يقدّر السقاة كمية الشّراب حسب الحاجة بدون زيادة ولا نقصان. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾: وهو نبات ذو عروق في الأرض له رائحة طيّبة يستطيبها العرب في شرابهم. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾: الولدان هم الخدم السقاة، لا يهرمون ولا يتغيّرون، أي شبابهم مستدام، وهم في الحسن والبهاء. ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾. ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: ﴿عَالِيَهُمْ﴾: أي يعلو أجسامهم وتغطيها ثياب من حرير رقيق وسميك. ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾: ﴿حُلُّوا﴾: ألبسوا حليًا من فضة في شكل أساور، مفرده: سوار، يلبس على اليد. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾: أي خاليا من الشّوائب الضّارة على خلاف خمر الدّنيا.

ج) – أوجه القراءة:

﴿قَوَارِيرًا﴾: قرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر الأول والثاني منوّنين، الأول لمراعاة للكلمات الواقعة في الفواصل السّابقة واللاحقة، وتنوين الثاني للمزاوجة مع نظيره، وهؤلاء وقفوا عليها بالألف. وقرأ ابن كثير وخلف ورويس عن يعقوب: ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأول بالتّنوين ووقفوا عليه بالألف، وقرأوا: ﴿قَوَارِيرَ﴾ الثاني بغير تنوين على الأصل. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم بترك التّنوين فيهما لمنع الصّرف وعدم مراعاة الفواصل ولا المزاوجة. ﴿عَالِيَهُمْ﴾: قرأ نافع وحمزة وأبو جعفر بسكون الياء، على أن الكلام جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لجملة: ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾. وقرأ بقية العشرة بفتح التّحتية على أنه حال مفرد لـ﴿الأبرار﴾. ﴿خُضْرٌ﴾: قرأ نافع وحفص بالرفع على الصّفة لـ﴿ثياب﴾ و﴿إستبرق﴾ بالرفع أيضا على أنه معطوف على "ثياب". وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم: ﴿خُضْرٍ﴾ بالجرّ نعتا لـ﴿سُندُسٍ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرّفع عطفا على ﴿سُندُسٍ﴾. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿خُضْرٍ﴾ بالجرّ نعتا لـ﴿سُندُسٍ﴾، باعتبار أنه بيان لـ﴿ثِيَابُ﴾، فهو في معنى الجمع، وقرآ: ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ بالجرّ، عطفا على: ﴿سُندُسٍ﴾.

د)- البيان والتفسير:

يتصل السّياق في بيان أصناف نعيم أهل الجنة في المسكن والمطعم والمشرب والملبس وفي مجالس أنسهم، وبيّن الله أن ذلك هو جزاء صبرهم وعملهم فقال: **﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾**.

لقد أشاد الله بالصّبر إذ جعله أمّ الفضائل ووعد الصابرين بأعظم الأجر وأجزل الثواب فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠). فهو هنا نعيم الجنة بكلّ ما فيها من متع وملذّات في المآكل والملبس بين الرياض الفيحاء والحدائق الغنّاء، تحت الظّلال الوارفة التي لا يكدّرها حرّ ولا قرّ، وهم في أنعم وألطف جلسة للإمتاع والمؤانسة متكئين على الأرائك.

ولما كان الزمهرير بمعنى القمر -كما تقدم- فعدم رؤيتهم للنّيّرين الشّمس والقمر المألوفين عندنا في الدّنيا دليل على أنه تعالى جعل للجنة نورا بديلا يناسب جوّها لا يسبّب إزعاجا ولا إيذاء، ومن ثم فإنّ ظلالها الدّانية منهم هي من نوع آخر لا يتحوّل ولا يزول، كما أن تذليل ثمارها لهم بمعنى تكون في متناول أيديهم كيفما وحيثما شاؤوا بحيث لا تتطلب منهم جهدا لقطفها، ذلك من حيث متعة المقام وكرم المنزل.

وأما من حيث الخدمات والتكريم فأخبر الله عن ذلك بقوله: **﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا، قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾**.

فعلى ذكر شرب الأبرار من كأس كان مزاجها كافورا أكمل الله مجلس الشّراب بوصف الآنية التي تدور بينهم وأنها من فضة صافية، وهي -والله أعلم- بمثابة الأباريق

للمملوءة بالشراب فتملأ به الأكواب المتداولة في المجلس من طرف السقاة، وإذ كانت العملية مألوفة عند المخاطبين فقد استغنى عن ذكر الفاعل، ووصفت الأكواب بالقوارير -وهي آنية الزجاج- لشدة رقتها وصفائها، وإظهارا لمهارة السقاة فهم يقدرون لكل شارب ما يكفيه في تلك الأكواب بدون زيادة ولا نقصان، وهم لا يغفلون -أيضا- في توخي النوعية للملك الشراب فيطعمونه بطيب الزنجبيل، وهو من الوفرة كالعين المتفجرة السلسة الباردة بحيث صار ذلك كالعلم لها فسميت سلسبيلا. فهل تجد أروع من هذا الوصف لمجلس الشراب وما يكون فيها من الأنس والنشوة، وقد حفل الشعر العربي بوصف تلك اللذة فقال الأخطل لعبد الملك بن مروان:

إذا ما غلام علّي ثم علّي ثلاث زجاجات لهن هدير

خرجت أجرّ الذيل حتى كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

وقال الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾: إنها خدمات أخرى غير سقي الشراب يقوم بها ولدان مخلّدون، فهم في سن الزهور جمالا وحيوية لا يشيخون ولا يهرمون، وقد شبههم الله باللؤلؤ المنثور في الحسن والبهاء يضفي على المجلس جو المتعة والراحة النفسية.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: الخطاب إلى غير معيّن، وكأنه مشرف من مكان عال لرؤية أوسع وأشمل للجنة ونعيمها، وأنّى للرائي أن يستقطب ذلك للنظر في جنة عرضها السماوات والأرض، وكما ورد في حديث عن ابن عمر

قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه**».[1]

نعم، إنه نعيم لا يستوعبه وصف ولا يحيط به نظر، وملك كبير أين منه ملك الدّنيا المحدود المشوب بالأكدار والمتقلب مع اختلاف الليل والنّهار؟. إن ذلك الملك العريض هو للأبرار الأطهار، وقد خلع الله عليهم لباس الزّينة والفخار فقال تعالى: ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾.

وفي شارات عظمة ذلك الملك زينة الثّياب المتمثلة في منظرها وفي نوعيتها، فهي من الحرير الزّاهي بألوانه الخضراء والعالي بنوعية من الحرير والديباج الرّقيق والغليظ يغطّي أجسامهم في رشاقة وبهاء، ويتحلّون بأساور من فضة ومن ذهب -كما ورد في سورة الكهف- مما كان يتحلى به ملوك الدّنيا عادة، ولكن أين منهم حليّ الجنة؟.

ثم ذكر الله سقياهم بشراب آخر طهور غير ما تقدّم، عطاء كريما من ربّهم شرابا خاليا من الأدران مطهرة للنفوس والأبدان، وفوق ذلك النّعيم الحسيّ يأتي هذا النّداء العلويّ المشرّف: ﴿**إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**﴾.

الإشارة إلى نعيم الجنة المذكور، يتلقون هذا النّداء من ربّهم زيادة في التّكريم والتّشريف، وهو أعظم وأكرم على نفوسهم من كلّ ما منحوه من المتع الحسية لأنّهم يستشعرون به الرّضى والقبول من ربّ العالمين، ويتبوؤون بذلك منازل القربى عنده جزاء ما قدموه من أعمال كانت محلّ شكر عند الله وهو خير الشّاكرين، والله أعلم.

---

(١)- رواه أحمد في المسند، رقم ٤٦٢٣.

تثبيت الرّسول، وبيان أحوال النّاس في الدّنيا أزاء مشيئة الله تعالى.

أ)- النص:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا
أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ
أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا
﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ
وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾: ﴿نَحْنُ﴾: في موضع نصب صفة لاسم "إن"، ويجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء، وخبره: ﴿نَزَّلْنَا﴾. والجملة: ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾: في موضع رفع خبر: "إن". ﴿تَنزِيلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: بينهما طباق. البكرة: أول النّهار، والأصيل: العشية، والمقصود أوقات النّهار كلها. ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: ﴿الْعَاجِلَةَ﴾: الدّنيا. ويتركون يوم القيامة، مقابلة بين المحبة والتّرك، وبين العاجلة والباقية. ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾: الأسر: شدة الخلق. ﴿شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾: ربطنا أجزاء جسدهم بعضها ببعض أي أتقنا خلقتهم، وفيه استعارة. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: أي جئنا بناس آخرين غيرهم. ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾: منصوب بفعل مقدّر يدل عليه فعل: ﴿أَعَدَّ﴾.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾: قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وخلف بياء الغائب، عائد إلى ﴿من شاء﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الاستدلال على البعث، وبعد الوعد والترغيب للمؤمنين به والوعيد والترهيب للكافرين مما يكون من الأحوال بعد البعث، ثبّت الله تعالى رسوله وربط على قلبه من أن تنال منه إذاية الكفار آمرا إياه بالصّبر لحكم ربّه والالتجاء إليه بالصّلاة والدّعاء، ثم ذكر أحوال النّاس في الدّنيا فبدأ بأخلصهم وأشرفهم وهو رسول الله وأصحابه، ثم أعقب بحال خصومه ممن يحبون العاجلة، وهدد الظّالمين بالعذاب الأليم فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً. فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

إنه الإشادة بمصدر الدّعوة وصاحب التّكليف بها، إنّه الله جلّ جلاله، فهو الذي نزّل عليك هذا القرآن منجّما لمدة زمنية وفق توالي القضايا وتتابع الأحداث بتدرّج يجعله ميسّرا مضبوطا، يسهل على المؤمنين وعيه واستيعاب أحكامه وتوجيهاته، والله الذي نزل عليك هذا القرآن وكلفك بتبليغه، هو الذي يتولّى حفظك وتوفيقك، فإذا كان المشركون قد أغرتهم قوتهم واغتروا بباطلهم وهم يصرّون على التكذيب والإصرار، فإنه تعالى فرّع على ذلك أمر رسوله بالصّبر لحكمه في تحمّله لأعباء الرّسالة التي يقتضي فيها حكم الله أن تحفّ بها متاعب ومصاعب في تغيير وإصلاح واقع النّاس وحملهم على ما فيه خيرهم ونفعهم.

ولما كان المشركون يحاولون إغراء الرّسول بالمال، والجاه وفتنة الجمال في بناتهم

طمعا في أن يداهنهم ويساومهم في بعض ما يطلبون منه من بعض التنازلات، جاء التأكيد على الأمر بالصبر وبالنهي على طاعة أي آثم أو كفور من قومه. وقد أظهر الوصفين ليكونا تعليلا لذلك النهي، بمعنى أن أدنى طاعة لهم فإنها تفضي إلى الإثم والكفر، وحاشا لرسول الله أن يذعن لما يريدون، إذ في هذا النهي تأييس من أية استجابة لذلك. ولكن للصبر رياضته النفسية وزاده الروحي: **﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾**.

ذكر اسم الله في الصّباح والمساء قد يكون بالقلب وباللّسان في جميع الأوقات، وذلك أروح على نفس المؤمن وأوفر للمدد الرّوحي عند الضّوائق والشّدائد وقد يكون المراد بذكر الله الصّلاة بكل أنواعها، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾، ليشمل جميع الأوقات للصلوات المكتوبة ولقيام اللّيل تهجّدا، وكان رسول الله إذا حزبه أمر فزع إلى الصّلاة يناجي ربّه ويطلب منه العون والمدد ويستريح فيها من عناء الدّعوة وتكاليفها فيقول لمؤذنه: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**».(١)

وللدعاة إلى الله في كل زمان ومكان في رسول الله إسوة حسنة ليتأسّوا به في الصّبر واللجوء إلى الله في مقارعة الباطل ومواجهة الظّلم والطّغيان حتى يقضي الله بحكمه، فإن الطّريق طويل والعبء ثقيل.

ويبيّن الله أسباب تمادي أهل الباطل على باطلهم وغفلتهم عن رؤية الخير والصّلاح فيقول: **﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً. نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾**

إذا كان حبّ الدّنيا رأس كل خطيئة -كما تقول الحكمة- فإن هؤلاء الطّغاة المغرورين بقوتهم ينسون مصدر وجودهم وواهب قوتهم وهم متهالكون في فتنة الدّنيا

---

(١) - رواه أحمد في المسند، من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم، رقم ٢٣٠٨٨.

ولا يلتفتون إلى ما وراء ذلك مما ينتظرهم في الحياة الأخرى من الشدائد والأهوال لأنهم لا يؤمنون به ابتداء أو هم مؤمنون ولكنهم تعجلوا متاع الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، والله تعالى يهوّن من شأن هؤلاء بأنه قادر على الذهاب بهم واستبدالهم بغيرهم؛ لأنه هو خالقهم ومانحهم تلك القوة لحكمة يريدها فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾. وفي ذلك تهديد للكافرين وتطمين للمؤمنين وهم ما يزالون يعانون من القلة والضعف، ولكنهم يستندون إلى خالق الوجود وينهضون بدعوته ويوقنون بحكمة قضائه وقدره، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وأن ما جاء في هذه السورة وغيرها من آيات القرآن إنما هو تذكرة وموعظة للذي يريد الهداية ويسلك لها السبيل إلى ربّه طلبا لمرضاته.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: لقد علّق الله أمر الهداية بمشيئة الإنسان، وإن كانت تلك المشيئة لا تندّ عن مشيئة الله المطلقة في علمه الأزلي وقدره، ولا يعني ذلك إجبار الإنسان بالرغم من إرادته واختياره، وإنما ليدرك الخلق كلّهم بأنّ الله هو الخالق المتصرّف في الأقدار ليتّجهوا إليه ويستسلموا لقدره فهو الذي منحهم القدرة على التمييز والإدراك، بين الحق والباطل، وأعطاهم حرية الاختيار بينهما، والكل ينتهي إلى الله للحساب والجزاء، وهو العليم بتلك النهاية، والحكيم في تيسير الوسيلة وتقرير الغاية.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: إنه تعالى فعّال لما يريد، فهو يدخل في رحمته من يشاء بتوفيقه إلى طريق الجنة وتيسير أسبابه بحسن الطّاعة والإخلاص في النّية والعمل، وقد أعدّ للظالمين عذابا أليما في سعير جهنم، وقد أقام عليهم الحجة بما بعثه من رسله وأنزله في كتبه ومن بعد الإملاء والإمهال، وقد شاءوا أن يختاروا طريق الكفر والضّلال.

والله أعلم.

سورة المرسلات مكيّة، وآياتها ٥٠

- بين يدي السّورة الكريمة:

سُمّيت "المرسلات" باسم مطلعها الذي أقسم الله به، واشتهرت بهذه التسمية في المصاحف وكتب التفسير، وقيل أنها سُمّيت في عهد الصّحابة: "سورة والمرسلات عرفا"، وهي وصف للرياح التي تهب متابعة كعرف الفرس من شعر رقبته.

وهي مكّية عند الجمهور وآياتها خمسون، وتعدّ الثالثة والثلاثين في ترتيب نزول السّور، والسّابعة والسّبعين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وفي فضلها يروي ابن عباس عن أمّه أمّ الفضل أنها سمعته يقرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فبكت وقالت: يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السّورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله يقرأ بها في المغرب.[1]

وهي تشمل المواضيع الآتية:

- أقسم الله على وقوع البعث مبيّنا بعض علاماته.

- الاستدلال على البعث وإعادة الخلق بما سبق من الخلق الأول للإنسان وتسخير الأرض لحياته مع الإنذار والتخويف لمنكريه.

- تحديد مصير المجرمين ووصف نعيم المتقين.

- وفي ختام السّورة يأتي إعادة تقريع الكفار وتوبيخهم عن امتناعهم لعبادة الله.

---

(١)- رواه البخاري، كتاب الأذان، باب القراءة في المغرب، رقم ٧٦٣.

حتمية وقوع يوم القيامة وذكر بعض أشراطه.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ①
فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ② وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا
⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ
نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ
⑭ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾: اختلف المفسرون في المراد من هذا الوصف، والأظهر أنها الرياح في أنواع هبوبها، ﴿عُرْفًا﴾: بمعنى تهب متابعة كعرف الفرس، وهو منصوب على الحال، وقيل: إنه وصف للملائكة. وقيل: هما نوعان من المقسم به، الأول: هي الرياح، والثاني: هم الملائكة، أي من قوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾. ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾: أي تنشر الرياح السحب وتوزعها للإمطار حيث شاء الله، ﴿عَصْفًا﴾، و﴿نَشْرًا﴾: منصوبان على المصدر المؤكد. ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾: ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول به، ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾: منصوبان بالمفعول لأجله أو على البدل من "ذكر". ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾: أي ذهب نورها. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾: أي وقع فيها الانشقاق والانصداع. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾: أي عيّن للرسل وقت يحضرون فيه للشهادة على أممهم في يوم الفصل، أي يوم الحساب والفصل فيه بين الخلائق على أعمالهم إن خيرا أو شرا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: دعاء بالهلاك وسوء المصير.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عُذْرًا﴾: قرأه الجمهور بسكون الذّال، وقرأه روح عن يعقوب بضمّها، على الإتباع لحركة العين. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر ويعقوب قرأوا ﴿نُذُرًا﴾ بضمّ الذّال، وهو الغالب فيه، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف قرأوا بإسكان الذّال على الوجهين المذكورين في: ﴿عُذْرًا﴾، وعلى كلتا القراءتين فهو اسم مصدر بمعنى الإنذار. ﴿أُقِّتَتْ﴾: قرأ الجمهور بهمزة وتشديد القاف، وقرأه أبو عمرو ووحده: ﴿وُقِّتَتْ﴾ بالواو وتشديد القاف، وقرأه أبو جعفر بالواو وتخفيف القاف.

د)- البيان والتّفسير:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا، إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾: تركّز السّورة وتؤكد على وقوع يوم القيامة وما يكون فيه من شدائد وأهوال، وتتوعد المكذبين به بتكرير عبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، عشر مرات عقب كل مشهد مثير عنيف، فأقسم الله في مفتتحها بمخلوقات عظيمة تناسب عظمة ذلك اليوم بكلّ ما فيه من غيوب، فتجد ذلك الإبهام والغموض في مدلولات تلك الأشياء، اختلف في تفسيرها جمهور السّلف من عهد الصّحابة -رضوان الله عليهم-، فيرى بعضهم أن المراد بها الرّياح مطلقا، ويرى آخرون أنها الملائكة مطلقا، وقسّمها البعض إلى نوعين: فيحمل قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾، حملها على الرّياح، وحمل قوله: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، حملها على الملائكة، والله أعلم بمراده، وإن كنت أميل إلى كون المقسم به يتفرّع إلى فرعين:

الأول: أقسم الله فيه بالرياح بأنها مرسلات عاصفات. وقوله: ﴿عُرْفًا﴾ تشبيه لإرسالها متتابعة كعرف الفرس في تتابع شعر رقبته مصفوفا متتابعا بعضه لبعض، فهو تشبيه بليغ، والرياح قوة كونية مؤثرة في الحياة بالأرض، تختلف في هبوبها عصفا ورخاء، فتحطم وتدمر كريح قوم عاد، وتلقّح وتثمر، وتنشر السّحب وتوزّع.

الثاني: وإن حملنا الوصف على الملائكة، فهي ترسل إما بالوحي للرسل والأنبياء، وإما لتنفيذ أوامر الله في الكون، فهي تنطلق مسرعة في الفضاء الكوني ملبية لأمر الله لتنشر الهداية والأمن والسلام وتنشر أحكام شرائعه.

أما قوله تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، فالأرجح في هذه الأوصاف أنها للملائكة، والفرق هو التمييز بين الأشياء، والملائكة تميز بين الحق والباطل وبين أنواع الخلائق في الضّلال والاهتداء.

و﴿الْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾: هو تبليغهم الوحي للرسل والأنبياء. وقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، أي عذرا للمؤمنين بالقبول والرّضى وفوزهم في الاختبار، و﴿نُذْرًا﴾: بمعنى الإنذار للكافرين من عذاب النّار.

ويأتي المقسم عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾، وهو شبيه بما ورد في سورة الذّاريات، وهو مجيء يوم القيامة بأهواله وشدائده كما وعد الله به -لا محالة-، ويتوجه الخطاب للمشركين بالخصوص؛ لأنهم النّاكرون لذلك.

وعلى ذكر ذلك اليوم فرّع الله عليه ذكر ما يحدث من مقدّمات مفجعة زيادة في التهويل فقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

إنه انقلاب كوني مهول يوم تبدلّ الأرض غير الأرض والسماوات، فالنجوم النيّرات يذهب نورها، والسماء الزاهية بقبتها الزرقاء فوق رؤوسنا تتصدّع وتنشق وتنسف الجبال الشاهقات وتسير أجزاؤها هباء، فأيّ هول يحدث في ذلك الانقلاب الكوني العظيم، وأية نفس تتحمل هول تلك الصّدمة وهي التي تروّع من هزة أرضية أو اندلاع بركان أو عاصفة هوجاء؟.

وتكرار: ﴿إِذَا﴾ مع كل جملة عوضا عن العطف بالواو يوحي بأن تلك الأحداث هي فوق ما يتصوره خيال الإنسان وفوق ما يمكن أن يتحمّله، ويومئذ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام:١٥٨)، يوم يضرب الله موعدا لحضور رسله ليقدموا عرضا لحصيلة دعواتهم لأممهم في الحياة الدّنيا ليكونوا شهداء عليها، وللفصل في جميع القضايا بحكم الله العادل بين خلائقه، إنّه ليوم عظيم يستعصي تصوّره عن الإدراك، ولذلك جيء بالجملة الحالية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ في صيغة الاستفهام التعجبي، زيادة في التضخيم والتهويل بمقتضى ذلك التهديد الذي يعقبها مكررا مع كل مشهد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، كيف يكون مصيرهم؟، والله أعلم.

طلب الاعتبار بمصارع المجرمين، والتأمّل في قدرة الله في خلق الإنسان وتسخير الأرض لمنفعته.

أ)- النصّ:

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا

فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا
فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ، ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ﴾: الاستفهام للتقرير: وبين ﴿الأَوَّلِينَ﴾ و﴿الآخِرِينَ﴾ طباق، ورفع الفعل: ﴿نُتْبِعُهُمْ﴾ على الاستئناف وتصح القراءة بالجزم. ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: الماء المهين: مني الرجل، ﴿مَّهِينٍ﴾: ضعيف، و﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: أي حصين منيع وهو رحم المرأة. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي زمن محدد معلوم، أي وقت الوضع. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾: يقال: كفته إذا جمعه وضمّه، أي تجمع الأرض الأحياء على ظهرها أحياء، وتضمّهم في بطنها أمواتا، وبين ﴿أَحْيَاءً﴾ و﴿أَمْوَاتًا﴾ طباق. وهما منصوبان على الحال، أو على البدل من ﴿الأَرْضَ﴾. ﴿رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾: هي الجبال العالية تستقرّ بها الأرض. ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾: أي ماء عذبا زلالا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَقَدَّرْنَا﴾: قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بتشديد الدال، وقرأه الباقون بتخفيفها، من قدر يقدر قدرا، وهما بمعنى واحد.

د)- البيان والتفسير:

بعد الإنذار بأهوال القيامة وتهديد المكذبين بها، حذّرهم الله من الإهلاك الشامل كما أهلك الأمم السابقة، وسنة الله لا تتخلف في إهلاك المجرمين إلى يوم القيامة، ثم بيّن الله قدرته في خلق الإنسان وكيف سخّر الأرض لمنفعته فهو القادر على إعادة الخلق من جديد قال تعالى: **﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ، ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ،**

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾: يتوجه الخطاب إلى منكري البعث من المشركين، وجاء بصيغة الاستفهام التقريري، والأوّلون هم الأجيال السابقة في الأزمنة الغابرة، فمنهم من تمّ إهلاكهم جماعيا بعذاب الاستئصال كقوم عاد وثمود، ومنهم من أهلكه الله بالموت العادي الذي هو مصير كلّ حيّ. وسنة الله لا تتخلف فيمن يأتي بعدهم في الأزمنة المتأخرة من كفار قريش ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. وقد بيّن الله سبب ذلك الإهلاك بأنه الإجرام في حقّ الله، وهو الإشراك به، والإشارة: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ إلى إهلاك الأولين والآخرين، أي: وما بين ذلك من كل من سلك طريقهم في الجحود والنكران، فهو قانون الجزاء الرّباني العادل قام عليه الدّليل الواقعي، فالويل والخزي للمكذّبين.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: يلفت الله الأنظار إلى آثار قدرته في خلقة الإنسان على طريقة تعداد الخطاب في مقام التوبيخ والتقريع، والخلق هو الإيجاد من العدم، وقد أضفى الله عليه عنصر الإتقان للدلالة على قدرته وبديع صنعه لإثبات إمكانية البعث وإعادة الخلق.

و﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾: هو ماء التناسل في الرّجل، وصفه الله بأنه: ﴿مَّهِينٍ﴾، أي الضّعيف القليل. من فعل: مهن يمهن، ولكن القدرة الإلهية أودعته في قرار مكين يحفظه من التلف، وهو رحم المرأة عندما يلقح بويضة فيتدرج الجنين في أطواره في وضع محكم ونظام ثابت مع تقدير الفترات اللازمة لكلّ طور والقدرة على ذلك التخلق. فنعم، صاحب تلك القدرة في إخراج الإنسان على أحسن تقويم فهو الجدير بالشكر والامتنان، فويل لمن كذّب بقدرته على إعادة خلق ذلك الإنسان.

وقد سخر الله الأرض لتكون مهادا لحياته ووعاء أمينا لرفاته فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً

فراتا، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿كِفَاتًا﴾: الشيء الذي يكفت فيه، أي يضمّ ويجمع، وكون الأرض وعاء جامعا فصّله الله بقوله: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾، أي تحملهم على ظهرها أمما وشعوبا وتحفظهم في بطنها أمواتا، وقد اهتدى العلماء حديثا إلى معرفة تلك القوة التي تجذب بها الأرض الأشياء إليها فتثبت على ظهرها محيطات وبحارا وقارات، وهي تدور حول محورها بسرعة فائقة، فسموا تلك القوّة بالجاذبية، وقد استطاع الإنسان الانفلات من تلك القوّة بالدّفع الصّاروخي إلى أجواز الفضاء حيث ينعدم الوزن ولا تثبت الأشياء في أماكنها، وأما كون الأرض جواء للأموات في بطنها فقد تحقق ذلك -أيضا- بلطف الله وفضله عند بدء الخليقة إذ احتار قابيل في ما يفعله لأخيه القتيل هابيل إذ بعث الله غرابا ليريه كيف يواري سوأة أخيه، فكم تحوي الأرض اليوم من تلك الأجسام البالية منذ أقدم العصور، وقد عبّر أبو العلاء المعرّي عن تلك الظّاهرة فقال:

صاح، هذي قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد

خفّف الوطء ما أظن أديم الـ ... ـأرض إلاّ من هذه الأجساد

ربّ لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد

وكان من بديع صنع الله ونعمته على خلقه أن أرسى الأرض وأثبتها بالجبال الشّامخات حتى لا تضطرب ولا تميد، وفجّر الينابيع بالماء العذب الزّلال مما يتراكم على قممها من الثّلوج أو مما تذرّه السّحب من الأمطار تسقي البلاد والعباد، فأي من هذه النعم ينكرها المكذّبون.

وأي عذاب ينتظرهم في الآخرة إن هم تمادوا على كفرهم؟. وتعظم جناية الكفر على قدر عظم النّعمة التي كفروا بها، والله أعلم.

أنواع من العذاب تنتظر المكذبين، يتخللها وصف التكريم الذي أعده الله للمتقين.

أ) - النص:

انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩) انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب (٣٠) لا ظليل
ولا يغني من اللهب (٣١) إنها ترمي بشرر كالقصر (٣٢) كأنه جمالت صفر (٣٣) ويل
يومئذ للمكذبين (٣٤) هذا يوم لا ينطقون (٣٥) ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦) ويل
يومئذ للمكذبين (٣٧) هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين (٣٨) فإن كان لكم كيد فكيدون
ويل يومئذ للمكذبين (٤٠) إن المتقين في ظلال وعيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢) كلوا
واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (٤٣) إنا كذلك نجزي المحسنين (٤٤) ويل يومئذ
للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل
لهم اركعوا لا يركعون (٤٨) ويل يومئذ للمكذبين (٤٩) فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠)

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿انطلقوا﴾: من الانطلاق، وهو السرعة في الذهاب، والخطاب للمجرمين يقال لهم ذلك بعد الحساب وفصل القضاء. ﴿انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب، لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب﴾: الظل هو دخان جهنم لكثافته، ﴿ذي ثلاث شعب﴾: جمع شعبة، أي الطائفة من الشيء، وهي طوائف من الدخان الكثيف، ﴿لا ظليل﴾: نعت لظل، أي غير بارد. ﴿ولا يغني من اللهب﴾: لا يغني من لهب النار. ﴿إنها ترمي بشررٍ كالقصر، كأنه جمالات صفر﴾: الشرر جمع شرارة. ما

يتطاير من النار، ﴿كَالْقَصْرِ﴾: تشبيه للسان النار بالقصر، وهو البناء الشامخ لعظمه وشبهه في لونها بالجمالات الصفر، وهي جمع: جمالة، وهي اسم جمع لطائفة من الجمال، في حجمها ولونها وحركتها. ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾: ﴿هَذَا يَوْمُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾: جملة مضاف إليها، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾: معطوفة على جملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾: الأمر للتعجيز، أي إن كان لكم كيد بديني وبرسولي كما كان لكم في الدّنيا فافعلوه. ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾: الأمر لإمهال المجرمين وإنذارهم بأن لذات الدّنيا قليلة بالنسبة للعذاب الأبدي. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾: أطلق الرّكوع على الصّلاة، من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿انطَلِقُوا﴾: قرأ الجمهور: ﴿انطَلِقُوا﴾ الثاني بكسر اللام مثل: ﴿انطَلِقُوا﴾ الأول، وقرأه رويس عن يعقوب بفتح اللام على صيغة الفعل الماضي على معنى أنهم أمروا بالانطلاق إلى النّار. ﴿جِمَالَاتٌ﴾: قرأ الجمهور بكسر الجيم وألف بعد اللام، فهو جمع: جمالة، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف: ﴿جِمَالَةٌ﴾ بكسر الجيم بدون ألف بعد اللام، وهو جمع: جمل، مثل: حجر وحجارة. وقرأه رويس عن يعقوب: ﴿جُمَالَاتٌ﴾ بضمّ الجيم وألف بعد اللام، جمع: جُمالة، بالضّم، وهي حبل تشدّ به السّفينة.

د)- البيان والتفسير:

بعد عرض المشاهد التي تدلّ على قدرة الله في الأنفس وفي الآفاق، ينتقل السّياق إلى موقف الحساب والجزاء ليصوّر للمصير الرّهيب الذي ينتظر للمكذبين المجرمين معدّدا أنواعا من العذاب حتى آخر السّورة، وقد تخلل ذلك وصف لتكريم

المتقين فقال تعالى: **﴿انطلقوا إلىٰ ما كنتم به تكذّبون، انطلقوا إلىٰ ظلٍّ ذي ثلاث شعب، لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب، إنها ترمي بشررٍ كالقصر، كأنه جمالاتٌ صفرٌ، ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾**.

الخطاب موجّه للمكذبين يوم الدّين وهم في موقف الحساب الأخروي وقد تمّ الفصل في شأنهم، فتأمرهم ملائكة العذاب بالانطلاق إلى العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدّنيا، وقد عرض المشهد بصيغة الخطاب كأنه واقع الآن ليكون أوقع تأثيرا على الحسّ، والتعبير بالانطلاق للدلالة على الإسراع في الذهاب مقهورين إلى ترلهم في قعر جهنم حيث الدّخان الكثيف. وجاء التعبير عنه بالظّل تهكما إذ هو لا يظلّ من تحته فيقيه شدة الحرّ، ولا هو يقيه من لهب النار المتأجج من كل جانب والذي يتشعب إلى ثلاث شعب يتطاير منه الشّرر كالقصر، وهو البناء الشّامخ، أو هو كل بيت من حجر مطلقا كما كان العرب يطلقونه على ذلك. وهو في تتابعه وحركته ولونه مثل الجمال الصّفر ترتع منتشرة. ولا يكون الشّرر بذلك الحجم إلا وهو ينطلق من نار ضخمة، وقد روعي في هذا التشبيه البيئة العربية المألوفة لدى المخاطبين، وأنه لمشهد مهول يقتضي التعقب بقوله تعالى: **﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾**، وفي التشبيه بالجمال الصّفر تهكّم واضح بأولئك المغرورين بكرائم أموالهم من الإبل الدهم والحمر، ماذا يجدون شبيها بها في نار جهنم.

﴿هذا يومُ لا ينطقون، ولا يؤذنُ لهم فيعتذرون، ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾:

إنّ الهول الشّديد يعقل الألسن فلا تفصح عن مرادها، فهم في حيرة ووجوم، ولا يأذن الله لهم فيعتذرون عن أخطائهم بعد أن قامت عليهم الحجة فاختاروا سبيل الضّلال، بل يقال لهم: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ (التوبة: ٦٦)، فليس المراد بأنهم يكونون حتما لا ينطقون بل تدلّ النصوص الأخرى بأنهم يحاولون الدّفاع عن

أنفسهم بكل ما يلفقونه من أكاذيب، ولكنهم في موقف العدل الإلهي يمنعون من الباطل والكذب ويقوم من جوارحهم وألسنتهم شهود عليهم، فليس لهم حجة وليس لهم عذر، بل الويل لهم بما كذبوا من قبل، فيوم القيامة هو يوم الفصل والجزاء.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ، فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: ومما يقال لهم تقريعا وتهديدا: هذا يوم الفصل. فالإشارة إليه هي على اعتبار سماعهم عنه في الدنيا وإن كانوا ينكرونه، غير أنّ قوة الحجة على وقوعه تجعلهم يتصورونه في أذهانهم، فها هم اليوم يوقنون بتوقفهم فيه أمام المحكمة الربانية للفصل في أعمالهم وأعمال الخلائق كلّها، وقد جمع الله فيه الأولين والآخرين.

والخطاب في قوله: ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ لكفار قريش ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة والأولين من كفار الأمم السابقة. وفي ذلك الحشد الهائل من الخلائق، وقد كان كفار قريش يكيدون لرسول الله وصحابته، فقرّع الله على ذلك أمره التعجيزي بأن يكيدوه اليوم إن استطاعوا كما كانوا يفعلون في الدنيا، وفي ذلك من التوبيخ والتهديد لهم ما لم يحيروا معه جوابا، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم عذابا، بل الويل لهم على التكذيب والإعراض.

ثم قابل الله بتكريم المتقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: يحتمل أن يكون هذا الإخبار بتكريم المتقين موجّها إلى المشركين زيادة في تقريعهم حين يقارنون بين حالتهم وحالة المتقين، ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا لبيان ما يكون عليه المتقون يومئذ من الرّاحة والنّعيم تعريضا بالمشركين، وقد جمع الله بين النّعيم الحسيّ المتمثل في الظّلال الوارفة تجري من تحتها الأنهار. وجيء بصيغة الجمع للدلالة على الوفرة وكمال المنظر. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾

يدل على تنوّع أصناف الملذات من الفواكه وغيرها، وأعظم من ذلك المتاع الحسيّ ذلك النداء العلويّ التكريمي: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهو دعاء لهم بالهناءة ورغد العيش. وكل ذلك التكريم بسبب أعمالهم الصالحة في الدّنيا، ولا يتنافى ذلك مع رحمة الله وفضله. ثم يعقب الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، تقال لهم مبالغة في التكريم، وليعلموا أن الله يجازي أمثالهم في الجنات، وهو تعريض بالكفار لحرمانهم من ذلك النّعيم وهم يستحقون الويل بتلك التكذيب.

ثم يعود السّياق إلى مخاطبة المشركين وهم في الدّنيا وقد أرخى الله لهم حبل الأمل والأجل وهم مطمئنون إلى تلك النعمة المؤقتة التي اغتروا بها. فقوله تعالى لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ هو للإنذار، يتسم بشيء من التهكّم بأنهم كالحيوانات في الأكل والشرب والتمتع القليل، ثم يأتي بعده العذاب الأبديّ بسبب إجرامهم في حق الله وحقّ عليهم الويل والثبور.

وتختم السّورة بهذا اللّوم الموجّه للمكذّبين، كيف دعاهم الرّسول إلى الهدى وهم لا يستجيبون: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**﴾، قد يراد بالرّكوع الخضوع لدعوة الإسلام، وقد يراد به الصّلاة لأن الرّكوع من أركانها، فهو من التعبير بالجزء وإرادة الكلّ، وقد كان هؤلاء المشركون في تمام الحرية والاختيار حين دعاهم الرّسول إلى الإيمان والعمل الصّالح فأعرضوا واستكبروا على الرّغم من إقامة الحجة عليهم بما نزل به القرآن من التذكير والموعظة، وهم يعترفون بإعجازه وسحر بيانه، فبأي حديث غيره من الكتب الأخرى يؤمنون به، فيا للعجب من تلك القلوب القاسية، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢).

والله أعلم.

سورة النبأ مكيّة، وآياتها ٤٠

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في أكثر المصاحف وكتب التفسير بالنبأ، لوقوع هذه الكلمة في أوّلها. وقد تسمّى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أو بدون زيادة: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي سورة عمّ، وهي مكيّة اتفاقا وعدد آياتها أربعون آية.

وتعدّ الثمانين في ترتيب نزول السّور عند الإمام جابر بن زيد، وهي الثامنة والسّبعون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وأمّا عن محاورها الأساسية فيقول عنها الإمام محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي:

"وهذه السّورة تتكوّن من أربعة فصول متميزة:

أ)- وصف الكون والنّاس إلى قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا، لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (١٤-١٦).

ب)- وصف الحساب وصفا موجزا: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (١٧). وإكثار القرآن من ذكر القيامة لمقاومة حبّ العاجلة الذي يغلب على الطّباع.

ج)- وصف للعذاب الذي ينتظر المجرمين: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١).

د)- وصف للنعيم الذي ينتظر المؤمنين الصّالحين ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ (٣١-٣٢).

وتختم السّورة بالإخبار بأنّ يوم البعث حق لا ريب فيه".(١)

---

(١)- التفسير الموضوعي: ص ٤٩٦.

الإخبار عن البعث، وبيان أدلة إثباته في تدبّر القدرة الإلهية.

أ)- النص:

بسم الله الرحمن الرحيم عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ
ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا
﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا
ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ، عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ﴿عَمَّ﴾: مركّب من "عن" و"ما" الاستفهامية، حذفت ألفها لفظا وخطًّا، إذ دخل عليها حرف الجرّ، ومعناها: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضا -أي أهل مكة- ، والاستفهام للتفخيم والتعجب. ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي الخبر العظيم، وهو يوم البعث. ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، سيعلمون ما يحلّ بهم عند النزع وانكشاف الغطاء تهديدا لهم. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا، وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾: الاستفهام للتقرير. ﴿مِهَٰدًا﴾: المكان الممهّد أي كالفراش المبسوط تستقرون عليها، يطلق على الواحد وعلى جمع: مهد. و﴿أَوْتَادًا﴾: جمع وتد، وهو ما يدق في الأرض لربط حبال الخيمة، فالجبال ترسي الأرض حتى لا تميد. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾: ﴿وَجَعَلْنَا﴾: تنصب مفعولين، السّبات: راحة لأبدانكم، وشبه اللّيل باللّباس في التغطية والسّتر. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾: لتحصيل المعاش بالكسب والنشاط.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾: أي السماوات السبع هي متينة في بنيانها، ﴿شِدَادًا﴾: جمع شديدة، أي لا تصدّع فيها ولا انشقاق. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: المراد به الشّمس هي كالسّراج المتوقّد بنوره وحرارته. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾: ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾: هي السحب تعصرها الرّياح لتدرّ بالإمطار. والماء الثجاج: أي شديد الانصباب والتّدفق من ثجّ يثجّ الماء: إذا صبّ متتابعا. ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾: الحبّ كالقمح والشّعير مما يكون له قشر، والنّبات كالحشائش وأنواع الكلأ، أي نخرج من ذلك الماء غذاء الإنسان والحيوان، ثم أنواعا من الأشجار المثمرة الملتفة. و﴿أَلْفَافًا﴾: جمع لفّ.

ج)- البيان والتّفسير:

يمهّد سيّد قطب لهذا الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، بمقدمة شيّقة يحدّد فيها طابعه المتميز، في تحريك شعور السّامعين وهزّهم هزّا عنيفا ليفيقوا من نومهم الثقيل في الخرافات والأوهام فيقول: "هذا الجزء كله -ومنه هذه السّورة- ذو طابع غالب، سوره مكيّة فيما عدا البيّنة والنّصر، وكلها من قصار السّور على تفاوت في القصر، والأهمّ من هذا هو طابعها الخاصّ الذي يجعلها وحدة على وجه التقريب في موضوعها واتجاهها وإيقاعها وصورها وظلالها وأسلوبها".[1]

فلنشرع -بعون الله- في تفسير سور هذا الجزء الأخير من كتاب الله العزيز، على نفس المنهجية التي توخيناها في مسيرتنا الطّويلة على خمائل ورياض القرآن الكريم، بدءا بسورة النّبأ في افتتاحيتها المشوقة التي يقول فيها المولى جلّ وعلا: **﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.**

---

(١)- في ظلال القرآن: ٤٢٢/٣٠.

إنها افتتاحية مثيرة مشوّقة مشوبة بتفخيم وتهويل وتعجيب من أولئك المتسائلين من منكري يوم القيامة، فعن أي شيء يتساءلون؟. وبعد ذلك الإجمال يذكر الله ذلك الأمر الذي كان محلّ تساؤلهم إنكارا واستهزاء، فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، وصفه الله بأنّه نبأ عظيم أي الخبر الهامّ العظيم الشّأن، وهم مختلفون فيه بين مصدّق ومكذّب، فأمّا المصدّقون به وهم الذين آمنوا فهم موقنون بوقوعه، وأما الذين كفروا فهم ينكرون وقوعه، فكان التساؤل منهم وحدهم وهم بين شاكّ ومكذّب.

ثم ردّ الله عليهم متوعدا فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، أكّد كلمة الرّدع: ﴿كَلَّا﴾ مع جملة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، واختيار: "سين" التنفيس دون "سوف" للدّلالة على قرب الوقوع لقوله ﷺ: «**بعثت والساعة كهاتين، وقرن بين السّبابة والوسطى**»[1]، إشارة إلى قرب الوقوع، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج: ٦-٧). فماذا سيعلمون؟. أبهم الله متعلّق العلم، لتذهب فيه النّفس كل مذهب، أي يعلمون مما يحلّ بهم من العذاب يوم وقوع ذلك اليوم، والعطف: بـ﴿ثُمَّ﴾ بين الجملتين يفيد أنّ مضمون الجملة الثّانية في الوعيد أقوى من مضمون الجملة الأولى.

ولبيان قدرته تعالى على إعادة الخلق انتقل الحديث إلى عرض قدرته في العالم المنظور المشاهد مما لا يستطيعون إنكاره وهم يعيشون في ثناياه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾. الاستفهام للتقرير، بأن جعل الله الأرض مهادا، أي فراشا وطيئا ليّنا لحياة الخلائق على ظهرها في هناءة واستقرار. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات:٤٨). وجعل الجبال لها كالأوتاد لتثبيتها وترسيخها حتى لا تميد ولا تضطرب. والأوتاد جمع وتد، وهو العود الغليظ الذي يغرز في الأرض لشدّ حبال الخيمة، يقول الشّاعر:

---

(١)- رواه البخاري من حديث سهل بن سعد الساعدي، كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم ٥٠١٥.

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان عير الحيّ والوتد

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾: والزوجية ظاهرة طبيعية تدركها الفطرة إذ يتمّ بها امتداد النّسل البشري، بل جعلها الله أساسا لمكونات الكون ووجوده فقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩)، وقد تطورت معرفة الإنسان في هذا المجال من المعرفة البسيطة في التكامل الغريزي بين الذكر والأنثى إلى تتبع مراحل النمو الجنيني ومراحل العمر من الولادة، إلى سن الشيخوخة والهرم، وأخيرا إلى فك ألغاز الخريطة الجينية ومحاولة التحكم في تأثيراتها، وتبقى القدرة الإلهية من وراء كل ذلك هي المدبّرة والمسيطرة في الخلق والإبداع.

وكان من تدبيره الحكيم أن جعل النوم لنا سباتا، وهو بمعنى القطع لحركة الجسد ونشاطه، حتى يأخذ قسطه من الراحة الضّرورية بعد عناء النّهار، والنّوم من أقوى الخصائص التي متع الله بها الإنسان إذ هو موت مؤقت تعقبه يقظة، فهو أشبه بالموت الذي يعقبه البعث يقول تعالى فيه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢). وفي تشبيهه تعالى اللّيل كاللّباس لنا في التغطية والسّتر حكمة وتدبير لأن الكثير من الأعمال والنّشاطات تحتاج إلى ذلك السّتر، أما ظاهرة النّهار حيث ينتشر ضوء الشّمس فهي مجال للنّشاط والسّعي في كسب الأرزاق بمختلف الوسائل، فاللّيل والنّهار ظاهرتان طبيعيتان متكاملتان، وهما متطابقتان مع تكوين الإنسان وتركيبه في حركته وسكونه.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: السّبع الشّداد: هي السّماوات السّبع، جاء التّعبير عنها بالبناء؛ لأنها بالنسبة للأرض المهاد بمثابة السقف المرفوع فوق رؤوسنا، متماسكة قويّة مزينة بالنّجوم والكواكب. نتملّى جمالها بعيوننا ونعيش في طرف منها بوجود الشّمس تتدلّى منها سراجا وهاجا بنورها وحرارتها فتوفّر

لنا أسباب الحياة على وجه الأرض. أما كونها سبعا، وكونها طباقا فلا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا، لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾: ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ هي السحب المثقلة تعصرها الرياح أو الشحنات الكهربائية لتدرّ بماء الأمطار وفق مشيئة الله، فتنزل رذاذا وطلاً أو وابلا مدرارا، والثج هو التدفق بقوة. وكم حاول العلماء استنزال الأمطار بطرق صناعية مكلفة ولكنها لم تنجح، ويبقى الأمر بيد الله وحده قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨). وبنزول الأمطار وتوهج أشعة الشمس ضوءا وحرارة تهتزّ الأرض بأنواع النبات مما يأكله الناس والأنعام من أنواع الحبوب والكلأ، ومن أنواع الأشجار المثمرة، الملتفة الأغصان والوافرة الظلال، إنه التدبير الحكيم والقدرة الإلهية وصنعه البديع في تناسق وتكامل أجزاء الكون العظيم في أرضه وفي سمائه يتفاعل معه الإنسان إذا سلمت فطرته وتوجهت مشاعره نحو التأمل والنظر الواعي في ما خلق الله، ويزيده العلم والمعرفة بحقائق الكون التي قدّر الله كشفها للإنسان، يزيده ذلك إيمانا ويقينا بقدرة المبدع الحكيم، والله أعلم.

أحوال يوم الفصل، ومآب الطغاة في جهنم.

أ)- النص:

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا
﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ
فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ
إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾: ﴿الْفَصْلِ﴾: هو الفرق والتمييز بين الأشياء، والمراد به هنا يوم القيامة؛ لأن الله يفصل فيه بين الخلائق. ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾: أي الوقت المحدد لفعل ما أي موعده محدد في علم الله. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾. والنفخ في الصور: الصور في اللغة هو البوق، والنفخ فيه هو كناية عن دعوة الناس وبعثهم من قبورهم إلى المحشر، أما كيفية ذلك فعلمها عند الله. والمراد النفخة الثانية للبعث. والأفواج: جمع: فوج، الجماعة من الناس، وهو منصوب على الحال، أي تحضرون إلى المحشر جماعات جماعات. ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾: وفتحها انشقاقها أبوابا تنزل منها الملائكة، تشبيه بليغ للدلالة على كثرة الأبواب، فلا يبقى حاجز بين سكان الأرض وسكان السماء. ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾: أي تنقل الجبال وتقتلع من أماكنها وتنفت هباء. والسراب: هو ما يلوح كالماء في الصحاري وليس بماء. ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾: أي موضع الرصد والمراقبة للكفار من طرف خزنة النار. ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾: أي تكون جهنم مرجعا للطغاة، وهو منصوب على الحال أو على البدل من لفظ: ﴿مِرْصَادًا﴾. ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾: اللبث الإقامة بمكان ما، ﴿أَحْقَابًا﴾: جمع: حقب، بضمتين، أي الزمن الطويل الذي لا نهاية له، وهو منصوب على الظرفية. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾: الحميم: الماء الشديد الحرارة، والغساق: الصديد الذي يسيل من الجروح، حميم: منصوب على الاستثناء. ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾: أي جزاء موافقا لعملهم، منصوب على المصدر. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾: ﴿وَكُلَّ﴾: منصوب على الاشتغال بضميره، والإحصاء: حساب الأشياء وضبط عددها. ﴿كِتَابًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ والمراد إحصاء أعمال العباد. ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾: أي يقال لهم على وجه التقريع: ﴿ذُوقُوا﴾، تشبيه لإحساسهم بالألم بالذوق؛ لأن حاسة الذوق أشد إحساسا بما يلامسها. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾: نوق عذابكم باستمرار.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَفُتِّحَتِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب قرأوا بتشديد الفوقية، وهو مبالغة في فعل الفتح بكثرة أو شدته، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَفُتِحَت﴾ بتخفيف الفوقية على أصل الفعل. ﴿لَابِثِينَ﴾: قرأ الجمهور على صيغة جمع: لابث، وقرأه حمزة وروح عن يعقوب: ﴿لَبِثِينَ﴾ على صيغة جمع: لَبِث، من أمثلة المبالغة مثل: حَذِر. ﴿وَغَسَاقًا﴾: قرأ الجمهور بتخفيف السين، وقرأه حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين، وهما لغتان.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان قدرة الله وإثباتها بما يشاهده الناس في العالم المنظور من تمهيد الأرض لحياتهم وتوفير الأرزاق لهم ولحيواناتهم، أخبر الله عن يوم الفصل أي يوم الحساب والجزاء والحكم بين العباد، وأن وقته محدد في علم الله، ثم ذكر الله بعض الأوصاف لذلك اليوم الرهيب، وكيف يكون مئاب الطغاة إلى جهنم حيث يلاقون أشدّ أنواع العذاب فقال عز من قائل: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا، يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا، وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا، وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**﴾.

أخذ الله في بيان ما يحمله النّبأ العظيم مما سيتحقق منه المنكرون، وقد درج القرآن في كثير من السّور أن يشبّه إخراج الموتى من القبور ليوم النّشور بإخراج النبات من الأرض بعد إنزال المطر عليها، وذلك ما نلحظه في نسق المضامين الأساسية للسورة الكريمة، فإنّ الله القادر على تمهيد الأرض وتسخيرها واستخراج خيراتها وتوفير أرزاقها هو القادر على إعادة الخلق للحساب والجزاء في الحياة الأخرى بعد أن خلقهم في الحياة الأولى للعمل والابتلاء، فبين أنّ ليوم الفصل بين الخلائق موعده المحدّد عند الله، ثم له أحداثا رهيبة تقع وتكون علامات له وهي:

أ)- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾: والنفخ في الصّور كما يعلمه الله، هو إيذان بخروج الناس من قبورهم كالجراد المنتشر للذهاب إلى موقف العرض أفواجا وجماعات، وعلى رأس كل أمة رسولها ليكون شهيدا عليها، إنه لمشهد للهول يقول الله عنه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (هود:١٠٣).

ب)- ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾: أي تصدّعت وتشققت، هكذا بصيغة الماضي لتحقق الوقوع، فلكثرة أبوابها لنزول الملائكة شبهته كلها بالأبواب، مما يعني زوال الحواجز بينها وبين الأرض وقد تغيّر فيه نظام الكون المعهود.

حـ)- ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾: وذلك بعد نسفها وقلعها من أماكنها، فتكون هباء منبثا يخيّل للناظر أنها شيء كالسراب الذي يظنه الرائي ماء وليس إلا خيالا يتراءى له من بعيد كقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة: ٤-٦).

وهكذا تتبدّى مناظر الهول الرهيب في تبدّل أوضاع الأرض والسماء، فلا تملك الخلائق فيه مهربا من أيدي القضاء، ولكنهم يوم العرض على فريقين: طغاة مجرمون، وأولياء متقون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِّلطَّاغِينَ مَآبًا، لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، والجملة على الاستئناف مؤكدة بـ"إنّ" للاهتمام بالخبر، وقد بدأ الله بذكر جهنم؛ لأن المقام لتهديد المكذّبين بيوم البعث، ووصفهم الله بالطّغيان تسجيلا عليهم بتجاوز حدود الله بالكفر والعدوان، فمرجع هؤلاء جهنّم تنتظرهم وتترقبهم كما يترقب الإنسان عدوّه، فهم نزلاؤها الأشقياء. قال تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، والأحقاب جمع: "حُقُب"، بضمتين أي الزّمن الطّويل الذي لا نهاية له، بمعنى: تمضي عليهم الأحقاب تتوالى واحدة بعد أخرى إلى الأبد، وكون جهنّم مرصادا لأولئك الطّغاة قد يكون بمعنى اسم مكان للرصد، أي ملائكة العذاب يرصدون ويترقبون من يساق

إليها، ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر، فيكون الوصف للمبالغة حتى كأنها هي التي ترصدهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا، جَزَآءً وِفَاقًا﴾: فكيف تكون أحوال الطاغين في جهنم؟. هم في أمس الحاجة إلى ما يقيهم من الحرّ وما يرويهم من عطش، ولكنهم محرومون من ذلك، إذ ليس إلا الماء الساخن يقطع أمعاءهم وإلا صديد أهل النار مما ترشح به أجسامهم، فذلك هو العذاب الموافق لذنوبهم العظيمة يقتضيه عدل الله بما كسبت أيديهم إذ كانوا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا، فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، ذكر الله الدوافع والأسباب التي كانت وراء ذلك الطغيان الذي أوردهم موارد النيران وهي:

أ)- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾: أي لا يتوقعون حسابًا ولا جزاء، فهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً، لأن الإيمان باليوم الآخر في جميع مراحله هو الرادع القوي في التغلب على الأهواء والنزعات الشيطانية كما قال سيدنا عمر: لولا الآخرة لكان غير ما ترون.

ب)- ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾: وآيات الله ناطقة وصامتة، فهم لا يؤمنون بها بل اتخذوها هزؤا وسخرية، فأخبر الله بأنه يحصي عليهم أعمالهم ويسجلها عليهم الحفظة الكرام، والإحصاء هو حساب الأشياء وضبطها بدقة ولا يتم ذلك إلا بالكتابة لتأكيد معنى الضبط.

ومزيد من التأنيب والتقريع يقال لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، قال المفسرون: هذه الآية هي أشد ما في القرآن من عقوبة على أهل النار، وقد جيء به في صيغة الخطاب تيئيسا للمشركين من أي غوث أو نجدة، فهم في مزيد من العذاب أبديًا. نرجو من الله الفوز والنجاة. والله أعلم.

بيان أحوال السعداء، وتأكيد قدرة الله في وقوع يوم القيامة.

أ)- النص:

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ
لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾: ﴿مَفَازًا﴾: مصدر أو اسم مكان من الفوز. ﴿حَدَآئِقَ﴾: جمع حديقة، وهي الشجر الملتف الذي عليه حائط، وهي بدل من: ﴿مَفَازًا﴾. ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا، وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: ﴿كَوَاعِبَ﴾: جمع كاعب، الفتاة التي نحد ثديها. والأتراب: جمع: ترب، للمماثل في السن. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: الكأس: الكوب المملوءة شرابا. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾: ﴿لَغْوًا﴾: الباطل من الكلام وغيره، والكِذّاب: مصدر فعل: كذب. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾: الجزاء: إعطاء شيء عوضا على عمل ما، وهو منصوب على المصدرية المطلقة أو على الحال. ﴿حِسَابًا﴾: صفة لـ﴿جزاء﴾. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾: الضمير يرجع إلى الخلائق في الموقف يغمرهم الجلال والهيبة، فلا يستطيعون مخاطبة الله في طلب شيء لأنفسهم ولا لغيرهم، فهي إما خبر لـ﴿ربّ﴾ على القراءة بالرفع مبتدأ، وإما حالا من: ﴿ما بينهما﴾. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرف، ﴿الرُّوحُ﴾: جبريل ﷺ، ﴿صَفًّا﴾: حال. ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

مَئَابًا﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى يوم الفصل، مبتدأ، ﴿ٱلْيَوْمُ﴾: خبر و﴿ٱلْحَقُّ﴾: نعت، أي ذو الحق، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾: أي إن باب التوبة والرجوع إليّ مفتوح لمن أراد ذلك باختياره. ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾: الخطاب للطّاغين المكذبين، والإنذار: التّخويف من عذاب يوم القيامة. ﴿قَرِيبًا﴾: نعت لـ﴿عَذَابًا﴾. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرف، والجملة بعده في محل جرّ بالإضافة، أي يقرأ المرء في صحائفه ما قدّمه في حياته من خير أو شرّ. ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾: يتمنى الكافر أن يصير إلى العدم حتى لا يعذّب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كِذَّابًا﴾: قرأ الجمهور بتشديد الذّال، وقرأه الكسائي بتخفيفها. ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: قرأ الجمهور نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفع: ﴿رَبُّ﴾ ورفع: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفضها، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بخفض: ﴿رَبِّ﴾ ورفع: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان ما ينتظر الطّغاة من عذاب النّار ذكر الله ما يناله المتقون الأبرار من النّعيم الحسّي والمعنويّ في جنات الخلد فضلا منه تعالى ومنّة وإحسانا، ثم ختم السّورة بوصف جلاله وهيبته في موقف العرض والحساب مع إنذار الطّغاة المكذبين من يوم يتمنى أحدهم فيه أن يكون ترابا فقال تعالى: **﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا، وَكَأْسًا دِهَاقًا، لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾**.

في مقابل ما أعدّه الله للطّاغين من عذاب النّار يخبر الله تعالى عن المتقين الأبرار، بما أعدّ لهم من التكريم والإحسان، ووصفهم بالمتقين؛ لأنهم اتقوا عذاب ربهم بالقيام بما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه، وذلك هو أدنى ما يطلب من المؤمن

ليكون من الفائزين بزحزحته عن النار ودخوله الجنة، فهم ينتهون إلى نجاة وفوز، ويستمتعون بالجنات الوارفة الظلال والوافرة الثمار، وبالأخص الأعناب التي كان للمخاطبين اهتمام بها في إعدادها لمجالس الشرب بما يحضر فيها من الفتيات الكواعب الناهدات، وهن في السن متماثلات، وفي الحسن والجمال، وعلى ذكر الأعناب ذكر الكأس الدهاق، والمقصود بها الأكواب المملئة شرابا صافيا، وهو مشهد تصويري للمتاع الحسيّ الدّنيويّ كما هو معهود عند المخاطبين، وقد قال قائلهم:

ثلاثــة تنفـي عـن المـرء الحـزن المـاء والخضـرة والوجـه الحسـن

أما حقيقة المتاع بها فليس لمداركنا الأرضية إلمام بها. وإلى جانب ذلك وأعظم منه أن أصحاب الجنة لا يكدّر صفوهم لغو من حديث باطل ولا يكذب بعضهم على بعض في جدل عقيم ولا نفاق ذميم، لأنّ البيئة الطاهرة النقية لا تحتمل ذلك كما قال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا، إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ (الواقعة:٢٥-٢٦).

وقد جازاهم الله بذلك تفضلا منه وإنعاما إذ قال: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾، فهو جزاء من عطاء ربّك الكريم، وفق ما قدّموه من صالح الأعمال.

ثم يجيء المشهد الختامي للسورة يفيض جلالا وهيبة بين يدي الرّحمن وقد تكاملت الصفتان للذات العليّة في قوله: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ﴾، و﴿الرَّحْمَنُ﴾.

فهو الرّبّ المالك لما في السّماوات والأرض وما بينهما، فهي ربوبية واحدة شاملة لا يندّ عنها تصرّف ولا تدبير، وهي ربوبية تصحبها رحمته التي وسعت كل شيء، حتى جزاؤه للتقاة والطّغاة فهو يندرج في مشمولات تلك الرحمة وتغمرها الهيبة والجلال في موقف العرض فلا يملك أحد خطابا يخاطب الله بشيء لنفسه أو لغيره إلا أن يأذن الله له بذلك.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾: أي في ذلك اليوم المهيب من العرض يقوم جبريل عليه السلام والملائكة صفوفا بين يدي الله صافين خاشعين تلفهم الهيبة والرهبة، فلا يتكلمون بشفاعة لأحد أو بغير ذلك إلا بإذن من الرّحمن مالك يوم الدّين، ولا يتكلم إلا بما يعلم أنه صواب أي كلام حق.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾: الإشارة إلى ذلك اليوم الذي وقع التساؤل عنه في مفتتح السّورة، هو ذا ماثل أمامهم بحق، فلا مجال للتساؤل والارتياب، وما دام المرء في فسحة من عمره في الدّنيا فإن الفرصة سانحة له للرجوع إلى الله بالتوبة النّصوح إيمانا صادقا وعملا صالحا.

وفي اللمسة الأخيرة يجدد الله الخطاب للطغاة المنكرين: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾، إنه الإنذار الأخير يوجهه الله إلى أولئك السّادرين في غفلتهم ليوقظهم إلى التماس طوق النّجاة قبل فوات الأوان، إذ أنّ ذلك اليوم ليس بالبعيد؛ لأنّ كل آت قريب لا محالة، وفيه من الشّقاء والعذاب بحيث يتمنى الكافر فيه وهو يقرأ صحائف أعماله أن يصير إلى تراب، إلى العدم والفناء، كما يفعل الله بالحيوانات العجماء، وحسب الإنسان من الشّقاء من أن يرى الموت شافيا كما قال المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وقانا الله من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة.

والله أعلم.

سورة النازعات مكيّة، وآياتها ٤٦

– بين يدي السّورة الكريمة:

تسمّى سورة النّازعات، هكذا بإضافة كلمة "سورة" إلى النازعات. وقد تسمّى على حكاية أول ألفاظها: "والنّازعات"، وكل ذلك مراعاة لما افتتحت به، وسماها بعض المفسرين سورة السّاهرة، لورود هذا اللّفظ في أثنائها، وهي مكيّة بالاتفاق، وآياتها ست وأربعون لا تخرج في مضمونها عن مضامين السّور المكية في تركيز أصول العقيدة الإسلامية من وحدانية الله والرّسالة والإيمان باليوم الآخر.

وتعدّ الحادية والثّمانين في ترتيب نزول السّور، والتاسعة والسّبعين في ترتيب سور المصحف الشّريف، ويدور محورها الأساسيّ حول القيامة وبيان أهوالها، وعن مآل المتقين والمجرمين.

– افتتحت بالقسم بأوصاف على صيغة جموع المؤنث السّالم، هي لموصوفات عظيمة الشّأن، إما أن تكون موصوفا واحدا كالملائكة الكرام وإما لموصوفات مختلفة.

– وصف أحوال المشركين المنكرين للبعث في ذعرهم واضطرابهم أمام ذلك الهول الفظيع.

– تناولت باختصار قصة فرعون مع موسى وادّعاءه الألوهية وكيف أهلكه الله في اليمّ.

– بيان قدرة الله على البعث بخلق السّماوات والأرض وأن ذلك أشدّ خلقا من أولئك المنكرين للبعث.

– ثم اختتمت السّورة ببيان أحوال يوم القيامة وانقسام النّاس فيها إلى فريقين: سعداء وأشقياء والرّد على السّائلين عن وقتها بأن علم ذلك عند الله وحده، وليس

على الرسول إلا الإنذار من أهوالها. وأن من شدة ذهول المشركين أنهم يرون مكثهم في الدنيا جزءا من النهار بالرغم من طول الزمن.

القسم على وقوع البعث وبيان موقف المنكرين له.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾
وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾
يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا
خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا
تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: ﴿النَّازِعَاتِ﴾: وصف للملائكة، تنزع أرواح الخلق الكافر بشدة وغلظة. ﴿غَرْقًا﴾، ﴿نَشْطًا﴾، ﴿سَبْحًا﴾: منصوب على المصدر، يجوز أن يكون: ﴿النَّازِعَاتِ﴾ وصفا للنجوم، تنزع من أفق إلى أفق في سيرها، ﴿غَرْقًا﴾: تشبيه لأفولها بالغرق في الماء. ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾: أي الجاذبات لأرواح الأتقياء بسرعة وتسبح في الفضاء الكوني. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾: أي تسابق في تنفيذ أوامر الله، ويجوز أن تسقط هذه الأوصاف على الكواكب، كما يحتمل أن يكون الوصف: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ للخيل حين تغزو العدو في سرعة كالسابح في الماء، يقول المتنبي:

أعزّ مكان في الدّنا سرج سابح وخير جليس في الزّمان كتاب

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾: ﴿تَرْجُفُ﴾: تهتز وتضطرب الأرض والجبال تتبعها السّماء والأفلاك الأخرى. وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ هي النفخة الأولى للصعق، و﴿الرَّادِفَةُ﴾: هي النّفخة الثّانية للبعث. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾: أي مضطربة خائفة وهي قلوب الكافرين. ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ، إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾: الاستفهام للإنكار التّعجبي، يقال: رجع في حافرته، إذا رجع إلى مثل ما كان عليه، أي الرّجوع إلى الحياة بعد الموت. ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾: العظام النّخرة: أي البالية المتفتتة. ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: أي تكون رجعة خاسرة. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: ﴿زَجْرَةٌ﴾: المرة من الزّجر، وهو الانتهار بصوت قويّ كزجر البعير للإسراع. و﴿السَّاهِرَةِ﴾: هي أرض الحشر، الله أعلم بمكانها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَئِنَّا﴾، ﴿إِذَا﴾: قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب: ﴿أَئِنَّا﴾، ﴿إِذَا﴾. وقرأ أبو جعفر: ﴿إِنَّا﴾، ﴿أَإِذَا﴾. وقرأ الباقون: ﴿أَئِنَّا﴾، ﴿أَإِذَا﴾. ﴿نَخِرَةً﴾: قرأ الجمهور بدون ألف بعد نون، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب وخلف: ﴿نَاخِرَةً﴾ بالألف.

د)- البيان والتّفسير:

جاءت افتتاحية السّورة الكريمة بأقسام من الله هي صفات لمخلوقات عظيمة خاضعة لسلطان الله في تنفيذ ما يأمر به في الكون، أقسم الله بها على أنّ البعث حقّ، ثم عرض أحداثا مهولة تتعلق بالمقسم عليه مع بيان أحوال الكافرين المكذبين بما يكونون عليه من ذلّ وهوان، وما يندمون عليه من خيبة وخسران، فقال جلّ من قائل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ

سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾.

جاء قسم الله بصفات تهزّ الحسّ بجرس من ألفاظها المؤكدة بالمصدر إمعانا في التهويل والتضخيم، لأن المقسم به مخلوقات عظيمة تأتمر بأمر الله في تدبير شؤون خلقه بصفة عامّة، وفي تنفيذ قضائه وقدره في حياة النّاس بصفة خاصّة. فالصّفات المتتالية بصيغة جمع المؤنث السّالم هي لجماعات تشترك كلها في تلك الصّفات، غير أن المفسّرين رأوا فيها احتمالات متعددة، والله أعلم:

أ)- هي أوصاف للملائكة الأطهار تميّزها تلك الأوصاف، فهي تنزع أرواح الكفار بشدة وعنف إذ تغرق في ذلك النّزع كما يغرق الرّامي في مدّ وتر قوسه حتى يستوفي غاية هدفه، وهي من جهة أخرى ناشطة مسرعة في جذب أرواح المؤمنين برفق ويسر، سابحة في الفضاء الكوني سبّاقة في تنفيذ تدابير الله في خلقه.

ب)- ويحتمل أن تكون هذه الأوصاف للنّجوم تنزع في مداراتها وتنشط وتتنقل سابحة في الفضاء سباقة في جريانها، ولها في ذلك بتقدير الله نتائج وتأثيرات في حياة الأرض ومن عليها.

ج)- ويحتمل أن تكون الصّفات لموصوفين مختلفين: فالصّفات الثّلاث الأولى للنجوم، والصّفتان الأخرتان للملائكة، وأيّا كان المراد منها في علم الله فإنها أوصاف تنمّ على ما يروع ويهزّ النفوس لتلقّي جواب القسم بما يستحقه من الاهتمام، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، إنه يوم الصّعق عند النّفخة الأولى يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات، فالأرض ترجف بكل ما عليها وتمور، ويردف ذلك تشقق السّماء وانفطارها. أو المراد من الرّاجفة والرّادفة النّفخة الأولى والثّانية كما يراه ابن عباس.

ثم ذكر الله أحوال المنكرين للبعث حين يصدمهم الواقع وينكشف الغطاء

فيرون أهوال الموقف: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾.

﴿قُلُوبٌ﴾: بصيغة التنكير لإفادة التكثير، وهي قلوب المشركين الناكرين للبعث تخاف وتضطرب لما تتوقعه من عذاب الله إذ كذبوا بما كان ينذرهم به رسول الله، وأما المؤمنون فيقول المولى عنهم: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (النمل:٨٩). وتلك الحالة النفسية للكفار تنعكس على وجوههم انكسار وذلاً.

﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ، إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾: تقول العرب: رجع فلان في حافرته، أي رجع إلى ما كان عليه، يحكي الله مقولة المكذبين بصيغة المضارع وبصيغة الغيبة لإفادة التكرار والاستمرار، والضمير يعود إلى معلوم من السياق، وهم منكرو البعث كيف كانوا يتساءلون في سخرية واستهزاء: أئنا لراجعون إلى الحياة بعد الموت، وبعد أن رمّت عظامنا وتفتّت؟، وقد دأبوا على تكرار تلك المقولة وهي عارية عن كل حجة معقولة فيدفعهم الله ببرهانه القاطع، بأن الذي خلقهم أوّل مرة هو القادر على إعادة خلقهم.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: فمهما أوغلوا في الإنكار، فإنّ عودتهم الواقعية إلى الحياة توقظهم من سكرتهم وتزيل من نفوسهم ذلك التعنّت الذي ألفوه فيشعرون بالخسارة والخيبة إذ تحققت الرجعة بعد الذهاب ولم يستعدّوا لها ولم يقدّموا زادا.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: فرّغ الله على تساؤلهم التعجبي بيان هذا المشهد السريع الفجائي بوقوع الزجرة -أي الصّيحة المثيرة- فإذا بالخلائق كلها مجموعة على أرض الحشر، وصف: ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ لاستوائها وامتدادها، أمّا كيف تتمّ الحياة الثانية بخلق الأجساد البشرية لتحلّ فيها الأرواح كما كانت وأين تقع أرض المحشر فذلك من الغيب الذي نفوّض فيه الأمر إلى الله، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس:٥٣)، والله أعلم.

التذكير بقصة موسى مع فرعون، والاستدلال على البعث بخلق السماوات والأرض والجبال.

أ)- النص:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾
وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾: "هل" تأتي بمعنى "قد"، لتحقيق الخبر وتعليم الجاهل، والخطاب في الآية لغير معيّن، و"الحديث" بمعنى الخبر. ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي حين ناداه ربّه عند الوادي المقدّس إلى جانب جبل الطّور، ﴿طُوًى﴾: اسم مكان هناك. ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾: مضمون نداء الرّب لموسى هو أمره بالذّهاب إلى فرعون الطّاغية ليدعوه بلين ورفق إلى التّزكية، أي التّطهّر بالإيمان من أرجاس الشّرك، وقد خاطبه بأسلوب التّشويق حتى لا ينفر حفيظته. ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾: هي معجزة العصا واليد. ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ، فَحَشَرَ فَنَادَىٰ، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾: ترتيب الأحداث متعاقبة حيث جاء العطف بالفاء، بينما جاء العطف بـ"ثم" حيث يقتضي التدبّر

والتفكير لإيجاد المخرج لأمر موسى ومواجهة معجزته. ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾: النكال: العذاب الرادع، والأخذ كناية عن القهر والغلبة، ونكال الأولى: هو غرقه في اليمّ، أما نكال الآخرة فهو عذاب جهنم. وقيل: الأولى والآخرة وصفان لمقولتيه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص:٣٨). ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: الجمل بدل اشتمال لجملة: ﴿بَنَاهَا﴾، والسَّمك هو الرفع في الفضاء، والتسوية: التعديل وجعل الأشياء مستوية، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: بمعنى جعله مظلماً، وإخراج الضحى: إبراز ضوئه بعد احمرار شعاع الشمس صباحاً. ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾: ﴿دَحَاهَا﴾: من الدّحو أو الدحي هو البسط والتسوية، والبعدية: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دليل على تأخر زمن الفعل بما يدلّ على أن الأرض وجدت بعد السماوات، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: منصوبة على الانشغال، والجمل: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ هي بدل اشتمال من جملة: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾. ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾: المتاع: كل ما ينتفع به والنصب على التعليل نيابة عن الفعل والتقدير: فعلت ذلك تمتيعاً لكم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿طُوًى﴾: قرأه الجمهور بلا تنوين على أنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، أو للعجمة، وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف قرأوه منوناً على اعتباره اسم واد مذكر اللفظ. ﴿تَزَكَّىٰ﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بتشديد الزاي، على اعتبار أن أصله: تتزكّى، بتاءين، قلبت المجاورة للزاي زاياً، وقرأه الباقون بتخفيف الزاي على حذف إحدى التاءين.

د)- البيان والتفسير:

خلال الحديث عن البعث وذكر الحجج القاطعة على إثباته والإنذار بما بعده يأتي الاستطراد لقصة موسى مع فرعون بجامع الإنكار والطغيان والكفر في كل من

فرعون والمشركين، لما في ذلك من الاعتبار للمخاطبين ومن التسلية لرسول الله ومن معه من المؤمنين فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

الخطاب لغير معيّن، والاستفهام فيه للتشويق والإعداد النّفسيّ، والمخاطبون على دراية بقصة موسى مع فرعون، وقد تكرر التّذكير بها في سور مختلفة، وجاءت في سياق هذه السّورة مختصرة بما يناسب أداء الغرض من الجوّ العام للسورة في بيان حقيقة البعث والنّشور والتّخويف من أهوالها، والتعبير بالحديث فيه إيحاء بتفاهة الدّنيا وإن سرت وتزينت لبعض النّاس -أحيانا- كما حدث لفرعون، إذ أنها عندما تفنى وتزول فإنها تبقى للأجيال مجرّد أحاديث تروى، كما قال تعالى في حضارة سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ:١٩). تضمنت القصّة هنا عدة لقطات هامة، فبدأت بالنّداء الرّباني لموسى بالوادي المقدّس طوى، أي المسمّى بهذا الاسم على الأرجح، وهو بجانب الطّور الأيمن في صحراء سيناء، فأية رهبة وأيّ جلال قد ساد ذلك المكان وأية رباطة جأش سخرها الله لموسى وهو يستمع لذلك النّداء مباشرة، إنها لحظة جليلة، يتجلّى فيها السّرّ الإلهيّ ليتقمص شخص موسى ﷺ ويخلع عليه رداء النّبوة والرّسالة، ولا يتضمن النّصّ تفاصيل المناجاة التي جرت بين الله وموسى بل يقتصر على الأمر التكليفي بالذّهاب إلى فرعون ويصفه بأبرز صفاته التي يمقتها الله وهي الطّغيان: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، والطّغيان مفسدة في الأرض يعاقب الله صاحبها بعد الإعذار والإنذار.

وليس من السّهل مخاطبة الطّغاة، سيما في أمر يرون فيه تحديًا لسلطانهم، فالأمر يحتاج إلى كياسة ولباقة تستنزل طائرهم وتخفّف حدّتهم، وذلك هو ما علّمه الله لموسى بتلقين تلك العبارات اللّينة التي يخاطب بها فرعون، فاختار أسلوب الاستفهام التحفيزي: ﴿هَل لَّكَ﴾، ثم دعاه إلى التزكية أولاً على قاعدة: التخلّي قبل التحلّي.

يتطهر من أرجاس الشرك حتى يلبس أثواب الخشية من الله ويهتدي بهديه المبين، وخشية الله هي ملاك الأمر ينجرّ عنها كل خير، إذ هي تجاوب واندماج في صميم الوجود المسبّح بحمد ربّه. وهذا كقوله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٤٤). يكفي أي عبد مثل ذلك التطهر من أرجاس الكفر حتى يعرف طريق ربّه، وما إن يخطو الخطوة الأولى على ذلك الطريق فإن خشية الله تنساب في صُلبه متدفقة تملأ شغافه وتستقرّ في ثناياه، ومع الموعظة الليّنة للعجزة المبهرة، تلك المعجزة التي تدرب عليها في موقف المناداة والتكليف، فها هو ذا يؤدّي دوره ببراعة أمام الطاغية في موقف المواجهة والتبليغ، فكيف كانت النتيجة؟.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ، فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ، فَحَشَرَ فَنَادَىٰ، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾:

جاءت أحداث القصّة مختصرة ومتعاقبة، فبعد التذكير والترفّق في دعوة فرعون إلى الله طلب من موسى آية تثبت دعواه، فأراه الآية الكبرى في قلب العصا حيّة وفي إخراج اليد بيضاء من غير سوء، ولكن الطاغية بادر إلى التكذيب والعصيان زاعما أن ذلك هو نوع من السحر فتولّى عن موسى ليتدبّر أمره في مواجهته بالمثل، أي في إجراء مباراة بين موسى وبين السحرة الذين جمعهم من أرجاء مملكته، وقد تطلب ذلك فترة زمنية للإعداد فجاء العطف بـ"ثم" للتراخي، وحتى يركّز سلطته في نفوس رعاياه حشر الجموع الغافلة الذّليلة ليتطاول أمامها إلى مقام الرّبوبية العليا، فأصبح فرعون بذلك مثلا للطغيان والاستبداد عبر القرون والأجيال، ولكن الله القويّ القاهر يمنّ على المستضعفين ويهيّئ لهم أسباب التحرّر والانعتاق. والنصّ يطوي أحداث إيمان السحرة وخروج بني إسرائيل من مصر ليسدل الستار على ما كان من مآل الطاغية وجنوده من العذاب والنكال بالإغراق في اليمّ عقابا دنيويا عاجلا، ثم ما ينالهم من العذاب الأخروي وهو أشدّ وأبقى، ولذلك تقدم في الذكر، ويأتي التعقيب

بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، فالعبرة من صروف الدّهر لا تتأتى إلا لمن عرف ربّه وخشيه عن ظهر غيب.

فأين قوة أولئك المنكرين لدعوة رسول الله من قوة فرعون وجبروته؟، ولكنّهم لا يتدبرون، والله لا يهدي القوم الظّالمين، غير أنه تعالى يريد أن يقنعهم بمظاهر قوته في أرجاء الكون وهم لا يستطيعون إنكارها فقال تعالى: **﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾**.

الخطاب لمنكري البعث بناء على ما ألفوه من استمرارية الزّمن وذهاب الموتى بلا رجعة فحاججهم الله من خلال الخلق العظيم الذي لا يستطيعون إنكاره وهم يعيشون في حيّزه الزّماني والمكاني، فجاء هذا الاستفهام التقريري التعجبي والذي يحملهم على التّسليم والإقرار بأنّ السّماء أعظم منهم خلقا وأشدّ قوة في بنائها على غير عمد وإعلاء بنائها مستوية بلا فطور ولا شقوق.

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ تفصيل للبناء المحكم في ثبات أركانه وتركيز سقفه. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: أي جعل ليلها مظلما حالكا ونهارها مشرقا مضيئا، وإخراج الضّحى بمعنى إشراق الشّمس وارتفاع ضوئها إلى الزّوال، وهي ظاهرة تتجدّد كلّ يوم وإن كنّا نغفل عن قدرة الله فيها لطول الإلف والعادة، وآيات القرآن تذكّرنا بذلك لنشكر الله عليها، ولكن أنّى للقلوب المتحجرة أن تذكر وتتعظ؟.

وإذا كانت أبصارنا تنقلب إلينا خاسئة من عظمة السّماء وأسرارها فإنّ لنا في الأرض مهادا ووطئا لا ينذّ عن تأمّلنا وتدبّرنا، حين يوجّه الله أنظارنا إليها ويقول: **﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾**، أي بعد خلق السّماء وتسويتها مهّد الله الأرض لحياتنا بدحوها، والدّحو: هو البسط والتّسوية، مثل ما يفعل الخباز برقاقة العجين يبسطها بكفيه على

شكل الرغيف، وفي ذلك يقول ابن الرومي لوصف سرعة الخباز في الدحو.

إن أنسى لا أنسى خبازا مررت به	يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة	وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة	على صفحة الماء ترمى فيه بالحجر

وكون ذلك حدث للأرض بعد تسوية السماء، أي بعد أن انفصلت الأرض عن كتلة الشمس سابحة في الفضاء كما تقرّه النظرية الفلكية، والله أخرج الماء لضمان حياة الكائنات ومن الماء الكلأ والمرعى وأنواع النباتات لضمان الأقوات للناس والبهائم وقد أرسى الله الجبال لتكون للأرض أوتادا تضمن استقرارها، إنها مشاهد بل حقائق لا تحتاج إلى معرفة علمية لإدراك عظمة الخالق من خلالها، تلك العظمة التي تقرّر أن وعد الله حق في تدبيره الحكيم لما يكون وراء هذه النشأة الكونية الأولى من تحقيق العدل الإلهي في الحساب والجزاء، لأن الناس في الواقع خلقوا للبقاء بعد أن يمرّوا في الدّنيا على محك الاختبار والابتلاء.

خلق الناس للبقاء فضلت	أمّة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار فتنة	إلى دار شقوة أو رشاد

والله أعلم

اختلاف مصائر الخلق عند الجزاء

وتفويض علم السّاعة إلى الله تعالى.

أ)- النصّ:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ

﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ
﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: الدّاهية العظمى التي تطمّ أي تعلو وتغلب أمثالها من نوعها، وهي يوم القيامة وقد وصف بأوصاف عدة في القرآن. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: بدل من جملة: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾. ﴿مَا سَعَىٰ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة أو مصدرية أي يقف الإنسان على أعماله في كتابه. وجواب: ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾. أو هو مقدّر يدلّ عليه قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾: أنّث الفعل: ﴿بُرِّزَتِ﴾ على تقدير: "النار"، ومن أسمائها "الجحيم"، أي إظهارها بوضوح لكل راء. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: الطّغيان تجاوز الحدود، وإيثار الحياة الدّنيا تفضيلها واختيارها، والدّافع إلى ذلك هو الطّغيان، قابله الله بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي ما تهواه النّفس الأمّارة بالسّوء. و﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: المقرّ والسّكن. ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: مبتدأ وخبر أو هي ضمير فصل. ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: ﴿أَيَّانَ﴾: يسأل به عن الزّمان المستقبل، ويستعمل في استبعاد الشيء. ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: من الرّسوّ للسفينة بالسّاحل، تشبيه لقيام السّاعة برسوّ السّفينة، لأن الأرض تنتهي من سيرها في بحر الزّمان. ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: ﴿فِيمَ﴾: استفهام عن الشيء بمعنى التّعجب من سؤال السّائلين، أي ليس علمها إليك يا محمد بل هو عند الله وحده وإنما أنت منذر للناس من أهوالها. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾: أي إحساسهم بالزّمن يختل لشدة الهول.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فِيمَ﴾: وقف البزي ويعقوب بهاء السكت. ﴿مُنذِرُ﴾: قرأه الجمهور بإضافة ﴿مُنذِرُ﴾ إلى: ﴿مَن يَخْشَاهَا﴾. وقرأه أبو جعفر بتنوين ﴿مُنذِرٌ﴾ على أن يكون: ﴿مَن يَخْشَاهَا﴾ مفعوله.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إثبات وقوع البعث ببيان قدرة الله في خلق السّماوات والأرض اقتضى ذلك أن يذكر الجزاء وما فيه من العدل الإلهي وما يترتب عليه من انقسام الخلق إلى فريقين: أصحاب الجنة وأصحاب النّار، ثم أجاب الله في ختام السّورة عن تساؤل المشركين عن موعد حدوث السّاعة سخرية واستهزاء، فبيّن أنّ علم ذلك عند الله وحده وأنّ مهمة الرّسول هي الإنذار من أهوالها التي تجعل الكفّار مختلي التّقدير لأبعاد الزّمان، حتى لكأنّهم لم يلبثوا في دنياهم إلا ساعة من نهار، فقال جلّ من قائل: **﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ، فَأَمَّا مَن طَغَىٰ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.**

﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾: هي الدّاهية العظمى التي تفوق أمثالها في الشّدة والهول، وهي من أسماء يوم القيامة التي تعدّدت في القرآن الكريم، إذ تكون بها نهاية الحياة على وجه الأرض وينفرط عقد المادة والزّمان والمكان وتستقبل الخلائق نشأة أخرى للحساب والجزاء بعد مرحلة التّكليف والابتلاء. وإذ كان جوّ السّورة يغلب عليه طابع التّخويف والإنذار، فإنّ الأنسب لذلك أن تبرز الجحيم بصنوف عذابها وألوان مكارهها لجموع الخلائق المحتشدة إلى المحشر. وقد انكشف لها الغطاء فيتذكر الإنسان نوعية سعيه في الحياة الدّنيا ويستحضر ماضيه ليستشف المصير الذي ينتظره،

فتختلف المصائر ويتضح لكل واحد نتيجة تقديره.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾: فرّع الله عن الحدث المهول من قيام الساعة وبروز الجحيم للناظرين فرّع بأداة ﴿أَمَّا﴾ التي تفيد التفصيل وتحمل معنى الشرط، ليبيّن أن الخلق هم يومئذ على فريقين.

أ)- فريق الأشقياء: وهم الذين تجاوزوا حدود الحق والهدى باستهتارهم في الشهوات واتباع أهوائهم لإيثارهم زينة الدنيا ومتاعها، غير آبهين بالآخرة اعتقادا أو سلوكا، وحبّ الدنيا رأس كل خطيئة كما ورد في الأثر، فإن هؤلاء مأواهم الجحيم وبئس المصير، وليس لهم مأوى آخر.

ب)- أما فريق السعداء: فهم أولئك الذين خافوا مقام ربّهم بإجلال عظمته وملازمة خشيته وتقاه وهم بذلك يردعون هوى نفوسهم حتى لا تندّ عنهم أيّة معصية تبعدهم عن ذلك وحتى إن ضعفت نفوسهم -أحيانا- فهم سريعو الإنابة إلى الله بحكم ضمائرهم اليقظة، فهؤلاء مأواهم جنات الخلد لا يبغون عنها حولا، وشتان بين المصيرين، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة:١٨).

وفي ختام السورة يردّ الله عن تساؤل المشركين في سخرية واستهزاء عن موعد قيام الساعة، فيقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا، إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

لقد تعدّد مثل هذا السؤال في القرآن الكريم من طرف المشركين، وهم في موقف الإنكار لقيام الساعة، وإنما هو سؤال تعنّت واستهزاء لا يريدون به إذعانا للحق ولا قناعة. فالسؤال بـ﴿أَيَّانَ﴾ للتضخيم وهو كناية عن الاستبعاد. ﴿مُرْسَاهَا﴾: من الرسوّ، تشبيه للموعد المغيّب من أهوالها بسفينة تمخر البحر، ولا

يتحدّد وصولها إلا إذا رست، والأرض كلها كرة سابحة في الفضاء، ويأتي الجواب في توجيه الخطاب للرسول المسؤول: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾، وهو جواب بأسلوب حكيم ينبه السائل إلى أن الأولى به أن يهتم بغير ذلك، لأنّ الرّسول ليس في شيء مّما يطلبونه؛ ولأنّ علم ذلك عند الله وحده، فلا تشغل نفسك يا محمد بالإجابة عما يسألون، بل مهمتك أن تنذر من أهوالها من يترقبها ويخافها فأولئك هم المنتفعون بإنذارك قال تعالى في هذا المعنى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (الشورى:١٨).

فإذا لم يكن بدّ من وقوع هذا اليوم، فكيف يكون حال أولئك المنكرين عندما يعيشون ضخامة تلك الأهوال، ثم قاسوا الحياة الدّنيا إليها، فإنهم في ظل تصوراتهم وقد فقدوا الإحساس بالفاصل الزّمني في البرزخ، فيبدو لهم في حسّهم كأنهم لم يلبثوا في الدّنيا إلا ساعة من نهار في الضّحى أو العشية. فمن الحماقة والغباء أن يغترّ الإنسان بما هو قصير فان ويترك الخالد الباقي.

والله أعلم.

سورة عبس مكيّة، وآياتها ٤٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة "عبس" لورود فعل "عبس" في افتتاحيتها، وقد اشتهرت بهذا الوصف في كتب التفسير.

وقد تأخذ أسماء أخر عند بعض المفسّرين: كسورة السّفرة، وسورة الصّاخّة، تسمية بألفاظ وردت فيها، وهي مكية بالاتفاق.[1]

وآياتها اثنتان وأربعون آية.

وتعدّ الرّابعة والعشرين في ترتيب نزول السّور، وهي الثمانون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

- افتتحت بذكر قصة الأعمى عبد الله بن أمّ مكتوم، عندما جاء إلى رسول الله يطلب منه أن يعلّمه مما علمه الله، وكان الرّسول مشغولا مع بعض كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام رجاء إتباع قومهم لهم، فعبس الرّسول وأعرض عنه، فنزل ذلك العتاب.

- بيان جحود الإنسان وكفره مع توفير نعم الله عليه، قتل الإنسان ما أكفره.

- الاستدلال على قدرة الله بخلق الإنسان وتيسير سبل العيش له على وجه الأرض: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾.

- اختتمت السّورة بذكر أهوال يوم القيامة وموقف الإنسان منها بفراره من أحبائه لشدة الهول والفزع، وبيّنت حال المؤمنين وحال الكافرين.

الإسلام دين المساواة والقرآن موعظة وتذكرة للناس.

أ]- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١)
أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ
ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ
يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾: ﴿عَبَسَ﴾: عبس عبوسا إذا كلح وجهه عن كراهية واستياء. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أعرض عن محدثه، أي أدار ظهره مدبرا. وذكر الأعمى يظهر المراد بضمير الغيبة. وجملة: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ إما في محل نصب مفعول لأجله، أو في موضع جرّ بحرف جرّ مقدر: لأن جاءه الأعمى. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾: الاستفهام للتنبيه على مغفول عنه والمعنى: أي شيء يجعلك داريا حال الأعمى. ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: يتطهر من الذنوب، أصله: يتزكى، قلبت التاء زايا ووقع الإدغام. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ، فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: الاستغناء: عدّ الشخص نفسه غنيا، فالسين والتاء للحسبان، ويصحب الاستغناء -غالبا- التكبّر والغرور. ﴿تَصَدَّىٰ﴾: أصله تتصدّى، حذفت التاء الثانية للتخفيف أي وجهت عنايتك إليه وهو مستغنٍ عنك. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: أي لست مؤاخذا على عدم تزكيته. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ، وَهُوَ يَخْشَىٰ، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: ﴿يَسْعَىٰ﴾ من السعي، أي شدة المشي، وهو كناية على الحرص من اللقاء، والجملتان في محل نصب حال.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: ﴿كَلَّآ﴾: الردع وإبطال ما جرى في الكلام السابق. ﴿إِنَّهَا﴾: أي آيات القرآن التي قرأها الرسول في المجلس، ويجوز أن يعود الضمير إلى الموعظة التي ته الله بها الرسول. ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾: الصحف: جمع صحيفة، قطعة من أدم أو ورق يكتب فيها الكتاب. وقيل: المراد بها الأشياء التي كتب فيها القرآن. وقيل: هي الصحف المنزلة على جميع الأنبياء فهي مقدسة مطهّرة مرفوعة القدر. والسّفرة هم الملائكة الأطهار المرسلون إلى الأنبياء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَتَنفَعَهُ﴾: قرأه الجمهور بالرفع عطفا على ﴿يذّكّر﴾، وقرأه عاصم بالنصب في جواب: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾. ﴿تَصَدَّىٰ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الصّاد على إدغام إحدى التاءين، وقرأ الباقون بالفتح وتخفيف الصّاد على حذف إحدى التاءين.

د)- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ**﴾: تعددت الروايات في بيان سبب النزول وتقارب في ذكر أحداث ما وقع بين الرّسول وعبد الله بن أمّ مكتوم يقول عنها الإمام القطب في تيسيره: "روي أنّه كان عند رسول الله أكابر قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأميّة بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، ويرجو أن تسلم العامّة بإسلامهم، فجاء ابن أمّ مكتوم وقال: يا رسول الله، اقرأ لي وعلّمني مما علّمك الله تعالى، وكرّر ذلك -ولم يعلم تشاغله بهؤلاء-، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه مع هؤلاء فعبس وأعرض فنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾".(1)

(1)- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٩/٢١٣.

ويعلّق الشّيخ على الحادثة بقوله: "فكان إذا رآه أكرمه وقال: مرحبا بمن عاتبني فيه ربيّ، هل لك من حاجة؟. وذلك في مكّة، واستخلفه النبي بعد الهجرة وصلّى بالنّاس ثلاث عشرة مرة، وهو من المهاجرين الأولين".[1]

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ، أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، تصدرت هذه الافتتاحية بأفعال على صيغة الغائب أضمرت فواعلها، لا للحطّ من قيمة رسول الله، بل بالعكس، إجلالًا لشهرته ومنزلته عند النّاس وللتّشويق والتنبيه بأنّ المحكي عنه حدث عظيم، إذ ليس مجرّد معاملة فرد من النّاس أو جماعة منهم، بل الأمر أعمّ من ذلك في منهج الله وفي مبادئ القيم التي يجب على المجتمع المسلم أن يزن ويقدّر بها الأشياء، فالرّسول كان يدعو قوما لهم مكانتهم في المجتمع، ولهم تأثير على كثير من أتباعهم لو قدّر الله لهم الهداية. فقد تصرف الرّسول مع هؤلاء بطبيعته البشرية حرصا منه على نجاح دعوته، فترك الأحوط والأفضل في ميزان الله فلم يقترف بذلك ذنبا -حاشاه- فجاء هذا التّوجيه الرّباني ليرسم الطّريق الأسلم للدعاة من خلال إمامهم الأعظم الرّسول الأكرم.

فكان هذا الأسلوب اللّطيف في حكاية واقع عبد الله بن أمّ مكتوم معه، حين أشاح عنه الرّسول بوجهه كارها أن يقطع كلامه مع كبار القوم، ومع لطافة التّعبير فإنّ عتاب الله لرسوله حادّ إذ كشف للرجل الأعمى ما لم يكن يراه من علامات العبوس فيعود بذلك جريح النّفس.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ، أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: التفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب لتفيد الدّافع النّفسيّ الخفيّ لذلك السّلوك، فجاء ذلك الاستفهام التّنبيهي للرّسول بأن يظن خيرا بذلك الأعمى في حرصه على التطهّر من ذنوبه بسبب ما يتلقّاه من إرشادك أيها الرّسول أو يتذكّر بما يسمعه من المواعظ لينتفع

(1)- تيسير التفسير: ٥٦/١٦.

بها، وفي هذا مدح للأعمى وإيماء للمشركين بأنه لا ترجى هدايتهم.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ، فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ، وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ، وَهُوَ يَخْشَىٰ، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: انتقال إلى العتاب الصّريح في كيفية تعامله مع الطّرفين:

أ)- الفريق المستغني بحظوظه الكثيرة من مال وقوة وجاه، لأن الاستغناء يورث الطّغيان، ومع ذلك فقد تصدّيت له -أيها الرّسول- بوجهك وحديثك طمعا في هدايته، وهو لا يضرّه إن بقي على ضلاله، وليس عليك من مسؤولية في ذلك، إذ ما عليك إلا البلاغ.

ب)- السّاعي لطلب الهداية والخير وهو مذعن لخشية الله تعالى، فأنت تعرض وتنشغل عنه بغيره.

إنّه مجرّد عتاب ربّاني يردّ الأمور إلى نصابها، وما كان لرسول الله أن يتلهّى عن أمور الدّعوة لولا أنه كان في غلبة ظنه أن يهتدي بعض هؤلاء فينتفع لذلك الإسلام.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر يجعل حدّا فاصلا لمثل تلك الممارسات مرة أخرى ويأخذ التوجيه الرّباني حكمه العام لكل الدعاة إلى الله ليلتزموا المنهج التّربويّ في عملهم الإرشاديّ. والضّمير في قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ تعود إلى آيات القرآن، بأنها تذكرة لمن يريد أن يتعظ بها ويعمل بمقتضاها. ويعود الضّمير في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ إلى القرآن الذي نوّه الله بشأنه بأن آياته مثبتة محفوظة في صحف مكرّمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة رفيعة القدر عند الله مطهّرة من التحريف والتزييف، وعن أيدي الشّياطين، وهي بأيدي ملائكة أطهار جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله. وقيل: إن الصّحف لا تخصّ القرآن وحده، بل تشمل كل الكتب المنزلة على الرّسل والأنبياء. والله أعلم.

بيان عظيم نعم الله على الإنسان.

أ)- النص:

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ
٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ٢٦
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا
٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ﴾: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ﴾ دعاء عليه بالسّوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتّهديد. ﴿مَآ أَكْفَرَهُ﴾: ﴿مَا﴾: للتعجيب أو للاستفهام. ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾: النطفة في الأصل الماء القليل وتطلق على ماء التّناسل. ﴿فَقَدَّرَهُ﴾: أي جعله متهيأ للنماء وتمكينه من القدرات العقلية والسّلوكية وتيسير السّبيل له، مستعار لما يقوم به الإنسان من أعمال وتصرفات لتحقيق سعادته، ويحتمل أن يراد بالسّبيل مخرجه من بطن أمّه. ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ﴾: الإماتة سلب الحياة عن النّفوس الحيّة في الآجال المحدّدة عند الله. ﴿أَقْبَرَهُ﴾: أي واراه في قبره بعد الموت. والإقبار: تهيئة القبر، بمعنى أمر بأن يقبر، و﴿أَنشَرَهُ﴾: الإنشار هو إخراج الميّت من الأرض حيّا، بمعنى: البعث. ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ﴾: ﴿لَمَّا﴾: حرف نفي يدل على نفي الفعل في الماضي، والقضاء فعل ما يجب على الإنسان كاملا أي الإنسان الكافر لما ينفذ أو يطبق ما أمره الله به من الإيمان وفعل الطاعات. ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾: أي نظرة تأمل واعتبار كيف

أوجده الله ودبّر أسبابه. ﴿وَقَضْبًا﴾: مقابل الحبوب لغذاء الإنسان، فالقضب: الحشائش الرّطبة التي يقضبها الحيوان. ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾: الغلب جمع غلباء، مؤنث الأغلب أي غليظ الرقبة، تشبه بذلك الحدائق لالتفاف أوراقها وأغصان أشجارها. والفاكهة: الثمار تؤكل للتفكّه. الأبّ: الكلأ الذي ترعاه الأنعام.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّا صَبَبْنَا﴾: قرأ الجمهور بكسر همزة: ﴿إِنَّا﴾ على أن الجملة بيان لجملة: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بفتح الهمزة على أنه اسم بدل اشتمال من: ﴿طَعَامِهِ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر من استغنى وتكبّر عن دعوة الرّسول والتوجيه الرّباني له أن لا يحفل بالأغنياء المتعجرفين مرة أخرى، وإذ كان القرآن الكريم يخبرهم عن البعث، وهو الدّافع القويّ لتكذيبهم به، كان من الأنسب أن يركز الحديث مرة أخرى على الاستدلال لوقوعه.

وبمناسبة موقف عظماء قريش في الاستغناء والاستكبار انتقل السّياق إلى التعميم الذي يشمل كل إنسان كافر فقال تعالى: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ، كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ**﴾.

فالتعريف بـ"أل" في الإنسان يفيد العموم، غير أن المقصود بالدّعاء عليه بالقتل هو بعض أفراده وهم الكافرون بنعمة الله، فهو دعاء عليه من الله بالسّوء للتحقير والتهديد، يعني الطّرد واللّعن. فالصّيغة للتعجب في الأسلوب العربيّ، فيقال للإنسان الفصيح: قاتله الله ما أفصحه. وبما أن الحكم هنا على مجموع أفراد الإنسان لا =

الجميع فهو استغراق عرفي لا يشمل جميع أفراد الجنس. ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾: للتعجب أو الاستفهام، وهذه الصّفة هي الغالبة على أكثر النّاس، كما يوضح القرآن ذلك في قوله تعالى:

- ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣).
- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الرعد:٠١).
- ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام:١١٦).

وترد في القرآن الكريم كثير من الصّفات التي تغلب على الإنسان في طبعه وسلوكه، فهو الكنود الطلوع وهو المستغني المستكبر، وهو القتور العجول...إلخ. وهو هنا المتسارع إلى الكفر يستحق اللّعن والطّرد. وعلى التعجب من إفراط الإنسان في الكفر والعصيان جاء الاستفهام التّقريري يتضمّن الإجابة عن حقيقة أصله ونشأته، وهو لا يكاد يستشعر عناية الله به فيبيّن الله أنه مخلوق، ثم وضّح مراحل خلقته وهو خليّة صغيرة ملقحة في رحم أمّه من ماء مهين يستمدّ من الخالق قيمة الحياة وأسرارها بعد أن كان شيئا لا قيمة له، فقدّره الله في أطوار خلقته، وقدّره لمراحل حياته بما زوّده به من العناصر المادية والأدبية حتى غدا بشرا سويًّا.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾: أي يسّر له أسباب الهداية وهو يتدرج في سلّم التكليف فزوّده بالعقل المميّز وأرشده بالوحي المنزل، ويرى بعض المفسّرين أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ معناه: سهّل له طريق الخروج من بطن أمّه، غير أن العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي يرجّح المعنى الأول، والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾: أي حدّد لحياته أجلا ينتهي إليه فيموت كغيره من الإحياء، وجعل مثواه قبرا في الأرض إكراما لرفاته. وعملية الإقبار مما علمه الله الإنسان الأول من قصّة ابني آدم عليه السلام فهي من التّكريمات الرّبانية لهذا الإنسان.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾: أي أعاده إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء عندما

تقتضي مشيئة الله ذلك، فما مقدار استعداد الإنسان لذلك؟. والإجابة الواقعية في علم الله هي قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾

هكذا يأتي هذا النفي بعد كلمة ﴿كَلَّا﴾ التي تدلّ على الردع، وهنا أيضا الحكم على المجموع لا على الجميع، والتقصير من الإنسان في حق ربّه يكون على مراتب، فهناك الجحود الكافر وهناك الفاجر العاصي وهناك القنوع في العبادة بالحد الأدنى وقد قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ:١٣). ومهما اجتهد الإنسان في الطاعات والقربات فإنّ وفاءه بحق الله عليه يظل دون المطلوب حتى من المقرّبين. وتبقى الكثرة من الناس في تقصير وتخلّ عن أمر الله، ذلك عن نشأة الإنسان وقدرة الخالق في تيسير أسبابها فماذا عن طعامه وطعام أنعامه وهو لا يكاد يوفر لحياته كل الضرورات اللازمة لولا تسخير الله له إياها؟.

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾: تبدو عملية توفير الطعام للآكلين شيئا عاديا من ضرورات حياة الإنسان، وهي بحكم وجودها وتكرارها لا تسترعي انتباهه ولا تدفعه للتأمّل والنظر الواعي في تقدير عناية الله وتدبير شؤونها وتسخير أسبابها مما لا يملك فيه الإنسان حولا ولا قوة إلاّ في الجهد القليل مما يبذله في مجال الزراعة مكّنه الله منها، وإلاّ فإنّ من وراء ذلك القدرة الإلهية في تسخير القوى الكونية لإتمام دورة الحياة في تسخير ذلك المنتوج وإتمام مراحله. فبدأ الله بإنزال الماء من السّماء وهو ظاهرة طبيعية يعرفها كل النّاس، ويقدرون ما لعنصر الماء من أثر في حياة الكائنات، ولكن القليل منهم من يتعمق في نظره إلى التفكير في مرحلة تكوين البحار والمحيطات على سطح الأرض، والتي يتبخر منها الماء لنزول المطر، وما هي تلك القوة الهائلة التي تبقي تلك المحيطات خزانا طبيعيا لا ينضب ماؤه ولا يغور، إنما قدرة الله القائل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون:١٨).

ومع لقاء تربة الأرض الخصبة، كيف تطويت قشرة الأرض وطوعتها مختلف العوامل الطبيعية لتغدو رخوة خصبة تتفتق عن مختلف النباتات والأشجار.

وتأتي عملية الإنبات ولا يد للإنسان فيها إلاّ بوضع البذور والنوى، والله خالقها في أمر عجيب ليخرج منها الحبوب بكلّ أنواعها للأكل والإدّخار، وخصّص بالذكر العنب من أنواع الثمار للذته وشهرته، وأما القضب فهو أنواع البقول والخضر مما ينفش فيها الإنسان لتحضير أطباق طعامه.

كما خصّ بالذكر شجرتين عظيمتي النفع للإنسان وهما النخل والزيتون وهما معروفتان لدى المخاطبين، ويستغلّون على هاتين الشجرتين في مجالات واسعة غذاء ودواء.

ثم عقّب بذكر الحدائق الغلب، أي الملتفة الأشجار الوارفة الظلال بأنواع الأشجار المثمرة مما يتفكّه به للذة والطّعم، وأما الأبّ فهو أنواع الكلأ الذي ترعاه الأنعام، جعل الله كل ذلك متاعاً للإنسان وأنعامه، فهو متاع إلى حين في هذه الحياة العاجلة، وهو مظهر لرحمة الله وقدرته وهو القادر على النشأة الأخرى، تعقب هذه الحياة، والله أعلم.

موقف المرء من أهوال القيامة، واختلاف أحوال أهلها.

أ) – النصّ:

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ
﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ
مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ
ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾: ﴿الصَّاخَّةُ﴾ الصيحة التي تصم الآذان من شدّتها، صارت علما بالغلبة على يوم القيامة، ومجيئها مستعمل مجازا لحصولها. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: بدل من: ﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾. ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾: الفرار: الهروب من شيء مخيف. ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾: رتّب أفراد الأسرة ترتيبا ارتقائيا من قاعدة الهرم إلى قمته، فكل فرد من هؤلاء يطلب منه النجدة وهو مشغول بنفسه في طلب النجاة. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾: أي ذات نور وضياء يقال: أسفر الصبح إذا أشرق. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: الغبرة: الغبار، أي معفّرة بالغبار، والقترة سواد الدّخان من شدّة الكرب والهمّ. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾: الإشارة للإبعاد والتحقير، وضمير الفصل لإفادة التقوية. و﴿الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾: بدون عاطف، أي جمعوا بين الكفر والفجور.

ج)- البيان والتفسير:

في معرض بيان نعم الله على الإنسان الاستدلال على قدرته في مراحل وجوده بدءا بأصله ومنشئه ثم تدرجه في مراحل حياته وتيسير أسباب الرزق والهداية له حتى نهاية حياته ودخوله في عالم البرزخ انتظارا ليوم البعث والنشور وهو ما جاء في هذا النصّ مفرّعا على ما سبق إنذارا بيوم الحساب والجزاء وكيف يكون موقف المرء منه فقال جل من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

إنّ متاع الدّنيا نهاية مهما طال عمر الإنسان أو قصر، ومهما توسّع ذلك المتاع أو ضاق، فبعده مجيء الصّاخّة، وهي من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تصمّ الآذان بقوتها وشدّتها. فقيل: هي نفخة الصعق، وقيل: هي صيحة البعث والنّشور، وهو

أنسب بالمشهد الذي يليه، مشهد فرار الإنسان من ألصق النّاس به وأعزّهم لديه لما يتملكه من الرّعب ولما يحيط به من الهول، فلا يهتمّ إلاّ بنفسه كيف يهتدي بها إلى سبل النّجاة: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أي له من الهموم التي تحتوشه ما يجعله منشغلا عن الآخرين، وبالتّالي تغيض في نفسه عاطفة الحنو والعطف عن ألصق النّاس به، فيفرّ عنهم حتى لا يستنجدوا به ولا يستعينون، غير أنه يبدأ بالأبعد في قاعدة الهرم الأسريّ وهو الأخ، أي بالأقل شفقة وحنوّا لديه، ثم يرتقي في سلّم الهرم حتى ينتهي بأشدهم عطفا وحنوّا لديه وهم أولاده.

إنّما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

ويرد في سورة المعارج مثل هذا التّصوير لهول يوم القيامة وبيان الحالة النّفسيّة للخلائق إذ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا، يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ، كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ (٨-١٥).

وإذا قارنّا بين النّصّين نلاحظ في هذا النّصّ أنّ الهرم العائليّ جاء مقلوبا. إنه بدأ بالبنين والصّاحبة ثم الأخ ثم الأبعد في فصيلة الإنسان أي قبيلته ومن بعدهم من سائر الخلق، ويلاحظ غياب ذكر الوالدين ضمن أفراد الأسرة، لأن الوسيلة هنا لطلب النّجاة في اعتقاد المجرم هو دفع الفدية، فليس من كرامة الوالدين وبرّ الولد لهما أن يفدي نفسه بوالديه، وفيما عداهما جاء التّرتيب وفق قوة العاطفة بدءا بالبنين وانتهاء بمن في الأرض جميعا يودّ المجرم لو يجمعهم جميعا في وقت واحد للفداء بينما الفرار يحدث مجزأ. ذلك هو موقف الإنسان من أقاربه، فكيف بأحوال الخلائق؟!

يقول تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، فالناس في ذلك الموقف على فريقين: سعداء وأشقياء.

أ)- بدأ الله بالسعداء انسجاما مع مفتتح السورة من الذي جاء يسعى وهو يخشى، فهي مشرقة بنور الإيمان مسرورة مستبشرة بنعيم الجنة هي وجوه المتقين الناجين.

ب)- وجوه الأشقياء تكسوها ظلمة الآثام والمعاصي فهي كالحة مغبرة، هي وجوه الكفرة الفجرة الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، أشار إليهم بالبعيد امتهانا واحتقارا، والوجوه يرتسم عليها ما يعتلج في النفوس من خير أو شر.

والله أعلم

سورة التكوير مكيّة، وآياتها ٢٩

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بالتكوير اختصارا لمدلول "كوّرت" في افتتاحيتها، وفي حديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إذا الشّمس كوّرت﴾، ﴿إذا السّماء انفطرت﴾، ﴿إذا السّماء انشقّت﴾»**[1]. ولهذا عنونت في بعض كتب السّنة: "سورة إذا الشّمس كوّرت" تسمية بافتتاحيتها، وهي مكيّة وآياتها تسع وعشرون، وتعدّ السّابعة في ترتيب نزول السّور، والحادية والثّمانين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وقد بدأت بذكر أهوال قيام السّاعة بإلابسه وقوع اثني عشر حدثا مهولا في نظام الكون لعودة النّاس إلى ربّهم للحساب والجزاء. وتثبت أنّ القرآن الكريم منزل من عند الله وتنوّه بشأنه، وأنّ رسول الله منزّه عمّا يصفه المشركون به من الجنون، وقد رأى سيّدنا جبريل على صورته الحقيقيّة، وأنّ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله.

بيان أهوال يوم القيامة.

أ)– النصّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا ٱلشَّمْسُ
كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ
٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا

---

(١)– رواه الترمذي من حديث ابن عمر، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة: إذا الشمس كوّرت، رقم ٣٤٠٢.

ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ
﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرف للزمان المستقبل يفيد الشّرط، ﴿الشَّمْسُ﴾: مرفوعة بفعل مضمر؛ لأن "إذا" لا يليها إلا الفعل. ﴿كُوِّرَتْ﴾: بمعنى لفت وذهب ضوؤها، وانكدار النجوم: تناثرت وطمس نورها. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: بمعنى اقتلعت من أماكنها وتفتت هباء. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾: ﴿الْعِشَارُ﴾: جمع عشراء، النّاقة في الشهر العاشر من حملها فهي محلّ عناية من أصحابها، وتعطيلها بمعنى إهمالها بلا راع. وفي التعبير المجازي توصف بذلك السّحب الممطرة، وتعطيلها كفّها عن الإمطار. ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: جمعت ليوم الحشر للاقتصاص من بعضها البعض، أو تجمعت من شدة الهول تاركة تنافرها المعتاد. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾: أي ووقدت نارا وتفجرت ويقال سجرت الشيء أي ملأته، أي تزول الحواجز بينها فتغمر اليابسة. ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾: بمعنى رجعت الأرواح إلى أجسادها للبعث والنّشور، أو بمعنى تجمّع الأزواج أي الصّالح مع الصّالح والطّالح مع الطّالح بمعنى قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (الواقعة: ٧). ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾: ﴿الْمَوْءُودَةُ﴾: البنت تدفن حيّة ويهال عليها التراب، يُبكّت قاتلها بسؤاله عن سبب قتلها. ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾: أي صحف الأعمال تنشر لتدقيق الحساب. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾: بمعنى نزعت وطويت كما ينزع جلد الشاة. ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾: أي توقد جهنم للظالمين وتقرب الجنة للصّالحين. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾: جواب الشّرط أي علم كل امرئ ما قدم في حياته من خير أو شر، وتكرار "إذا" في كل جملة إطناب يقتضيه التّهويل والتّعجيب، وأما صيغة الماضي بعدها هي بمعنى الاستقبال لتحقق الوقوع.

ج) - أوجه القراءة:

﴿قُتِلَتْ﴾: قرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأه أبو جعفر بتشديدها، بمعنى أنه قتل شديد فظيع. ﴿نُشِرَتْ﴾: قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتخفيف الشين، وقرأه الجمهور بتشديد الشين للتكثير. ﴿سُعِّرَتْ﴾: قرأه نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ورويس عن يعقوب قرأوه بتشديد العين، مبالغة في الإسعار، وقرأه الباقون بالتخفيف.

د) - البيان والتفسير:

ابتدأت السّورة في شطرها الأول ببيان أهوال يوم القيامة وما يحدث فيه من انقلاب كونيّ هائل فأحصت اثني عشر حادثا، تتغيّر بها الأوضاع وتنشر الهول والفزع، تقع ستّ منها في الدّنيا وستّ في الآخرة.

يقول تعالى عن الأولى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

والافتتاح بـ﴿إِذَا﴾ هو لإفادة التّشويق؛ لأنّه يستدعي متعلقا وجوابا للشّرط، وتكراره مع الجمل الاثني عشرة يفيد استقلال كل جملة بحصول مضمون الجواب، أما صيغة الماضي بعدها فلتحقق الوقوع، وقد اختيرت تلك الصّيغ بعناية لتحريك بواعث الخوف والهلع في النّفوس لقطع ركون لمألوف وزعزعة الاطمئنان إليه، وبما أن الأجرام السّماوية وفي طليعتها الشّمس وهي أقوى وأشدّ إيناسا لساكني الأرض فإن اضطرابها وانفراط عقدها أدعى إلى الخوف والفزع، فكان من الأنسب البدء بها في أحداث الانقلاب الكوني العظيم، فتكوير الشّمس يعني ضيّها ولفّها وانكماش ألسنة لهيبها كما تتراءى لنا في ظاهرة الكسوف الكليّ لقرصها، والله أعلم بكيفية ذلك، ولكنه

بالنسبة إلينا حدث لا يطاق، إذ أن الشمس هي مناط حياتنا وبقائنا.

وأمّا انكدار النجوم فهو محو لزينة السماء إذ تنطفئ أنوارها وينتاثر عقدها سواء في مجرتنا أو في الفضاءات الكونية الأخرى، الله أعلم بمواقعها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: أي تقتلع من أماكنها وتنسف حتى تصير هباء منبثا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ (الواقعة:٥-٦)، فتميد الأرض بما يصيبها من الزلازل والبراكين، فلا يبقى على وجه الأرض من ملجأ تلوذ به الكائنات بله أن تهتمّ بما كانت تعتني به من كرائم أموالها كما كان المخاطبون يفعلون بعشارهم، وهي النوق الحبالى في شهرها العاشر، لأنها مرجوّة النفع بالولد واللبن، وتعطيلها في هذا اليوم المهول بمعنى إهمالها وتركها هائمة بلا راع لشدة الهول.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: ومن طبيعة الوحوش أنها تحسّ بالخطر قبل وقوعه فتتجمّع شاردة من الخوف لا تأوي إلى جحورها، وقيل: حشرها هو بعثها لإهلاكها حتى تصير ترابا.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾: والتسجير يكون بمعنى ملئها وتحطيم الحواجز بينها حتى تفيض وتغمر اليابسة وقد رأت البشرية نموذجا صغيرا من حدث التسونامي في جنوب شرق آسيا، إذ هلك فيه الآلاف. ويحتمل أن يكون التسجير بمعنى تفكيك عناصر مياهها بقوّة الحرارة فتتطاير غازات ملتهبة، ولعل قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ يؤيّد المعنى الأخير.

ويذكر الله بعد ذلك ما يحدث في البعث فيقول: **﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾**.

وفي تزويج النفوس ترد كذلك احتمالات في معناه، والله أعلم. فقيل: هو قرن

الأرواح بأجسادها للبعث، وهذا أقرب إلى بدء النّشأة الأخرى كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ (العنكبوت:٢٠). وقيل: هو ضم الجماعات المتجانسة في موقف الحشر فالصّالح مع الصّالح والطّالح مع الطّالح ويستروح هذا من قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (الواقعة:٧).

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾: ووأد البنات هو دفنهن وهنّ على قيد الحياة خوف العار أو الفقر كما كانت تفعل بعض القبائل العربية في الجاهلية، وقد حارب الإسلام تلك الظّاهرة بدون هوادة حتى قضى عليها، وهناك يعدّها من المسائل التي يكون عليها الحساب يوم القيامة، فيسأل القاتل سؤال تبكيت وتوبيخ عن سبب قتله لابنته، فلا يجد لها ذنبا إلا لكونها أنثى.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾: إنها صحف الأعمال تعرض وتنشر ويعطى كل إنسان صحيفته، إما بيمينه إن كان من الأبرار، أو بشماله إن كان من الكفار الفجار، فيخزى بكشفها. وأمّا ما نشاهده في السّماء من تلك القبة الزرقاء الجميلة فيزول وقد شبه ذلك بكشط الجلد عن الشّاة، فيا للهول العظيم وماذا تنظره الخلائق في دار الجزاء، من سعير جهنم والعياذ بالله، أو نعيم الجنة وقد قربت وزينت للأبرار.

فها هو الغطاء قد انكشف لجميع الخلائق بعد وقوع تلك الأحداث الهائلة، المصدرة كلها بـ﴿إذا﴾ الشّرطية، فيأتي الجواب عليها كلها بقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾، أي ما نوع الزّاد الذي أعدت لتلك الرّحلة الأبدية، أهو طيّب بالعقيدة الصّحيحة وبالعمل الصّالح يندرج به مع الفائزين؟، أم هو زاد خبيث بالكفر والفجور يساق به إلى صفّ الهالكين المخزيين؟. فقد انتهى كل شيء وبعث النّاس على ما ماتوا عليه، فإما شقيّ أو سعيد، وليس ثمّ إلا العدل الإلهيّ في موقف الحساب والجزاء، والله أعلم.

القسم بعظمة الكون على عظمة القرآن، ونبوءة الرّسول، وعالمية رسالته.

أ) - النص:

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ
إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ
ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ
بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾: هو بمعنى إيقاع القسم، وتعدّ اللام زائدة للتأكيد، ﴿الْخُنَّسِ﴾: جمع خانسة وخنساء وهي الظبية أو البقرة التي تخنس، أي تختفي في كناسها، شبهت بها الكواكب التي تظهر وتختفي، وعند الجمهور أنها الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية، ﴿الْجَوَارِ﴾: جمع جارية، و﴿الْكُنَّسِ﴾: جمع كانسة، يقال: كنس الظبي إذا دخل كناسه، أي النجوم التي تختفي تحت ضوء الشمس. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: عسعس الليل: إذا أقبل بظلامه أو أدبر، فهو من الأضداد، وتنفس الصبح: إذا أشرق بنوره وشق ظلمة الليل. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: المقسم عليه القرآن الكريم، والرّسول الكريم هو جبريل عليه السلام أضيف القول إليه لأنه حامله من الله تعالى. ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ هي أوصاف تدل على مكانته عند الله وفي الملأ الأعلى. ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾: ﴿صَاحِبُكُم﴾ هو رسول الله نفى عنه الله ما

يزعم فيه المشركون من الجنون. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾: الضمير في: ﴿رَآهُ﴾ يعود إلى جبريل، أي رآه الرّسول على صورته التي خلقه الله عليها. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾: أي ليس الرّسول بكاتم خبر السّماء مما يوحى إليه، بل هو مبلغه بصدق وأمانة. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾: استفهام إنكاري عن غلوّهم في الضّلال وسلوكهم طريقه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: أي القرآن الكريم ذكر وموعظة لجميع العالمين، وأما الانتفاع به فهو متعلق باختيار العبد الذي يتحقق وفق مشيئة الله تعالى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِضَنِينٍ﴾: قرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف وروح عن يعقوب، قرأوه بالضّاد الساقطة التي تخرج من حافة اللّسان، مما يلي الأضراس، كما ورد في المصحف الإمام، وقرأه الباقون بالظّاء المشالة وذكر في الكشاف أن النبي ﷺ قرأ بهما، فهما قراءتان متواترتان. ومعنى ﴿ضَنِينٍ﴾ بالضّاد الساقط: البخيل الذي لا يعطي ما عنده. وأما معنى: ﴿ظَنِينٍ﴾ بالظّاء المشالة، فهي "فعيل" بمعنى: "مفعول"، من الظّن، بمعنى أنه مظنون به سوءا أي كاذبا في ما يخبر به.

د)- البيان والتفسير:

أفادت افتتاحية السّورة تحقيق وقوع البعث والجزاء بذكر تفاصيل مهولة عن الانقلاب الكوني الذي يقع في ذلك اليوم، وهي أمور غيبية أنذر المشركين منها رسول الله بما يوحى إليه من القرآن، وهم ينكرونه ويكذبونه فكان من الأنسب أن يفرّع الله على ذلك ما يثبت به صدق القرآن وعلوّ منزلة حامله من الله وفي الملإ الأعلى وهو جبريل عليه السلام كما يؤكد على صدق ونزاهة متلقيه ومبلغه للبشرية جمعاء سيدنا محمد الرّسول الأمين والنّاس أحرار في الأخذ بأحكامه والاستقامة على نهجه، ولا تعارض مشيئتهم في ذلك مع مشيئة الله.

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ، ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ، وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ، وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ، مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾.

إنه قسم عظيم من مقسِم عظيم، على مقسَم عليه عظيم، وقد تقدم بيان معنى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بأنه في استعمالات العرب توكيد للقسم للاهتمام بالخبر بعده وأن: ﴿لَآ﴾ زائدة، والمقسم به ظواهر كونية عظيمة مما يشاهده المخاطبون في قبة السماء من تلك الكواكب التي شبهها الله في حركتها ودورانها الفلكية ظهورا واختفاء شبهها بالظباء، أو الأبقار الوحشية في البرية، تخرج وتختفي في كناسها، أي مخابئها ومغاراتها، فتلك الكواكب لا ترى في النهار لغلبة ضوء الشمس وتظهر بالليل، وقد رسم الله الإطار الزماني لتلك الحركة الرتيبة فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ، وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وهي مقابلة بين ظلمة الليل وإشراقة النهار، واختير لها من الألفاظ ما يضفي عليها مسحة من الجمال ونبض الحياة بالتنفس والحركة تتجاوب معه روح الإنسان لتلقي الحقائق من خالق تلك الظواهر الكونية العظيمة.

وفي المقسم عليه قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ، مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾، الضمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى القرآن، أي القرآن الناطق بتلك المشاهد المهولة، وهو كلام الله المنزل بواسطة رسول كريم هو جبريل عليه السلام، وأضيف القول إليه على اعتبار أنه حامله من عند الله ومبلغه، وهو ذو مكانة عظيمة عند الله وعند الملإ الأعلى وصفه الله بأربع صفات:

أ- ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾: فهذه القوة ضرورية لجبريل عليه السلام لأن مهمته في تبليغ الرسالة عن الله ثقيلة تتطلب مقدرة فائقة، وقد وصف الله القرآن بالقول الثقيل في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾(المزمل:٥). فلا عجب في ذلك فهو كلام رب العالمين الحامل لعلمه وحكمته. وقوله: ﴿مَكِينٖ﴾ فهو متعلق بقوله: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي هو ذو مكانة رفيعة عند الله، ونظير هذا الوصف قوله تعالى

في سورة النجم: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ﴾(٥-٦)، فالعندية للتشريف وعلو الشأن.

ب)- ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾: ﴿ثَمَّ﴾ بفتح الثاء اسم مكان، أي عند ذي العرش، في الملأ الأعلى من الملائكة الكرام، له الكلمة المسموعة عندهم وهو مؤتمن على ما يبلغه من وحي الله لجميع الأنبياء والمرسلين، ومن خلال مجموع تلك الصفات تتبين ثقل الأمانة التي حملها الإنسان.

وقد اختار الله لمصدر مقوماتها -وهو القرآن الكريم- أمين من في السماء جبريل ﷺ وأمين من في الأرض سيدنا محمداً ﷺ والذي يقول الله عنه: ﴿**وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾.

توجه الخطاب إلى المشركين الذين يؤذون رسول الله الذي يتلقى وحي السماء فيقولون إنه مجنون، وهو صاحبهم في عشرتهم الطويلة يعرفونه حق المعرفة ويعترفون له بالصدق والنزاهة حتى إذا جاءهم بالحق من عند الله كذّبوه وذهبوا في الكيد له كل مذهب، وقد أبطل الله ادعاءهم بالنفي المؤكّد بالباء، ثم أقسم بأنه رأى جبريل ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها يغطي الأفق، وذلك بعد قصته معه في غار حراء كما تذكره أخبار السيرة، إذ ذهب إلى أهله مرعوباً وهو يقول: «زمّلوني زمّلوني». وإذ يعتقد المشركون أن له شيطاناً يحدثه بمثل ذلك القول العجيب، فإنه تعالى نفى عن رسوله ذلك، وأنه لمؤتمن على الغيب في الخبر الذي يرويه عن ربّه، فقد عرفتم صدقه وأمانته.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، تسفيها لهم عن ضلالهم وتمثيلا لحالهم في سلوك طريق الباطل، وقد أصبحت هذه الجملة مثلا يقال لكل من أخطأ الصواب وضلّ طريقه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ، لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أي إنّ هذا القرآن في حقيقته الناصعة ذكر وموعظة، أي يذكّر الخلق أجمعين بما يصلح شؤون معاشهم ومعادهم ويصلهم بمصدر وجودهم الخالق العظيم فيتجاوبون مع الكون من حولهم تسبيحا بحمد الله وتعظيما لشأنه وهو ييسّر لهم طريق الهداية ويوضّح معالمها، ثم هم بعد ذلك أحرار في الكسب والاختيار من بعد أن أقام الله الحجة عليهم بأدلته النّاطقة والصّامتة.

وبما أن تسخير الأسباب وتيسيرها للعبد وفق اختياره الحرّ تعود إلى مشيئة الله فلا يمكن أن تعارض مشيئة الإنسان مع مشيئة الله التي يرجع إليها تقرير كل شيء، وبذلك يتحقق التصوّر الإيماني الصّحيح لدى الإنسان المكلّف، كما يتّضح لنا ثقل الأمانة التي تحملها، والله الموفق.

والله أعلم.

سورة الانفطار مكيّة، وآياتها ١٩

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة الانفطار لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، والانفطار هو الانشقاق والتصدّع كما قال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ (المزمل:١٨).

وهي مكيّة تعالج كسابقتها سورة التكوير، الانقلاب الكوني الذي يحدث عند قيام السّاعة، ولكن بكيفية مختصرة، وآياتها تسع عشرة آية.

وتعدّ في ترتيب نزول السوّر الثانية والثمانين، ولها نفس الترتيب في سور المصحف الشّريف.

- ابتدأت بأربعة مشاهد من الانقلاب الكوني عند قيام السّاعة وهي انفطار السّماء وانتثار الكواكب، وتفجير البحار وبعثرة القبور وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء.

- ثم بينت جحود الإنسان لنعم ربّه، والتنديد عليه في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

- ثم ذكرت سبب ذلك الجحود بأنه إنكار البعث والحساب، والله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يحصون عليه أعماله، بحيث يصنف الخلق بسببها إلى فريقين: أبرار وفجّار، ولكلّ مصيره وجزاؤه.

- ثم ختمت السّورة بتضخيم يوم الدّين وتجرّد الخلائق فيه عن كلّ حول وقوة، وتفرّد الله بالأمر كله فيه.

صور لأهوال يوم القيامة، وتوبيخ الإنسان على جحود نعم ربّه.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ
(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾: ﴿السَّمَاءُ﴾ فاعل لفعل مقدّر يفسّره فعل: ﴿انفَطَرَتْ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف للزمان المستقبل لا يدخل إلا على الفعل وهو متضمن الشرط. ﴿انفَطَرَتْ﴾: من الانفطار وهو التشقق والتصدّع. ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾: من الانتثار وهو رمي الأشياء على الأرض بتفرق وهو مستعار لتفرق الكواكب وانفراط عقدها بخروجها من دوائر أفلاكها. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾: بانطلاق مائها وفيضانه على ما حوله من اليابسة. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾: أي تنقلب الأرض ظهرا لبطن لإخراج ما في باطنها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(الانشقاق:٣-٤). وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: جواب الشرط أي تيقنت بما قدمته من أعمال وما تركته غفلة وكسلا. ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾: ﴿مَا﴾: استفهامية في موضع رفع مبتدأ، ﴿غَرَّكَ﴾: خبره، والاستفهام للإنكار والتعجب، ﴿غَرَّكَ﴾: من الغرور وهو الإطماع بما يتوهم نفعا وهو ضرّ. ﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي جعل أجزاء بدنك متناسبة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَعَدَّلَكَ﴾: قرأ الجمهور بتشديد الدّال، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدّال، وهما متقاربان في المعنى، إلا أن التّشديد يدل على المبالغة.

د)- البيان والتّفسير:

هي ثلاث سور مكية تشابهت افتتاحيتها بظرف ﴿إذا﴾ الذي يدلّ على الزّمان المستقبل ويتضمّن الشرط، كما تشابهت في ذكر لقطات من الانقلاب الكوني العظيم الذي يحدث عند قيام السّاعة، وقد قال رسول الله في شأن هذه السّور الثّلاث: «**من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ:** ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾»[1]، وقد تبعنا ذلك الإطناب التّصحيحي في افتتاحية سورة التّكوير في ذكر اثني عشر حدثا مهولا لقيام السّاعة واقتضى ذلك الإطناب كون السّورة من أول القرآن نزولا في مكة يعالج مبادئ العقيدة الإسلامية وفي طليعتها الإيمان باليوم الآخر، أما سورة الانفطار فقد نزلت بعد فترة من احتدام الصّراع في تلك القضية الحساسة إذ رتبت في المرتبة الثالثة والثّمانين نزولا". فلا داعي -إذن- لذلك الإطناب في ذكر الأحداث.

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾:

وما قيل في التّحقيق البياني عن افتتاحية "التّكوير" يقال مثله في هذه الافتتاحية المشوّقة بـ﴿إذا﴾، وأفعال شرطها وجوابها، والبدء بانفطار السّماء هو أدعى للشّعور بالهول، وقد تعددت التّعابير في القرآن لتصوير ذلك الانقلاب الكوني العظيم، إذ أن تملّي الخلائق لجمال السّماء وهي محفوظة متناسقة بقدرة الله يبعث الأنس والاطمئنان

---

(١)- تقدم تخريجه: ص ٣١٠.

في النفوس، وحين تتصدع وتنشق وتتناثر كواكبها وقد انفرط عقد نظامها المحكم فأية نفس لا تنخلع لذلك الحدث المهول، وإلى أين تلجأ أمام الطوفان الذي يغمر الأرض وقد فجّرت بحارها وماج بعضها في بعض وزالت حواجزها أو سجّرت لتشتعل نارا تفكك عناصر مياهها، وإذا الأرض أخرجت أثقالها وقد قلبت بطنا على ظهر فأخرج ما كان مدفونا فيها من رفات الموتى إيذانا ليوم البعث والنشور. إذا وقعت تلك الأحداث بأمر الله علمت نفس ما قدّمت وأخّرت، وهو جواب الشرط، والمراد بعلم الناس يومئذ بما قدّموا وأخروا من أعمالهم في الدّنيا هو حصول اليقين لهم بذلك بعد غلبة الشك والسّهو عليهم في الدّنيا إذ تنكشف لهم الأشياء يومئذ على حقيقتها، ومن ذلك علم كل نفس بما فعلته من أعمال خير بادرت بها في الدّنيا وما أخرته تكاسلا وإهمالا وذلك بالاطلاع على ما في صحائف الأعمال، استعدادا للحساب.

وبما أن واقع الإنسان في حاضره الدّنيويّ هو في الغالب سهو وغفلة عن واجب الطّاعة والشّكر لله فقد وجّه الله هذا العتاب الضمني والمبطّن بوعيد خفيّ يذكّر الإنسان بأعظم نعم الله عليه نعمة الإيجاد والخلق في أبدع صورة معتدلة سويّة فقال تعالى: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ، ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ، فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾**.

"أل" في لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجنس، وهو يفيد العموم، والخطاب بصفة الإنسانية فيه تكريم لهذا المخلوق لوصفه بأعزّ ما خصّه الله به، وبما أن وقوع هذا النداء بعد الإنذار بحصول البعث، ثم قوله بعد ذلك: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ تعيّن أن يتجه ذلك الخطاب للذين أنكروا البعث بالخصوص، فالله تعالى ينكر فيهم ذلك الغرور، الذي دعاهم إلى الإشراك بالله، وهو الرّب الكريم الذي أحاطهم برعايته وتكرّم عليهم بتلك الإنسانية الواعية الكريمة، مما يستوجب طاعته وشكره على نعمه، والتي عدّدها بقوله:

أ- **﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾**: فالخلق هو الإيجاد من العدم على

أحسن صورة حصّلت بها وأنت مرفوع الرأس معتدل القامة سويّ الأعضاء مكتمل الأجهزة متناسقًا في أجزاء بدنك، كما أجمل الله تعالى ذلك في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤).

ب)- ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾: أي اقتضت مشيئته تعالى أن تكون صورة الإنسان على ذلك الشكل البديع في تركيبة أعضائه وتناسقها، ولو شاء لجعلها خلاف ذلك، وقد أجمع علماء الأحياء على أن الإنسان في صورته الجميلة السّوية المعتدلة هو أكمل مخلوق على وجه الأرض من حيث صورته المادية المتمثلة في جسده ويبقى الجانب الرّوحي منه من العجائب والأسرار الرّبانية التي لم يكشف العلم منها إلا قليلا، وصدق الذي قال وهو يخاطب هذا الإنسان العجيب:

دواؤك فيك وما تبصر	وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير	وفيك انطوى العالم الأكبر

وصدق الله العظيم حين لفت أنظارنا إلى التدبّر في خلقتنا السّوية فقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١)، والله أعلم.

علّة غرور الإنسان، وتسجيل الملائكة

لما يعمله، مع بيان هول يوم الجزاء.

أ)- النصّ:

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ
﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾: ﴿كَلَّا﴾: ردع عن غرور الإنسان، ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، لتوبيخ المشركين على إنكارهم ليوم البعث. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾: أي وكلنا عليكم ملائكة حافظين، أي يحصون أعمالكم غير مضيعين. ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾: نعت، وأكدت الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لشدة الإنكار من المخاطبين. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾: مقابلة بين الأبرار والفجار، وبين النّعيم والجحيم في سجع مرصّع، والتنكير في: ﴿نعيم﴾ و﴿جحيم﴾ للتهويل والتّضخيم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾: أي ما أعلمك وعرفك بيوم الجزاء؟، أي أنت لا تدري مهما بلغت في التصوّر مبلغ عظمة ذلك اليوم لشدة هوله فهو استفهام تعجيبي. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: فالأمر لله وحده في اليوم والأمس والغد، والمعنى: لا ينازعه يومئذ أحد في سلطانه كما كان يدّعيه الإنسان الغرور في الدّنيا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب، وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة على الالتفات، وصيغة المضارع لإفادة التجدّد والاستمرار. ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾: قرأه الجمهور: ﴿يَوْمَ﴾ بفتح، على أن يكون بدلا مطابقا أو عطف بيان من: ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مرفوعا، فيتعين أن يكون بدلا أو بيانا من: ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ الذي في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر أهوال قيام السّاعة، وبعد تعداد نعم الله على الإنسان وجحوده لها، بيّن الله سبب ذلك الجحود بأنه التّكذيب بيوم البعث والجزاء، ثم حذّر الجاحدين

بأنهم متابعون بتسجيل أعمالهم من قبل الملائكة الحفظة الكاتبين مع بيان مصير الأبرار ومصير الفجار، وأن يوم الدين عظيم الشدائد والأهوال، وأن الأمر فيه كله لله وحده فلا حول ولا قوة فيه لأحد، قال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾.

﴿كَلَّا﴾: ردع لغرور الإنسان من كرم الله، واتخاذ ذلك ذريعة إلى الكفر به؛ لأن الواقع هو تكذيبهم بيوم الدين ابتداء، فلا رادع لهم من حرمة أو خشية تحملهم على طاعة الله ورجاء مغفرته ورضوانه، وإذا ما خوي القلب من الإيمان باليوم الآخر فلا مطمع في استقامته ولا رجاء في استجابته لداعي الحق كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (الشورى:١٨).

ثم أكد الله بأنهم صائرون إلى يوم الدين -لا محالة- بالإخبار أن جميع أعمالهم محصية ومضبوطة من قبل ملائكة أطهار أضفى الله عليهم أربعة أوصاف.

أ)- ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**﴾: في الصفة الأساسية لما كلفوا به وهو ضبط الأعمال الإرادية للإنسان التي عليها مناط التكليف، لإثبات الجزاء عليها يوم القيامة، ثم ذكر الله ثلاث صفات يتمّ بها كمال الحفظ، تنوه بشأن أولئك الملائكة، فقال تعالى:

ب)- ﴿**كِرَامًا**﴾: جمع كريم، وهو الأصيل في نوعه الجامع لأنواع الكمال الذاتي بستوجب التقدير والاحترام، وقد روي عن رسول الله ﷺ: «**أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند حالتين: الجنابة والغائط، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو بعيره، أو ليستره أخوه**».(١)

جـ)- ﴿**كَاتِبِينَ**﴾: أي ضبط ما وكلوا بحفظه من أعمال العبد خيرا أو شرًا،

---

(١)- رواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث مجاهد، رقم ١٩١٧٧. ورواه أبو بكر البزار من حديث ابن عباس، رقم ٣١٧.

أما كيفية ذلك فعلمه عند الله.

د)- ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾: وعلمهم يشمل كلّ ما يقوم به الإنسان من أعمال ظاهرية وباطنية؛ بحيث يكون مثل ذلك الضبط والاستيعاب لجميع الأعمال محلّ تعجيب واستغراب من طرف الإنسان في موقف الحساب إذ يقول المجرم: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف:٤٩).

وفي ذلك الجوّ المفعم بالرّهبة والخشية يصنّف الله الخلائق إلى فريقين، ولكل مصيره وفق نتائج الأعمال المعروضة فيقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ، يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾.

لقد جاء التقابل المرصع بالسّجع لتقرير مصير الأبرار والفجار بعد الحساب المرتكز على ما ضبطه الحفظة الكاتبون، والبرّ هي كل أعمال الخير على الإطلاق فصّلت بعضها آيات القرآن يقوم بها العبد المؤمن حتى تصبح عادة فيه لا يستطيع التقصير فيها، فالأبرار ينتهي مصيرهم المؤكّد إلى نعيم الجنة، ويقابلها الصّفة المنبوذة لما فيها من التّفريط في جانب الله ومن سوء الأدب لحق الإنسانية، فإن مصيرها المشؤوم هو سعير الجحيم، ويضفي على حالهم فيها شقاء وعذابا بقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾، أي يحترقون بنار جهنم يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به، ثم يزيد ذلك توكيدا بقوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، فلا فرار ولا خلاص فيها من العذاب ولو إلى حين.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: في نهاية السّورة يعود السّياق لتقرير حقيقة يوم الدّين إذ هو موضع التّكذيب والجحود، يقرّره بأسلوب التّهويل والتّضخيم ليوقع في الحسّ أنّ الأمر أعظم من كل تصوّر، فالسّؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ هو للتفخيم والتّهويل بمعنى: ما أعلمك -أيها المخاطب- ما هو يوم الدّين؟، وكرّر نفس الجملة للمبالغة في استدعاء التّأمل والتّدبّر.

ثم يأتي البيان الإلهي لحسم الأمر وتوضيح الموقف بالعجز التام للإنسان مهما كانت قوته ومكانته في الدّنيا على نفع أحد أو دفع ضرّ عنه، والله وحده يتفرد فيه بالحكم والسّلطان لا ينازعه في ذلك أحد، كما كان يدّعيه المغرورون في الدّنيا، وهكذا تتكشف هذه الحقيقة لجميع الخلائق، والكل محكوم عليه بما كسبت يداه، كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ١٦-١٧).

والله أعلم.

سورة المطفّفين مكيّة، وآياتها ٣٦

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بالمطففين لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وقد تضاف كلمة سورة فيقال: سورة للمطففين. واختلف الرّواة في كونها مكيّة أو مدنية أو بعضها مكيّ وبعضها مدني، ويرى ابن عباس أنها من أوائل القرآن نزولا بالمدينة، ويستثنى من ذلك الفقرة الخاتمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، كما يرى الإمام جابر بن زيد أنها نزلت بين مكة والمدينة، وآياتها ست وثلاثون، وتعدّ السادسة والثمانين في ترتيب نزول السّور، والثالثة والثمانين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

– افتتحت بالتّنديد على المطففين في الكيل والوزن، لأنهم لا يخافون الآخرة ولا يشفقون من الوقوف بين يدي ربّ العالمين للقضاء وفصل الجزاء.

– المقارنة بين الفجّار والأبرار وذكر حال كل فريق ومصيره جمعا بين التّرهيب والتّرغيب.

– ثم تأتي الخاتمة لبيان موقف الأشقياء من عباد الله الصّلحاء في الدّنيا حيث كانوا يسخرون منهم لإيمانهم وصلاحهم، وفي الآخرة ينعكس الموقف، فيضحك المؤمنون من المجرمين وهم يعذبون في نار جهنم.

وعيد المطفّفين، وتسجيل عملهم في كتاب الفجّار.

أ)– النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ
١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ

﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: دعاء بالهلاك وهو من الله تقرير وقضاء، ﴿ٱلْمُطَفِّفِينَ﴾: جمع مطفف، من التطفيف: النقص عن الحق في كيل أو وزن والطفيف: الشيء اليسير. ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾: يقال: اكتال عليه، واكتال منه، قال بعض اللغويين: "على" و"من" يتعاقبان في هذا الموضوع، فيقال: اكتلت عليك: أخذت ما عليك، ويقال: اكتلت منك: استوفيت منك. وتعدية ﴿كالوهم﴾ و﴿وزنوهم﴾ إلى الضمير هو على حذف لام الجر، ﴿يُخْسِرُونَ﴾: أي يخسرون أصحاب الحق. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾: ﴿سِجِّينٍ﴾: اختلف المفسرون في معناه، وخير ما قيل فيه: أنه علم لديوان جامع لأعمال الفجرة، يدل على ذلك قوله بعده: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾، خبر لمبتدأ محذوف، أي هو مبيّن الكتابة يعلم من رآه أنه لا خير فيه. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، ﴿رَانَ﴾: غطت الذنوب قلوبهم كما يغطي الصّدأ الحديد. ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: عن رؤية جلال الله عند من يقول بالرؤية يوم القيامة، وعند من أنكرها فهو تمثيل عن الإهانة

والتحقير، فسّره القطب بقوله: "أي ممنوعون عن رحمته"(١). ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي، ﴿صَالُوا الْجَحِيمِ﴾: أي يحترقون بنارها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بَلْ رَانَ﴾: قرأ الجمهور بإدغام اللاّم في الرّاء بعد قلبها راء لتقارب المخرج، وقرأ عاصم بالوقف على لام ﴿بَلْ﴾، والابتداء بكلمة: ﴿رَانَ﴾ نحـا للإدغام، وقرأ حفص بسكتة خفيفة على لام: ﴿بَلْ﴾ ليبيّن أنها لام.

د)- البيان والتّفسير:

قال تعالى: **﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾**.

تردّدت الرّواية في كون السّورة نزلت بمكة أو بالمدينة أو أن بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة، ولعل القول الأخير هو الأنسب للجمع بين الرّوايتين، فإذا أسقطنا موضوع افتتاحيتها على ضوابط القرآن المدنيّ فنجد أن الهجمة على المطففين بمثل ذلك الأسلوب في شأن مسألة أخلاقية اجتماعية كتلك المسألة من التطفيف في الكيل والوزن من أنواع المعاملات، نجد أن ذلك مما يعنى به القرآن المدني عند قيام الدّولة الإسلامية في المدينة وتنظيم مجتمعها، ولذلك يرى كثير من المفسّرين القدامى انشطار السّورة إلى قسم مكيّ وإلى قسم مدنيّ. وأيّا ما كانت صحة الرّوايات في ذلك، فإن التّصدّي لتلك الظّاهرة سواء كانت في مكة أو في المدينة يعتبر في صميم الدّعوة الإسلامية في محاربة الانحرافات.

والافتتاحية بالويل، وما تلا ذلك من أنواع التّهديد للمطففين، فالويل دعاء بسوء الحال، وهو من الله تقرير وقضاء يعمّ المطففين، والوصف يعبّر عن بخس حقوق

(١)- تيسير التفسير: ١٦/١١٧.

النّاس في المكيال والميزان. ولزيادة البيان والتّوضيح جاءت تلك النعوت بعده لتواصل عملية الاحتيال والتّصب بالنقصان إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، وبالزّيادة إذا اكتالوا منهم أو اقتضوا، والله تعالى يأمر بالقسط والعدل في ذلك فيقول: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن:٩). وقد أهلك الله قوم شعيب لما كانوا يتعاملون به من التّطفيف مع النّاس.

ثم توعّد الله المطففين بقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تعجيب من أمر هؤلاء المطفّفين كيف لا يخطر ببالهم أنهم مبعوثون ليوم عظيم في هوله وشدائده، إذ يقوم فيه النّاس لربّ العالمين مجرّدين عن كلّ حول أو قوّة وليس لهم من دون الله وليّ ولا نصير، يقومون للمقاضاة وهم متلبسون بأكل حقوق النّاس يحملون أوزارا مع أوزارهم. وفي مثل هذا التعبير من قوة الإنكار والتعجيب ووصفه يوم الحساب بالعظيم ووصف الخالق بربّ العالمين في كل ذلك إيحاء بعظمة ذنب التطفيف.

وليت التّقريع ينتهي عند ذلك الحدّ، ولكن الله تعالى يسلك المطففين في عداد الفجّار بصفة عامّة ويفصّل أحوالهم ومآلهم فيقول: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ، كِتَابٌ مَّرْقُومٌ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾:

﴿كَلَّا﴾: للردع والزّجر، وقد تأخذ معنى "ألا" للتنبيه، عمّم الله وصف المطففين بالفجّار وهم المتجاوزون للحدّ في الإثم والمعصية، وقد يكون من هؤلاء مسلمون ويقترفون تلك المعصية، وقد ناداهم الرّسول يوما بتلك الصّفة في المدينة إذ دخل سوقها وقال: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجّارا، إلاّ من اتّقى الله، وبرّ،

وصدق».[١]

إنّ المطفّفين سواء كانوا كفارا أو مسلمين، هم في جحود ليوم البعث أو في شك منه، فالقرآن يردعهم ويزجرهم بأن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم ثم يحدّد موضعه في: ﴿سِجِّينٍ﴾، وهو لفظ جذره اللّغوي من السّجن ويرجّح كثير من المفسّرين أنه واد من قعر جهنم، الله أعلم بماهية ذلك الكتاب. ويزيده تعريفا بقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، أي هو كتاب مرقوم، أي مكتوب. ثم يسأل عنه سؤال التهويل والتعجيب: ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟، أي هو من الغرابة والعظمة أعظم من أن يحيط به علمك أيها المستمع لآي القرآن، إذ هو شامل لأعمال المجرمين بدون زيادة أو نقصان ووجوده في قعر جهنم دليل على التّحقير.

فإذا كان ذلك يقينا عند الله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي عذاب شديد لهؤلاء، وهم يكذّبون بيوم الدّين.

ثم يفصّل الله حقيقتهم ويصفهم بثلاثة أوصاف ويقول: **﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾**.

أ)- ﴿مُعْتَدٍ﴾: الاعتداء: هو الصّفة الغالبة التي تدفع صاحبها إلى التكذيب، فهو فاسد الفطرة مختلّ التّصوّر.

ب)- ﴿أَثِيمٍ﴾: في أقواله وأفعاله مبالغ في ارتكاب المعاصي.

جـ)- ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: والآثم لا يتأدب مع الله ولا مع كلامه إذ هو لا يؤمن بما ابتداء، وبالتالي فلا يتردد عند سماعه لآي القرآن أن يقول عنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، لما في القرآن من القصص عن الأمم الخوالي ولما يخبر به من أمور الغيب. وبذلك لا يصدقون بأن القرآن وحي من الله نزّله

---

(١)- رواه الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار، رقم ١١٩٣.

على رسوله.

ثم بيّن الله دوافعهم الباطنية إلى ذلك وهدّدهم بالطّرد من رحمته: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ، ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾: ردع وإضراب عما سبق لبيان حقيقة دوافعهم في ذلك التكذيب، وأنه بما غشي قلوبهم من أوضار الإثم والمعصية، فلا يتسرّب إليها بصيص من نور الهداية، والرّان هو غطاء معنويّ يحجب القلوب عن أنوار الإيمان حتى ينطمس كما عرفه رسول الله في ما رواه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله:** ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾».[(١)] والطّبع أشدّ من الرّين.

وفي التّهديد لهؤلاء قال تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ**﴾، وعن مصيرهم المشؤوم جزاء تكذيبهم بدأ الله بحرمانهم من النّعيم الرّوحي الذي يتمتع به الأبرار، وهو حجبهم عن رحمة الله ورضوانه، أو حجبهم عن جلال ربهم ولذة النّظر إلى وجهه الكريم عند من يقول بإمكان الرّؤية في الآخرة، وهي لا تتاح -إن تحققت- إلا للرّوح النّقية والقلب الوفي والنّفس المطمئنة الآمنة، وهؤلاء المكذبون نسوا الله فنسيهم وطردهم من رحمته، فهم يحترقون في نار السّعير، ومع ذلك التوبيخ والامتهان من ملائكة العذاب إذ يقولون لهم: ﴿**هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟، أعاذنا الله من عذاب جهنم ومتعنا برحمته ورضوانه، والله أعلم.

---

(١)- رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة ويل للمطففين، رقم ٣٤٠٦.

مقرّ ديوان الأبرار وحسن مآلهم، وبيان سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا، ومقابلتهم بالمثل في الأخرى.

أ)- النص:

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٢٠)
يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ
نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦)
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١)
وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ (٣٦)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾: ﴿الأَبْرَارِ﴾: جمع: ﴿بَرّ﴾ بفتح الباء الذي يعمل البرّ، ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾: مقابلة لجملة: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾. و﴿عِلِّيِّينَ﴾ علم على مكان عال في الجنة، وقيل: هي السماء السابعة، وهو جمع: عِلّي وعلّيّ، يعرب إعراب المذكر السالم. ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾: القول فيها مثل سابقتها تكرار للمبالغة. ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: التقدير هو كتاب مضبوط مكتوب بدون زيادة ولا نقصان، يعلن به عند الملائكة المقربون تنويها بأصحابه الأبرار. ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾: خبر ثان لجملة: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي

نَعِيمٍ﴾. و﴿الْأَرَائِكِ﴾: جمع أريكة، تجمع بين السّرير والوسادة وحجلة منصوبة عليها. ﴿يَنظُرُونَ﴾: كل ما يبهج العين، حذف المفعول للتعميم. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾: النّضرة البهجة والحسن، تشرق به وجوههم بسبب النّعيم الذي هم فيه. ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ، خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾: الرّحيق: الخمر الصّافية المعتقة، ختم إناؤها بالمسك. ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾: ﴿مِزَاجُهُ﴾: ما يمزج به فهو ممزوج، من إطلاق المصدر على المفعول و﴿تَسْنِيمٍ﴾: علمٌ لعين في الجنة، كما عرفه الله. ﴿عَيْنًا﴾: منصوب على الحال، وقيل على المدح، ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾: أي منها يشرب الملائكة المقرّبون. ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾: أي ملتذّين بالسخرية منهم. ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾: أي ما أرسل الكفار رقباء على المؤمنين ولا هم يهيمنون على أعمالهم. ﴿يَنظُرُونَ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾: أي نالوا ثوابهم، والجملة في محل نصب لـ﴿يَنظُرُونَ﴾.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَعْرِفُ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الخطاب ونصب: ﴿نَضْرَةَ﴾، وهو خطاب لغير معيّن، وقرأ أبو جعفر ويعقوب: ﴿تُعْرَفُ﴾ بصيغة البناء للمجهول ورفع: ﴿نَضْرَةُ﴾، ومآل المعنيين واحد. ﴿فَاكِهِينَ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الفاعل، وقرأه حفص عن عاصم وأبو جعفر: ﴿فَكِهِينَ﴾ بدون ألف بعد الفاء، جمع: "فكه"، وهو صفة مشبهة.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان وعيد الفجّار المكذّبين بيوم الدّين وذكر أحوالهم السّيئة أتبعه الله ببيان حال الأبرار وما يتمتعون به في نعيم الجنة على طريقة القرآن في مقابلة الوعد بالوعيد ومقابلة التّرهيب بالتّرغيب، وفي ختام السّورة حكى الله بعض مواقف الكفار من

المؤمنين بالسخرية والاستهزاء في الدّنيا وكيف عاملهم المؤمنون بالمثل في الآخرة وذلك للربط على قلوب المؤمنين حتى لا يتأذوا بما يقوله خصومهم فقال تعالى: ﴿**كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ، وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ، كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ، يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ**﴾.

﴿كَلَّآ﴾: ردع وإبطال للتكذيب المذكور في ما قيل لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، ويجوز أن يكون له: ﴿كَلَّآ﴾ معنى: "حقا"، في صدر ما يخبر الله به عن الأبرار مقابل الفجار، فجاء ما أخبر به قسيما لمضمون الجملة السّابقة شبيها به في التّركيب البياني، فالأبرار هم المؤمنون المخلصون الأوفياء وهم في المرتبة الوسطى بين مرتبتي المتقين والمحسنين لهم ذخر محترم في الصّالحات والقربات نوافلا وتطوّعا، أعمالهم مرصودة في كتاب بيّن مسطور، وهو في أعلى مراتب الشّرف والفضل من جنة الخلد، عظّمه الله وأعلى شأنه بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾. والقول في هذه الجملة التّعجبية هو كما تقدّم في سابقتها. ويتمّ التّقابل بين: ﴿عِلِّيِّينَ﴾ و﴿سِجِّينٖ﴾ تقابلا بين العلوّ والانحطاط، وكلاهما يجلّ عن العلم والإدراك البشري، وحسب كتاب الأبرار شرفا أن تشهده الملائكة المقربون وتحفظه تكريما لأصحابه وهم في بحبوحة نعيم الجنة يصفهم الله بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ، تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ، يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ، خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ، وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ، عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ**﴾.

أجمل الله بيان حال الأبرار بأنهم في نعيم مقابل حال الفجار، ثم فصّل بعض ذلك النّعيم ببيان جلستهم المريحة الهنيئة على أرائك الجنة في إمتاع ومؤانسة لبعضهم البعض، ولما كان الوجه والعينان أشرف جزء في بدن الإنسان وهو المرآة التي تعكس حالته النفسية من مختلف الأحاسيس والمشاعر فإنّ نظراتهم متألقة بشرا وسرورا لا ينغصها كدر، ولا يعفّن منها همّ أو حزن، وقسمات وجوههم وضيئة بنضارة النّعيم لا يلتبس حسنها ورونقها على ناظره، والجالسون على الأريكة -أي السّرر الفخمة

ذات الحجال- هو أشهى ما يتمناه الجلساء في مجالس الشراب والمؤانسة وقد جاء الوصف بديعا حيًا يدعو إلى الشوق، ويستهوي الذوق، والله يخاطبنا بمألوف عباراتنا، ولكن الحقيقة أنّ في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقوله تعالى بصف نوعية الشراب الذي يسقى منه أهل الجنة في جلستهم المؤنسة يندرج في ما ادّخره الله من النّعيم الحيّ لأوليائه الأبرار، وهو يعلم شغف المخاطبين بذلك النّوع من اللّذة والمتعة كما تعكس ذلك آثارهم وأشعارهم، فالخمر المعتقة المختومة هي ألذّ ما يتنافسون في اقتنائه وتكريم الأصحاب به يقول عنترة:

فـإذا شـربت فـإنني مسـتهلك مـالي، وعرضـي وافـر لم يكلـم
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندى وكمـا علمـت شمـائلي وتكرّمـي

ويقول لبيد:

أُغلِي السِّباء بكلِّ أدْكَن عاتِقٍ أو جَوْنَة قُدِحَت وفُضَّ خِتامُها

قال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ، خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾، فالرّحيق هي الخمر الصّافية المعتقة. ولضمان جودتها تكون مختومة حتى تحفظ من أيّ غش أو فساد، ولا يفك ذلك الختم إلا الأبرار، وهم متقابلون في جلستهم، فيفضّون بأنفسهم ذلك الختام المسك، ويحتمل أن يكون المعنى أن رائحة المسك يجدها الشّارب في فمه وهو يتذوق طعم الشّراب، وهم في تلك المتعة يتنافسون، واعترضت جملة: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ اعترضت وصف الشّراب، إذ جاء من بعدها قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، وهو اعتراض مناسب لتحفيز الهمم وإذكاء الرّغبة في نعيم الجنة الخالد، والإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ واختيار لام الأمر لفعل التنافس هو للتحريض والحث على الإقبال لما يتحقق به رضوان الله ويضمن به نعيم الجنة، لأن أمثال أولئك المطففين الذين يأكلون أموال النّاس بالباطل، إنّما يتنافسون في متاع زهيد زائل ووسيلتهم في ذلك ارتكاب الظّلم

والاعتداء على حقوق الناس، يقول الإمام أبو نصر في نونيته متزهدا في متاع الدّنيا:

مـا ضرّني مـا فـاتني مـن نعيمهـا   إذا نعمت نفسي غدا وعفي عني

وإنّما لوصف خمرة الجنة قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، أي إن تلك الخمر تمزج بماء أقدس عين في الجنة تسمى بـ﴿تَسْنِيمٍ﴾، ومن تمام قدسيتها وشرفها أن المقرّبين من عباد الله يشربون منها وهم أعلى درجة من الأبرار، ومزج الخمر المعتقة بالماء هو الفنّ المألوف في مجالس الشرب يقول طرفة بن العبد:

ولـولا ثـلاث هـنّ مـن لـذة الفتى   وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي
فمـنهنّ سـبقي العـاذلات بشـربة   كميت متى ما تُعلَ بالماء تُزبد

وقد كان هؤلاء الأبرار يلقون العنت من خصومهم الفجّار في حياتهم الدّنيا سخرية واستهزاء، فها هم في دار كرامتهم يشاهدون خصومهم كيف يلقون جزاءهم على أعمالهم المنكرة وهم يصلون عذاب النّار، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ، وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾**.

مثل هذه المشاهد الدّنيئة من معاملة الفجّار للأبرار -وإن كانت تصوّر الواقع المعاش في مكّة وقت التنزيل- فهي مشاهد متكررة في حياة الأجيال تعكس الصراع بين الحق والباطل، وهو يبدأ بالملاحاة والخصومات الكلامية وينتهي أحيانا بالصّراع الدموي، والمشهد يصوّر المجرمين في أوج تطاولهم واعتزازهم بقوّتهم أمام أنصار الحق وأتباع الهدى والرّشاد، وهم يمثلون القلة والضّعف في منطلق الدّعوة الإسلامية. إن المجرمين كانوا يضحكون من الذين آمنوا برسول الله سخرية واستهزاء، ويؤذونهم بالغمز واللّمز كلما مرّوا بهم مواجهة في لؤم وسفاهة، ثم لا يكتفون بذلك بل يتخذونهم مادة

فكاهة عندما يعودون إلى أهليهم استخفافا بأولئك المؤمنين الأطهار يتمّ عن وضاعة في الأخلاق وسفاهة في التعامل ثم يرمونهم بما يتصفون به من ضلال، على أنهم تركوا دين آبائهم على قاعدة المثل: رمتني بدائها وانسلّت. وتلك غاية ما يتصف به من اللؤم هؤلاء الفجّار . ومن ثم يرد الله عليهم بأنهم غير مكلفين بشأن أولئك المؤمنين، وما هم مراقبين لأعمالهم ولا هم حافظون لها ولا مقدرين لوزنها.

ثم تختتم السورة ببيان معاملة المؤمنين بالمثل لخصومهم في يوم الجزاء فقال تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾، أي في يوم الجزاء الأكبر في يوم القيامة يتمّ العدل الإلهيّ حيث يجازي المؤمنين بنعيم الجنة وهم جالسون على الأرائك ينظرون إلى الكفّار وهم يعذبون في نار جهنم، ويرونهم بوسائل جعلها الله لهم، فيضحكون منهم كما كان أولئك المجرمون يضحكون منهم في الدّنيا، ويأتي الاستفهام التقريري بقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، أي نعم، لقد لاقوا جزاءهم العادل، وعبّر عنه بالثّواب تهكما واحتقارا لأن الثّواب يغلب على الخير.

والله أعلم

وقد رمز الله إلى ذلك بفعل: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾، وفي التعقيب بأي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، والإظهار في مقام الإضمار وباختيار الإضافة التشريفية إلى كلمة: "الرب" فيه التأكيد على إحاطة علم الله بأفعال خلقه بحيث لا يفلتهم من عذابه وأنه من شأنه أن ينتصر لأوليائه، ولا يخفى ما في ذلك من تطمين رسول الله وتهديد للمشركين، والله أعلم.

عاقبة التمادي في طلب الدنيا،

ومآل المترفع عنها يوم القيامة.

أ)– النص:

فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل
لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ
أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ
رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ
وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ
أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾: ﴿أَمَّا﴾: تفصيلية وفيها معنى الشرط. ﴿الإِنسَانُ﴾: مبتدأ. خبره: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾،

إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ
حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ
وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ
بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾: أي استمعت له، أي أصغى إليه أذنه، ﴿وَحُقَّتْ﴾: بمعنى هي محقوقة بأن تأذن لربها وتطيع أمره. ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: مدّ الأرض: بسطها واتساعها بزوال جبالها، وألقت ما في باطنها من رفات الأموات وغير ذلك من المعادن. ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾: الكدح هو إتعاب النّفس في العمل والكدّ، ينتهي إلى لقاء الله. ﴿كَدْحًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾: الضّمير عائد إلى الرّبّ على الأرجح أو إلى الكدح لملاقاة الحساب. ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾: الأهل العشيرة من الزّوجة وأبناء القرابة، والمراد من يكونون معه من الصّلحاء منهم ومن خاصته من النّاس وهو كناية عن نهاية متاعه كما يرجع المسافر إلى أهله، قال موسى لفتاه: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ (الكهف: ٦٢). ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾: أي الهلاك وسوء الحال يتمناه من يقع في شقاء وتعاسة. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾: أي لا يرجع إلى ربه للحساب. ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾: سدّ مسدّ المفعولين لـ﴿ظَنَّ﴾.

ج)– أوجه القراءة:

﴿وَيُصَلَّىٰ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بتشديد اللاّم مضاعف: صلاّه إذا أحرقه، وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف:

﴿وَيَصْلَىٰ﴾ بفتح التحية وتخفيف اللام، مضارع: "صَلَى" اللازم، إذا مسّته النار.

د)- البيان والتفسير:

يقول الدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره المنير لبيان مناسبة السورة لما قبلها يقول: "السور الأربعة: الانشقاق وما قبلها وهي سورة المطففين والانفطار والتكوير كلها في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه، فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة، وأغلب ما ذكر في المطففين في أحوال الأشقياء الفجار والمتقين الأبرار في الآخرة، وعنيت سورة الانشقاق بالجمع بين ما يحدث من مقدمات ومشاهد الآخرة الرهيبة وبين ما يعقب ذلك من الحساب اليسير والحساب العسير لأهل الشمال".[1]

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾: الافتتاحية هنا شبيهة في تركيبها البياني للافتتاحية في سورتي التكوير والانفطار، فيقال في بيانها ما قيل في سابقتها، غير أن الجمل الشرطية اختلفت في موضوعها، فاقتصرت على الحدث الكوني الذي يطال السماء والأرض عند قيام الساعة بصفة مجملة، فانشقاق السماء وتصدّعها يقترن هنا بالاستسلام والخضوع لأمر الله، وأنها محقوقة بتلك الطاعة للخالق فهو رافعها بغير عمد وحافظها وممسكها أن تقع على الأرض إلا بإذنه. وأما الحدث المهول الذي يحدث في الأرض فهي المدّ في رقعتها وتسوية أديمها بزوال الجبال والآكام من على سطحها، وبإخراج ما في بطنها من رفات الأموات ومن المعادن ومما عبّر الله عنه بالأثقال في سورة الزلزلة. والله وحده أعلم بالكيفية التي يتم بها ذلك الحدث المهول، والأرض هي الأخرى خاضعة لأمر ربّها مستسلمة لقضائه وهي في ذلك على حق معترفة به لربها وهو

(١)- التفسير المنير: ٣٠/١٣٦.

القائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر:٦٧).

وجواب الشرط محذوف تذهب النفس في تقديره كلّ مذهب لإفادة التهويل والتفخيم، أي إذا حدثت تلك الأهوال، عرف الإنسان ما قدّمه في حياته من خير أو شرّ، وقيل: إن الجواب هو قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، وقبل بيان ذلك التفصيل في مقاضاة الإنسان في أعماله بجيء النداء الربّاني له وهو يلفّه الإطار الزماني والمكاني مستسلما لأمر ربّه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

"أل" في ﴿الْإِنْسَانُ﴾ للجنس يعمّ المؤمن والكافر، واختيار صفة الإنسانية إيحاء بالامتياز والتكريم وإيماء إلى أمانة التكليف التي تحملها الإنسان، فالمفروض فيه أن يكون أعرف بربّه وأكثر إذعانا لأمره، إذ هو في واقع حياته الدنيوية كادح ومكرَه في عمله لا يذوق طعم الراحة في تحقيق مشاريه وتدبير شؤونه، ومهما اختار سبيل الرّشد أو سبيل الغيّ فمصيره إلى ربّه بالموت وما بعدها من النّشأة الأخرى للحياة الأبدية حيث يلاقي ربّه ليكافئه على عمله إن خيرا أو شرّا. فقد روى جابر بن عبد الله في هذا المعنى أن رسول الله ﷺ قال: «**قال لي جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميّت، وأحبب ما شئت فإنّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنّك ملاقيه**».[1]

وفي نفس المعنى يقول المعرّي:

تعب كلها الحياة فما أعجـ ـب إلّا من راغب في ازدياد

ولحد الحكيم زهيرا قد سئم الحياة بعد أن امتدّ عمره إلى الثمانين حيث قال:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا -لا أبا لك- يسأم

وبعد هذا الإجمال لواقع الإنسان في حياته يأتي بيان أحوال الخلائق وانقسامهم

---

(١)- رواه البيهقي في شعب الإيمان: رقم ١٠١٤٤.

إلى فريقين يوم القيامة قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا، إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ، بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.

بدأ الله بالفريق المؤمن لأنّه المختار المرضي عنه، تكرمهم الملائكة بإيتاء كتب أعمالهم بأيمانهم علامة على الفوز والنجاة، أما قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فهو مجرّد عرض أعماله عليه فيجازى على حسناته التي رجحت كفّة ميزانها ويتجاوز عن سيئاته بفضل الله ورحمته؛ لأن من نوقش الحساب يوم القيامة عذّب كما ورد في الحديث عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من نوقش الحساب عذّب. قالت: فقلت: أفليس الله تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، قال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذاك العرض، ومن نوقش الحساب يوم القيامة عذّب»**.[1]

ثم قال تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾، أي يرجع إلى أهله الصّالحين في الدّنيا ممن كان له الفضل عليهم في تربيتهم وتنشئتهم على الصّالحات فيجمعه الله بهم في الجنة مما يزيد في متعته وسروره؛ لأنه تعالى يقول: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ (الرعد:٢٣).

وأمّا الفريق الثّاني، وهم الكافرون الضّالون فيهانون بإعطاء كتب أعمالهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم علامة على الشّقاء، وتتعطل أيمانهم فلا يستطيعون التّناول بها، فإذا علموا ما في كتبهم نادوا بالثبور وتمنّوا لأنفسهم الهلاك وقد علموا ما ينتظرهم من عذاب السّعير؛ فما أشقى الإنسان الذي يتمنّى الموت لنفسه قبل حلول أجله،

(١)- رواه البخاري، كتاب العلم، باب من سمع شيئا فلم يفهمه فراجع فيه حتى يفهمه، رقم ١٠٢.

لأنّ ذلك غاية التّعاسة والشّقاء، كما قال المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

إن هذا التّعيس قد غرّته زينة الدّنيا فأخلد إلى الأرض واتّبع هواه وأفرط في زهوه ومتعته غافلا عما ينتظره من الحساب والجزاء، بل كان لا يؤمن بذلك ولا يرتقب حسابا ولا رجوعا إلى ربّه، ولذلك جاء الرّدّ الإلهي بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، أي هو مخطئ في ظنه، فإن الرّجوع إلى الله وعد صادق لا شك فيه، والله بصير بأعمال خلقه فمجازيهم عليها إن خيرا أو شرا، والله أعلم.

القسم بآيات كونية للتأكيد على وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال.

أ)– النص:

فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ
الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾
فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾: تأكيد القسم بـ"لا" الزّائدة، و﴿الشَّفَقِ﴾: الحمرة التي ترى في الأفق بعد غروب الشّمس. ﴿وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: ﴿وَ﴾: للعطف، ﴿مَا﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿وَسَقَ﴾: جمع وضمّ وستر جميع الكائنات. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا

اتَّسَقَ﴾: أي اجتمع وكمل نوره بدرا. ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: جواب القسم أي لتجازنّ حالا بعد حال بعد الموت من أحوال القيامة، ﴿طَبَقٍ﴾: الحال المطابقة لغيرها وهو منصوب على المفعولية، و﴿عَن﴾ تأتي بمعنى: "بعد"، وبما أنها أحوال عصيبة جاء التعبير بركوبها مجازا، تقول العرب: ركب أخطار البحر. ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي الكفار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة، الاستفهام للتعجيب والإنكار. ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾: للقرآن أي لا يخضعون لمنزله ربّ العالمين. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾: في موضع نصب حال، ﴿يُوعُونَ﴾ من الوعي، أي ما يجمعون في صدورهم من التكذيب والجحود. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي ثواب غير مقطوع ولا منقوص ولا يمنّ به عليهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بضم الموحدة، على خطاب الناس كلهم، وقرأ الباقون بفتح الموحدة، على أنه خطاب للإنسان، من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾، وقيل: هي خطاب للسماء، وقيل: خطاب لرسول الله بوعده بنصر بعد نصر.

د)- البيان والتفسير:

بعد الافتتاحية المثيرة بذكر مشاهد الانقلاب الكوني يوم القيامة وانقسام الخلائق إلى فريقين سعداء وأشقياء، وبيان وضعية كل فريق في موقف الحساب والجزاء، يعود السياق للتأكيد على وقوع القيامة بالقسم وبيان ما يتبع ذلك من تتابع الأحوال على الناس، وقد تعجب الله وأنكر على الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بما جاء في القرآن عنادا واستكبارا وتهددهم بالعذاب الأليم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم ثواب دائم غير ممنن به عليهم فقال تعالى: **﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.**

يؤكد الله قسمه ببعض الظواهر الكونية العجيبة التي تدلّ على كمال قدرته وبديع صنعه فأقسم بالشّفق وهو الحمرة التي تبدو في الأفق بعد غروب الشّمس إلى وقت العشاء، وهي ظاهرة تؤذن برهبة اللّيل وسكونه، وتوحي بالخشوع والخضوع لقدرة الخالق في تقليب اللّيل والنّهار، فتستعدّ الخلائق لاستقبال اللّيل وهو يضمّها ويجمعها ويلفّها بظلمته الحالكة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾. فكم يجمع اللّيل من أشياء، وكم يعطل من نشاط الأحياء، ويخفي من ويلات وأرزاء، وقديما قال العرب: اللّيل أخفى للويل.

ومن ألطافه تعالى أن يجعل القمر نورا في ذلك الظّلام الحالك، وهو يتدرج في منازله فتتنامى دائرة نوره رويدا حتى تكتمل بدرا في اللّيلة الرّابعة عشرة، وذلك هو معنى الاتساق، فبين هذه الظّواهر الكونية المقسمات بها تكامل وانسجام وكلها توحي بالجمال والجلال، وتقبض على النّفوس بالخشوع والتّدبّر الواعي لعظمة الخالق وقدرته. ويأتي المقسم عليه مختصرا في هذه الجملة المؤكدة: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾، والتعبير بالركوب قد استعمله العرب في خوض المخاطر وشدة الأحوال كقول الشّاعر:

إذا لم يكن غير الأسنّة مركبا فلا يسع المضطرّ إلا ركوبها

ولذلك جاء في التفسير السلفي لهذه الآية: أي لتلاقنّ يا معشر الخلائق أهوالا شديدة في الآخرة، أي هي طبقات في الشّدّة تتعرضون لها في مراحل اليوم الآخر، بدءا بسكرة الموت حتى دخول الجنة أو النار.

قلت: إنّ هذا الجواب يعتبر من عجائب الإعجاز في القرآن، لأننا نستطيع أن نسقطه على كثير من الحالات التي تصاحب النّاس في حياتهم وهم يتقلبون في السّراء والضّراء، سواء في حياة الأفراد أو الجماعات، فتعاقب الأجيال وتوالي الحضارات هو من هذا التّراكم الطّبيعيّ بل حتى تتراكم رفات الأموات في قبورهم على مرّ الأزمان والدّهور هو من هذا القبيل كما صوّر ذلك أبو العلاء المعري في قوله:

خفف الوطء ما أظن أد ... يم الأرض إلا من هذه الأجساد

ربّ لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد

وفي مجال الإعجاز العلميّ للآية نستطيع أن نسقط الرّكوب طبقا عن طبق على ما توصّل إليه العلماء في تصميمهم لطبقات الصواريخ الحاملة للسّفن ولرواد الفضاء، إذ يصمّمون الصّاروخ الدّافع إلى الفضاء للتخلص من جاذبية الأرض، يصممونه إلى طبقات تشتعل تباعا حتى تتخلّص من جاذبية الأرض.

وفي التفسير الإشاريّ للآية يقول الشّيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي: "وقد بدا لي في هذا القسم فهم، إن كان حقّا فمن الله، وله المنة، وإن كان خطأ فمن نفسي وأسأله العفو، إن الشّفق هنا إيماء إلى تاريخ المسلمين وما يعتريه من عسر ويسر، وهزيمة ونصر وقد بدا لي ذلك وأنا أطالع حديثا للترمذي رواه عن أبي سعيد الخدريّ قال: **«كان رسول الله ﷺ يصلي يوما صلاة العصر، ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا إلى قيام السّاعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: الدّنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فناظر كيف تعملون، ثم قال: ألا لا يمنعن رجلا هيبة النّاس أن يقول بحق إذا علمه»**، ومضى عليه السلام في خطابه الجليل، قال أبو سعيد: وجعلنا نلتفت إلى الشّمس، هل بقي من النّهار شيء؟. فقال رسول الله ﷺ: **«ألا إنه لم يبق من الدّنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»**".[١]

ويعلق الشّيخ فيقول: "هذا الأمد القليل الباقي هو تاريخنا وما ظهر من دول

---

(١)- رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه: الدنيا حلوة خضرة، رقم ٢٢١١.

وما بقي، لقد حثنا في أصيل العالم أو في شفقه والغروب موشك".(١)

قلت: الله أعلم بمراده، والنكت لا تتزاحم.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾: الضمير يعود على المشركين الجاحدين والاستفهام للتقريع والتوبيخ، فقد قامت عليهم الحجة بالدّلائل الصّامتة في أرجاء الكون بما توحي به من بديع صنع الخالق ومن وحدانيته في التّصرف والتّدبير، وجاء القرآن ناطقا ينصح ويرشد وهم عاجزون عن تحدّيه بالإتيان بمثله، ومع ذلك يعرضون ولا يخضعون ولا يعترفون.

إنه لأمر عجيب حقا واقع هؤلاء، ولكنّ الله يُضرب عن ذلك ليبيّن سبب ذلك العناد، فيرتب عليه التهديد الذي يستحقونه فيقول: **﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ، فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾**، أي من طبع الذين كفروا التكذيب عنادا واستكبارا، لأنّ الذي لا يعترف بشيء ولا يقيم له في نفسه اعتبارا فإنّه لا يتكلّف عناء في محاولة فهمه ومعرفة حقيقته ويزداد استغراقا وتمنّعا عندما يكون دافعه لذلك بغضه وعداوته لذلك الشيء، فالكفار لا يحبون القرآن وحيا من الله، بل يزعم البعض منهم كما قال عنهم تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال:٣١)

وأمام ذلك الادعاء السافر، فإنّ الله تعالى يتهدّدهم بأنّه لا تخفى عنه ما تنطوي عليه صدورهم من غلّ وحقد لرسول الله والمؤمنين، فأمره أن يبشرهم بما ينتظرهم من العذاب الأليم، والتعبير بالتبشير بما هو شرّ إنما يراد به التّهكم والتحقير، وقد استثنى الله من ذلك صنف الذين آمنوا وعملوا الصّالحات بأن لهم في الآخرة ثواب غير منقوص ولا مقطوع، جزاء صبرهم ووفائهم، والله أعلم.

---

(١)- التفسير الموضوعي: ص ٥٠٧-٥٠٨.

سورة البروج مكيّة، وآياتها ٢٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف وفي كتب التّفسير والسّنّة "سورة البروج"، لافتتاحها بقسم الله تعالى: بـ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾. وقد تسمّى: "سورة السّماء ذات البروج"، وذلك وفق ما رواه أحمد عن أبي هريرة: «**أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الأخيرة بالسّماء ذات البروج**»، هكذا بدون واو القسم، وفي لفظ آخر: «**أمر رسول الله ﷺ أن يقرأ في العشاء بالسّماوات**»[1]، أي السّماء ذات البروج والسّماء والطارق.

وهي مكيّة بالفاق وآياتها اثنان وعشرون آية، وتعدّ السّابعة والعشرين في ترتيب نزول السّور، والخامسة والثّمانين في ترتيب سور المصحف الشّريف، والمحور الأساسيّ للسورة الكريمة هو إبراز قيمة التّضحية في سبيل الإيمان والعقيدة ممثلا في قصّة أصحاب الأخدود، ويتفرع المحور الأساسيّ إلى أربعة عناصر:

- الافتتاح بقسم الله بمخلوقات ضخمة من عالم الشّهادة وباليوم المشهود من أهوال يوم القيامة ليضرب المثل للذين فتنوا المسلمين في مكة بالذين أحرقوا المؤمنين في الأخدود فلم يرجعوا عن دينهم، وفي ذلك تثبيت للمؤمنين ليصبروا على أذى المشركين.

- تهديد الله ووعيده لأولئك الفجّار على فعلتهم الدّنيئة يقابله وعده للمؤمنين بجنات النّعيم.

- بيان قدرة الله على الانتقام من أعدائه؛ لأن بطشه شديد وأنه فعال لما يريد.

---

(١) - رواه أحمد في مسنده، رقم ٨٦٠٤.

- ويأتي ختام السورة بضرب المثل بفرعون وثمود بما أصابهم من الهلاك والدمار، ثم تنوه بشأن القرآن الكريم بأنه كتاب مجيد في لوح محفوظ.

التشنيع على أصحاب الأخدود،

ومقابلة وعيد الكفار بثواب المؤمنين.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾
وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ
لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾: قسم بالسماء ذات البروج، أي صاحبة البروج، مفرده: برج، وهي منازل الكواكب والنجوم في السماء على خطوط سيرها ومداراتها في أفلاكها. وهي اسم منقول من البرج بمعنى القصر، تنزل فيه الشمس، أو بمعنى الحصن، تشبيه للسماء بالمدينة وسورها على سبيل الاستعارة، فتخيل الفلكيون أن الشمس تحل فيه، وهي اثنا عشر برجا. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾: ﴿الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾: هو يوم القيامة، وقيل يوم البعث لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا

يُوعَدُونَ﴾ (المعارج:٤٤). الشاهد: هو الرائي الذي يشهد على غيره من الخلائق كالملائكة والأنبياء والرسل، والمشهود عليه: هم من تقع عليهم الشهادة من المجرمين. وقيل في التفسير المأثور: الشاهد هو يومُ الجمعة يشهد لمن عمل فيه، والمشهود هو يوم عرفة، تشهده الناس والملائكة. ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾: ﴿الأُخْدُودِ﴾: يجمع على أخاديد، وهو الشق المستطيل المحفور في الأرض، فيحتمل أن يراد بهم من حفر من المجرمين ذلك الأخدود، ويحتمل أن يراد بهم المحفور لهم من المؤمنين وبالتالي فالجملة في أرجح الأقوال هي جواب القسم مع حذف اللام وهي إما إخبارية أو هي للدعاء. ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾: ﴿النَّارِ﴾: مجرورة على البدل من الأخدود. ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾: أي جالسون على حافة النار تلذذا بمنظر الإحراق. ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾: بمعنى الشهادة أو الحضور.

ج)- من هم أصحاب الأخدود؟.

لقد تعددت الروايات في ذكر تفاصيل قصة أصحاب الأخدود، وقد علّق عليها الإمام ابن عاشور بما نجتزئ به في هذا الموضوع مما يكون فيه العبرة إذ قال: "وهذه قصة اختلف الرواة في تعيينها وفي تعيين المراد منها في هذه الآية. والروايات كلها تقتضي أن المفتونين بالأخدود قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات، وذكرت فيها روايات متقاربة تختلف بالإجمال والتفصيل، والترتيب والزيادة، والتعيين، وأصحها ما رواه مسلم والترمذي عن صهيب أن النبي ﷺ قصّ هذه القصة على أصحابه، وليس فيما روي تصريح بأنّ النبي ساقها تفسيرا لهذه الآية"، ثم قال: "وعن مقاتل: كان الذين اتخذوا الأخاديد في ثلاث من البلاد: بنجران، والشام، وبفارس".[1]

قلت: ما أكثر الطغاة المتجبرين في أنحاء العالم قديما وحديثا ممن عذبوا المؤمنين

(١)- التحرير والتنوير: ٢٤١/٣٠.

على عقيدتهم لتدبّرهم الله.

د)– البيان والتفسير:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾: يقسم الله تعالى في مفتتح السورة بثلاثة أشياء من مخلوقاته العظيمة للدّلالة على قدرته وبديع صنعه، فبدأ بما هو مشاهد ولكنه ما يزال مجالا رحبا لكشوفات العلماء بدأ بالسّماء ووصفها بأنها ذات البروج، جمع: برج. يقول عنها علماء الفلك: هي منازل الكواكب والنجوم في السّماء على خطوط سيرها ومداراتها تكون الشّمس في كل منها مدة شهر، وهي اثنا عشر برجا تقطعها الشّمس في سنة ويكون لذلك أثره على الأرض تعاقب الفصول.

وهذه الظّاهرة الفلكية هي من عالم الشهادة المحدّد في إطار المادة والزّمان والمكان والمتصل بالحياة الدّنيا.

وثنّى الله مقابل ذلك بالقسم "باليوم الموعود" وهو يوم القيامة الذي وعد الله بمجيئه، وهو ما يزال في عالم الغيب موعود بمجيئه –لا محالة– ليتمّ فيه الفصل والجزاء والحكم بين المتخاصمين. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ تتعدّد تأويلات المفسّرين، غير أنّ مراعاة التّناسب بين المقسمات بها يرجّح ما قاله الكثير منهم أنّ الشّاهد على الخلائق يوم القيامة هم ملائكة الله ورسله أو هو رسول الله وحده أو هم أمته تشهد على بقية الأمم، وكل هذه الاحتمالات لها ما يسندها من القرآن الكريم كقوله تعالى:

أ)– ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(النساء:٤١)

ب)- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

ج)- ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:٢١).

ففي موقف الحشر وفصل القضاء تصف الخلائق إلى شاهد، ومشهود له أو عليه، أي من الشهادة، وإذا اعتبرنا الوصف من الحضور، فالشاهد هم الحاضرون من الخلائق. والمشهود هو اليوم لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (هود:١٠٣).

وفي جواب القسم في ما هو الأرجح عند أغلب المفسرين يقول تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، وتتردد الجملة في هذا الجواب بين كونها إخبارية أم هي للدعاء، كما يحتمل في أصحاب الأخدود أن يراد بهم الطّغاة المتجبّرون، أو هم المؤمنون الذين أحرقوا بالنّار؟.

ولكنا نجد في الأوصاف التالية ما يرجح أن المراد بأصحاب الأخدود هم أولئك الطّغاة المتجبّرون الذين أمروا بشق الأخدود وإضرام النّار فيه لتهديد المؤمنين بإحراقهم إن لم يرجعوا عن دينهم، وقد صوّر الله شدة قلوبهم وإمعانهم في الإذاية والمكر فذكر ثلاثة أمور:

أ)- أنهم أمروا بتوفير الوقود لتلك النّار إمعانا في التخويف والترهيب.

ب)- اتخذوا لأنفسهم مقاعد حول النّار ليتلذذوا بمنظر الإحراق.

ج)- كانوا يشهدون ذلك الإجرام الفظيع تشفيًا بأولئك المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم فضحوا بأرواحهم في سبيله.

كما بين الله سبب ما أصابهم فقال: **﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**،

أي إن أولئك الطغاة لم يعيبوا ولم ينكروا على المؤمنين ذنبا اقترفوه في حقهم تحديا لسلطتهم إلا أنهم آمنوا بربهم إيمانا صادقا واعتقدوا فيه من صفات القدرة والكمال ما جعلهم يحمدونه في كل حال، لأنه الملك الحقيقي لكل ما في السماوات وما في الأرض وهو العليم بكل ما يصدر عن خلقه، وبالتالي فهو مجازيهم على ما يفعلون لا تخفى عنه خافية.

وفي ذكر تلك الصفات من أسماء الله الحسنى وعد ووعيد تفصله الآية التالية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**﴾.

يقال إن الجزاء من جنس العمل، فإن الله تعالى يملي للظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون. فليست هذه الحياة العاجلة هي النهاية التي تعفي على خيرها وشرها فإن العدل الإلهي ينشئ النشأة الأخرى للفصل والقضاء، واليوم الموعود آت لا محالة، ينال فيه الظالمون جزاءهم إذا مضوا على ظلمهم وفي ضلالهم غافلين عن النهاية المحتومة، والله ينص في الجزاء على جهنم وعذاب الحريق الأخروي زيادة في التقطيع والترويع لأنه لا مقارنة بين الحريقين بين صنع المخلوق وصنع الخالق غير المحدود واللامتناهي، وعلى هذه الفعلة الشنيعة المروعة لم يغلق الله باب التوبة على من يرتدع ويرعوي، وتلك غاية الرحمة الإلهية وجوده وكرمه.

وفي هذا الوعيد إيماء لمشركي مكة وتهديد لهم على ما يفعلونه بالمؤمنين، أولئك الذين ثبتوا على إيمانهم وتزودوا بالصالحات لم ترهبهم سياط الجلادين ولم تفتنهم الدنيا بزينتها ومتاعها فهم في الجنات ينعمون وبرضوان الله يتمتعون، فهم في فوز عظيم ونجاح كبير، وحسبهم من الفوز أنهم ناجون من عذاب النار، فاللهم نجنا من النار سراعا سالمين، والله أعلم.

كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد، والدّعوة إلى الاعتبار بإهلاك الأمم الغابرة.

أ)- النص:

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ
﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾
فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ
﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾: البطش: هو الأخذ بعنف وشدة. ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: بينهما طباق، وحذف المفعولين لإفادة العموم، فيشمل بدء الخلق وإعادته للبعث ويشمل إنزال العقاب على المجرمين في الدنيا والآخرة. ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾: أي صاحب العرش ومالكه، وهو خلق أعظم من السّماوات يسمّيه بالعرش للدلالة على عظمة الله وسلطانه على كل ما في الكون أي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو إما خبر بعد خبر، أو له مبتدأ محذوف. ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾: الخطاب لغير معيّن، والاستفهام للتعجيب، و﴿الْجُنُودِ﴾: جمع جند، العسكر المتجمع للقتال. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾: في موضع جرّ، بدل. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي أي هم منغمسون في التكذيب مستمرّون عليه. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾: تمثيل لانتظار عذاب الله بأنهم لا يفلتون منه. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾: اللّوح كائن قدسيّ من عالم الغيب يقول عنه علماء الكلام: هو الكتاب المبين الذي سجّلت فيه

للمخلوقات مجتمعة ومجملة نؤمن به ونفوض حقيقته إلى الله. وحفظ القرآن في اللّوح أي يصونه الله ويحفظه من التحريف والتبديل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْمَجِيدُ﴾: قرأ الجمهور بالرّفع، على أنه خبر عن ضمير الجلالة، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالجرّ نعتا لـ﴿العرش﴾. ﴿مَحْفُوظٍ﴾: قرأه نافع وحده بالرّفع، على أنه صفة ثانية لـ﴿قرآن﴾، وقرأه الجمهور بالجر على أنه صفة ﴿لوح﴾، وحفظه كناية عن حفظ القرآن.

د)- البيان والتفسير:

بعد ذكر الوعيد للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جاء التّأكيد على جزاء كل فريق بما يدلّ على قدرة الله على ذلك وجلال سلطانه وكمال إرادته في تدبير شؤون الكون، ثم استدلّ على ذلك ببطشه على فرعون وثمود لبيان أن حال الكفار في كل عصر متشابهة في إلحاق الأذى بالمؤمنين، ترهيبا لكفار قريش وتثبيتا للمؤمنين، ثم نوّه بشأن القرآن وأنه مصون محفوظ فقال تعالى: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ. وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾.

نحن بإزاء مجموعة من أسماء الله الحسنى كل منها لها دلالتها في تعظيم شأن الله وتمجيده ولكنها بالنّظر إلى ما سبقها من وعد ووعيد مما يتعلق بجزاء مخلوقاته ولما كان حادث أصحاب الأخدود هو المذكور في أول السّورة ناسب أن يرتّب عليه الوعيد في حكم عام للذين يفتنون المؤمنين في كل زمان ومكان، ثم يأتي التّعليل لمضمون تلك الجملة بقوله هنا: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

البطش هو الأخذ بشدة وعنف وإضافته إلى كلمة: ﴿رَبِّكَ﴾ بكاف الخطاب

لرسول الله فيه إيناس وتثبيت، ومن خلال الرسول هو خطاب لكل من يتدبّر القرآن، وبطش الله بالمجرمين يشمل تعذيبهم في الدّنيا والآخرة وذلك ما يؤكده قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، وحذف المفعولية لإفادة العموم، فيشمل بدأ الخلق وإعادته، أي للحياتين الأولى والأخرى، كما يشمل تعاقب الأجيال في الدّنيا وتداول الأيام بينها، فكم لله من بدء وإعادة في أطوار حياة خلقه وفي كل لحظة.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾: وهما صفتان تتعلقان أيضاً بجزاء مخلوقاته وهو ما يناسب وعد للمؤمنين بجنات النعيم، فعلى ذكر التوبة ناسب ذكر "الغفور" وهو ستر الذّنوب والعفو للذين ءامنوا وعملوا الصّالحات، والودود من الودّ بصيغة اسم الفاعل على الأرجح وهو الحبّ المكين الثابت أي إن الله يحبّ خلقه ممن استجابوا لدعوته، وحبّ الله لعباده مستعمل في لازمه من معنى الرّحمة والإنعام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (مريم:٩٦).

ثم أردف الله على ما يتعلق من صفاته بخلقه صفات تتعلق بذاته العليّة فقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، والعرش هو المخلوق العظيم الذي يحيط بجميع السّماوات سمّي بذلك لأنه يدل على السّلطان والهيمنة لله على كل ما في الكون والله صاحب المجد العظيم القويّ بذاته لا ينازعه أحد في إرادته ومشيئته، يفعل ما يشاء ويختار لخلقه ما يريده حياة أو موتا وعزا أو ذلا، وشدة أو رخاء إلى غير ذلك مما يجري في ملكوته.

وكعيّنة لكامل إرادته تعالى في هيمنته وبسط سلطانه على خلقه ذكر بقصتين تدلان على قوة بطشه ونقمته بمن تحدّوا سلطانه فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾، فالحادثتان معلومتان لدى المخاطبين، فالخطاب لكل متدبّر للقرآن يذكره الله بهذا الشاهد التّاريخيّ للتأكّد من بطشه الشديد، على أن ذكر الجنود في القصتين يوحي بالقوة والاعتداد بها، فلم يمنعهم ذلك من نقمة الله وبطشه، فما بال مشركي مكّة لا يعتبرون؟

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ، وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾: ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي إلى بيان إعراضهم عن الاعتبار بالأمم التي كذبت رسلها، بأنهم مستمرون في التكذيب متمكنون فيه تمكّن المظروف في الظّرف ولم يذكر متعلق التكذيب ليشمل كل مبادئ العقيدة الإسلامية، فلم تبق لهم حجة يستندون إليها في ذلك وهم غافلون بما يحيط بهم من عذاب الله، فلا يفلتون عنه لأنه تعالى مهيمن على كل شيء بقدرته وسلطانه.

وبما أن القرآن الكريم هو محور عنادهم وتكذيبهم فقد نوّه الله بشأنه في ختام السّورة فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، فالقرآن في عظمته وشرفه وقدره قد وصفه الله بعدّة أوصاف كلها رفعة وكمال وبيان وإعجاز، فنجد هنا "المجيد"، أي عظيم القدر عالي الرّتبة في مبناه ومعناه، وقد توافق هذا الوصف العظيم مع وصف الذّات العلية ووصف عرشه، فلا عجب؛ لأن القرآن كلام الله تولّى حفظه ورعايته في اللّوح المحفوظ، وهو الكائن القدسي الذي سماه الله الكتاب المبين، وسماه: "أم الكتاب". يقول عنه علماء الكلام -والله أعلم-: إنه السّجل القدسيّ الذي سجلت فيه المخلوقات مجتمعة ومجملة، ويسمّون ذلك بقضاء الله الأزلي. فالقرآن محفوظ من التّحريف والتّزييف لأنه في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهرون من الملائكة قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٧-٨٠).

والله أعلم.

سورة الطّارق مكيّة، وآياتها ١٧

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف وفي كتب التفسير والسّنة "سورة الطّارق" وهو ما أقسم الله به في مفتتحها، وهو النّجم الثّاقب الذي يظهر ليلا، ويسمّى كل ما يجيء ليلا "طارقا".

وقد تقدم في فضلها أن النبي ﷺ أمر أن يصلى بها وبالسّماء ذات البروج العشاء الأخيرة. وهي مكيّة وآياتها سبع عشرة آية.

وتعدّ السّادسة والثّلاثين في ترتيب نزول السّور، والسّادسة والثّمانين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

ومحورها الأساسيّ كمحور السّور المكيّة في تركيز مبادئ العقيدة الإسلامية. ومن عناصرها الفرعية:

- الافتتاح بقسم الله بالسّماء ذات الكواكب السّاطعة لاهتداء النّاس بها، على أن أعمال الإنسان محصية عليه من طرف الحفظة الكاتبين.

- إقامة الدّليل بخلق الإنسان أول مرة من ماء دافق على إمكانية بعثه مرة أخرى.

- بيان كشف الأسرار وهتك الأستار في الآخرة حيث لا معين للإنسان ولا نصير.

- وجاءت الخاتمة بالتنويه بشأن القرآن العظيم وأنه القول الفصل في بيان الحق وبالوعيد للمجرمين.

القسم بمظاهر من القدرة الإلهية على إثبات البعث، وعلى صدق الرّسالة، مع تهديد المكذّبين بها.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ
① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ
④ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنۢ
بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ ⑦ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ ⑨
فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ⑫
إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ⑬ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ⑭ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮
وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَمَهِّلِ الْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ⑰

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ﴾: ﴿الطَّارِقِ﴾: مأخوذ من الطّرق، وهو الضّرب الشّديد وأصله كل آت ليلا، ولذلك أطلق على النّجوم لظهورها ليلا واختفائها نهارا. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الطَّارِقُ﴾: الاستفهام للتعظيم، وقد تقدم تفصيل إعرابه. ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾: ﴿الثَّاقِبُ﴾: إما نعت للنجم أو خبر عن ضمير محذوف تقديره: هو، وأصل الثقب خرق شيء ملتئم، فالنجم يثقب الظّلام بنوره. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: ﴿مَا﴾: زائدة، ﴿إِن﴾: مخففة واسمها محذوف، ﴿لَمَا﴾: اللاّم فارقة فتكون الجملة هكذا: إن كل نفس لعليها حافظ، أي يكون لكل نفس بشرية حفيظ من الملائكة

يحصي أعمالها. ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: أي خلق الله الإنسان من ماء دافق منصبّ بدفع وسرعة يخرج من صلب الرّجل أي من خاعه الشّوكي في ظهره. ومن الترائب، وهي جمع: تريبة، عظام أعلى الصدر، والمراد للقذف في الرّحم. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾: الأرجح أن الضمير يرجع إلى الإنسان، أي إن الله قادر على بعثه بعد موته، وقيل: يرجع إلى الماء الدّافق. ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أي في المحكمة الإلهية تكشف أسرار النفوس ويظهر المستور منها. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ، وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾: ذات الرّجع بمعنى إنزال المطر منها إلى الأرض، وهي تنشق بأنواع النّباتات. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾: الضمير للقرآن يفصل بين الحق والباطل، ولا يشابه اللّهو والباطل. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾: أي الكفار يدبّرون المكايد ضدّ دعوة رسول الله، والله غالب على أمره. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾: أي انتظرهم قليلاً، كرر الفعل: أمهل، للمبالغة في الوعيد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَمَا﴾: قرأه الجمهور بتخفيف الميم، وقرأه ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وخلف: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم.

د)- البيان والتّفسير:

قال تعالى: **﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ، وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ، ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ، إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾**: يقسم الله تعالى بالسّماء والنّجم الطّارق وهو مشهد كوني يدعو للتّأمّل الإيمانيّ والتّدبّر الواعي لقدرة الله في بديع صنعه، والسّماء تطلق على كلّ ما ارتفع فوق رؤوسنا وهي بالنّسبة لسكان الأرض كالسّقف المحفوظ يتأملون جمالها نهارا كالقبّة الزّرقاء، وفي اللّيل بزينة كواكبها، وقد وصف الله النّجم بالطّارق، وهو اسم فاعل من فعل طرق يطرق طرقا وطروقا -أي جاء ليلا- وقد بيّن هذا المعنى بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، وبما أن "أل" للجنس، فهو يشمل كل النجوم التي تظهر

بالليل والتي تعقب بنورها حجب الظلام؛ لأن الثقب هو إحداث خرق نافذ في الشيء حتى غاية وجهه الآخر. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات:١٠). وهذا القسم بالسماء وبنجومها الثواقب هو قسم بآية كونية عظيمة ولذلك ثنى الله بالجملة الاستفهامية الدالة على التعجيب والتعظيم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾؛ لأن المقسم به أي النجوم لا يدرك حقيقتها ولا يضبط مسيرها وحركتها وتأثيرها إلا الله خالقها.

والمقسم عليه، هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، يؤكد الله بأنواع من المؤكدات، وأعلاها القسم بأنه ما من نفس إنسانية خلقها الله إلا وأوكل عليها حافظا من ملائكته يراقبها ويحصي أعمالها ويحفظها. والتعبير بالنفس في هذا المقام له دلالته ومعناه؛ لأنها مستودع الأسرار والأفكار، ومصدر النوايا التي توزن بها الأعمال ويناط بها القضاء والجزاء، فليس الإنسان هملا طليقا لا رقيب عليه ولا حسيب، بل هو الإحصاء الدقيق والرقابة الصارمة على كل أفعاله وتصرفاته.

والسؤال المطروح هو: ما هي المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه؟. فبشيء من التأمل يدرك وجه الشبه بينهما، فإحاطة السماء بالأرض كإحاطة علم الله بكوامن النفوس ووساوسها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾(ق:١٦). ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ (آل عمران:٢٩). ويمثل الحفظة الكاتبون النجوم الثواقب في خرق شغاف النفوس لمراقبتها في خلواتها.

وللتدليل على قدرة الله أمر الإنسان أن يتدبر في أصل خلقته فقال: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾:**

الفاء للتفريع على مضمون قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إثبات إمكانية البعث، إذ أمر الله هذا الإنسان أن ينظر نظرة تأمل إلى أصل خلقته

مم كانت؟ إنه خلق من ماء دافق، أي يصب. مقذوفا بشدة وهو منيّ الرجل الذي تعدّد التعبير عنه في القرآن بالمني، وبالماء المهين وبالنطفة .....إلخ. ولم يكن معروفا أن مصدره الصّلب والترائب -أي عظام الظّهر وأعلى الصّدر- إلاّ بعدما أثبت ذلك العلم الحديث سيما علم الأجنة، وكلّ ما عرفه الأقدمون أنّه المني من إفراز الخصيتين في الرجل وماء المرأة من إفراز المبيض في عنق رحمها، فمن ذلك التلاقح بين الحيوان المنوي وبويضة المرأة ينشأ هذا الخلق العجيب في أطواره حينا في بطن أمه حتى يخرج بشرا سويا عاقلا معقدا في التركيب العضوي والنفسي على غير مثال سابق ويتمّ ذلك بقدرة الله وبديع صنعه.

وكم من عجائب الخلقة وأطوارها من الماء الدّافق إلى الإنسان السّويّ العاقل النّاطق، كم من الألطاف الرّبانية والأسرار الخفية التي يدبّرها الخالق، أفيعجزه أن يعيد خلقه ذلك الإنسان مرة أخرى لحياة باقية يلقى فيها جزاءه على ما كسبت يداه في حياته الأولى؟، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي إنّه تعالى قادر على رجع ذلك الإنسان إلى حياة تبلى فيها السّرائر، أي تكشف وتظهر مكنونات النّفوس وخباياها من النّوايا والخواطر التي كانت وراء الأعمال في الحياة الدّنيا، فيجازي على ما قدم وأخر وما أعلن وأسرّ، يوم لا يجد له من دون الله وليّا ولا نصيرا، ولا قوة ذاتية يدافع بها عن نفسه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ، إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أقسم الله مرة ثانية بظاهرتين كونيتين متكاملتين في رسم الإطار الزّماني والمكاني لحياتنا، أقسم بالسّماء والأرض، وقد امتن الله علينا بتسخيرهما لحياتنا فنحس بالسّكن والطّمأنينة فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (غافر:٦٤).

وصف السّماء بأنها ذات الرّجع أي ترجع إلى الأرض ما يتصاعد منها من

أبخرة المياه بعد تشكل السحب في غلافها الجويّ المتصل بها، كما يرجع إلى الأرض كل ما يصعد فوقها ولم يتحرر من جاذبيتها كما أثبته العلم الحديث.

ووصف الأرض بأنها ذات الصّدع لما تنشق عنه من النبات والأشجار، وما يتفجر من براكين وينابيع ومعادن... إلخ. ومن هذا الترابط والتكامل في عملية الرّجع والصّدع بين الأرض والسّماء تنبثق الحياة للكائنات بصفة عامّة كما انبثقت من الحيوان المنويّ وبويضة المرأة، إنها صنعة الخالق وتدبيره الحكيم وقدرته العظيمة التي لا يمكن أن ينكرها جاحد، وهو مدين في حياته لهذين المشهدين العظيمين، يقسم الله بهما بأن هذا القرآن الذي يقرّر الرّجعة إلى الله للحساب والجزاء، هو القول الفصل في قراراته وإرشاداته يفصل بين الحق والباطل وقد بلغ الذروة في إعجازه وبيانه بما يثبت أنه كلام ربّ العالمين وأنه ليس قولا هزليا لمجرّد الإيناس واللّهو، وبالتالي فهو الحجّة القاطعة لصدق رسول الله فحذير بمن يستمع إليه أن يتعظ ويتبع هديه، وهذا هو المقسم عليه.

وما أروع الإيحاءات البلاغية في هذا النّصّ باختيار كلمتي الرّجع والصّدع، بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، وهل الحياة الأخرى إلا رجوع إلى الأصل من أنه تعالى خلقنا للبقاء لا للفناء؟، وهل بعث أجسادنا من الأجداث إلا صدع للأرض في صورة أخرى من صور الحياة؟، وقد جاء التّعبير القرآني لكلتا الحياتين الأولى والأخرى بالشّق فقال تعالى:

- ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (عبس:٢٥-٢٦).
- ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق:٤٤).

وفي ما أخرجه التّرمذي عن علي بن أبي طالب يقول الرّسول في وصفه للقرآن كتاب الله: «**فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه**

الله».[1]

وبعد إثبات حقيّة القرآن وصدق رسول الله توعّد الله المكذبين بما بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، الخطاب لرسول الله ومن خلاله للمؤمنين معه، وهم يعانون من كيد خصومهم ومؤامراتهم ما هم في حاجة إلى التثبيت والتطمين.

على أنه تعالى هو الذي يتولّى مواجهتهم فيهوّن من شأنهم بحيث يملي لهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ لأن الكيد حقيقته هو إخفاء قصد الضرّ وإظهار خلاف ذلك، ولا يليق ذلك بالله تعالى، فالتعبير به للمشاكلة اللّفظية.

ويتمثل كيد الله للكافرين في الاستدراج والإمهال حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولذلك فرّع عليه أمر رسوله بإمهالهم إلى وقت تقتضيه الحكمة الإلهية وقد تكرر الأمر بالإمهال للتأكيد وزيادة التطمين. فيتمثل كيد الله في نصرة رسوله وفي نصرة أوليائه في كل زمان ومكان والله غالب على أمره ولكن أكثر النّاس لا يعلمون، فما مصير معركة يكون الله بقوته وجبروته طرفا فيها إلا الهزيمة والخسران، فلا نامت أعين الجبابرة الطّغاة.

والله أعلم.

---

(١) - رواه الترمذي من حديث علي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم ٢٩٠٦.

سورة الأعلى مكيّة، وآياتها ١٧

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت عند أكثر المفسّرين وعند كتّاب المصاحف سورة الأعلى لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. وقد تسمّى: ﴿سَبِّح﴾، كما ثبت ذلك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان يقرأ النبي ﷺ في الوتر في الرّكعة الأولى: ﴿سَبِّح﴾[1].

وهي مكيّة عند الجمهور وعدد آياتها تسع عشرة آية، وتعدّ الثامنة في ترتيب نزول السّور، والسّابعة والثّمانين في ترتيب سور المصحف الشّريف. وتشتمل على ثلاثة أقسام:

أ)- التّنويه بعظمة الرّبوبية بتنزيه الذّات العليّة والإقرار بوحدانية الله خالق الإنسان في صورة سويّة وخالق الأشياء كلها ومقدّر نظامها.

ب)- الإشادة بالنبوءة وتثبيت النبيّ في تلقّي الوحي وتطمينه في حفظه الكتاب المجيد وأنه تعالى يسّر مهمته في الدّعوة والتّذكير.

ج)- وعد الله بأن يتذكر بمواعظ القرآن أهل النفوس الزّكية، بينما يعرض عنه أهل الشقاوة الذين يؤثرون الحياة الدّنيا على الآخرة.

د)- وفي الختام يبين الله أن ما أوحي إلى رسوله تصدقه الرّسل من قبله.

---

(١) - التحرير والتنوير: ٢٧١/٣٠.

صور من قدرة الله، وبشارته للرسول بتحفيظه القرآن، وأمره بالتذكير به.

أ) – النص:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ
ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ
ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى
ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ
ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾: أي نزه أسماء ربك عما لا يليق به من صفات النقص، والإضافة للاستغراق، أي نزه أسماءه كلها التي اختص بها، ﴿الأَعْلَى﴾: أي الأسمى من كل شيء علوّ قدر وقداسة وشرف. ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: في موضع جرّ نعت لـ﴿الأعلى﴾، والخلق: الإيجاد من العدم والتسوية، جعل للمخلوقات متناسبة الأجزاء. ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾: أي قدّر الأشياء على مقادير معينة وعرّفها وجه الانتفاع بما يخدم مصالحها، وقد حذف المفعول به لإفادة العموم. و﴿الْمَرْعَى﴾: كل

ما تنبته الأرض من الأعشاب والنبات والزروع. ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾: أي صيّره هشيمًا جافًا أسود اللون. ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أي نقرئك القرءان ونجعلك لا تنساه أبدًا إلا ما يشاء الله أن تنساه لنسخه. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾: أي نوفقك للحال اليسرى في أعمالك، وفي ذلك إيماءة إلى يسر الشريعة، وفيه جناس الاشتقاق. ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾: جواب ﴿إِن﴾ دلّ عليه ما قبله، أي قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: الخطاب للمشركين. ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: أي تفضّلون الدّنيا على الآخرة. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾: الإشارة إما إلى قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أو إلى كل ما جاء في السّورة من المواعظ أنها مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَدَّرَ﴾: قرأه الجمهور بالتّشديد، وقرأه الكسائي بالتّخفيف. ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: قرأ الجمهور بمثناه فوقية بصيغة الخطاب وهو موجّه للمشركين، وقرأه أبو عمرو وحده بالمثناة التّحتية على طريقة الغيبة عائدًا إلى قوله: ﴿الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾، روي في سبب النّزول: أنّ النّبي كان إذا نزل عليه جبريل عليه السلام لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يبتدئ النبي بأوّلها مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ بعد ذلك شيئًا، فقد كفيكه.[1]

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير رقم ١٢٦٤٩.

فقال ابن عباس: "فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات". ويرد في فضل هذه السورة أن رسول الله ﷺ كان يحبها، وفي صحيح مسلم: أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (الغاشية:١)[1]. ذلك لأنها تحمل له بشريات عظيمة، وتعظم ربّه بالتسبيح والتحميد، يأمر الله نبيّه في مفتتحها بتنزيهه عما لا يليق بجلاله وعظمته، والتسبيح هو التمجيد والتنزيه لله ولأسمائه الحسنى مع استحضار موجبات عظمته في القلب حتى يقشعرّ منه الجلد خشية وإجلالا. وكان الرسول يستجيب لهذا الأمر الإلهي فيقول بعد قراءاته هذه الآية: سبحان ربيّ الأعلى، وقال لصحابته: «**اجعلوها في سجودكم**»، كما قال عندما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: «**اجعلوها في ركوعكم**».[2]

وقد وصف الله ذاته العليّة بأوصاف العظمة والجلال بما هو أهل بأن يعبد ويشكر، وأن يطاع ويذكر، فهو الربّ الأعلى أي المربيّ الراعي لشؤون خلقه، واللّطيف الحاني في معاملتهم، وهو الأعلى علوّ قداسة وشرف وشأن ذو الكمال المطلق اللامتناهي ومن دلائل وجوده وقدرته مما هو في مجال إدراكنا أنه:

أ)- ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾: أي أوجد جميع الكائنات من العدم وفي ذروتها الإنسان الذي أحسن صورته كما سوّى كل مخلوق بجعل أجزائه متناسبة متناسقة.

ب)- ﴿**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾: حذف المفعول عن الفعلين لإفادة العموم، إذ التقدير الحكيم يطال كل مخلوق ليتمتع بخواصه ومزاياه، ولينظم حياته وفق ما قدّره له من نوع الحياة مع بني جنسه، وأقدر الإنسان لتسخير كل ذلك لمنفعته، كما قدّر الأرزاق لكل الكائنات وهداها إلى استخلاصها بأيسر الطّرقيات فقال تعالى:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ

(١) رواه مسلم من حديث النعمان، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم ٨٧٨.

(٢) رواه أحمد في المسند من حديث عقبة بن عامر الجهني، رقم ١٧٤١٤.

أَمْثَالُكُم﴾(الأنعام:٣٨).

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾(هود:٦).

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾: وإخراج المرعى هو إنبات أصناف الأعشاب والزروع وكل ما تنبته الأرض لغذاء الإنسان والحيوان، سواء كان أخضر ناضرا أو أسود يابسا، فلكل منها فائدته ومردوديته في طعام الإنسان والحيوان، وما بين النضارة واليبس دورة الحياة بدءا ونهاية يوتى بها إلى ما سيأتي ذكره من حياة الدنيا والآخرة. ذلك هو فضل الله وإنعامه على الخلق بصفة عامة فما هو فضله وإنعامه الخاصّين برسوله وأمته؟. ذلك ما بيّنه الله في قوله: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى، وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾**.

كان الرّسول يعاني شدّة في تلقيه الوحي فيتعجل قراءة ما يوحي به جبريل قبل إنهاء الوحي مخافة النسيان كما تقدّم ذلك في سورة "القيامة"، وفي هذه الآية يطمئنه ربّه برفع ذلك العناء عنه فيمكنه من حفظ ما يوحي إليه فلا ينساه أبدا إلا ما شاء الله أن ينساه من ذلك لحكمة يريدها، فقال أكثر المفسرين بأن المراد به هو النسخ لما يريد الله أن يرفع تلاوته أو حكمه. فأي تطمين لرسول الله ﷺ وهو يتلقى الوعد الإلهيّ بأنه هو الحافظ لكتابه في عملية إنزاله وحيا على قلب رسوله حتى تبليغه للأمة غضا طريّا كما أنزل، وهو الأميّ لا يقرأ ولا يكتب. ثم أكّد الله وعده بقوله: **﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾**، أي إنه تعالى يحيط علمه بما يجهر به عباده وما يخفونه من أقوال وأفعال، بل حتى من خواطرهم النفسية فلا تخفى عنه خافية. ثم تليها البشرى الثانية للرسول ومن خلاله لأمته فقال:

ب)- **﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾**: وقد كان طابع هذا الدّين هو اليسر في جميع أحكامه، غير أنّ وعد الله عامّ يشمل كل مجالات الحياة حيثما تتعقد مشاكلها وتتعدد متاعبها فإنه تعالى يوفق المؤمنين الأوفياء إلى أيسر الأمور ويذلل أمامهم

الصّعاب، فالتيسير هو من خصائص هذا الدّين الحنيف لأنه يستمدّ من نور الله قوته ويتجاوب مع حقائق الوجود بروح العقيدة والإيمان، وكان رسول الله ما خيّر بين أمرين، إلا اختار أيسرهما، وكان هديه اليسر وعدم التكليف في لباسه وطعامه وشرابه وفي جميع أحواله وكان يوصي أصحابه بقوله: «**يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا**»[١]، وحسبه فخرا وشرفا في ذلك تلك الأوصاف التي أضفاها الله عليه، أجمعها وأبلغها قوله تعالى:

أ)- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ب)- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ (القلم:٤).

وكان التيسير هو الصّبغة العامة التي جمع بها أمته فامتازت بتلك الوسطية التي مدحها الله بها، إذ وضع رسولها الخاتم عن كواهل الخلق كثيرا من الأغلال والأثقال فتحرر العقل البشري وانطلق في مجالات المعرفة بلا قيود ولا حدود.

﴿**فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ**﴾: بعد أن اطمأنّت نفس رسول الله بالبشارتين السّابقتين وهو يواجه العنت والجهد في أول الدّعوة وهو يخشى أن يكون قد قصّر في واجب التبليغ، وبما أن التذكير هو وسيلته المثلى في ذلك فقد أمره الله به بصفة عامة وأن يستمرّ عليه في كل الأحوال ولجميع النّاس، ولذلك حذف مفعول ﴿فَذَكِّرۡ﴾.

ثم علّل الأمر بقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، وليست هذه الجملة قيدا لمضمون الأمر بالتذكير، إذ النّاس فريقان أمام التذكير، فريق تنفعه الذّكرى وفريق لا تنفعه، ولكن لا سبيل للمذكّر أن يعرف مواقع نفع الذكرى في النّاس، ولذلك يرى بعض المفسّرين اعتبار القيد في الأمر الإلهي فلا يذكّر إلا من تنفعه الذّكرى، كما يقول الحكيم زهير في هذا المعنى:

---

(١)- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم ٦٩.

ومن يصنع المعروف في غير أهله يكن حمده ذمّا عليه ويندم

ولعل الأصوب –والله أعلم– أن التذكير مطلوب، وإن أعرض عنه البعض، والله يقول في هذا المعنى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤). والله وحده هو العليم بدوافع النفوس وخفاياها، وهو الذي يهيّئهم لما يصلح لهم وهم على فريقين: **﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾**، فالسين للتنفيس، ويدل على أن تأثير التذكير سريع إلى نفس من يخشى نقمة الله وعذابه. وخشية الله هي نتيجة لاستشعار قلب المؤمن عظمة الله وقدرته حيث إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وهي حالة نفسية يتفاوت فيها الأبرار إلى درجة المقربين.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾: ﴿يَتَجَنَّبُهَا﴾: الضمير يعود إلى الذكرى يعرض عنها الأشقى، أي الذي بلغ الغاية من الشقاوة وهو الكافر الجاحد لوجود الله ومبادئ العقيدة الإسلامية مطلقا، ودونه الشقيّ وهو الفاسق العاصي المصرّ على الفواحش والآثام، وكون الأشقى يصلى النار الكبرى، وهي نار جهنم في دركاتها السفلى، فهو خالد فيها لا يموت فيها ولا يحيى. ويقابله حكم الله للسعداء بالنجاة والفلاح نتيجة تزكية نفوسهم وقيامهم بما كلفهم الله به: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾**، وتقديم الترهيب عن الترغيب مناسب لمقام التذكير الذي كان ولا يزال الوسيلة المطلوبة من الداعين إلى الله مهما استشرى الفساد والظلم، وقد جعل الله للفوز والفلاح في الدّنيا والآخرة وسيلتين لتحصيل أصول العقيدة والشريعة مما فصّلته الآيات الأخرى، فذكر:

أ– التزكية في المجال العقدي، وهي تعني التطهر النّفسيّ من دنس الكفر والشرك بجميع أنواعه وامتلاء القلب بخشية الله وإجلال عظمته.

ب)- وذكر اسم ربّه فصلّى، وذكر في المجال العملي التطبيقي الذي يجسّد تلك العقيدة الصّحيحة، فعمّم ذكر الله باللّسان والقلب وخصّص بالذّكر أعظم العبادات وهي الصّلاة بمعناها اللّغويّ والشّرعيّ.

تلك هي المثالية التي يريدها الله من خلقه. غير أن واقعهم في حياة الامتحان والاختبار الدّنيويّ هو كما قال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. القراءة لفعل: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بتاء الخطاب يكون موجّها إلى صنف الأشقياء لبيان علة شقائهم بإعراضهم عن التذكّر في أنّهم قد فتنوا بالحياة الدّنيا، بالإغراق في ملذاتها وشهواتها، وقد وصفها الله بالدّناءة لما تسبّبه للمفتونين بها من السّفالة والانحطاط؛ لأن إيثارها على الحياة الباقية في الآخرة هو المانع لهم عن التذكّر الواعي، وبالتّالي لا يرجى لهم فلاح.

ثم يأتي ختام السّورة لبيان وحدة شرائع الله في الأصول العقدية وفي الأخلاق والآداب فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، فالإشارة إلى ما ورد في السّورة من المواعظ والإرشادات بأنه ضارب في جذور الزّمان عريق وموحّد في أصوله إذ دعت إليه كل الدّيانات السّماوية التي حدت بالركب البشري منذ انطلاقه في العصور الأولى، وهذه الوحدة العريقة دليل على وحدة مصدرها من الملأ الأعلى، وذلك مظهر من مظاهر الرّحمة الإلهية التي اقتضت بعثة الرّسل وإنزال الكتب لرسم منهج الله الذي ارتضاه لخلقه في تحمّل أمانة التّكليف، وخصّ بالذّكر صحف إبراهيم وموسى لأنّ المخاطبين هم أعرف بهما من غيرهما، وقد سأل أبو ذرّ رسول الله عن صحف إبراهيم فقال: «**كانت أمثالا كلّها**»، كما سأله عن صحف موسى، فقال: «**كانت عبرا كلّها**»، وأعطاه نماذج لكل منها.(١)

والله أعلم.

(١) – رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، رقم ٣٦١.

سورة الغاشية مكيّة، وآياتها ٢٦

- بين يدي السّورة الكريمة:

سميّت في كتب التفسير بسورة "الغاشية"، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. وذكرت في بعض كتب السّنة بالجملة كلها، وربما اختصرت الجملة في بعضها فيقال سورة: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾، والغاشية من أسماء القيامة. وهي مكيّة بالاتفاق وآياتها ست وعشرون آية، وتعدّ السّابعة والستين في ترتيب نزول السّور، والثامنة والثمانين في ترتيب سور للمصحف الشّريف. وتناولت موضوعين أساسيين.

أ)- وصف أهوال يوم القيامة، وما يلقاه فيها كل من الكافر والمؤمن مما ينعكس على وجوه كل فريق من العناء والشّقاء أو من السّعادة والهناء.

ب)- ذكر الأدلة على وحدانية الله وقدرته بوصفه بعض للمخلوقات العظيمة في الأرض وفي السّماء. وختمت السّورة بتثبيت الرّسول على الدّعوة إلى الإسلام، وأن لا يعبأ بإعراض قومه؛ لأن الرّجوع إلى الله. وقد تقدم في فضلها أن الرّسول كان يقرأ سورة الأعلى وها في العيدين وفي الجمع.

هول يوم القيامة، وأحوال أهل النار وأهل الجنة.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾
تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً
﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ
﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾: الاستفهام للتعجيب والتشويق، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾: من أسماء القيامة؛ لأنها تغشى النّاس بشدائدها وأهوالها. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾: ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ نكرة لقصد التنويع. ﴿خَاشِعَةٌ﴾: خبره. والوصفان: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، باعتبار ما كانت عليه في الدّنيا من التّعب والنّصب في ما لم ينفعها في الآخرة. ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾: ﴿تَصْلَى﴾: تحترق، ﴿آنِيَةٍ﴾: حارة. ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾: الضّريع: قيل: هو نبات الشبرق إذا يبس يكون ذا شوك لا ترعاه الدّواب. وقيل: هو شجر في جهنم هو الذي يسيل منه الغسلين. ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾: أي هو محض للضرّ بالصّحة. ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾: ﴿لَاغِيَةً﴾: اسم فاعل من اللّغو وهو ما لا يعتد به من الكلام مما لا فائدة فيه. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾: ﴿سُرُرٌ﴾: جمع سرير له قوائم أربعة ترفعه عن الأرض، عليه مضجع للنّوم أو للجلوس. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾: ﴿أَكْوَابٌ﴾: جمع كوب، أقداح للشّرب من زجاج وغيره تكون بدون عروة، وكونها موضوعة أي هي مهيأة للسقي. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾: جمع: نمرق، وسادة يتكأ عليها. ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: الزرابي جمع زربية، وهي بساط مزركش ينسج من صوف ناعم، ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي موزعة توزيعا منظما.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَصْلَى﴾: قرأ الجمهور بفتح التاء، أي يصيبها صلي النّار، وقرأه أبو عمرو

وأبو بكر عن عاصم ويعقوب: ﴿تُصْلَىٰ﴾ بضمّ التاء، أي بهمزة التقريب: من أصلاه النار. ﴿لا تُسْمَعُ﴾: قرأ نافع بمثناة فوقية مضمومة. و﴿لاغِيَةٌ﴾: نائب فاعل، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بمثناة تحتية مضمومة، ورفع: ﴿لاغِيَةٌ﴾ أيضا. وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح عن يعقوب بفتح المثناة ونصب: ﴿لاغِيَةً﴾، والخطاب لغير معيّن.

د)- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، الاستفهام للتعجيب والتشويق إلى معرفة الخبر الهامّ الذي من شأنه أن يكون قد بلغ السّامع، والخطاب لكل من يستمع القرآن ويتدبره، وأولاهم رسول الله استماعا له وحساسية به، فقد روي: «**أنه مرّ على امرأة تقرأ سورة "الغاشية" فقام يستمع لها، ثم قال: نعم قد جاءني**»(١). والغاشية من الغشيان وهو التغطية المتمكنة، والمراد بها هول يوم القيامة يلفّ الخلائق فلا يجدون عنه مفرّا وهو يذهل عقولهم فتفقد صوابها، ويحمل هذا الوصف من التهويل ما تحمله الأوصاف الأخرى ليوم القيامة كالطّامة والصّاخة والحاقة...إلخ، والحديث عنها في القرآن يتحدّد ويتكرر منذرا ومحذرا، ويصنف فيه الخلائق إلى صنفين:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ، تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً، تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ، لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ، لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾:

بعد ذلك التمهيد الباعث على التشويق إلى ما يعقبه من بيان تفصيليّ للمتحدث عنه، وقد بدأ الله بالحديث عن فريق الأشقياء مراعاة لحق الترهيب في السّورة وهو الأنسب بالطّغاة النّاكرين لدعوة الإسلام، فأطلق لفظ الوجوه، والمراد أصحابها، وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

---

(١)- رواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عمرو بن ميمون، رقم ١٩٢٥١.

ثم إن الوجه هو المرآة التي تنعكس عليها الحالة النفسية للإنسان كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين:٢٤).

وقال الشاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر

وصف الله تلك الوجوه الشقية بأوصاف مرهقة مشينة لهي: ﴿خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾. خاشعةٌ من الذلة والمهانة خوفا وانتظارا لما يستحقونه من الشقاء والعذاب. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: أي أنهم لم يعملوا ولم يتعبوا أنفسهم في طاعة الله وامتثال أوامره في الدنيا فجازاهم الله بالإرهاق في الأعمال الشاقة وهم مكبلون بالأغلال، أو أنها عملت وتعبت في دنياها لغير الله فزادها ذلك تعبا ورهقا في الحياة الباقية، إذ لم تجد إلا الخيبة والخسران، ومع ذلك التعب والإرهاق اللذين يتطلبان مزيدا من قوة الغذاء والشراب، ولكنهم لا يجدون منها إلا ما يضيف لهم عذابا ورهقا: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً، تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، وليت النار تلتهمهم فيستريحوا من العذاب ولكنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (طه:٧٤). وأية حياة يكون غذاؤها من ضريع، وهو المعروف بشوكة الشام وتعافه حتى الدواب، لما فيه من الإضرار بالصحة ويكون شرابها من المياه الحارة التي تقطع الأمعاء. وليت هذه الأوصاف تنطبق على ما تألفه في الدنيا، وهيهات بل إن ذلك مما يفوق تصورنا الدنيوي، إذ ليس من ذلك في الآخرة إلا الأسماء كما قال ابن عباس.

وفي المقابل يذكر الله فريق السعداء الأبرار فيقول: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ، لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ، فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾.

الوجوه الناعمة هي التي تنعم نفوسها بالطمأنينة والرضى مما يحيط بها من وسائل الرفاهية والنعيم الحسية. ويزيدها لذة ومتعة ذلك الإحساس بالرضى بأداء

واجبها الدّيني والإيماني يوم كانت في دنياها على محك التمحيص والاختبار، وهي تنعم بفيوض رضوان الله عليها، وذلك هي غاية السعادة الأبدية التي يجازى بها المتقون الأبرار، وهو تعالى يقول بعد وصف النعيم الحسيّ للجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢).

ثم يرسم الله هذه اللوحة الرائعة للجنة ونعيمها الحسّي بما هو المألوف من مشاهداتنا الدّنيوية لتقريب الصّورة من أذهاننا، وإلا فإنّ الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهؤلاء الأبرار السّعداء هم مقيمون في جنة عالية. ووصفها بالعلوّ يشمل كل مقاماته وأنواعه، فهو علوّ في المكان والدّرجات، وعلوّ في الشّأن والامتيازات، وعلوّ في رغد العيش وأطايب الحياة.

ومن كمال متعتها أنها خالية من أيّ لغو مما لا فائدة فيه من كلام وغيره مما يكدّر الصّفو ويثير المنغصات، ومن ثمّ فإنّ وسائل الزينة والمتاع متوفرة للمقيمين فيها إمتاعا ومؤانسة وهم جلوس على الأسّرة والأرائك بكل ما تتطلبه جلسات الأنس من شراب وأثاث فاخر، فالعيون جارية بأنواع الشّراب الحلال الطّيب الذي لا يضرّ جسما ولا يشوش عقلا، والنمارق الوثيرة والزرابيّ الجميلة مصفوفة وموزعة في شكل أنيق، إنها لوحة فنية رائعة من نعيم الجنة نسأل الله أن يجعلنا من أصحابها، والله أعلم.

الإنكار على المعرضين عن النظر في دلائل القدرة الإلهية، وتثبيت الرّسول في تذكيرهم.

أ)– النص:

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى
الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾: الاستفهام إنكاري، والضمير يعود إلى الكفار المعرضين، والمراد بالنظر ما يكون فيه التدبّر في دقائق المنظور إليه. ﴿الْإِبِلِ﴾: اسم جمع للبعران. ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾: ﴿كَيْفَ﴾: حال، والجملة بدل اشتمال من ﴿الْإِبِلِ﴾. ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾: أي هي بارزة راسخة. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾: أصل الصّاد سين، أي من السّيطرة، أي لست عليهم بمتسلط جبّار. ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾: الجملة في موضع نصب بالاستثناء وهو منقطع بحمل معنى الاستدراك. ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾: أي رجوعهم ليوم الحساب والجزاء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: قرأ الجمهور "بالصّاد"؛ لأنه يقال: صيطر وسيطر بالسّين. وقرأ هشام عن عامر: ﴿بِمُسَيْطِرٍ﴾ بالسّين، وقرأه حمزة بإشمام الصّاد صوت الزّاي. ﴿إِيَّابَهُمْ﴾: قرأه أبو جعفر بتشديد الياء؛ لأن أصله: فيعمل، من الأوب، فاجتمعت الواو والياء، ثم قلبت الواو ياء فقيل: "إيّاب"، أي الرّجوع إلى المكان الذي صدر منه.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّذكير بيوم القيامة وتصنيف النّاس إلى أهل السّعادة وأهل الشّقاء وهم المشركون بالله جاء الإنكار عليهم في إعراضهم عن النّظر الواعي في دلائل وحدانية الله وقدرته بما هو مشاهد في الأرض وفي السّماء. ثم فرع على ذلك أمره لرسوله بأن

يدوم على تذكيرهم بتلك الدّلائل ويحدد واجبه في ذلك وليس عليه بعد ذلك شيء لأن مرجعهم إلى الله فيجازيهم بما يستحقون.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

إعراض الأشقياء عن الإيمان بأحوال يوم القيامة يستدعي الإنكار عليهم والتوبيخ لإهمالهم النّظر والتّدبّر في ما حواليهم من السّماء والأرض لما فيه من دلالات على وحدانية الله وقدرته، ليستدلّ بهما على قدرته على البعث، وقد جمع الله في هذا المقطع مشاهد أربعة تمثل البيئة العربية مسترعية انتباه الذين خوطبوا بهذا القرآن أول مرة من أهل مكة ولو كان اللّفظ عاما لكل زمان ومكان، فبدأ الله بالإبل وهو اسم جمع للبعران، فقال تعالى:

أ)- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، والتعبير: بـ﴿كَيْفَ﴾ متكررة مع المشاهد الأربعة، وهي بمعنى الحال في كل منها للتنبيه إلى وجوب تدقيق النّظر في كلّ من تلك المشاهد الأربعة، فكل واحد منها له دلالته على قدرة الصّانع، لأن السّؤال: بـ﴿كَيْفَ﴾ يراد به التّدقيق العلميّ في معرفة حقائق الأشياء.

وخصّ الله بالذّكر من الحيوان الإبل لما تمتاز به من عجيب الشّكل والخصائص في خلقتها، ولكونها شديدة الاتصال والملازمة للمخاطبين، إذ هي كرائم أموالهم وعماد معيشتهم في الطّعام والشّراب واللّباس وفي الأسفار وركوب الأخطار، وأما عن خصائص خلقتها فلعلماء الأحياء حقائق عنها هي محلّ العجب، كلها أدلة قاطعة على قدرة الخالق وبديع صنعه، إذ ليس من العفوية في شيء أن يلزها الله تعالى في قرن واحد مع خلق السّماوات والأرض والجبال لولا ما فيها من عجائب وأسرار، ولم تقلّل الوسائل العصرية من فوائد الإبل سيما لسكان الفيافي والقفار.

ب)- ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾: وكم في القرآن الكريم من مشاهد

لوصف السماء كيف رفعها الله بغير عمد، فهي السقف المحفوظ الذي نعيش تحت قبته الزرقاء الجميلة نهارا ونقبع تحت خيمته السوداء ليلاً ونتملّى جمال نجومها وقمرها، ونترقب سحبها وما تدرّه علينا من أمطار، ولا تزال السماوات مجلى لعظمة الخالق يحاول علماء الكون أن يكشفوا كثيرا من أسرارها، والله يكشف للخلق من غيبه ما يشاء وهو القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

حـ)- ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾: إذ هي شامخة بارزة مرفوعة عن سطح الأرض، ترسي أديمها وتتعدد منافعها للخلق مساحات للغابات والأحراش، وينابيع لمياه الأنهار، وحواجز منيعة للرياح والعواصف، تقبع المدن تحت سفوحها وتبنى السكنات في أجوافها وتبنى الحصون والقلاع على أطرافها، وهي من الشموخ والعظمة ما يجعلها دليلا على عظمة خالقها، ولذلك جاء السؤال عن مصيرها في القرآن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (طه:١٠٥).

د)- ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾: وذلك على ما يراه الناظر ببصره المحدود، لعظم كتلتها بالنسبة إليه ولا يتعارض ذلك مع كرويتها التي أثبتها العلم؛ لأن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون، ويتدرج مع النظر البسيط فهي الأرض منبسطات مسطحة للزراعة وغيرها من مرافق الحضارة الإنسانية. فإذا كانت الصورة الفنية الرائعة تتطلب حسن التنسيق في ترتيب جزئيات المشهد ومراعاة التطابق والانسجام في ألوانه فإننا نلاحظ في هذا المشهد الطبيعيّ الذي لفت القرآن إليه الأنظار. نلاحظ ذلك التطابق والتكامل: الأرض والسماء، والجبال والحيوان، هو مشهد رائع يتملّى جماله كل واحد منا على بساطته الفطرية ونظرته الساذجة.

وبعد الحديث عن الغاشية في عالم الغيب، وعن المشهد الرائع للكون في عالم الشهادة يأتي التوجيه لرسول الله ومن خلال شخصه الكريم إلى كل داعية إلى الله بأمر الله بالدوام على التذكير ويحدّد مهمته في ذلك فيقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ،

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ، إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ، إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

بعد معالجة المشهدين من عالم الغيب وعالم الشهادة وفي كل منهما آيات وعبر ودلائل على عظمة الخالق وقدرته جاء التفريع عليهما لأمر الرّسول بالتذكير بصفة عامّة والمفعول يدلّ عليه قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾، أي ذكّر المعرضين عن التدبّر والاستماع لدعوة الحق لأنّ مهمتك هي التذكير فقط، ولا عليك إن هم أعرضوا، فقد بعثت لهذا الغرض، فداوم عليه بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ لا سلطان لك عليهم ولا إجبار حتى تحملهم على ما تريد، وفي الآية دليل على أن التذكير لجميع النّاس مطلوب في كل حالة ولا يقتصر على من تنفعه الذّكرى.

وليس المعرضون المتولّون عن التذكير بمتروكين إلى أغراضهم وأهوائهم ليكونوا عقبات في طريق الدّعوة، بل هم في قبضة الله يجازيهم بما يستحقون من العذاب في الدّنيا والآخرة، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، الاستثناء منقطع يأخذ معنى: لكن الاستدراكية. وقد تكررت مثل هذه التوجيهات لرسول الله ﷺ في القرآن وهو الحريص على القيام بمهمته الدّعوية والحريص على استجابة النّاس لها، ومن شأن ذلك التكرار أن يخفف عن كاهله أو زارا ثقيلة ترهقه، ولله وحده مصائر خلقه يفعل بهم ما يشاء، وهذا ما تؤكده خاتمة السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾. ووصفه تعالى للعذاب الأخروي بالأكبر يعني أنهم غير منفلتين من الكثير في الدّنيا مما ينالهم من الشّدائد والمصائب، والواقع التّاريخي شاهد على ذلك، كما أن الدّعوة السّلمية بالتّذكير والإقناع لا تعني ترك الطّغاة المتجبرين يضعون العراقيل والمثبطات على طريق الدّعوة ويضطهدون المؤمنين بها، بل لا بد من ردّ شرورهم ومكائدهم بالوسائل الممكنة، وذلك للجمع بين مثل هذه الإرشادات وآيات الجهاد.

والله أعلم.

سورة الفجر مكيّة، وآياتها ٣٠

– بين يدي السّورة الكريمة:

سميت سورة "الفجر" بدون واو في كل من المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير، وهي مكيّة، وآياتها ثلاثون آية، وتعدّ العاشرة في ترتيب نزول سور القرآن، والتاسعة والثمانين في ترتيب سور المصحف الشريف.

افتتحت بالقسم ببعض الظّواهر الكونية للتنبيه أن الكون من الإتقان والاطّراد، بحيث يدلّ على عظمة الخالق مما يجعل صاحب العقل يراها جديرة بأن يقسم بها، ثم تعالج السّورة ثلاثة عناصر أساسية للبيان والإقناع في تركيز أسس العقيدة الإسلامية.

أ)– التذكير بما حلّ باطّراد على أقوام طغوا وتجبّروا وكذبوا برسلهم وكيف أن الله كان لهم بالمرصاد.

ب)– بيان سنة الله في ابتلاء عباده بالخير والشّرّ في الدنيا وبالغنى والفقر، وكيف يواجه الإنسان ذلك بالرّضى أو الكراهية، إذ يغلب عليه حبّ المال.

جـ)– ذكر الآخرة وشدائدها وانقسام النّاس فيها إلى سعداء وأشقياء مع بيان مآل كل فريق منها، عذاب وشقاوة وندم، أو سعادة ورضى واطمئنان.

إنّ ربّك لبالمرصاد لتعذيب الكفّار في الدّنيا والآخرة.

أ)– النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ
عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ

ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾
فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: قسم بظواهر كونية، ﴿وَالْفَجْرِ﴾: هو وقت انبثاق النور في أفق الشرق وهو طلائع لضياء الشمس. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: حذفت من: ﴿لَيَالٍ﴾ الياء. وجيء بالتنوين عوضا عنها، وهي ليال مباركات اختلف المفسرون في تحديدها. ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: أي الزوج والفرد من كل الأشياء. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾: أي يمضي سائرا في الظلام، حذفت ياء: ﴿يَسْرِ﴾ لأنها رأس الآية، فيه استعارة السير لليل بتشبيهه بالإنسان الساري بالليل. ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾: الاستفهام تقريري. والحجر: العقل، وتنكير: ﴿قَسَمٌ﴾: للتعظيم، أي هل في المقسمات بها مقنع لذي عقل، ويكون جواب القسم على الأرجح مقدرا بـ"ليعذبن"، يدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: الاستفهام تقريري أيضا، ﴿إِرَمَ﴾: مجرور على البدلية وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. اسم لقبيلة: "عادا الأولى". ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: أي البناء الشامخ. ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي﴾: ﴿ثَمُودَ﴾: مجرور ممنوع من الصرف، وهم قوم صالح في شمال الجزيرة أي قطعوا الصخور واتخذوا من الجبال بيوتا. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾: أي ﴿فِرْعَوْنَ﴾: حاكم مصر في عهد موسى و﴿الْأَوْتَادِ﴾: لعل المراد بها هي الأهرام التي خلفها الفراعنة، أو هي رمز للقوة والبطش. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: من إضافة الصفة إلى الموصوف، والسوط الجلد الذي يضرب به، ووجه الشبه: سرعة الإصابة وشدتها، كما أن الصب يدلّ على الغمر والإحاطة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾: هو المكان الذي يراقب منه، تمثيل لإحاطة علمه تعالى بأفعال عباده.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَالْوَتْرِ﴾: قرأ الجمهور بفتح الواو، وهو لغة قريش وأهل الحجاز. وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿الْوِتْرِ﴾ بكسر الواو، وهي لغة تميم وبكر. ﴿إِذَا يَسْرِي﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بياء بعد الراء في الوصل على الأصل، ويحذفها في الوقف مراعاة لبقية الفواصل. وقرأ الباقون: ﴿يَسْرِ﴾ بدون ياء وصلا ووقفا. ﴿بِالْوَادِ﴾: قرأ الجمهور بدون ياء، وقرأه ابن كثير ويعقوب بياء بآخره وصلا ووقفا، وقرأه ورش عن نافع بياء في الوصل وبدونها في الوقف.

د)- البيان والتّفسير:

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾: أقسم الله في مفتتح السّورة بأزمنة خاصّة هي أوّلا مجلى لعظمة الله وقدرته وبديع صنعه، فالفجر يجمع بين ضياء النّهار وظلمة اللّيل، وهذا يتمحّض للظلمة وكل منهما ظروف زمنية لأنواع من العبادات لها ميزها وفضلها عند الله بما يتحقق فيها من الهدوء والخشوع يقول الله عنها: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨-٧٩).

وقد حاول المفسّرون أن يحدّدوا المقصود لكل من الفجر واللّيالي العشر والليل وكذا المقصود من الشّفع والوتر، فلم يجدوا من السّنة ما يعتمدون عليه في ذلك إلا باللجوء إلى الاجتهاد والتّأويل، فإذا كان المقصود من القسم هو تحقيق المقسم عليه وتأكيده، فإننا نجد في مجموع الآيات الواقعة بعده والتي تدلّ على جواب القسم، نجد ...ر الله بإهلاك بعض الأمم السّابقة لفسادها وطغيانها وتكذيب رسلها، والكلام

البليغ لا يغفل عن إيجاد المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، ولم يكد المفسرون قديمًا وحديثًا يتعرضون إلى ذلك، وأغلبهم اكتفى بذكر بعض العبادات أو المناسبات الموقوتة في تلك الأزمنة.

وقد قرأت للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر) عند تفسيره لهذه السورة الكريمة، وجدت له ملحظًا دقيقًا في إيجاد المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، إذ قال ما ملخصه:

أ)- في ذكر القسم بـ﴿وَالْفَجْرِ﴾: لقد أهلك الله ثمودا بالصيحة مصبحين -أي عند الفجر- كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر:٨٣-٨٤). وكما قال عن إهلاك قوم لوط: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (الحجر:٦٦).

قلت: إنّ من المخطّطات الحربية قديمًا وحديثًا أن يغار على أهداف العدو في وقت الفجر، قال تعالى في هذا الشأن: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (العاديات:١-٥).

ب)- ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: والشفع: هو الزوج من كل شيء، والوتر: الفرد ومن الصلاة الشفع والوتر، وقال المفسرون كل الخلائق شفع: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩)، والله وحده الفرد الصمد.

ويقول الأستاذ عبد الرحمن حسن: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (الحاقة:٦-٧)، ثم قال: لقد كان إهلاك كفار عاد في ثمانية أيام شفع، وسبع ليال وتر، ولا بد أن تكون قد بدأت مع فجر اليوم الأول وانتهت مع غروب شمس اليوم الثامن منها، فتكون الليالي بينها سبعًا.

جـ)- ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: قال المفسرون: إنها العشر الأوائل من ذي الحجة، وقيل هي العشر الأواخر من رمضان. وقال البعض: هي العشر الأوائل من محرم، وهذا ما رجحه الأستاذ عبد الرحمن إذ قال: "سار بنو إسرائيل في ليال عشر من أول المحرم فارّين من فرعون وجنوده واتجهوا شطر البحر الأحمر فلحق بهم فرعون حتى تراءى الجمعان مشرقين، وفي اليوم التاسع كادت تحدث المواجهة، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فانفلق إلى شقين فعبر موسى وقومه البحر في طريق يبس فلحقهم فرعون وجنوده. وحين خرج موسى وقومه إلى الضفة الأخرى أطبق الموج على فرعون وجنوده في اليوم العاشر -أي عاشوراء- وهو يوم الإنقاذ لموسى وقومه".

د)- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾: أي يمضي ويزول شيئا فشيئا. يقول الأستاذ: "وهو الوقت المختار لإنزال بأس الله في الذين يقضي بإهلاكهم من أمم الكفر يقول تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (الأعراف:٤)، ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (الأعراف:٩٧)". انتهى قول الأستاذ بتصرف.[1]

قلت: إذا كانت النكت لا تتزاحم كما يقول البلغاء، فإني من خلال التعبير بـ﴿إِذَا﴾ الذي هو ظرف للزمان المستقبل سيما وجاءت بعده صيغة المضارع، لعل في ذلك إشارة إلى ليلة الإسراء كما قدرها الله في علمه إذ كانت أعظم منة لرسول الله في تثبيت قلبه الشريف.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، والحجر هو العقل؛ لأنه يحجر صاحبه عن أهوائه ونزواته، فالاستفهام تقريري لحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بما يجب أن يعلمه من موضوع المقسمات بها.

(١)- معارج التفكر ودقائق التدبر: ١/ ٥١٨-٥٢٣.

وأما المقسم عليه فهو مفهوم من سياق ما أخبر الله به من أهلاك أولئك الأقوام الطاغين ليفصح به في التذييل عليها بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾**.

الخطاب ابتداء لرسول الله ولكل من يتلو القرآن ويتدبره، وفيه تثبيت للرسول وتهديد لكفار قريش ومن هم على شاكلتهم بأن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الأقوام بدءا بقوم عاد، و﴿إِرَمَ﴾: هو جدّهم الأعلى: إرم بن سام بن نوح. ووصفه بذات العماد كناية عن قوتهم وبطشهم كما وصفهم الله في آيات أخرى بأنهم إذا بطشوا بطشوا جبارين. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ لما شيدوه من القلاع والحصون لقوله تعالى على لسان رسولهم هود ﷺ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٢٩). وأما ثمود فهم قوم صالح ﷺ سكنوا بالحجر في شمال الجزيرة وهم من بقايا من آمن بهود ﷺ نزحوا من الأحقاف إلى تخوم الشام فكانوا ينحتون من الجبال بيوتا احتياطا من الريح الصرصر التي أهلكت أجدادهم فأخذتهم الصيحة.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾: إما كناية عن قصورهم وقوتهم، أو كناية عما خلفوه من الأهرامات الضخمة التي تشبه الأوتاد المقلوبة المركزة على الأرض على مرّ الدهور، وقد وصفهم الله بالطغيان والفساد فقال: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾، وقد فصّل القرآن ذلك الفساد سيما ما سلطوه على بني إسرائيل من القهر والعذاب حتى أنقذهم الله بموسى ﷺ فكان هلاك فرعون وجنوده غرقا في البحر.

وقد رمز الله إلى ذلك بقول: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾، وفي التعقيب بأي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، والإظهار في مقام الإضمار وباختيار الإضافة التشريفية إلى كلمة: "الرّب" فيه التأكيد على إحاطة علم الله بأفعال خلقه بحيث لا يفلتهم من عذابه وأنه من شأنه أن ينتصر لأوليائه، ولا يخفى ما في ذلك من تطمين رسول الله وتهديد للمشركين، والله أعلم.

عاقبة المتمادي في طلب الدّنيا، ومآل المترفع عنها يوم القيامة.

أ)- النص:

فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل
لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ
أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ
رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ
وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ
أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾: ﴿أَمَّا﴾: تفصيلية وفيها معنى الشرط. ﴿الْإِنسَانُ﴾: مبتدأ، خبره: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾،

﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾: أي ضيّقه عليه. نجد المقابلة بين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و﴿أَهَانَنِ﴾. وعبّر عن كلّ منهما بالابتلاء أي الاختبار والامتحان، مصداقا لقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥). وهذا توهّم خاطئ في تقدير الإنسان. ردّ الله عليه بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: ﴿كَلَّا﴾: أداة ردع وزجر، الإكرام: يتمّ حسّيا بكفالة ضروراته ومعنويا برفع مكانته عند الناس. ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾: أي لا تحثون الناس على إطعام المسكين. ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: ﴿التُّرَاثَ﴾: ما تركه الميت من أشياء مادية أو معنوية. ﴿أَكْلًا﴾: منصوب بالمفعولية المطلقة، واللّمّ: هو الجمع المستغرق الشديد، والجمّ: أي الكثير. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾: بمعنى من أين تأتيه الذكرى؟ والمراد بالإنسان الكافر، والاستفهام للإنكار والنفي. ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: المفعول محذوف بمعنى قدمت الخير والإيمان. ﴿لِحَيَاتِي﴾: إمّا حياتي الدنيوية أو الحياة الأخروية إذا اعتبرنا اللام للتعليل. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾: ﴿عَذَابَهُ﴾: مفعول مطلق، والضمير عائد إلى الإنسان، أي يعذّب عذابا هو أشدّ ما يعذّب به العصاة. ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾: أي في زمرة عبادي الصالحين، والضمير يعود إلى النفس المطمئنة بالإيمان واليقين والرّضى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَكْرَمَنِ﴾: ﴿فَقَدَرَ﴾: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿رَبِّيَ﴾ في الموضعين بفتح الياء، وقرأ الباقون بسكونها. ﴿فَقَدَرَ﴾: قرأ الجمهور بتخفيف الدّال، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر بتشديدها. ﴿أَكْرَمَنِ﴾: ﴿أَهَانَنِ﴾: قرأ نافع بياء بعد النون في الوصل وحذفها في الوقف، وقرأهما ابن كثير بالياء في الوصل والوقف، وقرأهما ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بدون ياء في الوصل والوقف. ﴿لَا تُكْرِمُونَ﴾، ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾، ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾، ﴿وَتُحِبُّونَ﴾: قرأ الجمهور بالمثناة الفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات، وقرأها أبو عمرو ويعقوب بالمثناة التحتية

على الغيبة لتعريف النبي والمسلمين بذلك، وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَحُضُّونَ﴾ بضمّ الحاء، مضارع حضّ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ بفتح الحاء وألف بعدها، مضارع: حاضّ بعضهم بعضا، وأصله تتحاضون: حذفت إحدى التاءات. ﴿يُعَذِّبُ﴾: قرأ الجمهور بكسر الذّال، ﴿يُوثِقُ﴾ بكسر الثاء. و﴿أَحَدٌ﴾ في الموضعين فاعل، وقرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذّال والثاء بالبناء للنائب.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إقرار عدل الله في رصده لأعمال خلقه ومجازاتهم بما يستحقونه عقب الله على ذلك بتوبيخ الإنسان وبيان خطئه في تقييمه لقضية توزيع الرّزق على عباده بين بسط وتضييق، ثم زجر النّاس عن تقصيرهم في البرّ والإحسان إلى اليتامى والمعوزين لشرههم في حبّ المال وإيثار زينة الدّنيا، فأخبرهم عن أهوال يوم القيامة وكيف يندم المقصّر على ما فرط منه في الدّنيا بينما ينعم المخلص الوفيّ بالطّمأنينة والرّضى ويسعد في الجنة بجوار الصّالحين المنعمين، قال تعالى: **﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ، كَلَّا﴾**.

التفريع بالفاء يدلّ على أن ما قبلها متصل بما بعدها اتصالا وثيقا، ذلك أن الله تعالى قد أنعم على تلك الأمم التي أهلكها فاغترّوا بها إلى حدّ الكفر والطّغيان مفتونين بقوّتهم وعظمتهم. ثم ذكر الله كيف كانت عاقبتهم، عسى المتأخرون يستخلصون من ذلك العبرة إذ هم مماثلون لهم في الغرور وسوء التّقدير بتوهّم أن الله جعلهم محلّ كرامته وحبّه بإغداقه تلك النّعم عليهم، وهكذا يخطئ الإنسان عندما يظن أن سعة الرّزق من الله هو دليل المحبّة والإكرام من عنده. والعكس في الذي يضيق عليه بأن ذلك إهانة له وحطّ من كرامته، حتى قال قائلهم:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الإفهام حائرة وصيرّ العالم النحرير زنديقا

ولكن لا حيرة مع الله في ما يقدّره ويدبّره في شؤون عباده فهو أعلم بمن خلق فيعطي لكل مخلوق ما يناسبه وإن غابت حكمة ذلك عن النّاس إلى درجة الافتيات على الله مما أوقع الكثير في الضّلال والهلاك كما أشار إلى ذلك الشاعر. والتعبير بالابتلاء في كل من التوسعة والتّضييق وفي المنع والعطاء يجلي ذلك الالتباس إذ يبيّن المقصد في الحالتين، والإيمان الرّاسخ بقضاء الله وقدره هو الذي يوضّح للمؤمن حقيقة القيم في ميزان الله فيصرف ما وراء ذلك الابتلاء من الجزاء، وأن الكرامة عند الله هي للمتقي الطائع: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣). والخزي والإهانة عنده هي للعاصي الفاسق: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (النحل:٢٧).

وبعد بيان ذلك الخطأ في الحالتين جاء هذا الرّدع بأسلوب الخطاب فقال:
﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾:

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي ليس الأمر كما زعم الإنسان في الحالتين السابقتين، سيما وللمخاطبون من أهل مكة كانوا مثالا لذلك الجشع والشّره في حبّ المال وتأثله بكل الوسائل، وكانوا قساة القلوب في معاملة اليتامى والمستضعفين، وإن كان الخطاب لعموم البشر، فإنه تعالى بذلك الرّدع الشّديد يضع النّاس أمام مسؤوليتهم الاجتماعية في كل زمان ومكان إذ يبيّن الله قبح تصرفاتهم وفساد معاملاتهم إزاء اليتامى إذ لا يكرمونهم ولا يحنون إليهم ولا يحرّض بعضهم بعضا على إطعام المسكين الذي لا يسأل النّاس حياء وتعففا.

وما أروع اختيار فعل الإكرام لليتامى إذ قد يكون غنيا من النّاحية المادية فيكون بحاجة إلى مراعاة كرامته من النّاحية النّفسية وإن كان فقيرا فهو في عداد

المساكين الذين حرّض الله على إطعامهم تحقيقا للتكافل الاجتماعي الذي قامت عليه العدالة الإسلامية.

ثم ذمّهم الله بشدة على تكالبهم على المال فذكر من أعظم وسائله الإرث إذ قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، وصيغة المضارع لإرادة التجدّد والاستمرار، فهم لا يتحرّون لقمة الحلال في الاكتفاء بحقهم المشروع في الإرث، بل يلتهمون نصيب غيرهم مما هو حق اليتامى والنساء يدفعهم إلى ذلك حبّهم الشديد للمال والمغالاة في حبّ الدّنيا.

﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾:

بعد فضح الواقع الاجتماعي المزري والإنكار على المشركين وعلى كل خطأ في تصوّر حقيقة الابتلاء بالخير والشرّ، يجيء هذا التهديد الرهيب بيوم الحساب والجزاء، يوم لا ينفع فيه الندم ولا الأماني الكاذبة فقال تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ ردعا وردّا لتلك المفاهيم الخاطئة ولتلك الأوضاع الغالبة على حياتكم الدنيوية إذ أن أمامكم أهوالا شديدة بين يديّ قيام الساعة، يوم تدك الأرض دكّا ليستوي أديمها لموقف المحشر، وتكرار المصدر: ﴿دَكًّا﴾ هو لإفادة التتابع في تلك العملية المهولة، فلا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾، لأن المعهود في الزلازل الكبرى أن تحدث بعد الهزة الكبرى المدمّرة هزات ارتدادية أخرى لتلك الفراغات الناجمة عن التدمير الكبير الأول، أما مجيء الرب والملائكة فالله أعلم بكيفيته لأنه تعالى يجلّ عن التحيّز والانتقال، فالتعبير كناية عن أمر الله ببدء الحساب وفصل القضاء، وملائكة الله حاضرة في صفوف منتظمة لتأطير الخلائق وضبطها، وأما مجيء جهنم فهو عبارة عن بروزها لمشاهدتها وكشفها للناظرين كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ (النازعات:٣٦). يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له

الذكرى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي يتذكر الغافل عن حكمة ربّه والمتهاون في أداء حقّه عليه من الإيمان والطّاعة وحسن الانقياد والمقصّر في الوفاء بحقوق خالقه وفق ما شرعه من الأحكام، مثل هذا الإنسان المخذول في ذلك الموقف يتذكّر ويتعظ بما يرى من الشّدائد والأهوال ولكن لا ينفعه ذلك فلات ساعة ندم وتحسّر، وقد انتهت فترة العمل في الحياة الدّنيا كما انتهت فرصة التّوبة بالغرغرة، ولا تنفعه الأماني الكاذبة حين يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي قدمت العمل الصّالح لحياتي الحقيقية، الحياة الباقية، فماذا بعد الحسرة والتّمنيات الكاذبة غير العذاب المنتظر.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾: إنه عذاب الله العزيز الجبّار لا يوازيه عذاب الطغاة في الدّنيا، وإنه وثاقه المحكم بأغلال وسلاسل جهنم كما تفصلها مشاهد أخرى في القرآن الكريم، وفي هذا التّهديد إيناس وتثبيت للرسول والمؤمنين.

وفي ذلك الموقف الرّهيب والتّهديد الرّعيب ينعم المتقون الأبرار بالأمن والطّمأنينة، فينادون نداء التّكريم من قبل الله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾.

إنها البشارة العلوية النّديّة للتّأنيس والتّكريم، وخطاب النّفس في ذات الكائن الحيّ لأنها تمثل حقيقة تلك الذّات في كل خصائصها الإنسانية وتوقّد أعماقها وتعكس أحاسيسها ومشاعرها فهي النّفحة من روح الله حلّت بالجسد الفاني ليصبح مؤهلا للتّكليف والاختبار قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٧-٨).

فالتّقوى وخشية الله إذا تشبعت بهما النّفس المؤمنة فإنّ نتيجة ذلك أن يمتعها الله بالاطمئنان والسّكينة والرّضى، فلا خوف ولا قلق عند الفزع الأكبر، لأنها قد تزودت في رحلتها الدّنيوية بما يوفّر لها تلك الطّاقة الرّوحية التي تطمئن بها عند الموت

وفي كل مرحلة من مراحل اليوم الآخر حتى دخول الجنة.

وفي اختيار صيغة التكلم في قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ نقطع النظر عن القائل مباشرة من الله أو بواسطة ملك، **فهو** غاية في التكريم الروحي دونه لذة النعيم الحسي: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

وأي نعيم هو أروح للنفس من صحبة الأبرار ومرافقتهم في جنة تجري من تحتها الأنهار، اللّهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

والله أعلم

سورة البلد مكيّة، وآياتها ٢٠

- بين يدي السّورة الكريمة:

سميت في المصاحف وكتب التفسير "سورة البلد" لافتتاحيتها بقسم الله بالبلد الحرام "مكة المكرمة"، وقد يقال: "سورة لا أقسم"، وهي مكيّة وآياتها عشرون آية. وتعدّ الخامسة والثلاثين في ترتيب نزول السّور، والتسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف. واشتملت السّورة على محورين أساسين، بعد الافتتاحية التي نوهت بمكة إذ هي بلد النبي ﷺ تكريما وتعظيما له كما نوهت بشأن أسلافه فيها من عهد إبراهيم وإسماعيل.

أ)- ذمّ أهل الشّرك لإنكارهم البعث واغترارهم بقوتهم وأموالهم، ثم هداهم إلى "اقتحام عقبة الآخرة بإنفاقهم في سبل الخير من عتق الرّقاب وإطعام المساكين.

ب)- بيان أهوال يوم القيامة وأن طرق النّجاة منها هو الإيمان والعمل الصّالح.

وختمت بذكر وعيد الكفار وبشارة المؤمنين.

ابتلاء الإنسان، واغترّاره بماله، وبيان نعم الله عليه، وطرق نجاته في الآخرة.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا
الْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ
④ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ⑥ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ

أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾
فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى
مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ
أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: اللام زائدة لتأكيد القسم وقد تقدمت تخريجات اللغويين لمثل هذا التعبير، ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: والبلد مكة المكرمة وهو بدل لـ"هذا" في موقع جرّ. ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: جملة معترضة في موقع الحال، و﴿حِلٌّۢ﴾: بمعنى حالّ مقيم وبمعنى حلال، وعلى المعنى الثاني أي جعلك أهل مكة حلالاً، بإذايتك وقتلك في بلد حرام. ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾: الوالد: أي الذي يلد، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾: هو المولود بصفة عامة، والتنكير للتعظيم، وقد خصّه البعض بسيّدنا إبراهيم وما ولد من الذّرية كإسماعيل وهو جدّ العرب. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾: جملة المقسم عليه، وأل للجنس، فالإنسان يكابد المتاعب والشّدائد في حياته من ولادته إلى وفاته قال المعرّي:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾: لُبَد جمع لُبدة، وهي ما تجتمع من صوف أو شعر، ومنها لبدة الأسد حول عنقه. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ. الهداية: الدّلالة على الطريق المبلغة للقصد، وأصل النّجد الأرض المرتفعة دون ارتفاع الجبل، واستعير هنا للخير والشرّ. ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: منصوب مفعولا ثانيا لـ"الهدى". ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾: الاقتحام: الدّخول العسير في مكان أو جماعة.

و﴿الْعَقَبَةَ﴾: الطريق الوعر في الجبل. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي تحرير العبد وإطلاق الأسير من أسره. ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾: المسغبة: المجاعة مع المعاناة والتعب. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: من ترب الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾: مغلقة الأبواب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، ﴿أَوْ إِطْعَامٌ﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف برفع ﴿فَكُّ﴾ وإضافته إلى ﴿رَقَبَةٍ﴾، ورفع ﴿إِطْعَامٌ﴾ عطفا على: ﴿فَكُّ﴾. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الكاف على صيغة فعل الماضي، ونصب: ﴿رَقَبَةً﴾ على المفعول لفعل: ﴿فَكَّ﴾، وكذا: "أطعم"، بدون ألف بعد عين: ﴿أَطْعَمَ﴾، على أنه فعل ماض عطفا على: ﴿فَكَّ﴾.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾: أقسم الله بالبلد الحرام، وهو مكة المكرمة تعظيما لشأنها، إذ سبق بلفظ الإشارة: ﴿بِهَذَا﴾، كما كرره في الجملة الثانية لتمييزه عن سائر البلاد الأخرى؛ لأنها تحتضن أول بيت وضع للناس في الأرض، وجعله مثابة للناس وأمنا، وجعلها مهبط رسالته الخاتمة وخاصة رسوله الكريم.

فقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ خطاب للرسول، والجملة في موقع الحال من الجملة الأولى، وقد اختلف المفسرون في تحديد معنى كلمة: ﴿حِلٌّ﴾ بمعنى الحلول والإقامة مما يزيد هذا البلد تشريفا وتعظيما، وذلك على غرار قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال:٣٣).

ولكن الآخرين يرون أن لفظ: ﴿حِلٌّ﴾ هو بمعنى الحلال، أي أن الكفار لم

يراعوا حرمة البيت كما قضى الله بذلك، إذ اعتبروا إذاية الرسول بل حتى قتله حلالا طيبا، غير أن مكة عظيمة القدر في كل حالة وإن خالف المشركون معتقدهم في حرمتها كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة:١٢٥)، وقال: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران:٩٧).

ولعل قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يرشح ما ذهب إليه بعض المفسرين بأن المقصود منهما سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليه السلام هو الجد الأعلى للعرب، وذلك مما يعضد شرف البيت وحرمته، والبعض يرى أن المراد بهما هو آدم وذريته، غير أن المحققين لا يرون التحديد بل يختارون أن يبقى اللفظان على إطلاقهما ليشمل كل والد وما ولد من إنسان أو حيوان لأن ذلك أدل على قدرة الله، وحكمته في تسخير التوالد والتناسل. ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، والكبد الشدة والمعاناة.

إن الكبد والتعب من طبيعة الحياة في كل مراحلها بالنسبة للكائن الحي منذ أن يخلق جنينا في بطن أمه، ناهيك مخاض الولادة وصرخة الوليد لبدء دورة الحياة في أجهزة جسمه وبخاصة الإنسان –وهو الكائن الممتاز– كيف يعاني والداه من متاعب تربيته رضيعا وصبيا وغلاما مراهقا حتى إذا بلغ أشده وتحمل مسؤوليته واجهته مشاكل الحياة في شتى مجالاتها وإذا قدر له أن يعمر ناوشته تداعيات الشيخوخة والهرم، فكيف به إذا خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وطلب الجنة وغالب وعورة مسلكيهما فلا يقر له قرار إلا في جوار ربه إذا كان من السعداء وليس بمستريح إذا كان من الأشقياء يقول الشاعر:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

هي الدار ما الآمال إلا ودائع وما اللذات إلا متاعب

وليت الإنسان يستصحب في مجرى حياته هذه الحقيقة، ولكنه مفتون بقوته

وماله مغرور بدعاويه المفرطة قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا، أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ، أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

تناولت هذه الآيات بيان طبيعة الإنسان، والحكم في ذلك على المجموع لا على الجميع، وجيء بالاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ لأن الاغترار بالقوة ومن أحسن الدوافع إلى ذلك الغرور بالمال وإنفاقه في إرادة تعزيز الجانب بكثرة الأتباع، أو إنفاقه في إرضاء الشهوات وإشباع النزوات كما قال طرفة بن العبد وعنترة وكلاهما يمثل سفاهة الجاهلية وحماقتها فيقول طرفة:

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنني أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ويقول عنترة:

فإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقد روي في أسباب النزول: أنّ الآية نزلت في أبي الأشدّ بن كلدة الجمحي: أنه كان مغترا بقوته البدنية، قال ابن عباس: كان أبو الأشدّ يقول: أنفقت في عداوة محمد مالا كثيرا، وهو في ذلك كاذب. والتعبير بفعل: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ يعكس مدى طغيان صاحب المال بوفرة ماله بحيث أنه لا يبالي بذلك القدر الذي أنفقه لطلب الشهرة والسمعة أو لطلب اللذة والمتعة، ويعتقد هؤلاء أنهم في حلّ من أمرهم ليس عليهم رقيب ولا حسيب، وأما ما جمعوه من تلك الأموال كان بفضل ما اكتسبوه من علم وحيلة وينسون فضل المنعم وأنه عليم بما يفعلون ومحاسبهم على ما يقترفون، فردّ الله على ذلك الزعم الخاطئ بهذا الاستفهام الإنكاري مرة أخرى فقال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

ثم يجابه تعالى بهذا التذكير بحقيقة نفسه وكيف يمكن أن يكون لولا أنه تعالى أنعم عليه بما جعله بشرا سويًا بما أفاض عليه من نعمه في تكوينه الخاص وبما زوّده به من قدرات في خصائص طبعته، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾، والاستفهام تقريري يذكّر به الله ذلك المغرور بقوته وماله بنعمتي الإبصار والنطق كيف منحه الله حواسّهما في صنع محكم ودقة متناهية لينتفع بهما في عالمه المشاهد ويمتاز بقدرة النّطق دون المخلوقات الأخرى حتى وصفه العلماء بالحيوان الناطق.

ثم منحه القدرة على التّمييز بين الخير والشّرّ وبين الحق والباطل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، فهو بقوة إدراكه وبما أودعه الله في فطرته يستطيع التوصّل إلى معرفة غاية خلقته من معرفة الله وعبادته، والتعبير بـ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ يدلّ على أنه تعالى قد استنفد وسائل الهداية لهذا الإنسان للتمييز بين الخير والشّرّ سواء بما زوّده به من وسائل الإدراك أو بما أنزل إليه من وحي السّماء بواسطة رسله، فالإنسان بذلك مزدوج الاستعداد في ما يختاره وهو مرهون باختياره ذلك يوم يقوم الحساب.

ولذلك بيّن الله له الطّريق الأفضل الذي يضمن له السّعادة الأبدية فقال تعالى: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾.

وبما أن انحراف الإنسان المغرور كان من قبل وفرة ماله وكيفية إنفاقه فإنه تعالى صوّر طريق النجاة الأبدية بـ﴿الْعَقَبَةَ﴾، وهي الطّريق الوعر الصّاعد، والذي يستدعي قوة وجهدا لاجتيازه. وهو معنى الاقتحام الذي ينسجم مع مضمون الجملة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، لأن طريق الجنة محفوفة بالمكاره، لما على الإنسان الموفق المؤمن إلا أن يخترق موانع تلك الطّريق بكبت جماح نفسه ووساوس الشّيطان، ويحمل نفسه على طاعة الله ببذل ما تفضل عليه من أموال في ما أرشده الله إليه بعد هذا الاستفهام التعظيمي بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾، أي شيء أعلمك باقتحام

العقبة .

ثم أرشدنا إلى الوسيلة الأمثل لاقتحامها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، فرق الفقهاء بين فك الرقبة وعتقها، فقالوا: فك الرقبة هو المشاركة في عتقها والعتق هو التفرّد بذلك.

وفي توجيه الإنفاق إلى هذا المجال الاجتماعي في كثير من السور المكية يعكس الوضع المتردّي في المجتمع الجاهلي بما كان يعانيه المستضعفون من أنواع الذلّة والحرمان سيما أصحاب رسول الله ﷺ وقد خصّ الله بالذكر أشدّ الناس حاجة إلى المعونة فقال:

أ)- ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: المشاركة في فك أسار الرقيق هو أقلّ ما يطلبه من صاحب المال، والعتق الكامل هو أشدّ مكرمة عند الله، ويبدو أن البدء بها هو دليل على أفضليتها عند الله لما لحرية الإنسان من قيمة وقدر في الإسلام.

وفي الانفاق لسدّ حاجات المعوزين قدّم اليتيم القريب فقال:

ب)- ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: وفي أيام المجاعة تعظم قيمة الإنفاق على الإطعام نظرا لشحّ النفس بالمال في تلك الوضعية والإطعام لليتيم القريب هو صدقة وقربى.

جـ)- ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: يقول ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء.

ولئن كان الفقر من ألدّ أعداء الإنسان وأشدّها ضرّا بحياته، فإن الكفر هو الداء العضال الذي يفتك بالخلق ويقطع الأوصال، ولذلك رسم الله الإطار الذي يؤمّن للخلق الحياة الطيبة بالطمأنينة والاستقرار فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: تأخذ معنى التراخي المعنوي لرسم ما هو أشمل وأوسع من تلك الأفعال الخيرية المتقدمة إذ لا يكون لها وزن عند الله إلا بالإيمان بكلّ مقوماته العقدية ومجالاته العملية التطبيقية بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وذلك ما يقتضي من المجتمع المؤمن التواصي بالصّبر لأنه العدّة المطلوبة للقيام بتلك التكاليف. ويقتضي التواصي بالمرحمة لأنها العاطفة النّفسية التي تنشر الرّأفة والشّفقة في التعايش الاجتماعي، وتنعش القيَم الإنسانية في التعامل اليومي، وكم من أحاديث صحت عن رسول الله في التحريض على التراحم، وهو القدوة الصّالحة لذلك.

وفي مقابل هذا الصّنف المختار من السّعداء الأبرار يأتي الصّنف المضادّ من الطّغاة الكفار مع ذكر مصيرهم المشؤوم: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ**﴾.

والآيات المضافة إلى الله إضافة تشريفية تشمل الآيات الصّامتة التي تدلّ على قدرة الله في الأنفس والآفاق والتي تتطلب التأمل الواعي، وتشمل الآيات النّاطقة من إرشادات القرآن الكريم، والكفار معرضون عنها عنادا واستكبارا، فليس لهم رادع من عقل ولا دين، وليس لهم في الحياة الأبدية إلا عذاب الجحيم تطبق عليهم النّيران فلا يجدون منها مخرجا وساءت مرفقا.

والله أعلم.

سورة الشمس مكيّة، وآياتها ١٥

- بين يدي السّورة الكريمة:

سميت في المصاحف وفي أغلب كتب التفسير "سورة الشّمس" للقسم بها في مفتتحها، وقد يترجم لها في بعض كتب الحديث بسورة: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، لئلا تلتبس مع سورة: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١). وهي مكيّة اتفاقا، وآياتها خمس عشرة آية، وتعدّ السّادسة والعشرين في ترتيب نزول السّور، والحادية والتّسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وتناولت السّورة محورين:

أ)- ما جبل الله عليه النّفس الإنسانية من الخير والشّرّ ومن الهدى والضّلال، فأقسم بأشياء عظيمة هي ظواهر كونية ذات تأثير في حياة الإنسان، أقسم بها ليؤكد على فلاح الإنسان ونجاحه إذا زكّى نفسه بتقوى الله، وعلى خيبته وشقائه إذا طغى وتمرّد.

ب)- التّنديد بالطغيان وبيان عاقبته ممثلا في ثمود الذين تحدّوا رسولهم فعقروا النّاقة فدمّرهم الله وأهلكهم.

جزاء إصلاح النّفس وعاقبة إهمالها والاتعاظ بقصة ثمود..

أ)- النّص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا
١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا

﴿٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا
٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ١٤
وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ١٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾: بدأ الله بالشمس؛ لأنها أعظم المقسمات بها، والضحى: وقت ارتفاع الشمس عن أفق المشرق. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾: جلّى بمعنى أوضح وأظهر، والضمير يعود إلى الشمس. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾: الغشي: التغطية، أي يحجب الشمس. ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾: ﴿مَا﴾: إما مصدرية، أي بنائها، وإما موصولة، أي: والذي بناها، وهو الله تعالى. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: النفس: ذات الإنسان، وتسويتها هي إحكام خلقتها بإيجاد القوى الحسية والعقلية، والإلهام: إلقاء الشيء في الروع، والمقصود: عرّفها وأفهمها. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾: من التدسية، أي أهمل تهذيبها وإرشادها، وهو ضدّ التزكية. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾: الطغوى: من طغا يطغو، أي بسبب طغيانها إذ تجاوزت الحدود في الظلم والكفر. ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: أي قام أشقى القوم مندفعا متسرعا للتنفيذ. ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: ناقة الله: منصوب على التحذير، والإضافة تشريفية ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي ضربوا ساقها لينحروها ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾: ﴿فَدَمْدَمَ﴾: دمدم: أصلها دمّم، بثلاث ميمات، قلبت الثانية دالا، أي أهلكهم بإطباق العذاب عليهم بسبب ذنبهم. ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: الضمير يعود للرب، وقيل: للرسول، لا يخاف عاقبة ذلك الإهلاك، أي من ثأر أو نحوه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَا يَخَافُ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفاء العطف تفريعا على

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾. وقرأ الباقون من العشرة بواو العطف أو الحال.

د)- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾:

يقسم الله تعالى في مفتتح السورة بسبع ظواهر كونية تباعا ويدمج معها النفس الإنسانية في تسوية خلقتها وتزويدها بالاستعدادات الفطرية ليركز في جواب القسم تبعة الإنسان الشخصية في توجيه نفسه وتبعته في مصيرها، ويكون القاسم المشترك بين تلك الظواهر هو التغيّر والتبدّل من ضياء النهار إلى ظلمة الليل ومن ارتفاع السماء إلى انخفاض الأرض، ومن النفس التقية إلى النفس الفاجرة، فبدأ الله قسمه بالشمس لأنها الأعظم والأكثر نفعا للمخلوقات، ولذلك أطنب الله في ذكر أوصافها الأربعة عند الضحى وفي كامل النهار، وعند انعكاس ضوئها على وجه القمر، وعند اختفائها في ظلمة الليل، فهي مضيئة ذاتيا على الدوام سواء أشرقت أم غربت، وهي أروع ما تكون عند الضحى إذ تنبعث الكائنات لممارسة نشاطها، وتدبّ الحياة من جديد بعد هدأة الليل وسكونه، وتلوّ القمر لها إنما يكون بعد مغيبها، سيما من بزوغ الهلال إلى اكتماله في الليالي البيض، إذ يمتدّ ضياؤه مع طول الليل.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، الأرجح أنه يعود إلى الشمس، فيكون في التعبير مجاز عقليّ من إطلاق السبب وإرادة لازمه المسبّب عنه، والمعنى أن وقت الليل كان سببا في ستر الشمس عن سكان الأرض. ويرى بعض المفسّرين أن الضميرين في: ﴿جَلَّاهَا﴾، ﴿يَغْشَاهَا﴾ يعودان إلى الأرض.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾: وهما الظاهرتان الخامسة والسادسة، ﴿وَمَا﴾: في كليهما مصدرية أو موصولة. ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ هي كل ما علا

فوق رؤوسنا ونحن منتصبو القامة، فهناك السماء القريبة تتمثل في الغلاف الجوي للأرض وما يموج فيه من الهواء والرياح والسحب، وهناك ما هو خارج الغلاف من الكواكب والمجرات التي تسبح في فضاء الكون، والتعبير بالبناء يدلّ على التماسك وإحكام النظام بقوانين جبرية لا تخرم ولا يعتريها خلل إلا أن يشاء الله، وهي تدل على عظمة الصانع وقدرته، أمّا طحو الأرض فهو بمعنى دحوها، أي بسطها ومدّها كما تتراءى لأبصارنا المحدودة الرؤية، وإلا فإن ذلك لا ينافي كرويتها كما أثبته العلم.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: جاء لفظ: ﴿نَفْسٍ﴾ نكرة على خلاف ما سبق للدلالة على النوعية والشمولية الجنسية، وتسويتها إكمال خلقتها بحيث لا يظهر على أجزائها نقص ماديًا أو معنويًا. ومن تمام تسويتها ذلك الإلهام الرباني الذي تميّز به بين الخير والشرّ وبين الهدى والضلال؛ لأن الإلهام هو من حديث النفس الذي يلقيه الله في جوانحنا بدون تعليم ولا تجربة، وذلك معروس في أصل الفطرة وهذا كقوله في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠). أي سبيل التقوى والصلاح، وسبيل الفسق والفجور.

إن هذا الربط بين النفس البشرية واستعداداتها الفطرية وبين حقائق الكون ومشاهده الكبرى، إنّ لهذا الربط فائدة ومعنى عظيما يضفي على هذا الإنسان معنى التكريم والتفضيل الذي أشارت إليه آية الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٧٠). ثم هو من جهة أخرى يضع الإنسان أمام مسؤولية نفسه وتبعاته الشخصية في مصيرها، إذ أنه تعالى يقدّر تصرّفه ومشيئته بالإنسان وفق الواقع الذي يختاره هذا الإنسان وهو كامل الوعي بما يأخذ وما يدرء مطلق الإرادة بما يختار.

ثم يقول تعالى في المقسم عليه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾، قابل الله بين التزكية وفي معناها التطهر والنماء والبركة والمدح، وبين التدسية، وفي معناها الإفساد والإخفاء، وهي ضدّ التزكية، وكل من التزكية والتدسية تشتق عن فعل

إرادي يوجّه الإنسان إلى تحقيق إحداهما في سلوك عملي يدرك الإنسان نتائجه ويتحمل تبعته، فيحقق لنفسه الفلاح دنيا وأخرى بالتزكية والعمل الصّالح، ويخيب عند التدسية باتباع هواه وإشباع شهواته.

وللترغيب في الفلاح بدأ الله بالتزكية، وعلى مقابلتها بالخيبة يعرض الله تعالى نموذجا تاريخيا واقعيّا، ويبين كيف انتهت عاقبته، ممثلا في أصحاب ثمود فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا، فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾، اختصر الله أحداث هذه القصّة وهي مفصّلة في سور أخرى من القرآن، فذكر الله هنا أنّ ثمود قد تجاوزت الحدّ في الكفر والطّغيان إذ كذبت برسولها صالح عليه السلام رغم تأييد الله له بمعجزة النّاقة وتحذيره إياهم أن يمسّوها بسوء، ولكنهم بسبب طغيانهم تمالؤوا كلهم على عقرها ونحرها فنفذ أعظمهم كفرا وشقاء، فاستوجبوا بذلك غضب الله ونقمته إذ أهلكهم بعذاب الاستئصال فأخذتهم الرّجفة وسوّى الله بهم الأرض وهو لا يخاف عاقبة ما يفعل وهو القاهر فوق عباده. وقد يتبادر إلى الذّهن هذا السّؤال: ما علاقة هذه القصّة بما ورد في المحور الأول من السّورة من المقسم به والمقسم عليه؟، فنقول:

أ)- إنه المثل التاريخي الحيّ الذي يعرفه مشركو مكة على طريق قوافلهم إلى الشّام ينبههم إلى ما يمكن أن يلحق بهم من بطش الله إن استمروا على تكذيب الرّسول وإذايته.

ب)- ومن خلال عرض هذه القصّة بعد بيان فطرة النّفس البشرية وقابليتها للهدى والضّلال ندرك رحمة الله بهذا الإنسان إذ لم يدعه لفطرته وحدها، بل ساعده ببعث الرّسل وإنزال الكتب لترشده إلى الطّريق السّويّ وتدلّه على الإيمان وترشده إلى العمل الصّالح وتضع له معالم خط الهدى وتكشف له مزالق الهوى وغوايات الشّيطان حتى لا يخضع له ويصير متحيرا، والله أعلم.

سورة اللّيل مكيّة، وآياتها ٢١

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في بعض المصاحف سورة اللّيل، لافتتاحها بالأقسام بـ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾، وقد عنونت في صحيح البخاري وسنن الترمذي: سورة واللّيل إذا يغشى.

وهي مكيّة عند الجمهور، وآياتها إحدى وعشرون آية، وتعدّ التّاسعة في عداد ترتيب نزول السّور، والثانية والتّسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

المحور الأساسيّ للسورة: بيان سعي الإنسان وعمله وجزائه في الآخرة.

أ)- افتتحت بإقسام الله باللّيل والنّهار وباختلاف النّوعين الذّكر والأنثى، على أن عمل الخلائق مختلف، فمنهم التّقي ومنهم الشّقي.

ب)- حدّدت منهج كلّ فريق وجزاء كل منهم في الآخرة.

جـ)- جميع الأموال في الدّنيا لا يجدي نفعا في الآخرة وقد أرسل الله رسوله للتذكير والإنذار.

د)- وختمت السّورة بذكر نموذج للمؤمن الصّالح الذي ينفق ماله في سبل الخير، وضرب المثل بأبي بكر الصّديق إذ أعتق بلالا.

اختلاف النّاس في مسعاهم، وبيان عدل الله في الجزاء.

أ)- النّص:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ

١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا

مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ
وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا
تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي
يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾: أقسم الله بالليل إذا غطى الكون بظلمته، حذف المفعول إمّا لمعرفته لدى السامع، وإمّا لإرادة الإبهام عليه، وتجلّي النّهار هو ظهوره بإشراق الشمس. ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾: ﴿مَا﴾: مصدرية، وقيل: هي بمعنى: الذي. قيل: هما آدم وحواء، أو هما كل ذكر وأنثى من بني آدم ومن كل حيوان. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾: جواب القسم، أي إن أعمالكم مختلفة القيمة عند الله. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾: أي صدّق بمبادئ العقيدة الإسلامية والتصديق بوعد الله بصفة عامة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾: السّين للتنفيس، والتيسير هو تهيئة الشيء وإعداده، واليسرى من اليسر: ما لا مشقة فيه، وقد فسّرها البعض بالجنة، ضدّها: العسرى، أي حالة العسر والشّدة في جهنم. ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾: التّردّي هو السّقوط من علوّ إلى أسفل، ويراد به الهلاك. بين اللّيل والنّهار، الذّكر والأنثى، اليسرى والعسرى، صدّق وكذب، طباق. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾: بينهما جناس اشتقاق، وحذف مفعولا: ﴿أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ للتعميم والتأمل. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ، وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾: أي علينا واجب الإرشاد إلى الحق، ونحن نملك الدّنيا والآخرة نعطي ما نشاء لمن نشاء. ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾: اللظى: لهيب النار. ﴿تَلَظَّىٰ﴾: أصلها

تلظى، حذفت إحدى التاءات أي تلتهب ويشتد توقدها. ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾: أي يتصدق بماله لا ليكافئ إنسانا على نعمة أنعم بها عليه، وإنما يبتغي بذلك وجه الله، والله يرضى عنه ويجزيه ثوابه.

ج)- البيان والتّفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ، وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ، وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾**: يقسم الله بظاهرتين كونيتين اللّيل والنّهار ويضفي على كلّ واحدة منهما الصّفة التي تختصّ بها، فاللّيل يغطّي بظلامه وجه الأرض الذي يختفي عنه الشّمس، فيسكن كلّ ما عليه ويخلد للرّاحة والنّوم ويتجلّى النّهار بوجهه المشرق من الجهة الأخرى للأرض في تعاقب دائب ونظام دقيق لا يتخلف، وهما آيتان من آيات الله جديرتان بالتّأمّل والتّدبّر قد تغفل عنهما بحكم الإلف والعادة، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء:١٢).

ولعل في تقديم اللّيل على النّهار في هذه السّورة التي تعتبر من أوائل القرآن نزولا، لعلّ في ذلك إشارة لطيفة إلى وضعية الدّعوة الإسلامية في منطلقها بمكة وهي ما تزال مغشاة ومغمورة بظلام الكفر سيشرق بعدها نهار النّصر والظهور.

ومع القسم بهاتين الظّاهرتين المختلفتين يقسم الله بخلقه الأنواع مختلفين في الجنس الذّكر والأنثى تركيزا على تقرير ظاهرة الاختلاف لبيان آثار ذلك في المقسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾. وقانون الزّوجية شامل مطّرد في جميع الأحياء من حيوان أو نبات، بل حتى في غير ذلك من عناصر المادة كما أثبته العلم الحديث وكما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

وبيّن الله في المقسم عليه بأنّ سعي النّاس كذلك مختلف، وهم على محكّ الاختيار في حياتهم الدّنيا، وذلك بالقياس على موازين الحق والعدل ومعايير الأخلاق الكريمة التي تنزلت بها الرّسالات السماوية، فليس الهدى كالضّلال، وليس الصّلاح كالفساد: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة:١٨).

ويبدو حكمة الله في ذلك التنوّع وذلك الاختلاف حتى يترتب الجزاء لكل صنف وفق اختياره للمنهج الذي يسلكه، فهما منهجان يفضي كل منهما إلى النتيجة المستحقة: **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾**.

لم يذكر مفعولا ﴿أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ليشملا كلّ أوجه الخير في التصدّق بما فضّل الله به على عبده من أنواع النّعم من مال أو جاه أو جهد أو رأي، وإن كان التصدّق بالمال هو الأكثر نفعا وأوفر طلبا شريطة أن يقصد بذلك وجه الله ويتقي غضبه وسخطه ويصدّق بوعده لعباده المتقين، وقد اختلف المفسّرون في تحديد معنى: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي مؤنث "الأحسن"، ويتلخص ذلك فيما حسّنه الشّرع الحنيف مما وعد الله به عباده المتقين من الأجر والثواب والنّعيم المقيم، وجواب الشّرط هو قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، والتيسير جعل الشيء سهل الحصول، و﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: من اليسر، أي ما لا مشقة فيه، أي يوفقه الله إلى تحقيق كل ما يتمناه بأيسر الوسائل فيكون بذلك قد سلكه الله مع رسوله، إذ وعده بذلك في سورة الأعلى فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (٨). وذلك وعد الله لكلّ من يخشاه ويتقيه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق:٤).

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾: وعلى نقيض السّعي الأوّل ممن بخل بما أنعم الله عليه من مال أو من الحظوظ الدّنيوية الأخرى واستغنى عن ثواب الله وحسن توفيقه إرضاء لشهواته

واغترارًا بقوته وحيلته وكذَّب بالجزاء الأخروي، فإنَّ الله تعالى يكله إلى نفسه فتعسر عليه الأسباب، وتغلق أمامه الأبواب فيكابد في كلّ ما يطلبه المتاعب والصّعاب، فيبعد عن طريق الله، ويتردّى في المهالك فلا ينفعه ماله الذي بخل به، بل يزداد به حزنا وغمّا وهو لا يغني عنه شيئا.

وقبل الحديث عن مصير كلّ فريق وما ينتظره في الحياة الأبدية أقام الله الحجة على عباده إذ بيّن لهم طريق الرّشاد، وبشّر وأنذر وأوضح لهم بأنّه مالك الدّنيا والآخرة، وأنه غنيّ عن عباده، لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيتهم فقال: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى، وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾**.

وكان من رحمة الله وفضله أنه لم يترك خلقه هملا تناوشهم الحيرة والتيه بقصور مداركهم في التمييز بين الحق والباطل، وبين الضّلال والهدى، إذ أوجب على نفسه أن يرشدهم إلى طريق الهدى بإرسال الرّسل وإنزال الكتب تبيانا للتكاليف الشّرعية من أحكام الحلال والحرام في العبادات والمعاملات، وفي الآداب والأخلاق.

وحتى لا يغترّ النّاس بحرية اختيارهم لما يدينون به فإنه تعالى يقرّر هيمنته الكاملة على شؤون خلقه في الدّنيا والآخرة فلا يجدون من دون الله مولًا ولا نصيرا، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، لأن من ملك الدّنيا والآخرة هو الغنيّ الحميد يعطي ما يشاء لمن يريد.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾:

وبأسلوب الخطاب قرّر الله على ما سبق إنذاره للمخاطبين من عذاب جهنم المستعرة بلهيبها الشّديد الذي لا يحترق به إلا أشقى عباد الله كفرا وعنادا ممن أعرض عن الإيمان بالله وكذّب برسوله.

ثم أبان سبيل النجاة فقابل الأشقى بالأتقى وقال: **﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾**: والتعبير بصيغة التفضيل في كلّ من "الأشقى" و"الأتقى"

يدلّ على بلوغ الموصوف بكلٍ منهما الحدّ الأقصى في تلك الصّفة، فالشّقي تتفاوت دركاته في الانحطاط حتى يبلغ الدّركة السّفلى، كما أن التّقي يعلو صعدا في درجات التقى حتى يبلغ درجة المحسنين والصّدّيقين، وقد روي أنّ المقصود بوصف الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى، أي يتطهر من ذنوبه، هو أبو بكر الصّدّيق ﷺ، إذ كان له عتقاء كثيرون حرّرهم لوجه الله، وكان منهم بلال ﷺ، أعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما فعل به ذلك ليد كانت له عنده، فنفى الله عنه ذلك وشهد له بالإخلاص وأنه لم يفعل ذلك إلا ابتغاء مرضاة الله إذ قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.[1]

أي لا يتصدق بماله مقابل مزية أو منفعة لأحد من النّاس عليه، وإنما يفعل ذلك إحسانا وتفضلا وهو يرجو ما عند الله من أجر ومثوبة، والله يعطيه من فضله ويغدق عليه من نعمه حتى يرضى، وبلوغ المعطى له غاية الرّضى هو دليل على جزيل المكافأة وحسن التكريم، وذلك وعد من الله لكل من حقّق في حياته تلك الصّفة وأخلص عمله لله، فالآية حكمها عام، وإن ذكر المفسّرون سبب نزولها.

والله أعلم.

(١) – الطبري، جامع البيان: ٤٧٩/٢٤.

سورة الضحى مكيّة، وآياتها ١١

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في أكثر المصاحف وفي كتب السّنة سورة "الضّحى"، بدون واو، وقد يثبت الواو في بعضها. وهي مكيّة اتفاقا، وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وتعدّ الحادية عشرة في ترتيب نزول السّور، والثّالثة والتّسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

ومحورها الأساسي: التّنويه بشخصية الرّسول بتذكر ما حباه الله به من الفضل والإنعام عليه في الدّنيا والآخرة.

– افتتحت بالقسم بالضّحى رمزا لمنزلة رسول الله عند ربّه وأنه لم يتركه ولم يبغضه كما يدّعيه المشركون.

– بشره الله بما يرضيه من رفعة شأنه وعلوّ منزلته بأنواع الكرامات ومنها الشّفاعة العظمى.

– ذكره الله بما أحاطه به من ألطافه منذ الصّغر وفي كل مراحل عمره.

– ثم ختمت السّورة بوصايا ثلاث مواساة اليتامى والبائسين، والشّكر لنعم الله.

بيان نعم الله وألطافه على رسوله ترويحا وتطمينا له.

أ)– النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَىٰ ①
وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ

﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ
ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ
فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾: قسم بوقت ارتفاع الشمس أول النهار، ويقال: سجا الليل سجوا وسجوا، إذا امتدّ وطالت مدة ظلامه، ويقال: سجّي الميت، إذا غطّي. ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾: ﴿مَا﴾: نافية، ﴿وَدَّعَكَ﴾: من التوديع، تحية من يريد السفر، أي ما تركك كارها لقاءك. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: التقدير: ما قلاك، أي ما أبغضك ولا هجرك، والجملة جواب القسم. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾: أكدت الجملة بمؤكدين، لام الابتداء وحرف: ﴿سَوْفَ﴾، والمفعول الثاني ليعطيك مقدر: بما تريد. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾: الاستفهام للتقرير، تعدادا للنّعم التي أنعم بها على رسوله، ﴿فَآوَىٰ﴾: من الإيواء، الإرجاع إلى السكن، استعير للكفالة، والضّلال هنا بمعنى الحيرة والجهل لاشتباه السّبل عليه قبل رسالته، لأن الأنبياء معصومون عن الباطل. ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾: بمعنى أغناك من فقر، أغناك بالقناعة وبربح تجارتك. ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: الوصايا الثلاث، ﴿أَمَّا﴾: تفيد شرطا مقدرا، بمعنى: مهما يكن من شيء، و﴿الْيَتِيمَ﴾: مفعول مقدّم لفعل: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، أي أكرمه وارفق به كما أكرمك ربك يتيما، وكذا السائل هو المحتاج، وقيل: هو السائل عن دينه.

ج)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

قَلَىٰ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

ترد في أسباب النزول روايات يعضد بعضها بعضا، خلاصتها أنّ الوحي فتر عن رسول الله إذ أبطأ جبريل عليه السلام عنه لمدة فقال المشركون: ودّع محمدا ربّه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السّورة لمواسيه وتسليه.

أقسم الله بظاهرتين كونيتين تتعاقبان وترسمان الإطار الزماني الذي نعيش فيه، فبدأ بالضّحى وقت ارتفاع الشّمس أو النّهار، وفيه إيماء لبدء نزول الوحي ساطعا وهاجا سوف ينتشر ضياؤه كما ينتشر ضياء الشّمس وهي تعلو في كبد السّماء، وقابل ضياء الضّحى بظلمة اللّيل تغطّي الكون مثل سجوّ المرء بالغطاء، وكان الرّسول يتهجد فيه ويتلو القرآن، كما أشارت إلى ذلك فواتح سورة المزمّل، وفي القسم بآيتي الزمان ردّ لمزاعم المشركين في دعواهم معرفة ما يسفر عنه الزّمان من أحداث هي من تدبير الله وحده: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾(لقمان: ٣٤).

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، والتوديع يكون للمسافر على أمل اللّقاء به مرة أخرى، أي ما قطع الله صلته بك عن طريق الوحي كما يقطع السّفر الصّلة بين الحبيبين، وما أبغضك كما يزعم خصومك، وحذف المفعول من ﴿قَلَىٰ﴾ اكتفاء بالمفعول المذكور في الجملة الأولى، وتتجلّى حكمة الله في هذا الانقطاع المؤقت للوحي في أمرين:

أ)- التخفيف عن رسول الله من معاناته الأولى من بدء نزول الوحي عليه كما ترويه السّيرة مع زوجه خديجة وابن عمّها ورقة بن نوفل.

ب)- إثارة التشويق في نفسه الشّريفة لذلك الأفق الرّوحاني واتصاله بالملإ الأعلى.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾: ومع تلك التسلية الحانية هذه البشارة الغالية، الجملة معطوفة على جملة القسم، واللاّم تفيد التأكيد، إذ بشر الله رسوله بما

يكون له في الدّار الآخرة من التكريم والنّعيم مما هو خير وأفضل من الدّار الأولى، أي الحياة الدّنيا، أو أن عاقبته في مستقبل أيامه باستمرار نزول الوحي وبانتصار دعوته هي أحسن من بداية مشواره فيهما، وذلك هو ما تحقّق بفضل الله ومنته وكرمه.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾: هذه هي البشارة الثّانية، أكدت -أيضا- باللام وصدرت بأداة التّسويف: ﴿سَوْفَ﴾، لتغطي المستقبل القريب والبعيد، مما تحقق له من النّصر والتّمكين في حياته وبعد مماته، على يد خلفائه الرّاشدين، وقد حذف المفعول الثّاني لفعل: ﴿يُعْطِيكَ﴾ ليشمل كل أنواع العطاء الجزيل من الله لرسوله في الدّنيا والآخرة، فقد رفع الله قدره وأعلى شأنه بالنّصر والفتح المبين فدانت الجزيرة كلها لدعوته في حياته فدخل النّاس في دين الله أفواجا، وأظهره الله على كلّ الأديان الأخرى، وهو إمام المرسلين وصاحب الحوض والشّفاعة العظمى يوم يقوم النّاس لربّ العالمين. واختيار صفة الرّبوبية مضافة إلى كاف الخطاب في قوله: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ فيه معنى الرّعاية والتّشريف، وجيء بفاء التّعقيب في قوله: ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ لإفادة أن ذلك العطاء الرّباني عاجل الاسترضاء للمعطى له، نظرا لقيمته وعلوّ شأنه، إذ يكون المعطى له في كامل الرّضى، ولإقناعه بما أعطى له فوق ما كان يتمناه، وكان وعد الله مفعولا.

والتدليل على تحقق ذلك الوعد عدّد الله نعمه وأفضاله على رسوله قبل بعثه فقال له: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾**.

الاستفهام تقرير لحالات ثلاث مرّ بها رسول الله في حداثته وريعان شبابه كان يمكن أن تكون مصدر قلق له لولا لطف الله به، وأن ذلك يعطي انطباعا للمشركين بأنّه تعالى يحقّق لرسوله ما وعده به مستقبلا، إذ هم لا يجهلون ذلك في ما عاينوه من استقامة لشأنه بينهم عساهم يكفكفون من عنادهم.

أ)- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾: وقد نشأ الرّسول يتيم الأب، إذ توفي قبل ولادته، ثم فقد أمّه وهو ابن ست سنوات، فآواه الله، بمعنى ضمن له الكفالة اللازمة تحت رعاية جدّه عبد المطلب ثم عمّه أبي طالب، فلم يشعر الرّسول في كنفهما بغربة اليتم، بل إن عمّه أبا طالب كان يغدق عليه من رعايته وحنانه بأكثر مما كان يفعله بأولاده سواء قبل بعثته أو بعدها فنشأ سويّ البنية معتمدا على نفسه.

وما أروع التعبير: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ عوضا عن: ألم يجعلك يتيما، تحرزًا من نسبة الضّرّ إلى الله تعالى وتأدبًا من مقامه.

ب)- ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾: والضّلال هنا بمعنى الجهل والحيرة في تلمّس مسالك الهدى ومعرفة أصحّ العقائد وأقوم العادات والممارسات إذ كان ﷺ يستنكر ما كان عليه قومه من الشرك وعبادة الأوثان وما يمارسه شباب قومه من أنواع الفواحش والمنكرات حتى حبّبت إليه العزلة في غار حراء قبل سن الأربعين للتأمّل في عظمة الكون والتقرب إلى خالقه. فليس الضّلال هنا مقابلا للهدى لأن الأنبياء معصومون من الكبائر قبل بعثتهم وبعدها.

ج)- ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾: أي نشأت فقيرا محتاجا فيسّر الله لك من أسباب الرّزق ما أغناك به عن السّؤال، إذ ربحت تجارته مع خديجة، ثم تزوّجها، كما أغناه الله بالقناعة والبركة وهو القائل: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**».[1]

كانت هذه ألطاف ربّه قبل أن يبعثه الله رسولا، كل واحدة منها لها أثرها الإيجابي في بناء شخصيته وإعدادها للاتصال بالملإ الأعلى.

وفي مقابل تلك النّعم وصاه الله بوصايا ثلاث تندرج في الأخلاق الاجتماعية التي يحتاج إليها في مسار دعوته فقال تعالى:

---

(١)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم ٦٤٤٦.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾:

جاء الرّبط لهذه الوصايا الثّلاث بالفاء الفصيحة، متصلة: بـ﴿أَمَّا﴾ التّفصيلية والتي تفيد الشّرط، فتهى عن قهر اليتيم وإذلاله بأي نوع من الإهانة أو الظّلم، وذلك زيادة على إكرامه بأداء حقّه وصون ماله والقيام على حسن تربيته، فتلك واجبات مادية يجب توفيرها له من طرفه كاملة، وهذه الوصية تهتم بالواجب المعنوي في معاملة اليتيم بلطف ورفق، وقد أوصى رسول الله برعاية الأيتام في كثير من الأحاديث، وهذه الوصايا لا تخصّه وحده، بل هي لكل الأمة من خلال شخصيته الشريفة.

ب)- ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾: فكل من اليتيم والسائل في الجملتين منصوب على المفعولية قدّما للاهتمام بشأنهما، والسائل يحتمل أن يكون بمعنى طلب المعرفة بالشيء أو بمعنى طلب شيء من غيره، كالمال أو المتاع، وفي كلتا الحالتين يلتزم المسؤول الرّدّ بالإحسان لكل مسترشد يطلب علما أو محتاج يطلب مالا أو مساعدة لأنّ الرّدّ الجميل بالإيجاب أو السّلب يجعل السّائل يحسّ بالكرامة فيشجعه ذلك على زيادة المعرفة أو على الأمل والرّجاء في انفراج أزمته.

كما قال الشاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النّطق إن لم يسعف الحال

والكلمة الطيّبة صدقة كما ورد في الحديث.[1]

ج)- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: والتحدث بنعمة الله بصفة عامّة يعني إشاعتها وشكر المنعم بها، وليس المراد بالنّعمة ما خصّصه الله بالذّكر هنا بل هي للجنس تعمّ كل النّعم وأعظمها نعمة القرآن، وهدايته والتحدث بذلك يكون بالتبليغ للنّاس، يدلّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا

---

(١) - رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم ٢٨٩١

مَجْنُونٍ﴾ (الطور: ٢٩).

والشكر على نعم الله قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة، فيجب على المتحدث بنعمة الله أن يتحلى بالصدق والإخلاص حتى يتجنب الرياء والسمعة أو التطاول على الناس؛ لأن ذلك محبط للأعمال، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده دونما فخر أو اختيال.

والله أعلم.

سورة الشرح مكيّة، وآياتها ٠٨

- بين يدي السّورة الكريمة:

لها ثلاث تسميات: سورة الشرح، أو الانشراح، أو سورة: "ألم نشرح"، كما ورد في افتاحيتها، والشّرح تنوير صدر النّبي ﷺ بنور الهدى والإيمان والحكمة.

وهي مكيّة اتفاقا، وآياتها ثمان، وهي شديدة الاتصال بسورة الضّحى، إذ نزلت بعدها، وتعدّ تكملة لها في بيان عناية الله برسوله في توالي ألطافه عليه وتفريج همومه وتيسير ما عسر عليه، وتعدّ الثانية عشرة في ترتيب النّزول، والرّابعة والتّسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف.

ومحورها الأساسيّ التّنويه بشخصية الرّسول وبيان مقامه عند الله وعند النّاس بما أحاطه الله به من ألطاف إذ شرح صدره ورفع قدره، ونفّس عنه غمّه، ثم وعده بتيسير كل ما يعسر عليه في أداء مهمته، وأمره في خاتمة السّورة بمواظبة العبادة لربّه والتّوكل عليه، والرّغبة في ما عنده شكرا لما أنعم عليه.

توالي ألطاف الله على رسوله في تحمّله لمتاعب الرّسالة، وترغيبه في طلب عون الله.

أ) - النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ
صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: الاستفهام تقريري، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك، والشرح في معناه الحقيقي هو تشريح اللحم بتقطيع أجزائه، ومنه التشريح في الطبّ، ويطلق على رضى النّفس وانبساطها وراحة البال، والصدْر يراد به الإحساس الباطني بالإدراك والعقل. ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: الوزر هو الحمل الثقيل، يجمع على: أوزار، ووضعه هو حطّه عن حامله للتخفيف عنه، و﴿أَنقَضَ﴾: من النقيض، وهو صوت المحمل أو الرحل، وكذا صوت المفاصل، وإسناد ﴿أَنقَضَ﴾ إلى الوزر إسناد مجازي والمراد التشبيه لتخفيف المشقة. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: ﴿مَعَ﴾ تدلّ على المصاحبة، وتعني هنا قرب حصول اليسر عقب العسر لأنهما نقيضان لا يجتمعان. ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾: الفراغ يكون بإتمام الإنسان ما كلّف به. ولم يذكر هنا متعلقه، والمراد إنهاء الرّسول مهامّه الدّعوية مما كلفه الله به، فليبادر جاهدا في العبادة والدعاء إلى الله متوكّلا عليه، راغبا في رضاه، وتعدية فعل: "أرغب" بـ"إلى" يتضمن معنى الإقبال والتوجّه إلى الله خاصّة، ويعدّى إلى الشيء المطلوب بـ"في"، وإذا كان ذلك الشيء غير مرغوب فيه فيعدّى بـ"عن".

ج)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾**: افتتحت السّورة الكريمة بالاستفهام التقريري الذي يثبت به الله الشّرح لصدر رسوله، والشّرح في معناه المجازي هو رضى النّفس وانفساحها للحالة التي تطرأ عليها، وبسرورها وابتهاجها وذهاب الغمّ عنها، والمقصود بالصّدر قلب الإنسان، إذ هو مستودع العواطف والأحاسيس، والأنوار الرّبانية، فهو من التعبير بالمحلّ وإرادة الحالّ فيه، وهو يوحي بأنه كانت هناك ضائقة تحرج قلب رسول الله من أعباء الدّعوة والعراقيل التي كانت تعترض طريقه، سيما عند انطلاقتها

الأولى في مكة وذلك ما أفصحت عنه كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى :

أ)- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر:٩٧).

ب)- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣).

ج)- ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).

وقد توالت من الله أمثال تلك التطمينات لرسوله تشرح صدره وتثبت قلبه الشريف في مناجاة رضية ودودة، كما دعا موسى عليه السلام ربّه أن يوسّع قلبه بمثل ذلك الشرح عندما أمره بدعوة فرعون الطاغية فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (طه:٢٥-٢٦). وقد قابل الله تعالى بين كلمتي الصدر والقلب في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر:٢٢).

وقد سئل رسول الله عندما نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام:١٢٥). سأله الأصحاب: ما معنى الشرح؟. فقال: «**نور يقذفه الله في القلب**»، قالوا: يا رسول الله، ما علامته؟ قال: «**التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود**»[1]. وقال في حديث آخر رواه أحمد: «**إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره**».[2]

وقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد نوعية هذا الشرح بالنسبة لرسول الله، فقال الجمهور: شرح الله صدره بنور الرسالة وملأه علما وحكمة، وحمله البعض أيضا على الشرح البدني في حادثة شق الصدر كما ثبت ذلك في السيرة النبوية على

(١)- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود، رقم ١٠٠٦٨.

(٢)- رواه أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو، رقم ٦٦٤٤.

اختلاف في الروايات، ولكن المحققين يرون أن الشرح البدني -على اختلاف رواياته- ليس مرادا من الآية، بل هو معجزة للرسول خارقة للعادة.

ب)- والمنة الثانية هي قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، فاختيار ضمير العظمة في ذكر المنن الثلاث هو للتعظيم والتشريف، وأصل الوضع هو حطّ الشيء، وتعديته بـ﴿عَن﴾ معناه إزاحته، و﴿وِزْرَ﴾ هو الحمل الثقيل، ويطلق معنويا على الذنب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(الزمر:٧). فالمراد بالوزر هنا بالنسبة لرسول الله هو الغمّ والحزن مما كان يعانيه من أعباء الرسالة إذ خففه الله عنه بشرح صدره وتيسير أمره، وتزويده بالمدد الروحاني من وحي السماء، أما الوزر بمعنى الذنب فإن الرسول قد عصمه الله من كبائر الذنوب ووضع عنه صغائرها مما عاتبه الله عليه بدليل آية سورة الفتح: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢)

جـ)- المنة الثالثة: هي قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وأي ذكر في الأولين والآخرين هو أرفع من ذكر رسول الله بل وفي الملإ الأعلى، فهو مقرون باسم الخالق في الإقرار بالشهادتين، ومقرون به في الإعلان عن الصلاة كما قال حسان:

وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد

واقترن اسمه بدعوته التي سارت في مشارق الأرض ومغاربها ويبقى خالدا على مسمع الدّنيا ما دام فيها إسلام وقرآن يتلى، وفي الآخرة له المقام المحمود والحوض المورود وله الشّفاعة العظمى وأرفع الدّرجات من عليين في دار الخلود.

وبعد التذكير بتلك النّعم تصدر الجملة اللاحقة بالفاء الفصيحة لتربطها بما سبقها للإفصاح عن مشيئة الله التي اقتضت أن يأتي اليسر بعد العسر، والفرج بعد الضيق فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، جاء اليسر نكرة للدلالة على التفخيم والتعظيم من شأنه، و﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، أي هو يتبع العسر

حتى لكأنه يتولّد من رحمه كما قيل: الفرج يتولّد من رحم الأزمة، وقال الشاعر:

اشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

وتكرار الجملة هو للتأكيد، بأنه تعالى سيغيّر من حاله في مستقبل الأيام فيحقق له النّصر والتّمكين والعزّ والغنى، وجاء في الرّواية أن الرّسول لما نزلت الآيتان، خرج لأصحابه وهو يبتسم وقال: «**لن يغلب عسر يسرين**».[١]

ولذلك تعددت أقوال المفسّرين في تحديد مجال اليسرين فقالوا: يسر الدّنيا والآخرة، أو هو يسر بعد يسر في حياة النبي وبعد وفاته، والأولى أن يقال: إن المقصود باليسرين: الجنس، ليكون حكما شاملا لجميع النّاس سيما للمؤمنين الذين لا يقنطون أبدا من رحمة الله.

أيها اليائس مت قبل الممات وإذا شئت حياة فالرجا
لا يضق ذرعك عند الأزمات إن هي اشتدت وأمّل فرجا

ويأتي في ختام السّورة هذا التوجيه الرّباني لرسول الله وقد اطمأن قلبه لوعود ربّه وتحفزت نفسه الشّريفة لشكر نعمه، فيأمره الله بالاجتهاد في تبليغ رسالته بدون كلل أو ملل: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾.

فرع على ما سبق فعل أمر بالنّصب، وهو التعب في العمل، ولم يعيّن العمل المفروغ منه لإفادة التعميم، وهو بالنّسبة لرسول الله الفراغ من مهام الدّعوة والجهاد في نشرها بكل ما يتعلق بها من مشاغل الدّنيا، وقد يسّره الله لليسرى، فما عليه إلا أن يوالي اجتهاده في عبادة ربّه شكرا لنعمة الله عليه، وما واجبه في قيام اللّيل تهجّدا وتبتلا لله إلا تطبيق لهذا التوجيه الرّباني.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: والرّغبة إلى الله تكون مستدامة في الإخلاص له

(١)- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسن، رقم ٩٥٤١.

وطلب مرضاته واستنزال رحماته واستمداد العون والتوفيق، وفي تقديم الجار والمجرور معنى الحصر، وفي اختيار صفة الربوبية معنى الرعاية والحنو والحفظ.

وليت المسلمين يقتدون برسولهم في تطبيق هذه التوجيهات فلا يتركون الفراغ يلتهم أوقاتهم، ورحم الله القائل منهم:

إذا مـرّ بي يـوم ولم أسـتفد بـه ... ولم أكتسب علما فما ذاك من عمري

وصدق رسول الله حين قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**».[1]

والله أعلم

---

(١)– رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٤١٢.

سورة التّين مكيّة، وآياتها ٠٨

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في معظم المصاحف وكتب التّفسير سورة: "والتّين"، وفي بعضها بدون واو. والتّين هو الثّمرة المعروفة أقسم الله بها وبالزّيتون في مفتتح السّورة، وهي مكيّة، وآياتها ثمان. وتعدّ الثّامنة والعشرين في ترتيب نزول السّور، والخامسة والتّسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف، وتعالج السّورة محورين:

أ)– بيان تكريم الخالق للإنسان.

ب)– عدله في تقرير الحساب والجزاء.

افتتحت السّورة بالقسم بالأماكن المقدسة التي خصّها الله مهابط ومنازل للوحي تصريحا أو ضمنيا، أقسم على أنه كرم بني آدم ماديًا ومعنويًا عبر صورته وكمال عقله، وفي حالة عدم شكره لتلك النّعمة فإنه يردّ إلى أشق الدّركات في الدّنيا والآخرة. التّعريض بالوعيد للمكذبين بعد وضوح الأدلة والبراهين، وختمت بتقرير عدل الله في الحساب والجزاء.

الامتنان على الإنسان بحسن خلقه، وتقرير عدل الله في الحساب والجزاء.

أ)– النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ
﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾: فاكهتان معروفتان فيهما منافع ودواء للإنسان، وقيل: إن المقصود هو موضع إنباتهما في الشام وبيت المقدس، والواو للقسم بهما. ﴿وَطُورِ سِينِينَ، وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: أو طور سيناء هو الجبل المقدس الذي كلم الله فيه موسى، وهو بصحراء سيناء المصرية، و﴿الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾: هو مكة المكرمة، ﴿الأَمِينِ﴾: هو بمعنى آمن أو مؤمن. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: جواب القسم، ﴿الإِنسَانَ﴾: يراد به الجنس، والتقويم: جعل الشيء في قوام، أي في تسوية وحسن صورة. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي، ﴿رَدَدْنَاهُ﴾: أي بعض أفراده ممن لم يشكر نعمة الله، السفالة: انخفاض المكان أي يكون في الدركات السفلى من النار بكفره وجحوده، أو هو كناية عن الرجوع إلى أرذل العمر. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي ثوابهم في الجنة غير مقطوع. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾: الاستفهام لتقرير عدل الله في الحساب والجزاء، و﴿الْحَاكِمِينَ﴾: من الحكم، أي فصل القضاء، أو من الحكمة.

ج) – البيان والتفسير:

أقسم الله في مفتتح السورة بأربعة أشياء لها منافعها وقدسيتها، فأقسم بثمرتين معروفتين، الأولى هي ثمرة التين وهي كما قال ابن عباس: "هو تينكم الذي تأكلون"، فهي فاكهة مهمة التناول لا يرمى منها شيء لذيذة الطعم متنوعة الألوان منافعها جمة للجسم غذاء ودواء، لم يتردد اسمها كثيرا في القرآن، على عكس الزيتون فقد ذكرت شجرته ووصفت بالبركة كما ذكرت الثمرة باسمها كثيرا، يقول عنها ابن عباس:

"وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت"، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٠). ولاشك أن قسم الله بهما للفت الأنظار إلى بديع صنعه وإلى التدبّر والتوجيه إلى ما فيهما من خصائص وفوائد إذ هما يوجدان في منبت واحد في مناخ متحد.

وبما أن المقسمين بهما الباقيين هما اسما مكان خاصّ فإن بعض المفسّرين يرون أن التناسب بين هذه المقسمات بما يقتضي أن يجعلوا الفاكهتين: التين والزيتون قسما بمنبتهما وكلاهما ينبت في بيت المقدس، فيكون الله تعالى قد أقسم بالبقاع المقدسة الثلاثة التي شرّفها الله تعالى بالوحي، إذ قال بعدها: ﴿وَطُورِ سِينِينَ، وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾، فطور سنين أو طور سيناء، هو الجبل المقدس الذي كلم فيه موسى (عليه السلام)، وهذا البلد الأمين، أشار إليه بالقريب مراعاة للمخاطبين من أهل الحرم المكيّ، ووصفه: "بالأمين" لقوله تعالى:

أ)- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧)

ب)- ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧)

فيكون القسم قد جمع بين أولي العزم من الرّسل: عيسى في بيت المقدس، وموسى في جبل الطّور، ومحمد في مكة المكرمة، والله أعلم.

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، المقسم عليه جاء للتعريف بحقيقة الإنسان شكلا ومضمونا، والخلق هو تكوين الشيء وإيجاده على غير مثال سابق، وخلقة الإنسان في شكله وصورته مجلى لبديع صنع الله وقدرته ودليل قاطع على حسن تكريمه وتمييزه على سائر المخلوقات بقامته المنتصبة ورأسه المرفوع وأعضائه المتناسقة وهو الممتن المتكرم عليه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ، ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٦-٨). ومن ناحية المضمون، فإنه تعالى زوّده بنور العقل والفهم وزوّده بأدوات النطق ليعبّر عما في خواطره كيف يشاء، وبوّأه على الفطرة السليمة وهداه النجدين مدفوعا بحسن اختياره ومشيئته، ومتى انحرف عن فطرته، وتنكّر لتلك الميزات منهمكا وراء الشهوات فإنه يغدو وقود للنار ويتردّى إلى أسفل دركاتها، وقيل: إن المعنى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ معناه: رددناه إلى أرذل العمر حين ينكس في خلقته كما قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس:٦٨). ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (الحج:٧٠).

قلت: إلّا كثيرا من المفسّرين رجّحوا القول الأخير ليتناسق مع حسن التقويم، ولعلهم اقتصروا في خلقة الإنسان على الجانب الشكلي المادي وأهملوا الجانب الروحي المعنوي، وأرى التناسب بين المقسم به والمقسم عليه يرجح الجانب المعنوي في ذات الإنسان؛ لأنه محط التكريم له من الله تعالى، وبذلك يتمّ التناسب بين ذكر منازل الوحي وبديع صنع الله في خلقة الإنسان، وذلك يجعل الاستثناء المذكور بعد ذلك متصلا، تتناسق السورة في كل أحوالها.

قال تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ استثنى الله من ذلك التردّي إلى أسفل السافلين المؤمنين بالمبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية وجسّدوا ذلك الإيمان بالأعمال الصالحة استقامة على نهج الله وأحكام شريعته؛ فهؤلاء لهم أجرهم كاملا غير منقوص ولا مقطوع في جنات النعيم، وأما المعنى على القول الثاني من الانتكاسة في الخلق بالرجوع إلى أرذل العمر، إذ يكون الاستثناء منقطعا، فيكون المعنى على ما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعريّ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما**»، ثم قرأ: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ**

مَمْنُونٍ﴾.[١]

قلت: والهرم مرض لا يرجى برؤه كما قال ابن عباس في هذه الآية: إذا كبر العبد وضعف عن العمل كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته.

وفي خاتمة السورة نندّد الله على الكفار لتكذيبهم بالحساب والجزاء فقال: **﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ. أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾**، التفات بليغ من صيغة الغائب إلى الخطاب، والضمير يعود إلى الإنسان، والرابط بين السابق واللاحق، هو فاء التفريع المتصلة بـ﴿مَا﴾ الاستفهامية التي تدل على الإنكار والتعجب، والمعنى: أي شيء يدعوك -أيها الإنسان- إلى التكذيب بيوم الحساب والجزاء بعدما تبين لك بالأدلة القاطعة مدى قدرة الله في خلقتك الأولى، فهو القادر على أن يعيد خلقتك مرة ثانية، فماذا يحملك على التكذيب؟.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾: وهذا الاستفهام التقريري يحمل المخاطب على الإقرار بمضمون الجملة بعده، وهو الاعتراف بعدل الله وحكمته في إقامة تلك المحكمة الإلهية للتقاضي والخصام بين الخلائق لينتصف المظلومون ممن ظلموهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (الزمر: ٣٠-٣١). ومن التوجيهات النبوية في قراءة هذه السورة، ما روي عن أبي هريرة مرفوعا أن النبي ﷺ قال: «**إذا قرأ أحدكم: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**».[٢]

والله أعلم.

---

(١) - رواه البخاري من حديث أبي موسى، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم ٢٩٩٦.

(٢) - رواه أحمد في المسند، رقم ٧٣٩١.

سورة العَلَق مكيّة، وآياتها ١٩

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف ومعظم التفاسير سورة "العلق" لوقوع لفظ "العلق" في مفتتحها، وقد تسمّى سورة: "إقرأ"، أو سورة: "القلم".

وكان الصّحابة يسمونها: "سورة إقرأ باسم ربك"، وهي مكيّة، وآياتها تسع عشرة آية.

والآيات الخمس الأولى هي أوّل ما نزل على الرّسول من القرآن في غار حراء في ليلة القدر من شهر رمضان.

وأمّا بقية الآيات من السّورة الكريمة فقد نزل بعد أمر الله رسوله بأن يصدع بدعوته، فعاداه قومه وآذوه.

وتعدّ السّورة السّادسة والتّسعين في ترتيب سور المصحف الشّريف، وهي تضمّ ثلاثة محاور أساسية:

أ)- بدء نزول الوحي والتّحريض على القراءة والكتابة والإيماء إلى قدرة الله في خلق الإنسان وتزويده بالعلم.

ب)- بيان طغيان الإنسان بالمال وتمرّده على أوامر ربّه وتذكيره بالرّجوع إلى الله لمحاسبته.

ج)- تهديد المكذبين بالرّسول ونهيهم الرّسول عن الصّلاة.

ويأتي ختام السّورة بتثبيت الرّسول في دعوته وأن لا يعبأ بقوة أعدائه وأن يتقرب إلى الله بالسّجود والعبادة.

بيان قدرة الله في خلق الإنسان، وتعليمه القراءة والكتابة.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾
إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾: ﴿اقْرَأْ﴾: أمر بالقراءة أي نطق بكلام مكتوب أو محفوظ عن ظهر قلب، ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: الباء إمّا للمصاحبة أو للاستعانة، أو تكون بمعنى "على"، أي على إذن ربّك، واختيار كلمة "الربّ" صفة فعل للدّلالة على التربية والرّعاية للمربوب، ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: لم يذكر المفعول به للدلالة على عموم الخلق والتقدير: خلق كل شيء. ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: الجملة بدل من سابقتها أو بيانا لها، والعلق: اسم جمع، مفرده: علقة، قطعة دم جامدة تشبيها له بدودة العلقة، وبين ﴿خَلَقَ﴾ و﴿عَلَقٍ﴾ جناس ناقص. ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾: كرر فعل: ﴿اقْرَأْ﴾ للاهتمام به. ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾: جملة اسمية في موضع نصب على الحال. ووصف: ﴿الْأَكْرَمُ﴾ للمبالغة في وصف الكرم، أسلوب المفاضلة. ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: علّم بالقلم: مفعولاه محذوفان يدلّ عليهما ما بعدهما من قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وبين: ﴿عَلَّمَ﴾ و﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: جناس السّلب. ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾: ﴿كَلَّا﴾: للردع والإبطال، ومعناه هنا في ابتداء الكلام: حقا، عند بعض

المفترين. ﴿الإنسان﴾: أي أفراد جنسه على العموم وإن وردت الروايات بأن المقصود به أبو جهل. ﴿أن رءاه استغنى﴾: جملة في محل نصب مفعول لأجله. ﴿استغنى﴾: شعر بالغنى وأنه مفضل على غيره. ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾: بضم الراء، مصدر: رجع، على وزنة: فُعلى، أي المصير والعودة إلى الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أن رءاه﴾: قرأه الجمهور بألف بعد الهمزة، وروى ابن مجاهد عن قنبل أنه قرأه عن ابن كثير: ﴿رأه﴾ بدون ألف بعد الهمزة، ولم يرو هذا عن قنبل غير ابن مجاهد.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾**.

هذه الآيات الخمس من افتتاحية السورة هي أول ما نزل من القرآن الكريم في حادثة غار حراء.

- قصة بدء نزول الوحي:

يقول الدكتور الزحيلي في مطلع تفسيره لهذه السورة الكريمة: "نزلت صدر هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم، أما بقية السورة فهو متأخر النزول بعد انتشار دعوته بين قريش وتحرشهم به وإيذائهم له". ثم روى حديث بدء الوحي.[1]

أخرج الشيخان البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،

(١) - التفسير المنير: ٣٠/٣١٢-٣١٣.

ثم حبّب إليه الخلاء، فكان يأتي "حراء" فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الوحي، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: ﴿اقرأ﴾. قال رسول الله: فقلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قال: فرجع بها ترجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع فقال: يا خديجة، مالي؟ وأخبرها الخبر وقال: قد خشيت على نفسي. فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرّحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقري الضّيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ، وهو ابن عمّ خديجة أخي أبيها، وكان امرءً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت خديجة: أي يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله بما رأى فقال ورقة: هذا النّاموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيّا حين يخرجك قومك، فقال الرّسول: أو مخرجي هم؟. فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي».[1]

(١) - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم ٣.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: إنها افتتاحية عظيمة الشأن جليلة القدر أن يكون أول خطاب إلهي وجِّه لرسول الله في أول اتصاله بالملأ الأعلى، وفيه دعوة ملحّة إلى القراءة والكتابة، وهما أعظم وسيلة لاكتساب العلم والمعرفة، وأن يبقى ذلك شعار الإسلام خالدا على مرّ الأزمان والدهور، وكان من قدرة الله وفضله على هذا الرسول الكريم، ومن خلال شخصه الكريم على أمته، أن ييسّر لهم تلك الوسيلة، وهم الأميون التائهون في ضلالات الجاهلية العمياء، فقال تعالى ممتنا على رسوله وعلى أمته:

أ)- ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٣)، وقال في أمته:

ب)- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

فقوله تعالى خطابا لرسوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، أي اقرأ ما نمليه عليك من حديث الوحي مستعينا باسم ربّك العظيم الخالق لكلّ شيء. وفي اختيار صفة الربوبية للذات العلية مع وصفها بالخالقية زيادة على ما في ذلك الوصف من تقديس وتنويه بصفات الربوبية، فيه ردّ على المشركين الذين ينادون باسم اللات والعزى وغيرهما من الأصنام التي لا تملك لهم ضرّا ولا نفعا، وعلى البداية أو البيان قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، فخصّ الله خلق الإنسان بالذكر؛ لأنه المخلوق الممتاز الذي تظهر فيه أكثر عظمة الخالقية وبديع صنع الله كما نبّه لذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١)، ويقول الشاعر:

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

وتخصيص: ﴿عَلَقٍ﴾ بالذكر في أصل خلقة الإنسان؛ لأنها هي الطور الذي تجتمع فيه بويضة المرأة بماء الرجل ليبدأ التخلّق.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: كرر الله الأمر بالقراءة لتأكيد الاهتمام بها. وبما أن المفعول لم يذكر كان ما أملاه عليه جبريل من كلمات الوحي الأولى هي المأمور بقراءتها، وتكون الجملة الحالية من قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، بمعنى: وكان من عظيم كرمه ومنته على رسوله أن يسّر الله له القراءة وهو الأمي؛ لأن العلم يحصل بكثير من الوسائل، ومنها ما عرفته البشرية قديما الكتابة بالقلم كما قال أمير الشعراء:

سبحانك اللهم خير معلّم علّمت بالقلم القرون الأولى

وبالإلهام والوحي بالنسبة للأنبياء والرسل، وتخصيص القلم بالذكر دون الوسائل الأخرى هنا يوحي بما من الأهمية القصوى لهذه الأداة الصغيرة التي تحركها الأنامل لتخط على القرطاس ما يجول في الخواطر وما يتدبره الإدراك من حقائق العلم ودقائقه، ولا تزال الكتابة الوسيلة العظمى لضبط العلوم والمعارف وانتقالها بين مختلف الحضارات وذلك على الرغم من تطور التكنولوجيا المعلوماتية في هذا العصر.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ، إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾: حرف: ﴿كَلَّا﴾ للزجر والردع، ولكن ليس في الجملة السابقة ما يقتضي الردع، غير أن ما جاء بعدها يقتضي ذلك، أي: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ، عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾، ولذلك قال بعض المفسرين: إنها تأخذ معنى "حقا"، أي: حقا إن أمر هذا الإنسان عجيب، كيف يخضع ويذل حال فقره، ثم هو يتكبر ويطغى حال شعوره بالغنى والثروة والجاه. ونجد هذا الشعور في كثير من الناس حتى وهم يدعون الإيمان.

"ال" -وإن كانت لعموم جنس الإنسان في كل زمان ومكان- فإن الحكم على المجموع لا على الجميع، لأن أسباب النزول تذكر أن الآية نزلت في شأن أبي جهل اللعين، في ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه، أني يسجد في الصلاة بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فأتى رسول الله وهو يصلي وزعم ليطأن على رقبته فما فجأهم منه إلا وهو يركض على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا**».[1]

ثم أعقب الله لأمثال هؤلاء بهذا التهديد: ﴿**إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ**﴾، هكذا على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بمضمون ذلك، وهو أن مصير الإنسان ورجوعه في النهاية إلى ربه، مهما بلغ من الحظوظ في دنياه، والله يحاسبه على ذلك المال، من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وقد قال الرسول لعائشة ﷺ: «**من نوقش الحساب عذب**»[2]، فإذا عذب صاحب المال في ماله الحلال، فكيف بالمال الحرام؟، والله أعلم.

صور من الطغيان، مع تهديد الطغاة وتثبيت الرسول.

أ- النص:

أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ

(١)- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب صفة القيامة، باب قوله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾، رقم ٢٧٩٧.

(٢)- تقدم تخريجه، ص ٣٤٥.

بِالتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ
يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾
سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ، عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾: الاستفهام للتعجيب، والرؤية علمية، والمراد بالعبد رسول الله، ﴿الَّذِي يَنْهَىٰ﴾: مفعول أول لـ"أرأيت"، والمفعول الثاني محذوف دلّ عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾. ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾: تعجيب آخر: التقدير أرأيت إن كان العبد على الهدى أو كان آمرا بالتقوى، أينهاه -أيضا- على ذلك؟، وجواب الشرط على الجمل الثلاث هو الجملة الاستفهامية: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، أي الله محاسبه ومجازيه. ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: ﴿كَلَّا﴾ للزجر والردع. ﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام موطئة للقسم، والسفع القبض الشديد مع الجذب العنيف. ﴿لَنَسْفَعًا﴾: مقرون بنون التوكيد الخفيفة، وهو جواب القسم. ﴿النَّاصِيَةِ﴾: مقدم شعر الرأس، ناصية: بدل للناصية، ووصفها بالكاذبة الخاطئة: مجاز عقلي، والمراد صاحب الناصية. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾: النادي: اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، أي فليدع أهل ناديه، مجاز مرسل حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾: ملائكة العذاب في النار، والمراد أبو جهل، واللفظ مشتق من الزبن: وهو الدفع بشدة. ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾: أي لا تطعه يا رسول الله في ترك الصلاة، واسجد لله وتقرب إليه ودم على ذلك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَرَأَيْتَ﴾: في المواضع الثلاثة من السورة، قرأ نافع وأبو جعفر بتسهيل الهمزة

الثانية، وقرأ ورش بإبدالها ألفا مع المدّ المشبع في الوصل فقط، وقرأ الكسائي: ﴿أَرَيْتَ﴾، ووقف حمزة بالتسهيل. ﴿خاطِئَةٍ﴾: قرأ الجمهور بالهمزة، وقرأ أبو جعفر: ﴿خاطِيَةٍ﴾ بالياء، وكذلك حمزة في الوقف.

د) - البيان والتفسير:

بعد بيان مظاهر قدرة الله في مطلع السورة وامتنانه على الإنسان خلقه وتعليمه القراءة والكتابة، عدّد صورا كثيرة لطغيان الإنسان، وذكر السّبب الحقيقي لذلك الطّغيان وهو حبّه للغنى والثروة واغتراره بحب الدّنيا، ورتب على ذلك تهديده ووعيده بالعذاب والنّكال يوم العرض والحساب، ثم ختمت السّورة بتثبيت النبي على طاعة الله والإقبال عليه وعدم طاعة أولئك الطواغيت فقال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ**﴾، الاستفهام ﴿أَرَأَيْتَ﴾ في الجمل الثلاث للتعجيب، والخطاب فيها لغير معيّن، فهو موجّه لكلّ من يصلح له من مستمع أو متدبّر لآي القرآن، والعبد الذي يصلّي هو رسول الله، وتنكير: ﴿عَبْدًا﴾ للدلالة على التمكن في العبودية لله، والطّاغية النّاهي عن الصّلاة هو أبو جهل اللّعين، كما جاء في رواية سبب النزول، فالله تعالى يشنّع على ذلك الطّاغية ذلك الموقف من النهي عن الصّلاة فهو من الشّناعة والتقبيح مما يقتضي التعجيب والاستغراب.

ولبتها كانت شناعة واحدة، فقد كرّر الله التعجيب مرة ثانية وثالثة فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، أي أخبروني عن ذلك الطّاغية النّاهي عبدا عن الصّلاة، إن كان هذا العبد صالحا في نفسه متمكنا من الهدى وآمرا غيره بالتقوى، أتنهاه على ذلك؟، وعلى هذا المعنى يكون الضّمير في: ﴿كَانَ﴾ و﴿أَمَرَ﴾ راجعين إلى رسول الله. ويرى بعض المفسرين أنّه يمكن أن يعود الضميران إلى الكافر الذي طغى، فيكون المعنى: أرأيت لو كان هذا الطّاغي مهتديا في نفسه وآمرا غيره بالتقوى،

ألما يكون ذلك خيرا له؟.

أما قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ**، **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ**﴾، ففي هذا الاستفهام التعجبي الثالث ما هو أفظع وأشنع مما سبق حين يكذب ذلك الطّاغي بما ثبتت دلائله من توحيد الله، فيعرض عن دعوة الحق التي يدعو إليها رسول الله، والإجابة هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، هكذا في صيغة الاستفهام الإنكاريّ الذي لا يتطلب اقترانه بالفاء، وحذف مفعول: ﴿يَرَىٰ﴾ ليعمّ كل موجود في علم الله؟. وذلك كناية عن التّهديد والوعيد لتلك الطاغية بأنه تعالى عليم بأفعاله ومواقفه وسيجازيه على ذلك، وفيه إيذان بأن هذا الطّاغية لا مطمع في إيمانه حين يدعوه رسول الله؛ لأنه كان كثيرا ما يدعو الله بقوله: «**اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرّجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب**»[1]، إذ استجاب الله دعاء الرّسول بإسلامه.

ولا شك أنّ هذا التّشنيع وهذا التهديد يشمل كلّ جبّار عنيد ممن يصدّ عن سبيل الله ويصرّ على الكفر والعناد، وإن نزلت هذه الآيات في شأن أبي جهل اللّعين؛ لأن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب. وبعد ذلك التهديد المبطّن في تلك الاستفهامات التعجبية يجيء التهديد القويّ الصّريح في ختام السّورة في أسلوب من التحدّي السّافر؛ لأن الحديد لا يفلّ إلاّ بالحديد، فقال تعالى: ﴿**كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**﴾، ﴿كَلَّا﴾: للزّجر والرّدع، وهو موجّه للمتحدث عنه أبي جهل، وقد أقسم الله بأنّه إن لم يكفّ أذاه عن رسول الله ولم يرتدع عن الشّر والفساد ليأخذنه الله بناصيته، أي تلك التي تنتفش وتتكبّر، يأخذه بعنف وشدة ليكبّه في جهنم؛ لأنّ السّفع: هو الأخذ بعنف مع الجذب بشدة، ثم وصف الله تلك النّاصية وصفا مجازيا، ويعني صاحبها بأنها كاذبة خاطئة

(١) – رواه الترمذي من حديث ابن عمر، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم ٣٦٨١.

بكثرة الذّنوب والمعاصي. والأخذ بالناصية إذلال.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾: النادي أو الندي: اسم مكان يجتمع فيه القوم، ويطلق على الذين يتندون فيه، وقد قال أبو جهل مفتخرا: إني لأكثر أهل هذا الوادي ناديا، فهو يفتخر بكثرة أنصاره وأتباعه، فجاء هذا التحديّ الإلهي له، بأن يستجمع أصحابه ويستنصر بهم، بأنه تعالى يدعو زبانية جهنم -وهم الملائكة الغلاظ الشّداد- يجرونه بعنف إلى جهنم -والعياذ بالله-. وأمام هذا التحدي لم يجترئ أبو جهل أن يفعل ذلك؛ لأنه يعلم في قرارة نفسه أن الذي يتحداه هو الله القويّ القاهر، وقد لقي مصرعه بأبشع صورة في غزوة بدر.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾: تكرير الردع لأبي جهل وزجره عن تهديد رسول الله، وليزيده الله غيظا وحنقا نهى رسوله عن الانصياع له وأمره بالمداومة على سجوده لله، أي الصلاة، والاقتراب منه بحسن طاعته وعبادته، وفي ذلك عزته وقوته، وغيظ أعدائه وخصومه، وجاء في الحديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد**»[1].

تثبت سجدة التلاوة عند نهاية السّورة هنا وفي سورة الانشقاق عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١). تثبت عند بعض القراء لحديث رواه أبو هريرة قال: «**سجدنا مع النبي ﷺ في: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ وفي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾**».[2] ولكننا بتلاوتنا في المغرب على رواية ورش عن نافع لا نسجد في الموضعين لما روي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لم يسجد النبي ﷺ في شيء من المفصّل منذ تحوّل إلى المدينة**».[3] والله أعلم.

---

(١)- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٤٨٢.

(٢)- الحديث: رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، رقم ٥٧٨.

(٣)- رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب من لم ير السجود في المفصل، رقم ١٤٠٥.

سورة القدر مكيّة، وآياتها ٠٥

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف وكتب التفسير سورة القدر، أي الفضل والشّرف وعلوّ المنزلة، وقد سمّاها بعض المفسّرين "سورة ليلة القدر"، التي أنزل الله فيها القرآن كما تقرّره الآية الأولى منها.

وهي مكيّة عند الجمهور، ورجّح ذلك الإمام جابر بن زيد، وعدّها الإمام نفسه الخامسة والعشرين في ترتيب نزول السّور، وهي السّابعة والتّسعون في ترتيب سور المصحف الشّريف، وآياتها خمس.

ومناسبتها لسورة العلق، أنّ الله أمر نبيّه في السّورة المذكورة بقراءة القرآن باسم ربّه الذي خلق، وأبان في هذه السّورة شرف الزّمان الذي بدأ فيه نزول القرآن.

ومحورها الأساسي التّنويه بشأن ليلة القدر ببدء نزول القرآن فيها، والإشادة بعظمة القرآن بإسناد إنزاله إلى الله، وفي ذلك ردّ ضمني على المكذّبين بإنزاله من الله، ومن التّجليات الغيبيّة الإخبار بنزول الملائكة وجبريل ﷺ بالأنوار والخير والبركات في هذه اللّيلة المباركة.

بدء نزول القرآن، وبركات ليلة القدر.

أ)– النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي
لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾
تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: ﴿إِنَّا﴾: الأصل فيه: إننا، حذفت النون لاجتماع النونات، ويراد بضمير الهاء القرآن، وإن لم يرد له ذكر من قبل للعلم به والشهادة له بأنه غنيّ عن التعريف، وكفاه شرفا وقدرا إسناد إنزاله إلى الله، ومعنى إنزاله أي بدء إنزاله ليلة القدر، أي العظمة والشرف، وتلتمس في العشر الأواخر من رمضان. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾: الاستفهام للتعظيم، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾: مبتدأ وخبر أيضا، أي: إن إدراك عظمة هذه الليلة ليس بالمتهل، ومعنى السؤال: أي شيء يعرّفك يا محمد ما هي ليلة القدر؟ مبالغة في التفخيم والتعظيم. ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: تكرر اسمها ثلاث مرات للاهتمام بمعرفتها وتعيينها، ﴿خَيْرٌ﴾: للتفضيل. ﴿مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: حذفت صفة: ﴿شَهْرٍ﴾، والتقدير: خير من ألف شهر خال من ليلة القدر. ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: ﴿تَنَزَّلُ﴾: الأصل تتنزل، حذفت إحدى التاءات للتخفيف. ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾: من عطف الخاص على العام؛ لأن الرّوح هو جبريل، وهو من جملة الملائكة، أي يتنزلون بأوامر الله مما قضاه فيها لتلك السّنة بكاملها. ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: مبتدأ وخبر، في ذلك معنى الحصر. السّلام: بمعنى السّلامة، أي هي خير وأمن وبركة من أولها إلى آخرها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَطْلَعِ﴾: قرأ الجمهور بفتح اللاّم، على أنه مصدر ميمي، أي طلوع الفجر، وقرأ الكسائي وخلف بكسر اللام على معنى: زمان طلوع الفجر.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ

ٱلْقَدْرِ﴾: إنها آيات جمعت من عبارات التنويه والتعظيم وتنسقت من أوصاف الشرف والتقديس ما يستحقه ذلك الحدث العظيم لأول اتصال الأرض بالملأ الأعلى في بدء إنزال وحي الله على قلب رسول الله ﷺ قرآنا معجزا في مبناه ومعناه متحديا بإعجازه جميع العالمين وشاهدا ببلاغة صياغته على أنه الحق والصّدق من لدن حكيم خبير، وتكاد هذه الافتتاحية المباركة للسورة الكريمة تفصح عن عظمتها وقدسيتها، وهي تذيع خبر ذلك الحدث المقدس على مسمع الدّنيا فيتجاوب معها الوجود، حمدا وتسبيحا للخالق المعبود.

ونلمس بلاغة التعبير، وعمق التصوير والتنوير في ما يلي:

أ)- التعبير بنون العظمة في: ﴿إِنَّا﴾، ومن فعل: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾؛ لأن المخبر هو الله الخالق العظيم.

ب)- التعبير بالإنزال للشيء، يكون من علوّ إلى أسفل لما يحمله المنزّل من الخير والبركة إلى المنزل إليه، ولم يفصح بالشيء المنزل بل أشير إليه بضمير الغائب: "الهاء" دون أن يسبق له ذكر في الجملة، لاشتهار ذلك الشيء المنزل وحضوره في أذهان المخاطبين، وهو القرآن العظيم.

ج)- تأكيد خبر الإنزال بـ"إنّ" والجملة الفعلية.

د)- وصف ظرف الإنزال بليلة القدر، ومن معاني القدر الشّرف والفضل وعلوّ المنزلة، كما يحمل -أيضا- معنى تقدير الأمور وتقريرها كما سبقت في علم الله الأزليّ.

هـ)- ولما لهذه اللّيلة من الشّرف والعظمة ما لا يحيط بحقيقتها الإدراك البشري فقد جاء الاستفهام التعظيمي عن شأنها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾، مع تكرار وصفها الذي أصبح إسما لها بالعلمية: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾، وفي الاستفهام إبهام يراد به التشويق إلى معرفتها، والمعنى: أي شيء يبلغك علمك بقدرها أيها المخاطب؟

والقدر بمعنى التقدير والتدبير، قد وردت الإشارة إليه في الآية الرابعة من هذه السورة وفي سورة الدخان بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٣-٤).

ولتوضيح الإبهام التشويقي في الآية السابقة، عدّد الله فضل ليلة القدر من ثلاثة أوجه فقال: **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾**.

أ)- أعطى الله فيها لأمة الإسلام من الأجر والثواب لمن أحياها متعبّدا ما يعادل ثواب ألف شهر في غيرها، على أن لفظ العدد "ألف" لا يدلّ في التعبير العربيّ على العدد المحدّد به في علم الحساب، وإنّما يدلّ على مجرّد الكثرة مثل عدد سبعين في قوله تعالى لرسوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة:٨٠)، وكقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (البقرة:٩٦).

ولا شك أن هذه الخيرية في الفضل والأجر والثواب الممنوحة لهذه اللّيلة المباركة كان لأجل ذلك الحدث العظيم الذي شهدته الأرض وتلقته البشرية في هذه اللّيلة بأول اتصال بالملإ الأعلى ليدويّ فيه صوت الحق مجلجلا في غار حراء فيهتز له الوجود بإشراق أنوار الهداية واندحار ظلمات الجهل والباطل، وإضفاء هذه الخيرية عليها هو من فضل الله تعالى وجوده وكرمه على هذه الأمة إعظاما لرسولها وتقديسا لكتابها حتى لا تغفل ولا تسهو عن مقوّمات شخصيتها إذ أحكم رسول الله رباطنا وتعلقنا بتلك الذكرى الغالية رباطا محكما باستحياء ذكراها والتطلع إلى وقتها في كل سنة، دون تحديد له بالضّبط حتى يجتهد المؤمنون في التماس أجرها، ذلك الأجر العظيم الذي قال عنه رسول الله في ما رواه الشيخان عن أبي هريرة: **«من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه»**.[1]

---

(١)- رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية، رقم ١٩٠١.

ب)- ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: أصل: ﴿تَنَزَّلُ﴾ تتنزل، بتاءين، تاء المضارعة والتاء الأصلية، حذفت إحداهما للتخفيف، وصيغة المضارع للاستمرار والتجدد، ونزول الملائكة إلى الأرض في هذه الليلة هو تعظيم لشأنها وإكرام لرسول الله والمؤمنين معه، إذ تحفّهم الملائكة، وفيهم أميـنهم وأشرفهم سيّدنا جبريل ﷺ وهو المعنيّ بلفظ "الرّوح"، فيغمرونهم بالخير والبركات ينزلون بإذن ربهم من كل أمر. والملائكة لا يتحركون إلا بإذن الله لتنفيذ أوامره في أرجاء الكون، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٧). والباء في: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ للسببية أو للمصاحبة، وإضافة: ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿أَمْرٍ﴾ يفيد الكثرة النوعية العامة من كلّ أمر من أمور الله في تدبير شؤون الكون أو أمر من أوامره اقتضته مهمّة التكليف لعباده.

ج)- ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: وأفاد هذا التعبير معنى الاختصاص، أي ما هذه الليلة إلا سلام، والسّلام بمعنى السّلامة من الشّرّ والأذى، وهو اللّفظ للتحية الإسلامية، كما أنه من أسماء الله الحسنى، أي إنّ هذه الليلة من بدئها إلى طلوع فجرها هي خير وبركة بجزيل الثّواب وكرم العطاء الإلهي للمؤمنين الذين يلتمسونها بشوق ويحيونها بالقربات إلى الله.

وبعد، فهذه هي ليلة القدر وهذه هي بركاتها كما تنصّ عليها هذه الآيات، والمؤمنون الأوفياء يلتزمون بالتّطلع إليها في مظانّها.

وقد ورد في تعيينها حديث طويل، كما نسج حولها من الخرافات والأوهام ما ليس له أساس من قرآن ولا سنة، وبما أن حادثة بدء نزول القرآن كانت في شهر رمضان المعظم كما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥). وفي كونها في العشر الأوائل أو الأواسط أو الأواخر أقوال مختلفة، وجمهور العلماء على أنها في أواخره، وفي أوتاره، ومنهم من اختار أنها الليلة السّابعة والعشرون.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرّافعي معتزا بأمّة الإسلام بنزول القرآن:

إنّـــا نحــن الأماجــد الألى نزلــت لنــا السّـما مــذ أنــزلا

ذلــك القــرآن أخلاقــا علــى كوكــب الأرض محمــد العــلا

وقد قال سيّدنا عمر ﷺ قولته المشهورة: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا بغير الإسلام عزّا أذلنا الله".

فاللّهم ثبت قلوبنا على دينك.

والله أعلم.

سورة البيّنة مكيّة، وآياتها ٠٨

– بين يدي السّورة الكريمة:

وردت لهذه السّورة عدة تسميات، فسمّيت في أكثر المصاحف سورة القيّمة، كما سمّيت في بعضها البيّنة، وفق ما جاء في مفتتحها، وروى الشّيخان عن أنس بن مالك أن الرّسول قال لأبيّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**»[1].

وقد يقتصر على: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ في بعض كتب التّفسير، وذكر الإمام ابن عاشور لها ستة أسماء بإضافة سورة أهل الكتاب وسورة البرية.

ووقع الاختلاف أيضا في مكّيتها ومدنيتها، ورجح الإمام ابن عاشور مدنيتها[2]، كما رجّح ذلك الإمام جابر بن زيد، وعدّها الواحدة بعد المائة في ترتيب نزول السّور.

وهي الثّامنة والتّسعون في ترتيب سور المصحف الشّريف، وآياتها ثمان، وهي تعالج المواضيع الآتية:

- بيان مواقف أهل الكتاب من رسالة الإسلام.
- اتفاق جميع الأديان في إخلاص العبادة له.
- بيان مصير السّعداء الأبرار، والأشقياء الكفار في اليوم الآخر.

ويتخلل ذلك التنويه بفضل القرآن على غيره من الكتب.

---

(١) – رواه البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب أبيّ بن كعب، رقم ٣٨٠٩.

(٢) – التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٦٧.

حكمة الله في التكليف، وعدله في الجزاء.

أ) - النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ
الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾
جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: ﴿مِنْ﴾ بيانية، ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: هم اليهود والنصارى كفروا برسالة محمد، ﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبر كان، منتهين زائلين عن كفرهم، وأصل الانفكاك: الإقلاع، ويقال: فكّه، إذا فصله وفرّقه. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: ﴿الْبَيِّنَةُ﴾: الحجة والبرهان مما يدلّ على الصدق. ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: بدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾، أو هو خبر على تقرير مبتدأ محذوف: هي

رسول، وتنكيره للتعظيم، والصحف المطهرة هي القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والجملة إما صفة أو حال لـ"رسول". ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: أي أجزاء القرآن أو سوره، ﴿قَيِّمَةٌ﴾: أي مستقيمة، أي كاملة في الحق والصواب. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾: التقدير: ما أمروا بشيء إلا ليعبدوا الله، الضمير يعود إلى أهل الكتاب والمشركين، ﴿مُخْلِصِينَ﴾: منصوب على الحال. ﴿حُنَفَاءَ﴾: جمع حنيف، من الحنف: أي الميل، ومعناه: مائلين إلى الإسلام ميلا لا خلل فيه. ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾: مبتدأ وخبر، والتقدير: الملة القيمة، حذف الموصوف وأقيمت الصفة مكانه. ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾: ﴿الْبَرِيَّةِ﴾: الخلق، من برأ الله الخلق، أي صوّرهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْبَرِيَّةِ﴾: قرأه نافع وحده وابن ذكوان عن ابن عامر بهمز بعد الياء "فعيلة"، من برأ الله، إذا خلق، فهو البارئ. وقرأه بقية العشرة بياء تحتية مشددة دون همز، أي على تسهيل الهمزة بعد الكسرة ياء، وإدغام الياء الأولى في الياء الثانية.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾**: نحن نؤمن بعالمية الدعوة الإسلامية وكونها خاتمة الرسالات السماوية على يد سيدنا محمد ﷺ وقد بعثه الله رحمة للعالمين في فترة أصبح العالم فيها يرزح في أغلال الضلال والجاهلية، ما بين أهل كتاب من يهود ونصارى انحرفوا عن منهج التوراة والإنجيل وتفرقوا من بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم، ومشركين ووثنيين يعكفون على أصنام لهم، وهم متشبثون بما وجدوا عليه آباءهم، ويتظاهر الفريق الأول على الفريق

الثاني بأنه ينتظر النبي الخاتم لنقلد، وأنهم سينصرونه ويقتلون كل من حالفهم من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩).

في سياق هذا الواقع التاريخي تأتي افتتاحية هذه السورة الكريمة سورة "البينة" لتعالج موقف كل من الفريقين.

أ)- الذين كفروا من أهل الكتاب، أي من اليهود والنصارى.

ب)- والمشركين ممن أشركوا مع الله غيره في عبادتهم، وفي طليعتهم العرب في مكة وأنحاء الجزيرة.

فالفريقان -وإن كانوا مشتركين في الكفر- فإن تغيير الصلة ما بين الفعل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واسم الفاعل: ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ يدل على أن كفر أهل الكتاب أحق من كفر المشركين، لأن كفرهم حادث بعد إيمانهم، وخبر: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ هو قوله تعالى: ﴿مُنفَكِّينَ﴾، وهو اسم فاعل: انفك، وهو مضارع فعل: فك، أي انفصل، فيقال: انفك الرجل عن فعل كذا، بمعنى تركه وتخلى عنه. ولم يذكر الله انفكاكهم عن ماذا؟، والمفهوم من السياق أنهم ينفكون عن كفرهم حين يأتيهم الرسول بما يتبين به الحق، وذلك ما تفيده أداة: ﴿حَتَّىٰ﴾ التي هي للغاية، وقد أشكل على المفسرين توجيه هذه الآية بالنظر إلى ما جاء بعدها، ولخص الإمام الرازي ذلك الإشكال بقوله: "وجه الإشكال أن تقدير الآية: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، أي التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا؟. لكنه معلوم، إذ المراد أنه الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول. ثم إن كلمة: ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾،

وهذا يقتضي أن كفرهم زاد عند مجيء الرسول ﷺ فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر، هذا منتهى الإشكال فيما أظن". ثم راح يشرح هذا التناقض.[1]

قلت: ليس هناك من تناقض، بل هو تقرير للواقع التاريخي مما كان عليه المشركون وأهل الكتاب، إذ كان كل من الفريقين يقول في إصرار وعناد: لا نترك ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد إلى أن يأتينا الرسول الذي بشرت به الأنبياء، ولكنهم أعرضوا وتنكروا لذلك الرسول الذي جاءهم بالحق وبالحجة الواضحة وهو سيدنا محمد ﷺ، وصفه الله بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، والتلاوة هي القراءة، والصحف جمع صحيفة، فهو يقرأ عليهم ما وعاه وحفظه قلبه الشريف من وحي الله المنزل عليه، والتعبير بالصحف للإشارة إلى ما كان يدونه كتاب الوحي بإملاء وترتيب من رسول الله في مختلف الصفائح من رق الغزال وألواح الحجر، والكتب المطهَّرة من كلّ باطل مما تحويه تلك الصحف، هي مواضيع الأحكام والإرشادات التي تحملها تلك الصحف، أو المقصود بها -والله أعلم- سور القرآن الكريم، ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٢-١٦).

فتبيّن مما تقدم أن لا تناقض في كلام الله، وإنما هو تقرير وحكاية لواقع تاريخي عاشه الفريقان، ذكره الله تعالى في معرض التقريع والتوبيخ.

وكان المفروض من أهل الكتاب -وقد كانوا يستفتحون على الذين كفروا بمجيء الرسول- كان من المفروض أن يسارعوا إلى الإيمان به، ولكنهم كانوا على العكس أكثرهم مناوئون له إذ لم يكن الرسول من بني إسرائيل كما كانوا يتمنون، ولذلك بيّن الله سبب ذلك فقال: **﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ**

(١)- عن كتاب: فهم القرآن الكريم، القسم الثالث، صفحة: ٩٧٣.

﴿الْبَيِّنَةُ﴾، أراد الله تسلية رسوله ببيان طبع أهل الكتاب من اليهود والنصارى من إنكارهم للحق بعد ظهوره ومعرفتهم له، فهم يعرفون الرّسول محمدا كما يعرفون أبناءهم، وقد جاءهم بالحقّ مصدقا لما معهم. فقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الرّاجح أنّ المقصود بها هو ما جاء في التفسير السّابق من أنها رسول الله، وعند استنطاقنا لواقع تاريخهم الطّويل فإننا يمكن أن نحمل البيّنة هنا على ما وقعوا فيه من الاختلاف والتفرق على رسلهم وأنبيائهم سيما في حق عيسى بن مريم عليه السلام فقد تفرقوا إلى شيع من قبل أن يأتيهم ومن بعد ما جاءهم، كما تمزّق النّصارى أنفسهم وما يزالون إلى يوم النّاس هذا.

وقد جاء في حديث لرسول الله مرويّ من طرق عدّة أنه قال: «**إنّ اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النّصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النّار إلا واحدة، قيل: ومَن هم يا رسول الله؟، قال: ما أنا عليه وأصحابي**».[1]

وبعد التّقرير لذلك الواقع التّاريخي للوصف جاء هذا التوبيخ الضّمني ببيان حقيقة الدّين الصّحيح وجوهره فقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾.

الأنسب أن تكون الواو في أوّل الجملة للحال، أي هذه الملل انحرفت عن منهج الله وأعرضت عن الإيمان بخاتم الأنبياء محمد ﷺ والحال أنهم كانوا يتشوّقون إلى مجيئه، وقد جاءهم مصدّقا لما معهم من إخلاص العبادة لله بالنّيّة الصّادقة في التوجّه إليه وطلب مرضاته، وأكّد صفة الإخلاص بقوله: حنفاء، وهو جمع: حنيف، أي مائلين عن الشّرك والوثنية إلى الإيمان والهدى ودين الحق، كما قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (الحج: ٣٠-٣١). ذلك في الجانب

(١)- رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو، كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة، رقم ٢٦٤١.

العقدي، وركز الله في الجانب العملي التطبيقي على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، خصّهما الله بالذكر لما لهما من الأثر البالغ في تزكية النفس والمال، وفي ذلك دليل على أنّ الدّين الكامل الصّحيح هو واحد في أصوله وجوهره في جميع الدّيانات السّماوية، ولقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ في إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، و﴿الْقَيِّمَةِ﴾ بمعنى المستقيمة التي لا عوج فيها، وهي وصف لموصوف محذوف تقديره: الملّة القيمة.

وبعد أن بيّن الله أسس الدّين الصّحيح من اعتقاد وقول وعمل، وقرّر وحدته ما بين الدّيانات كلها وموقف أهل الملل منه، أعقبه الله ذلك بذكر مآل الفريقين في الآخرة تحقيقا لحكمة الله وعدله وفضله فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.**

استئناف ابتدائي مصدر بـ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد، وتسبيق أهل الكتاب بالذّكر في استحقاق وعيد جهنّم هو لمجاراة ما سبق من أول السّورة، وفيه عرض لأحوالهم ومواقفهم، ثم هو ردّ ضمنيّ على اعتقادهم بأنّهم لن تمسّهم النّار إلاّ أياما معدودات فقد نزّلوا مع المشركين الوثنيين في قرن واحد، قال قطب الأئمة: "ولا كتابيّ بعد البعثة إلاّ مشرك إذا لم يؤمن برسول الله ﷺ".[1]

فالكلّ في نار جهنم خالدين فيها، والوعيد يتعلق بالمستقبل، وجملة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخلق من البشر، تأتي هذه الجملة كالتّعليل وكالنّتيجة لما اختاروه لأنفسهم من الكفر والضّلال، وفي المقابل يأتي جزاء السّعداء الأبرار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

---

(١)- تيسير التفسير: ١٦/٣٢٨.

إنه العدل الإلهي في فصل القضاء بين عباده في تلك المحكمة الرهيبة يوم لا تملك نفس لنفس شيئا إلاّ بأن تستوفي شروط البراءة والنجاة وتتحقق فيها الخيرية في حكم الله العادل، وذلك بتحقيق الإيمان الصّحيح اعتقادا راسخا يسري في الكيان، لا مجرد الانتماء أو الادّعاء باللّسان، الإيمان الرّاسخ الذي يتجسّد في السّلوك وتترجمه الأعمال الصّالحة وفق منهج الله بما أمر به أو نهى عنه، وذلك هو معيار الخيرية عند الله، والتي تستحق الجزاء الأوفى في جنات النّعيم حيث الإقامة الدّائمة في رفرف الخلد والرّضوان، فيجتمع بذلك النّعيم الحسّيّ والنّعيم المعنويّ والذي يتمثل في ذلك الرّضى المتبادل في صلة حميمة بينهم وبين ربّهم، وتلك هي أعلى المراتب التي هي ثمرة الخشية النّابعة من السّويداء والأعماق تدفع إلى كلّ خير وصلاح، وتعصم عن كلّ انحراف أو انزلاق. فاللّهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به دار رحمتك.

والله أعلم.

سورة الزّلزلة مكيّة، وآياتها ٠٨

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة الزّلزلة بالمعنى، وبسورة "الزلزال" باللّفظ المذكور في افتتاحيتها، وقد تسمّى: "إذا زُلزِلَت"، واختلف الرّواة في مدنيتها ومكيتها، غير أن موضوعها وأسلوبها يرجح أنها مكيّة، وآياتها ثمان، وتعدّ الرّابعة والتّسعين عند الإمام جابر بن زيد، وهو يعدّها مدنيّة، أما في ترتيب سور المصحف فهي التّاسعة والتّسعون.

أما مناسبتها لما قبلها فإنه تعالى ذكر في آخر سورة البيّنة وعيد الكافرين وجزاءهم ووعد المؤمنين وجزاءهم، وبيّن هنا موعد ذلك الجزاء مع بعض أماراته.

وتعالج السّورة:

– إثباته مجيء يوم القيامة وذكر بعض أشراطه.

– انبعاث الخلائق من قبورهم وحضورهم في المحشر مجازاتهم على أعمالهم.

بيان أشراط السّاعة، والجزاء على الخير والشّر.

أ)– النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: الزلزال: هو التحرك والاضطراب الشديدين عند النفخة الأولى للصعق وهو الارتجاج في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ (الواقعة: ٤). ﴿زِلْزَالَهَا﴾: منصوب على المصدر. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: جمع ثقل، والمراد انشقاق الأرض لتقذف ما في بطنها من معادن ومن الأموات. ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾: جواب: ﴿إِذَا﴾. ﴿أَخْبَارَهَا﴾: مفعول ثان لـ﴿ تُحَدِّثُ﴾، والتقدير: تحدث الناس أخبارها. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: بدل من السابق، ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾: يقال: صدر عن مكان ما، إذا تركه، ومنه الصَّدر عن الماء بعد الورد، وهو الذَّهاب إلى الماء، كما قيل: لا تقرب الورد حتى تعرف الصدرا. ﴿أَشْتَاتًا﴾: منصوب على الحال، جمع: شت، أي متفرقين. ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: ﴿مِثْقَالَ﴾: من مقادير الوزن. ﴿ذَرَّةٍ﴾: من التعبير العربي: النملة الصغيرة، أو الهباءة التي تظهر في ضوء الشَّمس، وهي اليوم في المصطلح العلمي جزء صغير من المادة.

ج)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾**:

إنه المشهد المهول لقيام السَّاعة؛ وقد تصدَّر الحديث عنه بـ﴿إِذَا﴾ الدَّالة على الزمان المستقبل، وتوالت جمل الشَّرط بعده قبل مجيء الجواب زيادة في التهويل والتفخيم، مشهد يصوّر هذه الأرض الوديعة القارة تمور وتضطرب في هزة عنيفة تحت الأقدام فتهتز معها القلوب الجاحدة المنخدعة لثبات الأرض وقرارها بل لبقائها ودوامها، فإذا بالوعد الذي كانت تستعجله في سخرية واستهزاء بدأت أشراطه، وإذا الطَّامة الكبرى تترصد الجاحدين الأشقياء وهم لا يكادون يصدقون حين تنشق الأرض وتلفظهم من قبورهم وتتخفف من كل ما تحويه في بطنها من أثقال بعدما

اندكّ ما كان على ظهرها من جبال. وحيال هذا المشهد المهول، ماذا للإنسان المفجوع أن يفعل أو يقول؟. إنه يسأل سؤال الحيران المبهوت: ما لها؟، أي: ماذا أصابها حتى حدث لها هذا الزلزال الذي لا يشبه ما عهدناه في الدّنيا من الزّلازل الضيقة المحدودة؟.

وأمام ذلك الموقف الحائر الطّائش تفصح الأرض عن حالها بالمنطق الذي يقدرها الله عليه، وهو الذي ينطق كل شيء، فتحدث الخلائق أخبارها: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ومتعلق ذلك الوحي هو أمر الله التكويني في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢). فقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ هو جواب الشرط: ﴿إِذَا﴾.

ويبدو أنّ هذه الجمل في ألفاظها وسجعها القويّ المتسق قد لخصت ما فصّلته الآيات الأخرى من مشاهد القيامة مما يحدث في النفخة الأولى والثانية، كما نلاحظ التّركيز على هلع الإنسان وحيرته أمام ذلك المشهد المهول كما جاء مفصلاً في فواتح سورة الحج بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (١-٢). وفي حديث عن أبي هريرة ﷺ، قال: «**قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، قال: أتدرون ما أخبارها؟. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنّ أخبارها أن تشهد على كلّ عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها**».[1]

وعلى اختيار صيغة البدلية تأتي جملة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾، وبما أن المحور الأساسيّ للسّورة هو إثبات البعث والحشر، فإن تقدم

(١) - رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة إذا زلزلت الأرض، رقم ٣٣٥٣

الظرف: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على متعلّقه هو للدلالة على الاهتمام بتركيزه هذه الحقيقة العقدية في نفوس المخاطبين، وصدور الناس أشتاتا هو خروجهم من قبورهم متفرقين عند نفخة البعث إلى موقف الحساب، وكونهم أشتاتا يراد به -والله أعلم- تصنيفهم على أمم تأتي كل أمة برسولها، أو تصنيفهم على الإيمان والكفر والسعادة والشقاوة، أو هو الإتيان فرادى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام: ٩٤). وقوله تعالى: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾، ونائب الفاعل هو الله تعالى، فهو يوم العرض لصحائف الأعمال والإشهاد عليها بما لا مجال فيه لظلم أو عدوان، بل هو العدل الإلهي والقسطاس المستقيم في الحساب والجزاء.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾: يقول المولى تبارك وتعالى في دقة الحساب وفصل القضاء في معنى هاتين الآيتين: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

فإراءة الأعمال في يوم العرض فرّع الله عنها هذا التفصيل الدّقيق باستعمال آليات الحساب والوزن المعهودة لدينا وهي المثقال والذّرة، غير أنّ ما عند الله هو أدق وأضبط، ومن نوقش الحساب عذّب، كما قال رسول الله، وحسب الإنسان حسرة وكمدا أن يواجه بعمله فلا يملك له تبريرا ولا عذرا، فهو لا يقوى على مواجهة ذلك مع نفسه وضميره، فما باله إذا كان ذلك أمام الأشهاد: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

وفي الآية المتقدمة تحريض على فعل الخير، وإن كان ضئيلا، وفيها تحذير شديد من فعل الشرّ مهما حقره صاحبه، وقد وردت في ذلك توجيهات كثيرة من رسول

الله، منها: «**لا يحقرن أحدكم معروفا ولو أن يلقى أخاه بوجه طلق**».[1]

وقال في ما رواه أحمد عن ابن مسعود: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**».[2]

ويبقى الجزاء على الخير والشرّ بالنّسبة للمؤمن واضحا معقولا برجحان حسناته على سيئاته، وعفو الله عنها إن شاء الله، فما جزاء الكافر على ما يقدّمه من حسنات؟.

وقد حسم ابن عباس هذه الإشكالية إذ قال: "ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرًّا إلا أراه تعالى إياه، فأمّا المؤمن فيغفر به سيئاته ويثاب بحسناته، وأمّا الكافر فترد حسناته ويعذّب بسيئاته".[3]

والله أعلم.

---

(١)- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم ٢٦٢٦.

(٢)- رواه أحمد، رقم ٣٨١٨.

(٣)- التفسير المنير ٣٠/٣٦٣.

سورة العاديات مكيّة، وآياتها ١١

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة العاديات، وقد تزاد واو القسم فيقال سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، حكاية للفظ افتتاحيتها، واختلف أيضا في مكيتها ومدنيتها، فرجح البعض مدنيتها، على أنّ الغزو بالخيل عند المسلمين لم يحدث إلا بعد الهجرة إلى المدينة. ويرى من يقول بمكيتها أنّ الموصوف في المقسم به هي الإبل تحمل أثقال الحجيج من عرفات إلى مزدلفة إلى منى، وآياتها إحدى عشرة آية، وعدت الرّابعة عشرة في ترتيب نزول السّور، والمائة في ترتيب سور المصحف الشّريف. وهي تتضمّن:

- القسم الإلهي بالخيل الغازية على ذمّ خصال للإنسان في دنياه، تفضي إلى خسارته في أخراه، وهو شاهد على نفسه في ذلك.

- تذكير النّاس بما ينتظرهم من الحساب والجزاء على أعمالهم، تحريضا للمؤمنين على فعل الخير، وتهديدا للجاحدين للكفّ عن فعل الشّرّ.

جحود الإنسان لنعم الله بحبّه الشّديد للمال، وإهماله الاستعداد للآخرة.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا
(١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ
جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ

لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي
الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾: ﴿الْعَادِيَاتِ﴾: صفة لموصوف مقدّر، أي الخيل العادية، من العدْو، وهو السّير بسرعة، ﴿ضَبْحًا﴾: منصوب على المصدر، والضّبح: صوت أنفاس الخيل عند عدوها، و﴿الْمُورِيَاتِ﴾: أي تقدح النّار بحوافرها لشدة احتكاكها بحجارة الأرض، قد جاء منصوب أيضا على المصدرية للتأكيد. ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾: داخل في القسم والجملة حالية. ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾: من الإغارة، وهي الهجوم على العدوّ، ﴿صُبْحًا﴾: منصوب على الظّرفية. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾: الضّمير في: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى العدْو، والباء سببية، والنّقع هو الغبار المتطاير من سنابك الخيل، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾: أي من جموع الأعداء، و﴿جَمْعًا﴾: منصوب على المفعولية. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾: جواب القسم "أل" في "الإنسان" للجنس، تفيد الاستغراق، ﴿كَنُودٌ﴾: جحود كفور لنعمة الله، واللام للتقوية، وهو يشهد على نفسه بذلك. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾: الخير المقصود به المال، واللام في: ﴿لِحُبِّ﴾ للتعليل، والمقصود: إن الإنسان بخيل لأجل حبّه للمال. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾: أي هذا الإنسان الكنود، والاستفهام إنكاريّ وحذف مفعولا: ﴿يَعْلَمُ﴾، وتقديرهما مما يقتضيه المقام، وهو المجازاة على الأعمال، المفهومة من مضمون الجمل الثلاث، وبعثرة ما في القبور بمعنى خروج الأموات من قبورهم عند نفخة البعث، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (الانفطار: ٤). ﴿إِذَا﴾: هنا ظرف زمان، وهي لا تقتضي شرطا ولا جوابا. ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾: ﴿رَبَّهُم﴾: الضّمير يعود إلى المبعوثين من قبورهم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف يتعلق

بـ﴿خبيرٌ﴾، أي عليم بدقائق الأمور وحقايقها، وليس المقصود حصر خبرة الله باليوم الآخر، لأنّه تعالى خبير في الدّنيا والآخرة، ولكن المقصود هو ما يترتب على ذلك من مجازاتهم؛ لأنهم كانوا ينكرون ذلك في الدّنيا.

ج)- البيان والتّفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا، إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾**:

تذكر الرّوايات في أسباب النّزول عن جابر بن عبد الله ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ بعث خيلاً سرية إلى بني كنانة وأمّر عليها المنذر بن عمرو الأنصاريّ، فأسهبت في سهب شهرا وتأخّر خبرهم فأرجف المنافقون وقالوا: قتلوا جميعا، فأخبرهم الله عنهم بقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، إعلاما بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات.[1]

قلت: وهذه الرّواية ترجّح مدنية السّورة لأنّ السّرايا لم يبعثها الرّسول إلاّ بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة، يقسم الله في مفتتح السّورة بثلاثة أشياء هي أنشطة للخيل الغازية تتجه نحو المعركة في جري سريع ويسمع صوت زفيرها الشّديد بأنفاسها المتصاعدة قارعة بحوافرها حجارة الأرض الصّلبة فتقدح النّار بشدة الاحتكاك، وهي تغير على جموع العدوّ في الصّباح الباكر حتى تباغته على غرّة، فتخترق صفوفه وتتوسط جموعه، وقد علا وثار غبار المعركة عند المواجهة. ومشهد الخيل وهي على تلك الحالة من النّشاط والاندفاع، وهو يعكس واقعا يعيشه المخاطبون في سبيل النهب والسّلب، غير أنه هنا يوحي بقيم أخرى هي أفضل اعتبارا عند الله لنشر الهدى والفضيلة ونصرة الحق والعدل سوف يكشف عنها الغيب وتستشرفه الدّعوة

(١) - أورده الواحدي عن مقاتل، أسباب النزول: ص ٣٠٥.

الإسلامية.

ثم يأتي المقسم عليه أيضا على أمور ثلاثة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ. وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، فالمقسم عليه صفات نفسية متمكنة من الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان، وتدسّى نفسه بالضلال والفجور، وجاءت الجمل في المقسم عليها مؤكدة بـ"إن" واللام، وبتقديم الجار والمجرور على الخبر للاهتمام بمضمونها و"ال" في الإنسان تفيد العموم العرفي، أي بتخصيص الإنسان الكافر الذي يتصف بالكنود، وهو كفران النعمة وجحودها، على أن اختيار صفة الربوبية للذات العلية في هذا المقام مناسب لمعنى الرّعاية والحنوّ على الخلق كافة فضلا منه تعالى ومنّة دون مراعاة لموقفهم من تلك النعمة، ويتمثّل ذلك الكنود في مظاهر شتى من الأقوال والأفعال التي تعكس ما يكون في النفس من الدّوافع الخبيثة والخواطر السّيئة، فإذا بكلّ ما يصدر عنه من حركات وتوجهات تشهد على ذلك مهما حاول أن يتظاهر بغير ذلك لأنه كما قال زهير الحكيم:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة — وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والأرجح أنها شهادة الحال في الدّنيا، وهي أصدق وأبلغ من شهادة المقال يوم القيامة كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، أو كما قالوا: إن الضّمير في "إنه" يعود إلى الله، أي يشهد على كنوده فيعاقبه عليه.

والصّفة الثّالثة اللازمة لهذا النّوع من الإنسان هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، ومن معاني الخير المال الكثير، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠). وحبه الشّديد للمال سببه الحرص على نفسه والمبالغة في حبّ ذاته وحبّ البقاء، وعلى هذا المعنى تأخذ اللام معنى: "في"، أي: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، ويرى البعض أن اللام للتعليل، فيكون "شديد" بمعنى بخيل شحيح، لأجل حبّه

الشديد لملك المال، وإذا اعتبرنا اللام للتقوية فيكون المعنى: أن الإنسان قويّ الحب للمال، يستنفذ كل طاقته في كسبه وجمعه. وكل الاحتمالات صحيحة، والله أعلم.

فهذه هي الصفات الغالبة على طبع الإنسان، ما لم يمتعه الله بنور الإيمان، فيظل حبيس نزواته حلس شهواته لا يهتم بالقيم الحقيقية التي تنقذه من وهدة الحيوانية وتخلصه من براثن الأثرة والأنانية، ومن ثمّ يقرّع الله هذا التهديد لهذا الصنف من الناس في صيغة الاستفهام الإنكاريّ ويقول: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

إنّه تنبيه للغافل وردع للكنود الجاحد ودفع له أن يعرف وقت بعثرة القبور ليخرج ما حوته من أموات ليوم الجمع والعرض يوم يكشف ما انطوت عليه الصدور من أسرار وما جاءته من نوايا وما يترتب على ذلك من حساب وجزاء، إنه لأمر عجيب أن يغفل عن ذلك هذا الإنسان، ولم يذكر مفعول "يعلم"، لتذهب النفس في تقدير ذلك كل مذهب بما يهزّها مما يقتضيه المقام من التهويل والتهديد، والاقتصار على كشف أعمال القلوب لأنها هي المحرّك المسؤول عن أعمال الجوارح، كما ورد في الحديث الشريف.

ثم يجيء هذا الختام بتقرير تلك الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، والضمير "إنّ" في: ﴿رَبَّهُم﴾ و﴿بِهِمْ﴾ يعود إلى المبعوثين من قبورهم، وقدّم الجار والمجرور للاهتمام بهما.

والخبرة بالأعمال تقتضي المجازاة عليها، والله خبير بأحوال خلقه في كل وقت، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لإفادة أن تلك الخبرة في ذلك اليوم تعقبها مجازاة؛ لأنهم كانوا ينكرون ذلك في الدّنيا.

والله أعلم.

سورة القارعة مكيّة، وآياتها ١١

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة "القارعة" تسمية واحدة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السّنة، وذلك لافتتاحية السّورة بها بأسلوب التخويف والتهويل بحادث يوم القيامة. وهي مكيّة باتفاق، وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وتعدّ الثلاثين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة "قريش"، وهي الواحدة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف. ومناسبتها لما قبلها أن سورة "العاديات" ختمت بذكر يوم القيامة وما يتمّ فيه من الحساب وفصل القضاء، وهذه اقتصرت على وصف يوم القيامة ومآل الخلق فيها، ويتفرّع مضمونها إلى فرعين:

أ)- الحديث عن القيامة وأهوالها، وكيف ينتشر النّاس بعد الخروج من قبورهم، وكيف تنسف الجبال لتسوية الأرض.

ب)- ذكر الموازين التي توزن بها أعمال النّاس، ووفق معاييرها ينقسمون إلى سعداء وأشقياء.

أهوال القيامة، وحشر الخلائق لموقف الحساب والجزاء، وميزان حسابهم.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا
الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن

ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾: ﴿الْقَارِعَةُ﴾: مبتدأ. ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾: استفهام تعجبي، معناه: أي شخص أعلمك ما هي القارعة، وهو مستعمل للتهويل. ﴿الْقَارِعَةُ﴾: من القرع، ضرب جسم بآخر بشدة، وأطلقت القارعة على الحدث العظيم، ومنها: أصابت القوم قوارع الدّهر. ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾(الرعد:٣١). ويقال: فلان قرعه أمر أي أتاه فجاءة. ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾: في موضع نصب خبر: ﴿يَكُونُ﴾. ﴿الْفَرَاشِ﴾: فسّره الإمام ابن عاشور بفرخ الجراد حين يخفس بيضه يخرج من الأرض يركب بعضه بعضا، بناء على قوله تعالى في آية أخرى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (القمر:٧)، والفراش يطلق على الحشرة المعروفة والتي تتهافت على النار. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾: العهن المنفوش الصّوف ذو الألوان المختلفة، والمنفوش: المتفرق المضروب بالمنداف للغزل أو لحشو الوسائد والمضاجع. ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: ثقلت موازينه: بمعنى رجحت كفة حسناتهم عن كفة سيّئاتهم فهم من السّعداء النّاجحين، والعكس هم الذين خفت موازينهم، أي خالية من الحسنات فهم من الأشقياء الهالكين. ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: الكلام تمثيل للشقاء والهلاك؛ لأن العرب يكنّون عن حال المرء بحال أمّه في الخير والشّر لفرط حبّها لولدها فيقولون: ويل أمّه. و﴿هَاوِيَةٌ﴾: هي الهوّة العميقة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَاهِيَهْ﴾: الهاء التي لحقت الياء هي هاء السكت، وجمهور القراء أثبتوا النطق

بحذف الياء في حالتي الوقف والوصل، وقرأ حمزة وخلف بإثبات الهاء في الوقف وحذفها في الوصل.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ، يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾: افتتح الله السّورة بهذه الكلمة المفردة ليقرع بها آذان السّامعين، وهي توحي بجرس لفظها أنّ حدثًا عظيمًا قد وقع ففاجأ النّاس وهم مقبلون على أنشطتهم كالعادة، ولكن دويّ القارعة قد هالهم وفاق كل تصوراتهم في تقدير ذلك الهول مما يدلّ عليه سؤال التّهويل الذي يحوّل الانتباه إلى معرفة ما حدث: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾. ثم يوغل في التّضخيم والتهويل بسؤال التجهيل: ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، وهو يكرّر الاسم ثلاث مرات ليعتبر. ﴿أَدْرَاكَ﴾: معناه وحقيقته فوق تصوّر المستمع؛ لأنها أعظم مما عرفوه وألفوه في حياتهم. وموقف العناد والاستكبار من المشركين في انطلاقة الدّعوة الإسلامية بمكة يقتضي مثل هذا الأسلوب من التّرويع والتهويل؛ لأن إنكارهم كان ممزوجًا بالسّخرية والاستهزاء.

وبعد ذلك الإبهام والتهويل -وقد تطلّعت النّفوس إلى التّوضيح والبيان- تأتي الإجابة بعرض بعض ما يحدث فيها من جراء ذلك الانقلاب الكوني العظيم، فبدأ بعرض مشهد النّاس. والرّبط بـ﴿يَوْمَ﴾ الدّال على الظّرفية الزّمانية، والتّقدير: تقرع القارعة يوم يكون النّاس كالفراش المبثوث، فهذا اليوم غير محدّد لدى السّامعين إلا بما يحدث لهم فيه من تيه واضطراب، وهم يخرجون من قبورهم ويسيرون في كلّ اتجاه كالفراش حين يفقس بيضه فيخرج يرقات يركب بعضه بعضًا، وكذلك تهيم الخلائق على وجهها يومئذ لا تدري إلى أين تتجه كما قال تعالى في وصف آخر: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ، مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ

عَسِرٌ﴾ (القمر: ٧-٨).

يقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار في كتابه القيّم: (تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم)، يقول تعليقا على هذه الآية: "يعجب الإنسان من هذا التشبيه القرآني المعجز للناس في لحظة البعث والاندفاع من القبر بالفراش المبثوث، والذي له أبسط دراية بدراسة الفراش ودورة حياته يلمح جانبا من الإعجاز العلمي في هذا التشبيه، فيشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق تعالى".[1]. ويقول الرسول ﷺ: «**يحشر الناس حفاة عراة غرلا**».[2]

والمشهد الثاني هو قوله تعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**﴾، خصّص الله بالذكر الجبال؛ لأنها من أعظم المظاهر الطبيعية وأرسخها على وجه الأرض ويضرب بها المثل في الثبات والشموخ، فشبهها الله في تصدّعها وتفتتها يومئذ بالعهن المنفوش، أي الصوف المندوف الذي تفرقت أجزاؤه للغزل أو الحشو، ويلاحظ فيها تعدّد الألوان. وقد تعدّدت في القرآن وصف صيرورة الجبال يوم القيامة، وهي محل التساؤل من الكفار، وذكر تشبيهها إلى جانب تشبيه حال الناس يومئذ هو لإبراز شدة الهول يومئذ، وإلا فما حجم الإنسان في ضآلته وضعفه أمام صلابة الجبال وضخامتها؟.

وتأتي في خاتمة السورة بيان التقييم لأحوال الناس وتقرير جزائهم العادل: ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَآ أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ، نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾.

ميزان التقييم عند الله هو حصيلة ما قدّمه الإنسان من أعمال، إمّا أن تكون

---

(١)- تفسير الآيات الكونية: ٤/٥٦١.

(٢)- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾، رقم ٣٣٤٩.

حسنات ومبرات وفق ما كلّفه الله به ثقلت بها كفّته فرجحت عن كفة السّيئات، فهو من السّعداء النّاجين إلى عيشة راضية في جنات النّعيم، وإمّا أن يكون قد ركب هواه في دنياه فخفّت كفّة حسناته برجحان كفّة السّيئات فهو من الأشقياء الهالكين، وجاء التّعبير بقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾؛ لأن الأمّ هي حضن ومفزع الولد يأوي إليها ليجد الأمن والأمان، ولكن الشّقي أمّه هي الهاوية، أي الهوة السّحيقة في قعر جهنم -والعياذ بالله-.

وأعقبها استفهام التّهويل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾، فسّره بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، ووصفها بذلك لبيان شدّتها وعدم مقارنتها بنار الدّنيا.

والله أعلم.

سورة التّكاثر مكيّة، وآياتها ٠٨

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في أغلب المصاحف وفي كتب التفسير سورة "التكاثر"، كما ورد في افتاحيتها، أي التفاخر والانشغال بالأموال وزينة الدّنيا، وقد تسمّى في بعض كتب السّنة وفي بعض المصاحف: سورة "ألهاكم"، وهي مكيّة، وآياتها ثمان. وتعدّ السّادسة عشرة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة الكوثر، وهي الثانية بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف. ومناسبتها لما قبلها أن سورة القيامة أخبرت عن القيامة وعن جزاء السّعداء والأشقياء، وأما هذه فتذمّ العمل للدنيا وحدها، وتحذّر من الغفلة عن الآخرة. وتناولت السّورة أغراضا ثلاثة:

أ)– التوبيخ على اللّهو والانشغال عن النظر والتفكير في المصير الأخرويّ بإيثار الأموال وزينة الدّنيا.

ب)– التحذير والإنذار مما يتعرض إليه الخلق من دقة الحساب على جميع الأعمال وعن نعيم الدّنيا.

حـ)– التهديد برؤية الجحيم يقينا والحث على التدبّر في ما يحميهم منها.

عواقب الانشغال بالدّنيا، ودقّة الحساب عن النعيم.

أ)– النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلْهَاكُمُ
التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ، حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾: أي شغلكم عما يجب عليكم القيام به، يقال: لهي يلهى لهيانا، في الثلاثي، ويقال: ألهاه غيره، في الرباعي المتعدي. ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: التنافس في الإكثار من الشيء المرغوب فيه، وزيارة المقابر: جمع مقبرة، كناية عن الموت والحلول في قبورها. ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾: ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، ﴿سَوۡفَ﴾: تدلّ على التسويف، أي المستقبل البعيد، وحذف مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ لتقديره اللهيّ لدى السامع، أي تعلمون عاقبة انشغالكم بالدّنيا. ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾: ﴿لَوۡ﴾: تفيد الشرط، وجوابه محذوف للتهويل على المخاطبين ليذهبوا في تقديره كل مذهب، والتقدير: لو تعلمون علم اليقين لتبين لكم ما ينتظركم من سوء العواقب. ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾: منصوب على المصدر، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته. علم اليقين: هو المطابق للحقيقة والواقع الذي لا شك فيه. ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾: استئناف بياني. ﴿لَتَرَوُنَّ﴾: جواب لقسم محذوف تقديره: والله لترون. و﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾ من أسماء جهنم، والعياذ بالله. ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾: الجملة معطوفة على ما قبلها، حذفت منها نون الرفع لتوالي النونات. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: أي يوم القيامة، والنّعيم: كلّ ما يتنعّم به الإنسان من متع الدّنيا وملذاتها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾: قرأ الجمهور بفتح المثناة الفوقية، وقرأه ابن عامر والكسائي بضمّ المثناة، من: أراه.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، افتتحت السورة الكريمة بالخطاب التلويحي التوبيخي من الله تعالى لخلقه بصفة عامة بما فتنوا به من زينة الدنيا، إذ شغلت أكثرهم عن القيام بواجباتهم نحو الله، ونحو ما يهيئهم للحياة الباقية. غير أنّ هذا الإخبار التذكيري يتجه أولًا إلى المشركين الجاحدين والشاكين لليوم الآخر، ويؤيد ذلك ما يأتي في وسط السورة وفي آخرها من غلظة الوعيد بورود الجحيم مما لا يليق بالمؤمنين يومئذ، ولكن العصاة منهم والمتمنين على الله الأماني الكاذبة يشملهم ذلك التلويم والتوبيخ -لا محالة-، سيما إذا ماتوا على غير توبة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، هو كناية عن الموت، والتعبير عنه بزيارة القبور يدلّ على ما سيعقب زائري القبور من الحياة الثانية؛ لأن الزائر لا يلبث عند مزوره إلا لوقت معيّن يعود بعدها إلى مقصده، وقد علق أعرابي عندما سمع هذه الآية فقال: بعثوا وربّ الكعبة. فقيل له في ذلك فقال: لأنّ الزائر لابد أن يرحل، وقال عمر بن عبد العزيز: لابدّ لمن زار أن يرجع إلى جنة أو نار.

وفي الآيتين توبيخ وتحذير من عواقب الافتتان بالدنيا إلى حد الالتهاء عن طاعة الله والانشغال عن القيام بالتكاليف الشرعية، وقد تعدّد مثل ذلك التحذير في كثير من نصوص القرآن والسنة إذ قال تعالى:

أ)- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون:٩).

ب)- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن:١٤).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول العبد: مالي، مالي،**

وإنّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».(١)

وعن أنس أنّ النبي ﷺ قال: «**يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: على المال، والحرص على العمر**».(٢)

فالحرص والأمل -إذن- من طبيعة النّفس البشرية، إذ هما الطّاقة التي تحرّك الإنسان لخوض غمار الحياة ومواجهة متاعبها، وإلاّ لاستسلم لأدنى المثبطات تعترض طريقه، والإسلام لا يكبت تلك الطّاقة بالدعوة إلى الرهبنة والزّهد، ولكنه يرشدها ويؤطرها في حدود القصد والاعتدال، ويرغّب في الجدّ والعمل حتى في أصعب المواقف وأعسر اللّحظات، فيقول المولى تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢).

وإذا كان التّكاثر ممنوعا في التّكالب على الدّنيا وزينتها، فهو محمود في مجال المبرات والقربات، كما وصف الله بذلك أنبياءه ورسله في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وأما زيارة القبور من طرف الأحياء في مناسبات للاعتبار والاتعاظ فهي مباحة مرغوب فيها شريطة مراعاة الآداب الشّرعية، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها ترقّ العين، وتدمع العين وتذكّر الآخرة، ولا تقولوا هجرا**».(٣)

والزّيارة مباحة للرجال والنّساء شريطة عدم الاختلاط والكف عن كل المنكرات

---

(١)- رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب يقول ابن آدم: مالي، مالي، رقم ٢٩٥٨.

(٢)- رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، رقم ١٠٤٧.

(٣)- رواه أحمد، رقم: ١٣٤٨٧.

التي يمارسها البعض من تقديس القبور أو تزيينها أو التوسّل بها كما يفعل كثير من الجهلاء، إذ أوصى رسول الله في القبور أن تبقى بسيطة لا تميز فيها بين غني أو فقير. وعلّم زوجه عائشة أن تقول: «**السّلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم لنا فرط ونحن اللاحقون. اللّهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم**».[1]

وبعد هذه الافتتاحية الزاجرة يأتي الوعيد بما بعد الموت: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾: ﴿كَلَّا﴾ للردع والزّجر، تكررت ثلاث مرات، لإبطال ذلك التكاثر، أي كفوا عن ذلك التهافت على حطام الدّنيا، وكرّر الجملة الردعية مرتين مراعاة لواقع المخاطبين وهم لا يؤمنون بما يستقبلهم من المحاسبة ومن المتابعة على أعمالهم، وقد حذف المفعول من جملة: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لتقديره الذهني لديهم، أي تعلمون مغبّة لهوكم بالتكاثر، فالتكرار لأجل الضغط وللمبالغة للفت الانتباه، ولكن ابن عباس يرى أنّ الجملة الأولى يراد بها التنبيه إلى ما ينتظرهم من عذاب القبر، ويراد بالثانية ما ينتظرهم في موقف الحساب، والله أعلم.

﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾: تأكيد العلم هنا بالمصدر: ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، أي العلم المطابق للواقع والمبيّن للحقيقة المخبر عنها. إذ اليقين هو ما يحصل به الجزم القلبيّ الذي لا يشوبه شك. و﴿لَوْ﴾ أداة شرط حذف جوابها لتذهب نفوس المخاطبين في تقديره كل مذهب زيادة في التهويل عليهم يرتدعون عن انشغالهم بالتكاثر. والتقدير: لو تعلمون علم اليقين لتبيّن لكم أمر فظيع.

﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾: اللام واقعة في جواب قسم محذوف؛ لأنّ الجملة استئناف بيانيّ لا علاقة لها بـ"لو" الشرطية، والتقدير: والله لترون الجحيم. وليس المراد معاينتها فحسب بل هو الوقوع فيها -والعياذ بالله-، والرؤية التي تكون عين اليقين هي تكون بالمعاينة الحقيقية للشيء، وهي تأكيد للجملة السابقة،

(١)- رواه أحمد، رقم ٢٤٤٢٥.

والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على توالي الترويع للمكذبين من بداية البعث إلى قرارهم في النار.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾: بما أنّ الدافع للتكاثر لدى الإنسان هو الاستمتاع بملذائذ الحياة والتنعم بزينتها وهو بإزاء ذلك إما شاكر أو كافر، وكلاهما مسؤول عما استمتع به من نعيم الدّنيا، والسّائل المحاسب هو الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢-٩٣). غير أنه شتان بين سؤال وسؤال، فالمشركون سؤالهم للتقريع والتوبيخ لكفرهم بأنعم الله، وأمّا المؤمنون فسؤالهم للتشريف والإكرام ليترتب على ذلك جزاؤهم. فقد روى أبو هريرة فيما أخرجه مسلم قال: «**خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر، فأقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، إذ جاء الأنصاريّ فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافا منّي، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر، وأخذ المدية فذبح لهم فأكلوا من الشّاة ومن ذلك العذق وشربوا، فقال رسول الله: والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة**»[(١)].

قلت: وهذه القصّة تثبيت ما ورد في الآية الكريمة، وموضوع السؤال هو شكر تلك النّعمة، والواجب على المسلم أن لا يحقّر أية نعمة تتوفّر بين يديه ولو كانت نفسه تعاف تناول بعض الأطعمة -أحيانا- كما يقع ذلك كثير مع أطفالنا، ولندّربهم على أن لا يحقروا تلك النّعمة بوصف لا يليق، بل نطلب منهم أن يمتنعوا عن أكل ما تعافه أنفسهم فقط.

والله أعلم.

(١)- رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، رقم ٢٠٣٨.

سورة العصر مكيّة، وآياتها ٠٣

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة "العصر" في أكثر المصاحف، وفي بعض كتب التفسير، وقد تزاد الواو على حكاية الكلمة الأولى فيها، وهي إحدى السّور القصيرة التي فيها ثلاث آيات: العصر، الكوثر، النصر، وهي مكية عند الجمهور، وعدّها ابن عباس في السّور المختلف في مكيّتها ومدنيّتها.

وتعدّ الثالثة عشرة في ترتيب نزول السّور، والثالثة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف، وعن فضلها روى ابن كثير عن الصّحابة قال: كان الرّجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر.

وخلاصة ما جاء فيها:

- بيان سبب سعادة الإنسان أو خسارته.

- إثبات فوز الذين آمنوا وعملوا الصّالحات الدّاعين غيرهم إلى الحق والمتواصين بالصّبر.

بيان عواقب النّشاط الإنساني.

أ) - النّص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَالْعَصْرِ﴾: قسم لتأكيد الخبر، وجوابه: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. وللعصر معانٍ كثيرة، ومعناه اللّغوي: الضّغط لاستخلاص العصارة، واختلف المفسّرون في المراد منه هنا، فقيل: هو الدّهر، وقيل: إنه صلاة العصر، وقيل: هو عصر التّنزيل ...إلخ.

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: الأرجح في "أل" أنها للجنس، و"الخسر" هو لغة نقيض الرّبح. وفي معناه الدّيني يأتي في سياق النّذير بسوء العقبى وعذاب الآخرة. جاء بهذه الصّيغة "خسر" مرتين في القرآن، هنا، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ (الطلاق:٩). ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: التواصي أن يوصي بعضهم بعضا، والحقّ واحد الحقوق، من تحقق الخبر، إذ صحّ وصدق، وجاءت صيغة الحق في القرآن مائتين وسبعا وعشرين مرة، وهو من الأسماء الحسنى لله تعالى. و﴿الصَّبْرِ﴾: حقيقته هو منع المرء نفسه من تحصيل ما يشتهيه، أو من محاولة تحصيله، نقيضه الجزع والصّبِر -بكسر الباء- عصارة شجر مرّ، ومنه قول الشّاعر:

لا تبلغ المجد حتى تلعق الصّبرا

ج) - البيان والتّفسير:

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

إن هذه السورة الكريمة على قلّة آياتها، عظيمة الشّأن في معانيها، يقول عنها الإمام الشافعي: "لو تدبّر النّاس هذه السّورة لوسعتهم". وذلك ما أدركه الصّحابة رضوان الله عليهم حين كانوا لا يفترقون إلا أن يقرأ أحدهم على صاحبه هذه السّورة.

افتتحها الله بالقسم بكلمة: ﴿الْعَصْرِ﴾، هكذا مجرّدة عن أية صفة أو إضافة تحدّد وقتا أو حدثا معيّنا، كما تأوّله بعض المفسّرين فقالوا: هو عصر التّنزيل أو عصر

الأمة الإسلامية بصفة عامة. أو هو وقت صلاة العصر...إلخ. وتحاشوا أن يقولوا: هو الدّهر، بزعمهم أنه زمن الدهريين الذين ينكرون وجود الله. ولحن لا نرى مثل تلك الاحتمالات، إذ أننا عند بحثنا للمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، وجدنا أنّ الأنسب للحكم على الإنسان بالربح أو الخسارة لا بد وأن يكون مرتبطا بوجوده كما قدّره الله في الإطار الزماني والمكاني بحلقاته الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل. فاختيار كلمة: ﴿الْعَصْرِ﴾ للزمان الممتدّ الدّائب بلا توقف وهو يلفّ الخلائق ويعصرها بتقلباته ما بين اللّيل والنّهار وتوالي الفصول وما يقدّره الله فيه من تبدلّ الأحوال في متناقضات لا ينتهي مسلسلها، والإنسان يتحدّد وجوده في حضن ذلك الزمان كما تتحدّد وظيفته وهو معرّض للاختبار والامتحان، فلحظات عمره كلها وما وهبه الله فيها من طاقات مادية أو معنوية يسخرها للخير أو للشرّ، إنما هي مرتبطة وممتزجة بهذا الزمان الدّؤوب، ومن ثمّ نلاحظ تلك العلاقة العضوية بين الزمان والإنسان مما يدلّ على قدرة الخالق وكمال صنعه.

ولا شك أن الله تعالى لا يقسم بشيء من مخلوقاته إلا لما يكون لها من العظمة والقدر، فما هي عظمة العصر المقسم به هنا؟. وحين نستقرئ آيات القرآن نجد كثيرا منها تشيد بعظمة الزّمان في ليله ونهاره وفي سرّائه وضرائه، وفي تداول الأيام بين النّاس وانقسام العصر إلى القرون والسّنين والأشهر والأيام والسّاعات...إلخ.

وليس للعصر -كما يتوهّم الدّهريون المادّيون- تأثير في ما يقع فيه من أحداث، بل الله تعالى هو المدبّر الحكيم والمتصرّف القدير في تقرير تلك الأحداث وتقدير تلك الأحوال، وما العصر إلا ظرف زمنيّ هو مجلى لإنفاذ مشيئته تعالى.

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، جاء الحكم الإلهيّ على الإنسان بأنّه في خسر، جاء مؤكّدا بـ﴿إِنَّ﴾ ولام الخبر، وبالجملة الإسمية، و"أل" في لفظ: ﴿الإِنسَانَ﴾ للجنس العهدي، فيشمل كل إنسان بلغ سنّ التكليف، ويؤيّد

هذا العموم مجيء المستثنى بعده بصيغة الجمع، والتعبير: بـ﴿فِي﴾ يدلّ على الإحاطة والغمر، أي إن الخسر يلفّ هذا الإنسان ويغمره، والخسر أو الخسران هو النقص مما يملكه المالك من ماله أو غيره، وهو نقيض الربح، استعمل ماديًا في التجارة في نقصان رأس المال أو ذهابه، ثم نقل إلى المجال الديني في الضلال عن الحق الذي يؤدي إلى فقدان السعادة الأبدية وهو أفدح الخسر، وآيات القرآن تؤذن بأنّ الخسر يتعلق بالنفس والمال والأهل والعمل. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر:١٥)، وتنكير: ﴿خُسْرٍ﴾ للإطلاق غير محدود بقيد، وذلك لإفادة التهويل والتضخيم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: استثنى الله تعالى من حكم الخسران الذين يتصفون بصفات أربع تحدد المسؤولية الفردية والاجتماعية.

أ)- الصّفة الأولى: "**الإيمان**": وتعريفه الدّيني: هو التصديق القلبيّ بكل عناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام من الإيمان بوحدانية الله إلى الإيمان باليوم الآخر في جميع مراحله.

ب)- الصّفة الثانية: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، أي القيام بالأعمال الصّالحة من كل ما أمر الله به عباده مما يصلح به معاشهم ومعادهم واجتناب كل ما نهى الله عنه من منكرات وفق منهج الله المستقيم في ما شرعه من أحكام شريعته الغراء، وبديهي أنّ هاتين الصّفتين تحددان للإنسان تبعاته الفردية لذاته حتى يكون قدوة لغيره وفوق التعريف التقليدي للأعمال، يقول عنه سيد قطب: "إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير الذي ينبثق عنه كلّ فرع من فروع الخير، وتتعلق به كلّ ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته صائر إلى ذبول وجفاف، وإلاّ فهو ثمرة شيطانية، وليس لها

امتداد أو دوام".[١]

جـ)- الصفة الثالثة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، فإذا استقام المؤمن في ذاته وتحقق من سلوكه ما يصلح أن يكون به قدوة لغيره فإنّ واجبه الدّيني يحمّله التبعة الاجتماعية في دعوة غيره إلى الله والحفاظ على صلاح المجتمع المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك هو ما تبيّنه الوصيتان الثّالثة والرّابعة.

فالتواصي هو تشارك في توجيه الوصية بين شخصين فأكثر، والوصية بيان مقرون بنصح مؤكّد بعهد، أي نصح مشدّد يتطلب التنفيذ والحقّ هو الشيء الثابت بدليل قاطع وهو المطابق للواقع، ضدّه الباطل، وفي المجال الدّيني فالله جلّ جلاله هو أولى حقّ في الوجود، وصفاته حقّ ووعده حقّ وقوله حقّ من كل ما ورد في القرآن الكريم أو ثبت بالسّنة النّبوية الصّحيحة من مختلف الحقوق لله أو لعباده.

د)- ومما أن التواصي بالحقّ مهمّة شاقّة، والمثبطات عن تنفيذه كثيرة مهما تعاون على ذلك الأوفياء من هذه الأمّة، فإنّ التواصي بالصّبر يصبح ضرورة ملحّة في المجال الدّعوي، والصّبر هو حبس النّفس عما تميل إليه من الرّغبات، وهو نقيض الجزع، ولم يذكر متعلق الصّبر، للدّلالة على الإطلاق والتعميم؛ لأن الصّبر أنواع فصّلها العلماء، وهي تشمل كلّ ما يصبر عليه المؤمنون من تكاليف الدّين فعلا وتركا، والصّبر على الابتلاء بالسّراء والضّراء، وحين البأس في لقاء العدوّ.

وقد تقررت هذه المسؤولية الجماعية في كلّ من سورتي البلد والعصر، وموقف القرآن واضح كل الوضوح في هذه القضية بدعواته المتكررة إلى الإيجابية الفاعلة بشعور المؤمن لما يتحمله من التّبعات الفردية والجماعية لينفي عن نفسه الخسر والهلاك.

والله أعلم.

---

(١)- في ظلال القرآن: ٢٣٧/٣٠.

سورة الهُمزة مكيّة، وآياتها ٠٩

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف وأغلب التفاسير سورة "الهمزة"، وقد تسمّى بسورة "الحطمة" لورود هذا اللّفظ فيها. وهي مكيّة، وآياتها تسع، وتعدّ الثانية والثلاثين في عداد نزول السّور، والرّابعة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف.

فالسّورة -وإن روي أنها نزلت في جماعة من المشركين في مكة والطّائف، كانوا يعيبون المسلمين، ويغتابونهم بالهمز واللّمز، وكانوا كلهم من أهل الثراء والمال-، غير أنّ ما ورد في السّورة من تهديد ووعيد يعمّ هؤلاء المذكورين ومن يكون على شاكلتهم إلى يوم الدّين.

بدأت بالدّعاء بالهلاك ﴿وَيْلٌ﴾ للذين يعيبون النّاس بالهمز واللّمز والطّعن في أعراضهم، وحقرت الذين يشتغلون بجمع المال، ويظنّون أنّهم مخلّدون في الدّنيا كبرا وغرورا، ثم ختمت بذكر ما ينتظر هؤلاء التّعساء من عذاب النّار مقهورين متوعّدين.

جزاء السّاخرين من النّاس.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّكُلِّ
هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ
أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤
نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم
مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: دعاء بالعذاب والهلاك، وهو إما مبتدأ خبره: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: العاقبة أو الجزاء. ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: على وزن: "فُعَلة"، من صيغ المبالغة، وأصل الهمز: الكسر والقبض على الشيء بعنف، والمراد هنا الطعن في أعراض النّاس بالإشارة بالعين أو الشّدق أو الرّأس، وغالبا لا يشعر به المطعون فتدخل فيه الغيبة والنّميمة، وأما اللّمز فيكون بمواجهة للملموز -غالبا-، وهما صفتان لموصوف محذوف قامتا مقامه. ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾: ﴿الَّذِي﴾: إما بدل من "كل"، أو في موضع رفع بالابتداء، أو هو خبر لمبتدأ محذوف. ﴿عَدَّدَهُ﴾: من العدّ أو العدّة. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾: اللاّم جواب لقسم محذوف، والنّبذ: الإلقاء والطّرح لما يكره كنبذ النّواة. ﴿الْحُطَمَةِ﴾: وصف للنّار التي تحطم كل شيء. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾: الاستفهام للتهويل، والجملة في موضع الحال من قوله: ﴿الْحُطَمَةُ﴾. ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾: إضافة النّار إلى لفظ الجلالة للترويع بأنها نار عظيمة موقدة مشتعلة. ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾: الاطلاع يكون بمعنى الإتيان، وبمعنى الكشف والمشاهدة. و﴿الْأَفْئِدَةِ﴾: جمع فؤاد، وهو مستودع الخواطر والعقائد. ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: بمعنى مغلقة بإحكام، وهم موثّقون في عَمَد، جمع: عمود.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جَمَعَ مَالًا﴾: قرأه الجمهور: ﴿جَمَعَ﴾ بتخفيف الميم، وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ورويس عن يعقوب وخلف: ﴿جَمَّعَ﴾ بتشديد الميم، مزاوجًا لقوله: ﴿عَدَّدَهُ﴾. ﴿يَحْسَبُ﴾: قرأ الجمهور بكسر السّين، وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السّين. ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: قرأ الجمهور بواو بعد الميم، على تخفيف الهمزة، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد

الميم المضمومة. ﴿عَمَدٍ﴾: قرأه الجمهور بفتحتين، على أنه اسم جمع: عمود، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف: ﴿عُمُدٍ﴾ بضمتين، وهو جمع: عمود.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾: نجد المناسبة قويّة بين هذه السّورة وما قبلها، إذ أعطى الله فيها أنموذج الإنسان الخاسر المذكور حكمه في أوّل سورة العصر، فهي -وإن عكست صورة لئيمة وقعت للدعوة الإسلامية في عهدها الأوّل تتمثل في جماعة من طغاة المشركين كانوا يؤذون رسول الله وجماعة المؤمنين معه بالتحقير والاستهزاء ممن غرتهم أموالهم-، فإنّ مثل ذلك الأنموذج من النّاس يتكرّر في كلّ بيئة وفي كلّ زمان، وبالتالي فإنّ تهديدات السّورة تشمل الجميع؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب.

والافتتاحية بالويل توحي بحقارة ذلك الأنموذج من النّاس ممن أصيبوا بهوس المال، فاعتبروه الإله القادر على كل شيء، وجعلوه القيمة العليا في الحياة، فلا يزنون الأشياء إلا بها. يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، والويل: كلمة تهديد بالعذاب وسوء الحال، وفيها معنى الدّعاء بذلك، ويتوجّه هذا التهديد الرهيب لكل همزة لمزة، وهما صفتان لموصوف مقدّر جاءتا على صيغة المبالغة للدلالة على أن الموصوف بهما قد تمكّنت من طبعه اللئيم هاتان الصّفتان حتى أصبحتا سجيّة فيه، وهما من الهمز واللّمز، أي إظهار عيوب النّاس والطّعن في أعراضهم تحقيرا لشأنهم وحطّا من كرامتهم، وقد يتمّ ذلك بمواجهتهم فهو اللّمز، أو في غيبتهم فهو الهمز، ويتمّ ذلك باللّسان أو بالإشارة بالعين أو بالشدق أو بالرّأس...إلخ، ومن الرّسوم الكاريكاتورية في هذا العصر، وتقليد حركات الإنسان وأقواله بسخرية أو لإضحاك النّاس.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾: يلاحظ أن جمع المال

وتعداده جاء مكتفيا بصفات لموصوف مقدّر -كما تقدم- هي صفات ذميمة جاء الوعيد الشّديد لمن اتصف بها، ويبقى جمع المال في حدّ ذاته ليس مذموما في الإسلام إذا اكتسبه صاحبه من حلال وأدّى حق الله فيه، ولذلك انصبّ الويل والتّهديد على المغرور بالمال إذا سخّره في ما يؤذي غيره أو في الصّدّ عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦).

والمال هو كل ما يكسب الإنسان لكفاية مؤونته والانتفاع به في حياته، وتنكيره في الآية للدّلالة على الكثرة. ومعنى: ﴿عَدَّدَهُ﴾ من العدّ، أي الحساب بمبالغة، لشدة الحرص عليه أو للتلذذ بذلك إشباعا لنهمه وحرصه، حال كونه يظن أن ذلك المال يحقق له الخلود في الدّنيا ويقيه الموت. وجيء بالماضي: ﴿أَخْلَدَهُ﴾ عوضا عن المضارع للدّلالة على تحقق الوقوع عنده.

ولعل هذا التوهّم الباطل هو الدّافع لمن نشاهدهم لا يشبعون من تأثّل الأموال بأية وسيلة كانت حق وإن كانوا مؤمنين ظاهريًا باليوم الآخر، فيجيء الرّدع الإلهي مبطلا لذلك التوهّم بعرض مشهد رهيب من مشاهد القيامة فيقول تعالى: **﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾**.

﴿كَلَّا﴾: للردع، ولإبطال ذلك الزّعم في شأن المال، وقوله: ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾، اللام هي لقسم محذوف مقدّر، والنّبذ هو الرّمي للشيء الحقير -غالبا-، و﴿الْحُطَمَةِ﴾ وإن كان وصفا من التّحطيم على صيغة المبالغة فهو علَم بالغلبة من أسماء جهنم؛ لأنّها تحطّم كل ما يقع فيها، وهو وصف مناسب لذلك النّموذج البشري المتعجرف بماله في كبرياء وغرور، تحطم النّار جسمه وعظامه كما تحطّم كبرياءه وغروره. وللتفخيم من شأنها وتهويل أمرها يجيء الاستفهام بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾، أي ما الذي أعلمك بحقيقة تلك النّار؟. إنّها فوق الإدراك البشري في هولها وبشاعتها والله

وحده هو المبيّن لحقيقتها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، أي هي نار الله المشتعلة، وإضافتها إلى لفظ الجلالة والتي تفردت بها هذه السورة هي لزيادة الترويع فهي من إعداد الله ضمن المخلوقات العظيمة لا تخبو لهيبها ولا يفتر، وقد ذكر الله بأن وقودها النّاس والحجارة وهو يعطي لها هنا وصفا آخر بأنها تطّلع على الأفئدة، والاطلاع يأتي بمعنى الكشف والمشاهدة، أو هو بمعنى الإتيان السّريع والأفئدة جمع: "فؤاد"، أي القلب، على اعتباره مستودع العواطف ومقرّ النوايا والمقاصد.

ولما كان هؤلاء الطّغاة قلوبهم ملأى بدواع التشوه من حسد وغرور وكبرياء، وهم يتحركون بها للإساءة بغيرهم فإن نار جهنم لا تحطّم أجسادهم المادية فحسب بل تصل إلى مستودع الأسرار في أفئدتهم فتأتي عليه بالإحراق والتحطيم المعنويّ؛ لأن الجزاء من جنس العمل، والفؤاد هو سيّد الجوارح.

ثم أضاف الله أوصافا تهويلية لهذه النّار فقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، قد يجد المجرم وسيلة للانفلات من السّجن أو الفرار من يد العدالة، غير أن دار جهنم محكمة الإغلاق على المعذّبين فيها. فقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ الضّمير يعود إلى نار الله الموقدة. و﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: من أوصد الباب إذا أحكم إغلاقه، فما هؤلاء بخارجين منها، وليس لهم اتصال خارجيّ يعطي لهم متنفسا -والعياذ بالله-، وكونهم في عمد ممدّدة موثقين هو لزيادة التّنكيل والتعذيب، وقد جاءت الأوصاف الرّهيبة على ما نألفه -نحن البشر- في الدّنيا من أساليب التعذيب والتنكيل وتبقى حقائق الحياة الأخروية من الغيب الذي نؤمن به كما أخبرنا ربنا، أما معرفتنا لتلك الحقائق فلا نصل إليها إلا بعد كشف الغطاء في بداية رحلتنا الأبدية.

فاللّهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النّار وما قرب إليها من قول وعمل.

والله أعلم.

سورة الفيل مكيّة، وآياتها ٠٥

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في جميع المصاحف وكتب التفسير سورة "الفيل" لتذكيرها بقصة أصحاب الفيل، وهي مكيّة بالاتفاق، وآياتها خمس. وتعدّ التّاسعة عشرة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة "الكافرون" وقبل سورة الفلق، وهي الخامسة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف.

ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى وصف حال الذي يغترّ بالمال ويتعزز بقوته استخفافا بالنّاس، كما ورد في سورة الهمزة، وفي هذه ذكر كيف انتقم ممن كانوا أكثر مالا وأشدّ قوّة من طغاة قريش، أهلكهم بأضعف مخلوقاته فلم تغن قوتهم شيئا.

تضمنت السّورة قصة أصحاب الفيل باختصار حين أرادوا هدم الكعبة المشرفة فحمى الله بيته من كيدهم وأبادهم بأضعف مخلوقاته من الطّير التي تحمل في أرجلها حجارة مهلكة ربانية، فكان هذا الحدث التّاريخي تذكيرا لقريش بما ظهر لرسول الله من كرامة عند الله فهو حافظه من كيدهم إن لم ينتهوا عن إذايته.

قصّة إهلاك الله لأصحاب الفيل.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾: الاستفهام للتقرير، والخطاب للرسول ولكل متدبّر للقرآن، أي: ألم يبلغك خبر أصحاب الفيل وتعلمه علما يقينا؟، والرؤية قلبية؛ لأن الرسول لم يكن قد شاهد بعينيه ما حدث لأصحاب الفيل. ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾: استفهام تقريري آخر يفيد التعجيب، وحمل المخاطب على الإقرار بما حدث، والكيد هو ما دبّره أصحاب الفيل من شرّ لهدم الكعبة. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: أي ضيّع مساعيهم وأفسد تدبيرهم. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: أي أسرابا وجماعات من الطّيور متتابعات. ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾: الجملة حالية من طير. ﴿حِجَارَةٍ﴾: اسم جمع حجر. ﴿سِجِّيلٍ﴾: حجر من طين متحجر. ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: ﴿عَصْفٍ﴾: جمع عصفة، ورق الزرع اليابس تعصف به الرّيح و﴿مَّأْكُولٍ﴾: أي أكلته الدّوابّ وداسته بأرجلها.

ج)- قصّة أصحاب الفيل:

أطال في ذكر تفاصيلها المفسّرون وأنا أختار ما أورده منها الدّكتور شوقي أبو خليل في كتابه القيّم (أطلس القرآن) قال: "أصحاب الفيل هم جيش أبرهة بن الأشرم الحبشي الذي حكم اليمن بعد يوسف ذي نواس، سار سنة: ٥٧١م العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة لهدم الكعبة ليصرف العرب عنها إلى كنيسة "القلّيس" التي بناها بصنعاء. وكان على رأس هذا الجيش فيلة يتقدمها فيل كبير عظيم، وتذكر الرّواية أن أبرهة حينما تهيّأ لدخول مكة المكرمة وأعدّ هذا الفيل الكبير الضّخم للسير برك الفيل فعالجوه ليقوم، فلم يستطيعوا إليه سبيلا فوجّهوه قبل الشّام فهرول، ووجّهوه قبل اليمن ففعل، أما إلى الكعبة فلا.

وقرب مكة المكرّمة نهب أبرهة وجيشه أموال العرب، وكان فيها إبل لعبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله، فطلبها عبد المطلب من أبرهة فتعجب أبرهة وقال:

أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟، فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربًا سيمنعه منك. وأرسل الله سبحانه وتعالى ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، جماعات بعضها إثر بعض، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾، طين متحجرة، فجعلهم ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، أي ورق الزرع بعد الحصاد، يسمّى بذلك لأن الريح تعصف به متفرقة ذات اليمين وذات الشمال".[1]

د)- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، افتتحت السّورة بالأسلوب الاستفهامي التقريريّ الموجّه لكل فرد صالح للخطاب، وللمخاطب الأول به هو سيدنا محمد ﷺ، ويقصد بهذا الأسلوب الذي تكرر في القرآن حمل المخاطب على الإقرار بما تضمنته الجملة للمستفهم عنها معنى الاستغراب والتعجيب من تلك الكيفية التي تمّ بها إهلاك أصحاب الفيل، وقد نقل الشيخ محمد علي الصّابوني في تفسيره لجزء "عمّ" نقل عن تفسير أبي السّعود قوله: "وتعليق الرّؤية بكيفية فعله جل وعلا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربّك، هو لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرته تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله، فإن ذلك من الإرهاصات، لما روي أن القصّة وقعت في السّنة التي ولد فيها النبيء ﷺ".[2]

قلت: ويضاف إلى ذلك للملحظ الدّقيق اختيار صفة الرّبوبية لله تعالى لما تحمله من معنى الرّعاية والحفظ، وقد بعث النبي بعد أربعين سنة من وقوع هذه الحادثة، ولا يزال على قيد الحياة أناس من قريش وغيرهم شاهدوها وعاشوها. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) - أطلس القرآن: صفحة: ١٥٤.

(٢) - صفحة: ١٣٩.

﴿يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، والاستفهام -أيضا- للتقرير، والتعبير بالكيد يعكس ما دبّره أصحاب الفيل من حيل وما أعدّوه من قوة لتنفيذ خطتهم في هدم الكعبة، ولكن الله تعالى ردّ مكرهم وأفسد خطتهم، وجعل الشيء في تضليل أي في دائرة الضياع والهلاك. ثم فصّل الله تدبيره في إفساد تلك الخطة فقال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

الجملة معطوفة على الاستفهام التقريري السابق لشد انتباه المخاطب إلى اتّباع تفاصيل تدبير الله في كيفية إهلاكهم بواسطة تلك الأسراب المتتابعة من الطّيور التي تحمل بأرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة من طين متصلب، والله أعلم بنوعية تلك الطّيور وبتلك الأحجار التي تحملها، إذ اضطربت الرّوايات، وكثرت التأويلات في تفسيرها لإخضاع النّصّ القرآني إلى مقتضيات العقل في استنباطاته للحقائق العلمية. فقالوا: إن تلك الحجارة كانت تحمل جراثيم وباء الجدري والحصباء مما أصاب أفراد ذلك الجيش حتى هلك فأصبح تتناثر أعضاؤه ولحمه، شبههم الله بالعصف المأكول أي ورق الزّرع اليابس بعد الحصاد تأكل الدّواب أطرافه وتدوسه بأقدامها وهو تمثيل مرعب شتت شمل أولئك الظّلمة الطّغاة. وقيل: إن قائدهم أبرهة تحامل على نفسه عائدا من حيث أتى يتناثر لحمه حتى سقط في صنعاء.

ونحن نميل إلى اعتبار تلك الحادثة العجيبة على ما أوجزه الله من أخبارها مقصورا على هذه السّورة. أعتبر ما حدث فيها هو من الألطاف الإلهية الخارقة للمألوف والعادة، قرّرها لأمّة ما تزال على فطرتها البدائية شبه مستقلة لا تخضع لسلطة خارجية تهيمن عليها، وهي حاضنة بيته الشّريف من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام، وبما أنّهم كانوا وثنيين دنّسوا بيت الله بأصنامهم فلم يحصل لهم الشّرف لحماية بيته، بل حماه الله بقوته وتدبيره، ولكن اليوم غيّر الأسس فقد قامت حجّة الله علينا ببعثه رسوله وإنزال كتابه، فهل ننتظر بعد ذلك جنودا من السّماء تحمي مقدّساتنا وتدافع عن حرماتنا، كلاّ، وربّ الكعبة، والله أعلم.

سورة قريش مكيّة، وآياتها ٠٤

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف وكتب التفسير "سورة قريش" لوقوع اسمهم في مفتتحها، ولم يذكر في غيرها من سور القرآن، والله يذكّرهم فيها بنعمه عليهم. وهي مكيّة، وآياتها أربع، وهي مستقلة باتفاق العلماء، إلا بما يروى عن أبي بن كعب أنه يعتبرها مع سورة الفيل سورة واحدة، فلم يفصل بينهما بالبسملة في مصحفه.

وتعدّ التّاسعة والعشرين في ترتيب نزول السّور، والسّادسة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف، والمناسبة وثيقة بينها وبين السّور التي قبلها، إذ أن كلتيهما لعدّد نعم الله على أهل مكة بإهلاك عدوّهم وتوفير الأمن والطّعام لهم، ومن حيث المبنى اعتبر كثير من المفسّرين بأن الجار والمجرور في أول هذه السّورة متعلق بآخر السّورة المتقدمة: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، وتتضمّن أمر الله لقريش بتوحيده وإخلاص العبادة له، شكرا لما أنعم عليهم من الأمن والشّبع، وجمع شملهم، وأعلى قدرهم؛ لكونهم سدنة بيته.

تذكير قريش بنعم الله عليهم، لإفراده بالعبادة.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾
إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ
وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾: ﴿لِإِيلَافِ﴾: يقال ألف الشيء إيلافا وألف إلافا وإلفا الشيء إذا لزمه واعتاده مع عدم النفور منه. ﴿إِيلَافِهِمْ﴾: عطف بيان من إيلاف قريش. الرحلة: الارتحال من مكان إلى آخر، وإضافتها إلى الشتاء من إضافة الفعل إلى زمانه، واللام في: ﴿لِإِيلَافِ﴾ للتعليل، وفي متعلقها ثلاث احتمالات:

- تتعلق بمحذوف مقدّر: اعجبوا لإيلاف قريش.
- تتعلق بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.
- تتعلق بآخر سورة الفيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾: اللام للأمر، والفعل مجزوم، أما الربط بالفاء فيقول عنها الإمام الزمخشري في الكشاف: "دخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى: لما لا، فليعبدوا لإيلافهم أي أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة".(١) ﴿هَذَا الْبَيْتِ﴾: أي الكعبة المشرفة. ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾: نعت للربّ، وتنكير ﴿جُوعٍ﴾ و﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شدّتها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ﴾: قرأ الجمهور في الموضعين: ﴿لِإِيلَافِ﴾ بياء بعد همزة، وهي تخفيف للهمزة الثانية. وقرأ ابن عامر ﴿لِإِلَافِ﴾ الأول بحذف الياء التي أصلها همزة ثانية، وقرأ: ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بإثبات الياء مثل الجمهور، وقرأ أبو جعفر:

---

(١)- التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٥.

﴿لِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ بحذف الهمزة الأولى، وقرأ: ﴿لافِهِمْ﴾ همزة مكسورة من غير ياء. وذكر ابن عطية والقرطبي أن أبا بكر عن عاصم قرأ بتحقيق الهمزتين في: ﴿لإِأْلافِ﴾، وفي ﴿إِأْلافِهِم﴾.[١]

د)- من هم قريش، وكيف أسّسوا للرحلتين؟:

في الإجابة على هذا السّؤال أنقل بشيء من التصرف ما أورده الإمام ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير حيث قال: "وقريش: لقب الجدّ الذي يجمع بطونا كثيرة، وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولقب فهر بلقب قريش تصغير قرش، الحوت القويّ المعروف، فجميع أهل مكة هم قريش، وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم. وكان الذي سنّ لهم هاتين الرحلتين رحلتي الشتاء والصّيف هو هاشم بن عبد مناف، وسبب ذلك أنهم كانوا تعتريهم خصاصة، فإذا لم يجد أهل بيت طعاما لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف، فضرب عليهم خباء وبقوا فيه حتى يموتوا جوعا ويسمّى ذلك "بالاعتفار"، فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فهمّوا بالاعتفار، فبلغ خبرهم هاشما؛ لأن أحد أبنائهم كان تربا لأسد بن هاشم، فقام هاشم خطيبا في قريش فقال: إنكم أحدثتم حدثا تقلّون فيه وتكثر العرب، وتذلّون وتعزّ العرب، وأنتم أهل حرم الله والنّاس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم. ثم جمع كل بني أب على رحلتين للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيّهم".[٢]

د)- البيان والتّفسير:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

---

(١)- التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٥.

(٢)- المصدر نفسه: ٣٠/٥٥٦-٥٥٨.

الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

إنها افتتاحية بديعة لهذه السّورة التي خصّها الله للامتنان على قريش، إذ جاءت البداية بمجرور بلام التّعليل قبل ذكر المعلول، وهو الأمر التّكليفي في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، وذلك للتشويق والتّطلع إلى معرفة ذلك الأمر الإلهيّ لما له من الأهمية في حياة المعنيين الممنّ عليهم، فالإلف والإيلاف جعل الإنسان يتعوّد على أمر ويلتزمه ويأنس به سواء كان الأمر خيرا أو شرّا. كما قال المتنبي:

لكل امرئ من دهره ما تعوّدا وعادات سيف الدّولة الطّعن في العدا

فقريش تعوّدوا رحلتي الشّتاء والصّيف، في الشتاء جنوبا إلى اليمن، وفي الصيف شمالا إلى الشّام وما جاورها، ألفوا ذلك وتعوّدوه منذ أن سنّ لهم ذلك هاشم بن عبد مناف جدّ رسول الله، فعوّدهم بذلك الاعتماد على أنفسهم في توفير الأرزاق بالضّرب في أرض الله وقد يسّر الله لهم أسباب الرّبح والنّجاح في ذلك بما كانوا يتمتعون به من الشّرف والقدر لدى القبائل العربية كلها وهم جيرة بيته وسدنته، وكان ذلك من فضل الله عليهم واستجابته لدعوة جدّهم إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله برفع قواعد البيت فتوجه إلى الله بدعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ (البقرة:١٢٦)

وما كانت قريش لتنعم بتلك الوضعية المريحة في ضمان أمنها وأقواتها لو لم يكونوا في حرمة البيت العتيق وقد جعله الله سببا لتحقيق إرادته ومشيئته في تدبير شئون عشيرة رسول الله لينشئوا أعزة كرماء بعيدين عن سيطرة المتجبّرين وقهر المستبدين وإن كانوا لم يقدّروا لتلك النّعمة قدرها، إذ دنّسوا حرمة بيت الله بأصنامهم التي عبدوها من دون الله.

ولذلك جاء تذكيرهم بلطف في آخر السّورة بنعمتين من نعم الله الكثيرة عليهم ليفردوه بالعبادة إذ هو ربّ ذلك البيت الذي أصبح الضمان المقدّم لحياتهم

المنية فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، جاء الأمر الإلهي مرتبطا بالفاء لأن ما قبلها مؤذن بقوة الشرط -كما تقدم-، واختيار صفة الرّبوبية للذات العلية للدلالة على حسن الرّعاية والإشفاق عليهم، وإضافتها إلى البيت هي للتّشريف والتعظيم، ثم يأتي النعت تذكيرا لهم بنعمتي الشّبع والأمن، وهما الرّكيزتان الأساسيتان في ازدهار العمران وتقدّم الحضارات، فهما متلازمتان في دفع الضرّ وجلب النّفع، والله تعالى وحده هو الباسط للوفْر لتينك النّعمتين، ولو لم تتمتع قريش إلاّ بهما لكفى أن يكون ذلك دافعا لهم لعبادة الله وحده لا شريك له، فكيف بالنّعم الأخرى التي لم يذكرها، والنّعمة قيدها الشّكر المخلص للمنعم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧).

وقد بعث رسول الله من قريش ومن نسل هاشم بن عبد مناف، وكان ما كان بينه وبين قومه، وهم لا يتذكرون ما هم فيه من نعم، بل أخذهم غرور الغنى والقوة والجاه، فلم يذوقوا طعم الجوع حتى دعا عليهم رسول الله في أيامه الأولى من هجرته إلى المدينة إذ قال: «**اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[1]، فأصابتهم المجاعة حتى أكلوا الجيف، فبعثوا إليه يستعطفونه ليرفع الله عنهم ذلك ووعدوه بأنهم يسلمون، ولكنهم نكثوا عهدهم كبني إسرائيل مع موسى، ولله في خلقه شؤون.

والله أعلم

(١)- رواه البخاري من حديث أبي هريرة كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي ﷺ: «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، رقم ١٠٠٦.

سورة الماعون مكيّة، وآياتها ٠٧

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في أغلب المصاحف وكتب التفسير "سورة الماعون"، لورود هذا اللّفظ في نهايتها، وهو كل ما يتعاوره الناس مما ينفع كالفأس والملح والنار...إلخ.

ويذكر الإمام ابن عاشور أنها تحمل ستة أسماء منها: "سورة الدّين"، "سورة أرأيت الذي"، "اليتيم"، "التكذيب"...إلخ.

وهي مكيّة في قول الجمهور، ويروى عن ابن عباس أنها مدنيّة، بينما يرى البعض أن نصفها مكي نزل في العاص بن وائل، ونصفها مدنيّ نزل في عبد الله بن أبيّ، وآياتها سبع.

وتعدّ السّابعة عشرة في ترتيب نزول السّور، والسّابعة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف، وهي تتضمن الذّم والتّنديد لصنفين من البشر:

- الكافر الجاحد لنعم الله المكذّب بيوم الحساب والجزاء.

- المنافق الذي لا يخلص عمله لله، بل يرائي في صلاته وأعماله ويمنع معروفه عن النّاس.

وتبدو المناسبة بينها وبين السّورة السّابقة في ذم الجاحدين لنعمة الله المعرضين عن إخلاص العبادة له، الناكرين للحساب والجزاء.

جزاء كلّ من المنكر للجزاء الأخروي، والمنافق المرائي.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي
يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾
الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: ﴿أَرَأَيْتَ﴾: استفهام يراد به التشويق للمرئي، ويراد منه التعجيب من أمر المكذب بالدّين، والرّؤية بصرية تتطلب مفعولا واحدا، و﴿الدِّينِ﴾ بمعنى العقيدة والملة، ويوم الدّين هو يوم الحساب والجزاء. ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: الإشارة إليه مع ذكر أوصافه، لزيادة تمييزه لدى السامع. ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾: يدفعه بعنف ليحرمه من حقه، ومنه قوله تعالى في الكافرين: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ (الطور: ١٣). والحضّ: الحث على فعل الشيء، وحمل النفس على ما تكره. و﴿الْمِسْكِينِ﴾: من لا يجد ما يكفي ضروراته. ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أي غافلون عن استيفاء حقوقها. ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: من الرّياء وهو فعل الشيء لغير الله و﴿الْمَاعُونَ﴾: يطلق على الإعانة بالمال، وعلى كل ما يستعان به على عمل البيت من آنية وغيرها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَرَأَيْتَ﴾: قرأ نافع بتسهيل الهمزة التي بعد الرّاء من: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ ألفا، وروى

المصريون عن ورش عن نافع إبدالها ألفا، وهو ما نقرأ به لحن في الجزائر وهكذا في فعل: "رأى" كلما وقع بعد همزة استفهام، وقرأه الجمهور بتحقيقها، وقرأ الكسائي بإسقاط الهمزة التي بعد الرّاء في كل فعل من هذا القبيل، أي قرأ: "أريْت".

د)- البيان والتفسير:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾:

مهما قيل عن أسباب النّزول في تحديد مكيّة السّورة أو مدنيّتها، فإنّ السّورة متناسقة متكاملة في جزئيها المدنيّ والمكيّ حسب الرّوايات القائلة بتزاوجها المدنيّ والمكيّ، إذ تقرّر وحدة ذات اتجاه واحد، لتقرير حقيقة كليّة من حقائق هذه العقيدة، كما أوضح ذلك سيد قطب في ظلاله، وقد أحسن الفهم والتفسير حين اعتبر التكذيب بالدّين، أي التكذيب بأسس العقيدة كلها، وذلك عندما قال: "ليس هذا الدّين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدّي منها الإنسان ما يشاء، ويدع منها ما يشاء، إنما هو منهج متكامل تتعاون عباداته وشعائره وتكاليفه الفردية والاجتماعية حيث تنتهي إلى غاية تعود كلها على البشر، غاية تطهر معها القلوب وتصلح الحياة".(١)

قلت: عجبت لهذا المفسّر كيف انفرد بتلك النّظرة الشاملة لمعنى: ﴿الدِّينِ﴾، وكلّ المفسّرين صرحوا في تفاسيرهم على اعتبار الدّين هنا، أنه يوم الجزاء وفصل القضاء، وزالت حيرتي عندما قرأت للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في تفسيرها القيّم للسّورة عندما قالت بعد تعريفها الدّين لغويا واصطلاحا قالت: "وفي آية: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، فسّر الدّين بأنه ثواب الله وعقابه الطّبري،

(١)- في ظلال القرآن: ٢٦٥/٣٠.

واختار الزمخشري كذلك أن يكون بمعنى الجزاء، والأولى عند الرازي أن يكون بمعنى الإسلام، وهي أقوال متقاربة، وإن يكن حمله على الدّين بمعنى العقيدة والإسلام أقوى عندنا -والله أعلم- من حمله على الحساب والجزاء؛ لأن التكذيب بهما لا يكون إلا عن تكذيب بالدّين". وتقول: "وسمي اليوم الآخر يوم الدّين أربع عشرة مرّة أي في القرآن".(١)

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: الخطاب موجّه لكل من يصلح للرؤية العلمية أو البصرية، والاستفهام للتعجيب والتشويق لمعرفة المكذّب بالدّين، لا باعتبار المتعارف عليه ممن شاع تكذيبه إذ لا داعي للعجب من أمثاله، وبهذا الاستفهام التشويقي يترقب السامع ما يأتي بعده، وإذا بالجواب يقول: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، والإشارة إليه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للبعيد احتقارا له وزيادة الوصول لتمييزه عن غيره، والفاء على الأرجح رابطة لجواب شرط محذوف، والتقدير: إن لم تعرفه فهو ذلك الشخص الذي تبدر منه خسيستان قبيحتان في طبعه وسلوكه:

أ- ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾: واليتيم هو الذي فقد أباه فهو مكسوف البال يحتاج إلى الرّحمة والحنان، والدّعّ: هو الدّفع بشدة إهانة وتحقيرا، وكان الجاهليون يعاملون اليتامى والنساء بغلظة ويحرمونهم حقوقهم في الميراث، ويرون أن الإرث للرجل الذي يطعن بالسّنان ويضرب بالسّيف. وقد اعتنى الإسلام -كما تقدم في تفسير سورة الفجر والبلد والضّحى- اعتنى بكفالة اليتيم، واعتبر هنا أن تفويت حقوقه بل مجرّد إهانته واحتقاره هو من أمارات التكذيب بالدّين.

(١)- التفسير البياني للقرآن الكريم: ٢/١٨٤.

ب)- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: والحض على شيء هو الحث على فعله بتأكيد، و﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: اسم مصدر مضاف إلى مفعوله للدلالة على أن إطعامه هو حق من حقوقه إذ المسكين هو الفقير الشديد الفقر، وكم في القرآن من إرشادات للبرّ والإحسان بهذا النّوع من النّاس الذين يقول عنهم رسول الله ﷺ: **«ليس المسكين الذي تردّه الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي ليس له غنى، ويستحيي، أو لا يسأل الناس إلحافا».**[1]

ومن خلال هذا البيان المركّز لحقيقة الدّين عند الله يتضح أنه ليس شهادات تقال باللّسان، ولا هو مظاهر جوفاء لطقوس العادات والشّعائر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل.

ثم يذكر الله تعالى سلبيات أخرى تفرغ حقيقة الدّين من معناه الأصلي فيقول: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.**

فرّع الله على ما سبق نقائص أخرى هي تكملة للأوصاف السّابقة على اعتبار أن السّورة كلها مكيّة أو مدنية، فيكون المراد بالمصلين وما وصفوا به هم عين المكذبين بالدّين، أما على اعتبار أن ما تقدم مكيّ، وما ذكر هنا مدني، يكون المراد بهم المنافقون الذين ظهروا في المدينة المنورة، ولعلّ اختيار القسم الظّاهر: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، عوضا عن الضّمير يرجّح القول الثاني، والله أعلم.

﴿فَوَيْلٌ﴾: دعاء بالهلاك والعذاب، وبما أن الويل لا يطال جميع المصلين فإن الصّفات التي جاءت صلة للموصول ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾، تخصّص صنفا منهم وهم:

---

(١)- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، رقم ١٤٧٦.

أ)- ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: وتعدية السّهو بـ"عن" لا بـ"في" فيه احتراز عن المؤمنين الأوفياء الذين يقيمون صلاتهم على أكمل وجه، وإن يأخذهم السّهو فيها -أحيانا- مما لا طاقة للإنسان أن يتلافاه، وقد قررت الأحكام الشرعية جبر ذلك بسجود السّهو.

وأما المنافقون فهم الذين عن صلاتهم ساهون، وذلك كما قال ابن عباس: "هو المصلّي الذي إن صلّى لم يرج لها ثوابا، وإن تركها لم يخش عليها عقابا". وللسهو عن الصّلاة صور كثيرة، ومنها ما قاله رسول الله عندما سئل عن هذه الآية فقال: «هم الذين يؤخرون الصّلاة عن وقتها».[١]

ب)- ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾: أي لا يقصدون بصلاتهم وجه الله لتزكية نفوسهم بل يتظاهرون بذلك أمام النّاس لما قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:١٤٢). ومن ثم فلا أثر لتلك الصّلاة على سلوكهم وأخلاقهم، وبالتّالي فإن معاني الرّحمة تغيض في نفوسهم فهم يعيشون لأنفسهم وشهواتهم.

ج)- ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: وهناك من فسّر الماعون بالزّكاة، غير أن الكثير فسّر الماعون بما يتعاوره النّاس من مختلف الأدوات مما يستعان به على عمل البيت من طبخ وغزل...إلخ، وهذا ذم لهم بمنتهى البخل واللّوم.

والله أعلم

---

(١)- رواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث سعد، كتاب الصلاة، باب الترغيب في حفظ وقت الصلاة، رقم ٣٢٨٨.

سورة الكوثر مكيّة، وآياتها ٠٣

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في جميع المصاحف وفي كتب التفسير "سورة الكوثر"، وعنون لها في كتب السّنة سورة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وسمّاها قلة من المفسّرين: "سورة النحر"، وتعارضت الرّوايات في مكيّتها ومدنيّتها، ولكنها مكيّة عند جمهور المفسرين، وآياتها ثلاث، وهي أقصر سورة في القرآن من حيث عدد كلماتها وحروفها.

وتعدّ الخامسة عشرة في عداد نزول السّور، والثّامنة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف. وهي تتضمّن المحاور الآتية:

أ)- بيان فضله تعالى على نبيه بمنحه الخير الكثير والنّعم العظيمة في الدّنيا والآخرة.

ب)- أمر الله لرسوله والمؤمنين بالمواظبة على الصّلاة والإخلاص فيها، ونحر الهدي شكرا لله.

ج)- بشارة الرّسول بنصره على أعدائه، وبالخزي والذّلة لمبغضيه، وانقطاع الخير عنهم في الدّنيا والآخرة.

إكرام الله لرسوله بالخير الكثير في الدّنيا والآخرة.

أ)- النصّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: ﴿إِنَّا﴾ أصله: "إننا" للتوكيد، حذفت إحدى النونات، والمتحدث هو الله الواحد الأحد، ونون الجمع للجلال والعظمة. ﴿الْكَوْثَرَ﴾: اسم يدل على الخير الكثير على زنة: "فوعل"، وهو منصوب مفعول ثان لـ"أعطى"، قال الكميت بن زيد يمدح عبد الملك بن مروان:

وأنت كثير يا ابن مروان طيّب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

وسئلت أعرابية رجع ابنها من سفر: بم آب ابنك؟، فقالت: بكوثر.[1]

قلت: جرت العادة عندنا أن تودّع الأم ولدها عند سفره أن تقول له: تَبارْ تْذوَلْنَدْ، بمعنى املأ وفاضك وارجع. ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾: الفاء للتفريع، واللام في: ﴿لِرَبِّكَ﴾ تفيد الاختصاص، لم يكرر الجار والمجرور مع فعل: ﴿وَانْحَرْ﴾ اكتفاء بالأول، وهو من الإيجاز البليغ. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾: ﴿شَانِئَكَ﴾ من فعل شناه يشنؤه شنأ وشنئانا. قال تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ (المائدة:٨). وهو الذي يبغض غيره ويكرهه. ﴿هُوَ﴾: ضمير الفصل. ﴿الأَبْتَرُ﴾: مؤنثه: بتراء، المقطوع عن الخير أو المقطوع العقب. الحيوان الأبتر: هو المقطوع الذيل.

ج)- البيان والتفسير:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾: هذه السورة الكريمة على قصرها وقلّة كلماتها وحروفها هي خالصة لرسول الله رفعا من مقامه وذكره وتثبيتا لقلبه الشّريف تنضاف إلى سورتي الضّحى والشّرح، فهي تعكس ما واجهه الرّسول في انطلاقة دعوته من العنت، وحرب الإشاعة والافتراء

---

(١)- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: ٣٢/٣٢٢.

من طرف خصومه الألداء، فقد ورد في أسباب النزول أنه لما مات القاسم ولد رسول الله، قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له. أي لا نسل له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة.

وكان للرسول من زوجه خديجة رضي الله عنها من الأولاد الذكور اثنان: عبد الله والقاسم، ماتا وهما صبيان، ومن الإناث أربع هن: زينب وأمّ كلثوم ورقيّة وفاطمة، وله ولده إبراهيم من مارية القبطية، توفيّ هو الآخر صغيرا.

وكانت العرب في جاهليتهم يعتزون بالأولاد الذكور ويرون فيهم الامتداد لذكرهم والعدّة لحياتهم، وكان لهذا اللّون من الدّعاية الماكرة أن تجد مناخها الملائم في البيئة العربية، ولا شك أن أعداء رسول الله سيسرّون بها، وبالتّالي فإن رسول الله سيغيظ صدره الشّريف، كما أخبره الله بذلك: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر:٩٧).

وها هو الوحي الإلهي ينزل بلسما شافيا ليجلّي الغمّ والحزن عن القلب الشّريف: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وحسبك من الشرف والقدر أن يكون الذي حباك بتلك العطية السّنية هو الله الخالق الرّزاق ذو القوة المتين. فكلمة: ﴿الْكَوْثَرَ﴾ في دلالتها اللّغوية تعني الخير الكثير، ويوصف بها الرّجل المعطاء صاحب الخير الكثير كما تقدم في مدح ابن مروان. فهذا الامتنان بالعطاء الوفير لرسول الله، واختيار صفة الرّبوبية مضافة إلى ضمير المخاطب إضافة تكريم وتشريف، هذا الامتنان الرّبّاني من شأنه أن يسرّي عن القلب الشّريف، إذ جاء الإخبار الإلهي على عكس ما أطلقه السّفهاء، فهو الذائع الصّيت الخالد الذّكر في العالمين، وهو الواجد لأفضال ربّه ونعمه في العالمين صلاة وتسليما وإشادة بذكره في الأرض وفي الملإ الأعلى، إنه الكوثر الذي لا نهاية له.

ومما ورد من تفسير السّلف لكلمة: ﴿الْكَوْثَرَ﴾ ما جاء في صحيح البخاري عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: "هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإنّ الناس يزعمون أنّه نهر في الجنة، فقال سعيد: النّهر الذي في الجنّة من الخير الذي أعطاه الله إياه".(١)

ب)- ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾: الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، فقد رتبت الأمر بالصّلاة والنحر للرّب وحده على إعطاء الكوثر، وتوجيه الأمر بذلك لرسول الله -وهو الذي لا يتخلّى عن الصّلاة والنّحر لله- فيه تسلية له وتعريض بالمشركين الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء، وتصدية ويقدّمون قرابينهم للأصنام، وقد تكون الصّلاة المأمور بها هنا صلاة خاصة كصلاة العيد، وذلك لذكر النّحر بعدها، وقد تكون عامّة.

وقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ اللاّم للاختصاص تفيد معنى الإخلاص في التّوجه لعبادة ربك، والنحر يكون للإبل والذّبح للأغنام والبقر، أي دُم على ذلك -أيها الرّسول- واستمرّ عليه خلافا لما يفعله المشركون. وفي هذا -أيضا- توجيه للمؤمنين لنبذ الرّياء والتّهاون في أداء العبادات، كما تقدم في السّورة السّابقة.

فإذا التزم المسلمون بحسن توجّههم إلى الله وحده في صلواتهم كما توحي به هذه الآية، فإنا نلاحظ اختلالا كبيرا في تقديم نسكهم لله وحده، وذلك بما ابتدعته طوائف من المسلمين من اتّخاذ مزارات الأولياء محل تقديس وتبرك، ينظمون زيارات لها ويطعمون الطّعام ويذبحون وينحرون عندها، وربما أشركوا اسم الوليّ مع اسم الله في النّحر أو الذّبح مما هو من الشّرك -لا محالة-.

(١) - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة إنا أعطيناك الكوثر، رقم ٤٩٦٦.

ومثل هذه التوجيهات الرّبانية تحذر للمسلمين من ذلك، وتؤكد ما يجب أن يكون عليه المؤمن من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له صلاة أو نسكا.

ج) – ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾: وهذا ردّ صريح لقول أولئك السفهاء من خصوم رسول الله، فالأبتر هو المقطوع عن الخير في الدّنيا والآخرة. وبعد التقرير الإلهي بإعطاء الكوثر لرسوله تجيء هذه الآية الأخيرة لتردّ المكيدة على صاحبها، وذلك باختيار صيغة القصر مع التوكيد، بأن مبغضك –أيها الرّسول– هو الأبتر المقطوع عن كل خير، من أمثال العاص بن وائل، الذين تحقق فيهم وعيد الله فماتوا كلهم شرّ ميتة، تطاردهم اللّعنة على كل لسان.

ويعمّ هذا الحكم كلّ شانئ لرسول الله صراحة أو خفية، يقول الشاعر:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقص فهي الشّهادة لي بأني كامل.

آمنت بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبسيّدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا.

والله أعلم.

سورة الكافرون مكيّة، وآياتها ٠٦

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف ومعظم كتب التفاسير "سورة الكافرون"، هكذا بالواو على حكاية لفظ القرآن، وتسمّى –أيضا– سورة المنابذة أو الإخلاص.

كما تسمّى: "المشقشقة"، وتشترك معها سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في هذا الوصف لأنهما تبرّآن من الشّرك، يقال: قشقش الدّواء المرض إذا أزاله، وهي مكيّة على الأرجح، وآياتها ستّ.

وتعدّ الثّامنة عشرة في عداد نزول السّور، نزلت بعد سورة الماعون، وهي التّاسعة بعد المائة في ترتيب المصحف الشّريف.

وهي سورة التوحيد والبراءة من الشّرك، وضعت حدّا فاصلا بين الإيمان والكفر، وأعلنت المفاصلة التّامة بينهما، لتجعل حدّا لأطماع المشركين وتؤيّسهم من أن يداهنهم رسول الله في ما يطلبون في الحال والاستقبال.

وفي فضلها ثبت عن جابر: «**أنّ رسول الله ﷺ قرأ بهذه السّورة، وبـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطّواف**».[1]

وعن أبي هريرة: «**أنّ رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**».[2]

---

(١) – رواه الترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء ما يقرأ في ركعتي الطواف، رقم ٨٦٩.

(٢) – رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر...، رقم ٧٢٦.

إعلان البراءة من الكفر، والمفاصلة بينه وبين الإيمان.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾
لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا
أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: أي لا تحصل مني عبادتي ما تعبدون أي في أزمنة المستقبل؛ لأن ﴿لا﴾ إذا دخلت على المضارع أفادت نفيه في المستقبل. ﴿مَا﴾: بمعنى "الذي"، في موقع نصب لـ ﴿أَعْبُدُ﴾، صلة: ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: قيل: ﴿مَا﴾: عوضا عن "من" للمشاكلة، وهي مصدرية في الموضعين، ويمكن أن تكون موصولة كالأولى. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: تقدم للمسند على المسند إليه في الجملتين لإفادة القصر، وقد جرى هذا الكلام مجرى المثل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿دِينِ﴾: قرأ الجمهور بدون ياء بعد النّون، على أن ياء المتكلّم محذوفة للتخفيف مع بقاء الكسرة على النون، وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف. ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: قرأ نافع والبزي عن ابن كثير، وهشام عن ابن عامر، وحفص عن عاصم بفتح الياء. وقرأ قنبل عن ابن كثير، وابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف قرأوا بسكون الياء.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

هي من السور الخمس في القرآن، التي افتتحت بالأمر الإلهي: ﴿قُلْ﴾، وهي هذه، والجن، والإخلاص، والمعوذتين، وفائدة هذا الأمر يقول عنه الدكتور الزحيلي: "أنه ﷺ كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن، فلما كان الخطاب هنا غليظا أراد الله رفع الحرج عنه وبيان أنه مأمور بهذا الكلام لأنه ذكره من عند نفسه".[١]

قلت: وإن كان في هذا التعليل ملحظا دقيقا بالنسبة لهذه السورة، فليس هو بنفس الملحظ للسور الأخرى المذكورة، ومما روي في أسباب النزول: "أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا يا محمد: فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا حظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فقال النبي: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، كلها فغدا رسول الله إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم، فيئسوا منه عند ذلك".[٢]

قلت: وبهذا الجزم والإصرار والتأكيد تكون السورة الكريمة قد أعلنت المفاصلة التامة بين الدعوة الإسلامية وبين ما هم عليه من الكفر في الحال والمآل.

(١) - التفسير المنير: ٣٠/٤٤١.

(٢) - الواحدي، أسباب النزول: ص ٣٠٧.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

هذه الافتتاحية الآمرة بـ"قل" خطابا لرسول الله هي -كما تقدم- لزيادة الاهتمام بما يقال بخصوص ذلك الموقف المساوم من طرف أولئك السادات الأربعة، كما أن نداءهم بوصف: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ -وإن كان يمثل حقيقتهم وقد يغضبهم ذلك الوصف- فإنّ فيه تحقيرا لشأنهم وتأكيدا للتبرّؤ من موقفهم دونما مصانعة ولا رياء. تأييسا من كل مطمع يحاولون به المساس من قدسية الدّين.

فقوله تعالى على لسان رسول الله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فدخول: ﴿لَا﴾ النافية على المضارع تفيد النفي في المستقبل كما قرّر علماء اللغة، و﴿مَا﴾ بمعنى "الذي" في الآيتين الثانية والثالثة، يدلان على الاختلاف في المعبود، فالرسول معبوده الحق هو الله وحده، والكافرون معبوداتهم الباطلة هي الأصنام والأوثان، بينما الآيتان الرابعة والخامسة تدلآن على الاختلاف في العبادة نفسها، وهذه هي إحدى الاحتمالات لذلك التكرار.

ويرى بعض المفسّرين حمل أحدهما على الحال، وحمل الثاني على الاستقبال، أو أن التكرار لمجرّد التوكيد والحزم والرّفض، والله أعلم.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: الآية الخاتمة تلخص ما سبق، وتعلن المفاصلة التامة بين التوجّهين: لَكُمْ دِينُكُمْ الذي هو الكفر والشرك، فهو محصور فيكم لا يتجاوزكم إليّ، وأنا لي ديني الحق لا يتجاوز إليكم، وهذا من الإخبار الغيبي لرسول الله في شأن أولئك الأربعة المساومين، فقد ماتوا كلهم على الكفر.

ويرى بعض العلماء أنه لا يجوز أن يجري النّاس هذه الآية بينهم مجرى المثل؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به.

والله أعلم.

سورة النصر مدنيّة، وآياتها ٠٣

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير "سورة النصر"، لافتتاحيتها بقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، أي فتح مكة وانتصار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية كلها، وعن ابن مسعود ﷺ: أنها تسمّى أيضا سورة التوديع، أي اقتراب لحاق رسول الله بالرّفيق الأعلى.

وهي مدنية اتفاقا، وآياتها ثلاث، واختلفت الرّوايات في ترتيب نزولها تبعا لاختلافها في وقت نزولها، وعدّها الإمام جابر بن زيد الثالثة بعد المائة في ترتيب النزول، وقال: نزلت بعد سورة الحشر، وهي العاشرة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشريف وهي تتضمّن.

أ)- الإشارة إلى فتح مكة وانتصار الإسلام في أرجاء الجزيرة كلها ودخول الناس في دين الله أفواجا.

ب)- الإيماء أنه بوقوع ذلك يكون قد اقترب أجل رسول الله ليلتحق بالرّفيق الأعلى.

ج)- ختمت بأمر الله لرسوله بتسبيحه وحمده والاستغفار له ولأمته.

- اختلاف الرّوايات في وقت نزولها:

يجمع المفسّرون على أن المقصود بالفتح المذكور في السّورة هو فتح مكة على الأرجح، فنزول السّورة إما يكون قبل ذلك فيكون ما ورد فيها إخبارا بالغيب، ويكون معجزا من أعلام النبوءة، كما رجحه الإمام الرّازي، وإما أن يكون نزولها بعد الفتح.

ولم تضبط الرّوايات موعد تلك البعدية، ما بين الفتح في السّنة الثامنة ووفاة رسول الله في السّنة العاشرة.

ومما يروى عن عبد الله بن عباس ﷺ: أنها آخر سورة نزلت من القرآن، وفي رواية عن ابن عمر قال: «أنزلت هذه السّورة على رسول الله أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت ثم قام فخطب النّاس. فذكر خطبته المشهورة أي خطبة حجة الوداع».(١)

ويؤيد ذلك ما رواه الحافظ البيهقي عن ابن عباس قال: «**لما نزلت**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ **دعا رسول الله فاطمة وقال: إنه قد نعيت إليّ نفسي، فبكت، ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: اصبري، فإنك أوّل أهلي لحوقا بي، فضحكت**».(٢) والله أعلم.

بشارة الرّسول بعزّة الإسلام وانتشاره.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③

(١) - رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب خطبة الإمام بمنى أوسط أيام التشريق، رقم ٩٩٦٤.

(٢) - رواه البيهقي في دلائل النبوة، رقم ٩٢-٣٠٩٢: ٨/٢٥٣.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾: ﴿إِذَا﴾ اسم زمان مطلق يجيء بعده الفعل الماضي، فيدلّ على تحقق الوقوع، وقد يجيء بعدها المضارع، وهي هنا تتضمن معنى الشّرط جوابه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾. ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾: الإضافة للامتياز، ولتعظيم ذلك النصر. ﴿الْفَتْحُ﴾: "أل" للعهد، وجمهور السّلف أن المراد به فتح مكة، ورأى البعض أنه فتح المدائن والقصور بصفة عامة، أي بعد وفاة الرّسول. ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ الرّؤية إما بصرية أو علمية، والخطاب لرسول الله، و﴿دِينِ اللَّهِ﴾: هو الإسلام، ويتمّ الدّخول فيه بالنّطق بالشّهادتين. ﴿أَفْوَاجًا﴾: جماعات جماعات، منصوب على الحال.

ج)- البيان والتّفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، افتتحت السّورة بالظّرف الزمني المطلق: ﴿إِذَا﴾ وجاء بعده الفعل الماضي وعلى ترجيح نزول السورة قبل فتح مكة، فتكون صيغة الماضي لتحقق الوقوع، ويكون ذلك من أعلام النبوة إخبارا بالغيب، وذلك تأكيد للإرهاص الذي سبق في قوله تعالى:

أ)- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٥).

ب)- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (الفتح:٢٧).

ومجيء نصر الله هو تحقّقه وحصوله بالغلبة على العدوّ، وإضافته إلى الله يدل على عظمة هذا النصر، وأنه ممتاز على غيره، والمراد بالفتح هو فتح مكة، فـ"أل" للعهد الذّهني، إذ سبق وعد الله بذلك لرسوله، كما تقدم، ومن المعاني المجازية للفتح الفصل بين المتخاصمين، وكلّ ذلك قد تحقق لرسول الله، وكان من نتائج ذلك:

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾: والرؤية بصرية أو علمية ودين الله هو الإسلام، فبعد أن دانت مكة للإسلام في السنة الثامنة وفي العشرين من رمضان وتطهرت الكعبة من الأصنام تردّدت أصداء ذلك الفتح المبين في أرجاء الجزيرة كلّها وكانت القبائل العربية تنتظر بإعلان إسلامها فتح مكة، وتقول في شأن رسول الله: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي.

وهكذا فقد أنجز الله وعده لنبيه، فكان ذلك النّصر المؤزر لدعوته التي عرفت عام الوفود سنة تسع، إذ تماطلت وفود القبائل العربية إلى المدينة لتعلن إسلامها لرسول الله، وتروي السّيرة أنه اجتمع حول رسول الله سنة عشر في حجة الوداع ما يزيد عن مائة ألف حاج من المسلمين، فألقى فيهم خطبته الشّهيرة التي وضع فيها مواد الدّستور للأمة الإسلامية، فأنزل الله قوله منعما ممتنا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣).

فإذا كان الله تعالى قد حقّق نصره وأنجز وعده بالكيفية التي قدرها، وفي الوقت الذي حدّده، وبالأسباب التي سخرها على أيدي رسوله والمؤمنين معه، فإنّ النّصر -إذن- نصره، والفتح فتحه، فما هو شأن الرّسول؟ وماذا عليه أن يفعل أداء لفضل الله عليه وإكرامه بتلك المنة؟ نجد الإجابة على ذلك السّؤال في جواب الشّرط بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

إنّ شأن الرّسول ومن معه -وقد هزتهم البشرى وأخذتهم نشوة النّصر- أن يستقبلوا كلّ ذلك الفيض الرّباني وفضله العميم بتسبيح مولاهم مصحوبا بالحمد له، والتّسبيح هو التّنزيه للذّات العلية من كلّ دنس أو نقص مما لا يليق بجلاله وعظمته، والحمد هو الثّناء والشّكر لله بالقلب واللّسان، ومع التّسبيح والحمد لله الاستغفار، أي طلب الغفر -السّتر للذنوب-، وهل كان للنبي ذنوب حتى يستغفر منها؟.

ففي الوقت الذي نقرأ فيه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح:٢). نقرأ فيه -أيضا- قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(محمد:١٩). وكما نقرأ هنا أمر الله له بالاستغفار.

وإذا كان كثير من المفسرين ذهبوا في الإجابة على سؤال: هل كان للنبي ذنوب حتى يستغفر منها؟، فأجابوا بأن النبي معصوم من الوقوع في السيئات المتعارف عليها، ولكن هناك ملابسات نفسية كثيرة دقيقة تعدّ على المقربين من خلق الله ذنوبا بالنسبة لمن دونهم من باب قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين.

وبما أنّ كثيرا من الصّحابة قد فهموا من هذه الآية اقتراب أجل رسول الله كما بيّنه كثير من الرّوايات، فإن الإمام ابن عاشور قد بيّن مسارب الفهم لذلك المعنى من هذه الآية فقال ما ملخّصه: "كان تعليق الأمر بالتّسبيح وبالاستغفار على حصول النّصر والفتح إيماء إلى تسبيح واستغفار يحصل بهما التهيؤ للقاء الله، وأن حياته الدّنيوية أوشكت على الانتهاء، وانتهاء أعمال الطّاعات والقربات التي تزيد النبي ﷺ في رفع درجاته عند ربّه، فلم يبق إلا أن يسأل ربّه التجاوز عما يعرض له من اشتغال ببعض الحظوظ الضّرورية للحياة، أو من اشتغال بمهمّ من أحوال الأمّة يفوته بسبب آخر هو أهم منه".[1]

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾: تعليل لكلّ ما سبق، مؤكّد بعدّة مؤكّدات، مع تنوين التعظيم في: ﴿تَوَّابًا﴾، يدل على واسع رحمته تعالى بالتائبين، ومن دلائل التوبة المقبولة عند الله كثرة التّسبيح والحمد لله؛ لأن ذلك مطردة للشيطان حتى لا يكون العبد من الغافلين؛ لأن الاستغفار المخلص لا بد فيه من التوبة النّصوح، والله أعلم.

---

(١)- التحرير والتنوير: ٣٠/٥٩٤.

سُورة المسَد مكيّة، وآياتها ٥

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في بعض المصاحف وبعض كتب التفسير: "سورة المسد"، لورود هذا اللفظ في ختامها، بينما سمّيت في مصاحف أخرى "سورة تبت"، وقد سمّاها بعض المفسّرين "سورة أبي لهب"، وهي مكيّة اتفاقا، وآياتها خمس.

وتعدّ السّادسة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الفاتحة، وهي الحادية عشرة في ترتيب سور المصحف الشّريف، وقد تضمنت الوعيد لأبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب عمّ رسول الله، كما تضمنت مصير زوجة أبي لهب، أمّ جميل أروى بنت حرب، وقد انتصرت لزوجها في عداوته لرسول الله، وأبغضته بغضا شديدا كما يروى ذلك في أسباب النزول.

- من هو أبو لهب، ومن هي امرأته؟.

هو أبو لهب، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب عمّ النّبي ﷺ. قيل: كني بأبي لهب في الجاهلية لحسنه وإشراق وجهه، فوافقت كنيته مآله إلى النّار لشدّة عداوته لرسول الله، مات بعد وقعة بدر بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافة العدوى فبقي ثلاثا حتى أنتن، فحفروا له حفرة ودفعوه بعود ليقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة ليواروه.

وأمّا امرأته فهي أم جميل أروى بنت حرب أخت أبي سفيان، كانت عونا لزوجها على كفره وكانت تحمل الحطب من العضاة والشوك فتضعه في اللّيل في طريق الرّسول فكان وعيدها مقتبسا من فعلها، إذ أنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد بها على زوجها.

ذم أبي لهب وامرأته، وبيان وعيدهما.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي
لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ
③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: ﴿تَبَّتْ﴾: من التباب، دعاء بالهلاك توبيخا ووعيدا، وقوله: ﴿يَدَا﴾: من التعبير بالجزء وإرادة الكل. ﴿وَتَبَّ﴾: جملة خبر بعد الدّعاء، تقع موقع الحال من الجملة الأولى، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾: يحتمل في: ﴿مَا﴾ أن تكون نافية، أي لا ينفعه ماله شيئا. ويجوز أن تكون استفهامية، أي: ماذا أغنى عنه ماله؟، فيكون استفهاما للإنكار. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: يصح في: ﴿مَا﴾ الثانية أن تكون موصولة أو مصدرية، والكسب: إما بمعنى المصدر، أو للمفعول، أي حصيلة عمله، ثروة أو غيرها من أنواع المنافع. ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾: من الصّلي، وهو الاحتراق بالنّار، ولهبها هو ألسنتها و﴿حَمَّالَةُ الْحَطَبِ﴾: مرفوع بالعطف. ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: الجيد: جمع أجياد، العنق. والمسد: طوق مصنوع من ليف مفتول، وصف تحقير وإهانة في الدّنيا، وإخبار لما تكون عليه في الآخرة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾: قرأ الجمهور لفظ: ﴿لَهَبٍ﴾ بفتح الهاء، وقرأه ابن كثير بسكون

الهاء، وهو لغة؛ لأنهم كثيرا ما يسكنون عين الكلمة المتحركة مع الهاء، وقد يكون ذلك لأنّ "لهب" صار جزء علم. ﴿حَمَّالَةُ﴾: قرأ الجمهور برفع ﴿حَمَّالَةُ﴾، على أنه صفة لـ﴿امْرَأَتُهُ﴾، وقرأ عاصم بنصب ﴿حَمَّالَةَ﴾ على الحال، من ﴿امْرَأَتُهُ﴾، وفيه من التوجيه والإيماء ما في قراءة الرفع.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾، وفي ما ورد من أسباب النّزول ما رواه الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد على الصّفا فنادى: يا صباحاه، -كلمة تقال للإنذار من عدوّ يصبّح القوم-، فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدّثتكم أنّ العدو مصبّحكم أو ممسّيكم، أكنتم تصدّقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا، تبا لك. فنزلت السّورة»[1]، ويروى أنه أخذ حجرا بيده ليضربه.

قلت: وقد تعدّدت إذايات أبي لهب لابن أخيه رسول الله، وحسبه خزيا ومعرة أنّه خرج من إجماع بني هاشم عندما أجمعوا على حماية رسول الله من قريش بدافع العصبية القبلية، وأيّد مقاطعة قريش لهم، وكان اسمه مذكورا مع أسماء زعماء قريش في صحيفة المقاطعة.

ثم إنّه أمر ولديه عتبة وعتيبة بتطليق بنتي رسول الله رقيّة وأمّ كلثوم بعد بعثته ﷺ، ففعلا ليثقل كاهل الرّسول بمؤونتهما في زعمه.

ولم تكن زوجه أمّ جميل بأقلّ من زوجها رعونة وإذاية لرسول الله، إذ كانت متعاونة معه، إذ اشتد غضبها بعد نزول هذه السّورة التي صوّرتها في هيئة مزرية تثير

---

(١)- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَبَّ، مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾، رقم ٤٩٧٢.

السخرية، فحاولت أن تضرب رسول الله بحجر وهو مع أبي بكر عند الكعبة، ولكن الله حال بينها وبين الرّسول، إذ أغشى بصرها فلم تعد ترى إلا أبا بكر.

وهذا غيض من فيض من الأمثلة لإذايات هذين الزّوجين، فكان من غيرة الله على رسوله أن أنزل في شأنهما هذه السّورة قرآنا يتلى إلى قيام السّاعة، يصبّ اللّعنة ويدعو لهما بالتباب، وصدق الشّاعر الذي قال:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: افتتاحية هجائية فظيعة يزيدها شناعة وفظاعة ذكر اسم المعني بهذا الدّعاء، وهو أبو لهب عمّ الرّسول، وهو الوحيد من خصوم رسول الله يذكر باسمه في القرآن، وقد سلط الله عليه الدّعاء بالهلاك مكررا مرتين، والتعبير باليدين هو من التعبير بالجزء وإرادة الكل، فقد حكم الله عليه بالهلاك والخسران في الدّنيا والآخرة، وبقيت تلك اللّعنة تتردد على مسمع الزّمان ما بقي فيه قرآن يتلى، والأخزى له أن يذكره الله بكنيته "أبي لهب" التي توافق حاله ومصيره إلى لهب النّار حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾: أي حصيلة عمله من كل ما كسبه من مال أو ولد أو جاه، وقد كان يتطاول بذلك ويقول: إن كان ما يقوله ابن أخي حقا فإني افتدي منه بمالي وولدي، فجاء الرّدّ الإلهي عليه بصيغة الماضي: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾، لإفادة التحقيق.

ثم ذكر الله عقابه في المستقبل فقال: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، السّين للتنفيس، أي تفيد وقوع الفعل في المستقبل، وصلي النّار الاحتراق بها، وهي نار حامية ذات لهب متّقد تلتهمه يوم القيامة، فهذا الحكم من الله بشقاوة هذا الرّجل هو وامرأته سوف تنتهي حياتهما على الكفر، فلا يرجى منهما إيمان في ما بقي من حياتهما.

وقال تعالى في شأن امرأة أبي لهب: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾، أي ستصلى امرأة أبي لهب النار معه وتعذب مثل عذابه لأنها شريكته في عداوته لرسول الله، إذ كانت تحمل الحطب ذا الشوك والحسك فتضعه في طريق الرسول حتى يتأذى به. وقيل: إن التعبير مجازيّ للدلالة على مشيها بالنميمة بين الناس، لأنّ العرب كانوا يكنّون للنمام بحمال الحطب.

وقوله تعالى: ﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾ أي من ليف خشن، وهذا النوع من الحبال الخشنة لا يوضع إلا على أعناق الحمير لجرّ الأثقال، فهو هجاء مقذع لامرأة تكون قلادتها من مسد خشن، وقد عكس الله نيتها، كما قيل عنها أنها كانت تملك قلادة من جواهر تفخر بهما، وتقول: لأنفقنها في عداوة محمد، فأبدلها الله منها حبلا من نار جزاء وفاقا إهانة وتحقيرا، وصدق رسول الله إذ قال: «**من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**».(١)

والله أعلم.

(١) - رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب القراءات، باب ١٢، رقم ٢٩٤٥.

سُورة الإخلاص مكيّة، وآياتها ٠٤

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت السّورة بأسماء كثيرة أشهرها في أكثر المصاحف "سورة الإخلاص"؛ لأنها تخلّص العبد من أوحال الكفر والشّرك؛ واشتهرت تسميتها في عهد رسول الله بسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقد ورد عنه ﷺ في فضلها أنه قال: «**قل هو الله تعدل ثلث القرآن**»(١)، أي في الأجر والثّواب بتلاوتها، وتسمّى سورة "التّوحيد" أو "الأساس"... إلخ. واختلفت الرّوايات في مكيّتها ومدنيّتها، ورجّح الجمهور أنها مكيّة، وآياتها أربع، وتعدّ الثّانية والعشرين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة "النّاس"، وقبل سورة "النّجم"، وهي الثّانية عشرة بعد المائة في ترتيب سور المصحف الشّريف. وهي سورة عظيمة الشّأن تتضمن بيان الرّكيزة الأولى في عقيدة الإسلام الصّحيحة، إذ تثبت وحدانية الله، وأنه السّيد الذي لا يقصد غيره في تحقيق الرّغائب ودفع المصائب، وهو منزّه عن الصاحبة والولد، وأنه ليس كمثله أحد في ذاته أو صفاته.

إخلاص التّوحيد لله، وتنزيهه عن كلّ نقص.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

---

(١) - رواه مسلم من حديث أبي الدرداء، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم ٨١١.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن، وهو مبتدأ. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ثان. ﴿أَحَدٌ﴾: خبره، والجملة منها خبر المبتدأ الأول. ﴿أَحَدٌ﴾: أي متفرد في ذاته. صفة مشبهة تفيد التمكن في الأحدية أي ليس فيها تركيب، وهي صفة خاصة بلفظ الجلالة لا يوصف بها أحد. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: الجملة تفيد الحصر، و﴿الصَّمَدُ﴾: السّيّد المقصود لتحقيق الحاجات والرّغائب يفتقر إليه كل ما عداه، وهي من أسماء الله الحسنى. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: نفي للشبه والمجانسة؛ لأن الولد يتطلب الزوجية، تعالى الله عن ذلك، فهو الأول الذي لم يسبقه أحد. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: نفي للمماثل والشبيه المساوي، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١). وبين: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ و﴿لَمْ يُولَدْ﴾ جناس ناقص، ومن خصائص البديع في السورة السّجع المرصّع.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كُفُوًا﴾: بضمّ الكاف وضمّ الفاء وهمزة في آخره، بذلك قرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر، إلا أن الثلاثة الأولين خففوا الهمزة، وأبو جعفر سهلها، ويقال: ﴿كُفْءًا﴾ بضم الكاف وسكون الفاء وبالهمزة، وبه قرأ حمزة ويعقوب، ويقال: ﴿كُفُوًا﴾: بالواو عوض الهمزة، وبه قرأ حفص عن عاصم، وهي لغات ثلاث فصيحة.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، وفي سبب نزول السّورة روى الإمام الترمذي وغيره عن أبيّ بن كعب: «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: أنسب لنا

ربّك يا محمّد، فأنزل الله السّورة»[١]، فعلى هذه الرّواية هي مكيّة كما يدلّ على ذلك مضمونها، إذ أنها ركّزت على الأساس الأوّل في العقيدة الإسلامية، أي وحدانية الله، ووردت في فضلها عدة روايات منها ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال رسول الله لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟. فشق ذلك عليهم، وقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»**.[٢]

قلت: ليس في إضفاء هذا الفضل العظيم على هذه السّورة الصّغيرة من عجب ولا غرابة؛ لأن الأمر الرّبّاني للرسول بإعلان أحدية الخالق في انطلاقة دعوته، هو في حدّ ذاته إعلان لمواجهة ذلك الرّكام من الضّلالات والجهالات التي استحوذت على الحس البشريّ، ولم تنج منه حتى الدّيانات السّماوية من يهودية ونصرانية والتي طال الأمد بأتباعها فبدّلوا وغيّروا وانحرفوا عن الأصول الوحدوية لتلك الدّيانات بله الدّيانات الوضعية التي هي من خيالات البشر وأهوائهم ما أنزل الله بها من سلطان.

فقد كفّر القرآن عقيدة التثليث لدى النّصارى بادعائهم التّركيب بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القدس، للذات الإلهية، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(المائدة:٧٣).

ولم يسلم اليهود من أوحال الشرك مع النّصارى، بادّعائهم البنوّة لله -حاشاه- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (التوبة:٣٠). ثم قال ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ (التوبة:٣١). وقد أشار القرآن إلى عقيدة الثّنوية عند المجوس باعتقادهم في إله الخير وإله للشرّ يعاكسه، فردّ الله عليهم بقوله:

---

(١) - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الإخلاص، رقم ٣٣٦٤.

(٢) - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد، رقم ٥٠١٥.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل:٥١).

وأما الوثنية العربية بعبادة الأصنام وما نسجوا حولها من الخرافات والأوهام، فتلك هي العقبة الكأداء التي واجهتها الدّعوة الإسلامية بصرامة وإصرار، وأحبطت كل المحاولات التي أرادت أن تداهن وتساوم، وقد لخصت سورة "الكافرون" تلك الصّرامة وذلك الإصرار في إعلان المفاصلة التّامة بين الكفر والإيمان.

وحتى الفكرة الإلحادية المادية واجهها القرآن بحدّة ونكران فقال جلّ من قائل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:٢٤). ففي خضمّ تلك التّراكمات الضّالّة التّائهة، يقف رسوله الله ليعلن على مسمع الدّنيا أحدية الخالق وصمديته، يحدو بالموكب البشري إلى المصدر الحق للوجود الخالق العظيم، الله جلّ جلاله، ويصفه بما هو أهل له من صفات الكمال المطلق وهو يتلقى هذا الأمر الإلهيّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

فالأمر الإلهي: بـ﴿قُلْ﴾ هو للإجابة على السّؤال الذي طرحه المشركون عليه بقولهم: يا محمد أنسب لنا ربّك، ومثل هذا السّؤال يعكس التّصوّر الفاسد لدى المشركين لحقيقة المعبود الحق، وخير دليل على ذلك جعلهم الملائكة بناتا لله -حاشاه-، فالأحدية أدق تعبير من الواحدية؛ لأنها تفيد التّفرّد للخالق في ذاته وصفاته، فلا يعتريه التّركيب ولا التّجزئة كشأن المخلوق، إنها أحدية الوجود المطلق، وكل ما سواه من عالم الأمر والخلق يستمدّ منه وجوده، فالله الأحد هو الخالق الذي انبثق عنه الوجود، وهو الفاعل المتصرف المحرك لذرات الكون التي تخضع للزوجية في خلقتها كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩). فإذا استقرت فكرة الأحدية الإلهية في الضّمير الإنساني فإنّه يتخلص من التّعلق بأي شيء من هذا الوجود الماديّ، وبالتّالي يتحرّر من جميع القيود إذ يراها باطلا وعرضا زائلا.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم -لا محالة- زائل

وحتى الأسباب التي سخرها الله للإنسان في عالم الخلق، والتي لا مناص من الأخذ بها لتحقيق رغباته، يجب على المؤمن أن لا يغتر بها بل يعزي فاعليتها إلى المسبّب الحقيقي وراءها وهو الله تعالى، وهو القائل في محكم كتابه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ، أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة:٥٧-٩٦). وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧). وأمّا الصمدية فإنها تعني عدة معان متقاربة تتلخص كلها في معنى الذي يصمد إليه في الحاجات، يقصده كل مخلوق ولا يستغني عنه أحد، وهو الغنيّ عما سواه. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥).

ومن معاني الصمدية التّناهي في السّؤدد والشّرف والعلوّ والعظمة، فكلتا الصّفتين: الأحدية والصمدية، مما تتفرد به الذّات العليّة، وذلك يقتضي في اللّزوم العقليّ بأن لا يكون له نسب من الوالد والولد إذ قال تعالى: **﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**. ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: نفي تفرع أي ابن أو بنت عنه كما يدّعيه اليهود والنّصارى والمشركون، فهو الأزلي الأبدي، وهو الأول والآخر والظّاهر والباطن، هو الأول الذي لا ابتداء لأوليته، وهو الآخر الذي لا انتهاء لآخريته، والمولودية تستدعي الحدوث والانفصال، تعالى الله عن ذلك. ويجيء في آخر السّورة الآية الجامعة في نفي الأشباه والأنداد لله تعالى وليس له كفوا أحد، في معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١).

وخلاصة القول: إنّ سورة الإخلاص على قلة آياتها كانت في غاية البلاغة والإعجاز في وصف الذّات الإلهية، فأثبتت الآيتان الأولى والثانية صفات الكمال والجلال والعظمة بالأحدية والصمدية، ونفت عنه الثالثة والرّابعة صفات النّقص والعجز، ونزهته بأسمى صور التّنزيه.

والله أعلم

سُورة الفلق مكيّة، وآياتها ٠٥

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت في أكثر المصاحف وفي كتب التفسير سورة الفلق لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وسمّاها الرّسول: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وتسمّى مع سورة النّاس بالمعوِّذتين -بكسر الواو-. واختلفت الرّوايات في مكيّتها أو مدنيّتها، وفي رواية عن ابن عباس أنها مكيّة، ورجح ذلك الإمام جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة وغيرهم، وآياتها خمس. وعدّت العشرين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة الفيل، وقبل سورة النّاس، وهي الثّالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول المصحف الشّريف.

وهي تتضمّن تعليم النّبي وأمّته كيف يتعوّذون بالله ويلتجئون إليه ليقيهم من شرور المخلوقات الشّريرة ومن الأوقات التي يكثر فيها الشّرّ، وخصّص بالذّكر شرّ السحرة والحسّاد، وقد ثبت عن النّبي التعوّذ بهذه السّورة وسورة النّاس عندما يأوي إلى فراشه ويأمر أصحابه بذلك.[1]

الاستعاذة بالله من شرّ بعض المخلوقات، وبعض الأوقات.

أ)– النّص:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١
مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن
شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥

(١) – رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم ٥٠١٧.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾: ﴿أَعُوذُ﴾: من عاذ يعوذ عوذا وعياذا بالشيء، التجأ واحتمى به. و﴿الْفَلَقِ﴾: الانشقاق عن باطن شيء، كانشقاق النبات عن الحب والنوى، واستعير لانشقاق الصبح بعد ظلمة الليل. ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى "الذي"، أو مصدرية، أي: من شر خلقه. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: الغاسق وصف لليل إذا اشتد ظلامه. ﴿وَقَبَ﴾: إذا خيّم ظلامه على الكون. ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾: النفث: الريح يخرج من الفم مع ريق خفيف. و﴿الْعُقَدِ﴾: جمع عقدة، بِلَيِّ الخيط، وهو ما يفعله السحرة للإضرار بالغير. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: الحاسد: هو الذي يتمنى زوال النعمة عن محسوده، والغبط هو بعكس ذلك، أي التمني أن يكون لك ما لأخيك من النعمة.

ج)- البيان والتفسير:

لقد تعددت الروايات في بيان فضل المعوذتين، يقول عنها ابن كثير في تفسيره: "فهذه طرق عن عقبة هي كالمتواتر عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث".[1] وأخرج لما رواه البخاري وأهل السنة.

عن عائشة: «**أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات**».[2]

قلت: وهذا إرشاد لما يجب أن يلتزم به الراقون للاستشفاء، وإن كان القرآن كله

(١)- التفسير المنير: ٤٧٢/٣٠.

(٢)- تقدم تخريجه: ص ٥٣٠.

زق عسل كما يقال.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: وفي سبب النزول نقل الدكتور الزحيلي عن البحر المحيط قال: "السبب: قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، فإنّه سحره في جُفّ قشر الطلع فيه مشاطة رأسه، وأسنان مشطه ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة. ووجد ﷺ في نفسه خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة، فقام فكأنما نشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يرقي رسول الله فيقول: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين، والله يشفيك".[1]

ذكر أغلب المفسّرين هذه الرّواية الآحادية، على أنها وقعت في المدينة، وقد رجحنا أن السّورة مكيّة، وذلك يضع هذه الرّواية في شك من صحتها، بالأخصّ أنها تخالف أصلا من أصول الاعتقاد، إذ تتعارض مع العصمة النبوية في التبليغ، وأن كل فعل أو قول أو تقرير لرسول الله هو سنة وشريعة، إذ كيف يسحر رسول الله ويتأثر بسحر يهوديّ يكنّ له العداء، والقرآن ينفي صفة السّحر عنه مما يتهمه به المشركون فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان:٨).

ثم إن كثيرا من تلك الإذايات من طرف المشركين لرسول الله قد صرفها الله عنه ويقول له: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧) ويقول: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة:١٣٧). فاليهوديّ ولكل عدوّ من أعداء رسول الله أن يحاول الإضرار به بالسّحر أو بغيره فإن الرّسول في كنف الله ورعايته لا يتأثر ولا يضره شيء، وهذا ما رجحه الإمام ابن عاشور في تفسيره حين قال: "وجملة القول هنا أنه لما كان الأصحّ أن السّورة مكيّة فإن النبي مأمون من أن يُصيبه شرّ النفاثات لأنّ الله أعاذه

(١)- التفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٢. وانظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب السحر، رقم ٥٧٦٣.

منها".[١]

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: هذا الأمر بالقول لرسول الله وهو يشمل أمته، ويقتضي المحافظة على ما ورد في القول من الألفاظ للتعوذ بها كما جاء بها القرآن حتى كلمة: ﴿قُلْ﴾، واختيار صفة الرّبوبية مناسب للدلالة على معنى الرّعاية والحفظ. والفَلَق من الفَلْق أي الانشقاق عن باطن الشّيء، وهو يشمل ظواهر كثيرة أعظمها انفلاق الصّبح عن ظلمة اللّيل وانفلاق أنواع الحياة من الحيوان والنّبات، فصّل الله ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام:٩٥-٩٦).

والعوذ برب الفلق أي الالتجاء والاحتماء به من شرّ خلقه إجمالا، وللمخلوقات كلها شرور وإذايات، كما أن لها خيرا ونفعا في الاحتكاك والانتفاع بعضها البعض.

فالشّرّ هنا مسند إلى المخلوقات لا إلى الخالق، لأنه تعالى منزه عن الشّرّ، فكانت أسماؤه كلها حسنى، وما يقضيه -أحيانا- على عباده من أنواع المصائب تربية لهم وتحذيرا لا يوصف ذلك بالشّرّ، بل هو محض الخير والعدل، كما علّل الله القصاص من القاتل بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٩).

وقد جاء في الحديث الصّحيح قوله ﷺ في هذا المعنى: «**لبّيك وسعديك، والخير في يديك، والشّرّ ليس إليك**».[٢]

---

(١)- التحرير والتنوير: ٦٢٨/٣٠.

(٢)- رواه مسلم من حديث علي، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧١.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: بعد الاستعاذة بالله من شرور الخلق بصفة عامّة خصّ الله بالذّكر بعض الأوقات التي يكثر فيها الشّرّ، فذكر ظلمة اللّيل عندما تخيّم على الكون، وهو الغاسق إذا وقب، فاللّيل مخوف بظلامه، وهو مظنة لكثير من الشّرور، وقديما قالت العرب: "اللّيل أخفى للويل"، فهو مسرح للأرواح الشريرة، ومجال للمخلوقات المؤذية من البشر والحيوان والهوامّ، وجاء في الحديث بأن الغاسق إذا وقب: هو القمر إذا انخسف نوره. غير أن الآية عامّة تشمل ما ذكرناه.

وللرسول إرشادات لأمته في ما ينبغي أن يحتاطوا له في ظلمة اللّيل إذ قال: «**إذا كان جنح اللّيل فكفّوا صبيانكم، فإن الشّياطين تنتشر حينئذ، فأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، فإن الشّيطان لا يفتح بابا مغلقا وأوكئوا قربكم، واذكروا اسم الله، وخمّروا آنيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئا، وأطفئوا مصابيحكم**».(١)

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾: إنه عمل السّحر، تقوم السّواحر بالنّفث في العقد، أي في خيوط تنفث عليها وتعقد عقدا وتمتم بكلمات غريبة وتكون لذلك آثاره الخبيثة في نفس المسحور، والسّحر حرام في الشّرع الحنيف مهما كانت وسائله وقد عدّه رسول الله من الموبقات السّبع، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه:٦٩).

ولشياطين الإنس والجن تعاون في هذا المجال لإلحاق الضّرر بالأبرياء ولا عاصم من شرورهم إلا الله الواحد القهار الذي قال: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة:١٠٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، والحسد انفعال نفسيّ عند الإنسان الحاسد، قد يعمل بمقتضاه لإلحاق الضّرر بمحسوده، وهو معنى القيد في

---

(١)- رواه البخاري من حديث جابر، كتاب الأشربة، باب تغطية الإناء، رقم ٥٦٢٣.

قوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، فهو لا تقرّ بلابله إلا بزوال النعمة عن محسوده.

والحسد صفة مذمومة؛ لأنها اعتراض على مشيئة الله في إعطاء نعمته لمن يشاء من عباده، وبدافع الحسد كانت أوّل معصية في الملإ الأعلى من إبليس لأمر الله بالسجود لآدم، ثم حدثت به أوّل جريمة للقتل بين ابني آدم قابيل وهابيل.

أما حسد الغبطة فلا حرج فيه، إذ هو تمنّي الإنسان أن يكون له مثل ما للمحسود من نعمة من غير أن يتمنى زوالها عنه، فاللهم اكف عنا شرّ الحاسدين وكيد الكائدين.

والله أعلم

سورة الناس مكية، وآياتها ٠٦

- بين يدي السورة الكريمة:

سميت في معظم المصاحف وفي كتب التفسير سورة "الناس"، أي اللفظ الذي تكرر فيها خمس مرات، كما تسمّى مع سابقتها بالمعوذتين، وعنونت في الصحاح سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وهي مكية على الأرجح وآياتها ست. وتعدّ الحادية والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت عقب سورة الفلق، وقبل سورة الإخلاص. وهي آخر سورة من القرآن في ترتيب سور للمصحف الشريف، أي الرابعة عشرة بعد المائة، وقد بدئ بسورة الفاتحة، وكلتاهما استعانة بالله والتجاء إليه وحمد وثناء له لطلب الاستقامة على الطريق المستقيم والحماية من شرّ الوسواس الخناس، مما يوحي به شياطين الجن والإنس.

فالسورتان الفلق والناس متكاملتين في الغرض، فإذا كانت الأولى التجاء إلى الله من الشرور الخارجية التي يمكن أن يتعرض لها الكيان المادي للإنسان في جسده فإن سورة الناس التجاء إلى الله لحمايته مما ينبثق من داخله من مختلف الهواجس النفسية التي يوحي بها شياطين الإنس والجن.

الاستعاذة بالله من شرّ شياطين الجنّ والإنس.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ
النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَٰهِ النَّاسِ﴾: تقدم القول عن الافتتاحية بـ﴿قُلْ﴾، وعن معنى العوذ في السّورة السّابقة، والمستعاذ به هو الله، وصف ذاته العلية بثلاث صفات مضافة إلى النّاس، وهي الرّبوبية والملكية والإلهية. و﴿النَّاسِ﴾ اسم جمع للبشر كلهم أو لبعضهم، ولا يطلق على غيرهم، ﴿مَلِكِ﴾: ﴿إِلَٰهِ﴾ كلاهما عطف بيان من ﴿رَبِّ﴾، وتكرار لفظ ﴿النَّاسِ﴾ للإشعار بكرامة الإنسان وشرفه، وقد لاحظ بعض المحققين بأن هذه الإضافات الثلاث قد تضمنت معاني أسماء الله الحسنى.[1] والمستعاذ منه هو قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، الوسوسة: الكلام الخفي، والوسواس الذي يلقي في النّفوس خواطر الشّر والسّوء. ﴿الْخَنَّاسِ﴾: صيغة مبالغة من الخنس، وهو الاختفاء والرّجوع، وذلك عندما يذكر العبد ربّه. ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: ﴿مِنَ﴾: بيانية. ﴿الْجِنَّةِ﴾: اسم جمع: جنيّ، بياء النّسب إلى الجن، وهو خلق خفيّ، ويقال: إنسيّ، للواحد من الإنس.

ج)– البيان والتّفسير:

قال الله تبارك وتعالى في المستعاذ به: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَٰهِ النَّاسِ﴾، القول في هذه الافتتاحية بالأمر الإلهيّ لرسوله: ﴿قُلْ﴾ هو نفس القول مما تقدم في افتتاحية السّورة السّابقة من وجوب الالتزام بألفاظ المقول كما صاغها الله تعالى، والخطاب للرسول ويشمل أفراد أمته تأسّيا به في الالتجاء إلى الله وحده والاحتماء بكنفه، فإذا كانت سورة الفلق طلبا للحماية من شرور المخلوقات الظّاهرة التي تصيب الإنسان في محيطه من الخارج، فإنّ سورة النّاس طلب للحماية من الشّرور

(١)- أنظر: عبد الحميد محمود، التفسير الموضوعي: ٨/٦٠٤.

التي تنبثق من داخل الذّات الإنسانية، وذلك لأن الإنسان مزدوج التكوين، إذ هو في تكوينه الجسديّ الماديّ حيوان مخلوق من تراب الأرض محكوم بغرائزه الشهوانية من طعام وشراب وجنس، وهو في طبيعته الملكية الرّوحية نفحة من روح الله خلقه فسوّاه ونفخ فيه من روحه. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص:٧١-٧٢).

فمنذ بدء الخليقة كما قصّها الله في القرآن والبشر هم كما خلقهم الله، كيان ماديّ وكيان روحي في ذات واحدة مترابطان لا ينفصلان، فهم معرّضون للشّرور تصيبهم في كيانهم المزدوج: الماديّ والرّوحيّ، كما ينالون من الخير ما يقدّره الله في مسار حياتهم ابتلاء لهم من الله في الحالتين: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء:٣٥). قال الشاعر:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

وقد ترتبت أوصاف الذات الإلهية مضافة إلى النّاس، فتدرجت من الرّبوبية، إلى الملكية، إلى الإلهية، وهي كما تقدم في التّحقيق اللّغويّ قد تضمنت معاني أسماء الله الحسنى كلها، وأن ذلك التّدرّج في ترتيب الصّفات الثّلاث لتناسب تدرّج الإنسان في أطوار سنّه، كما بينه الإمام ابن القيّم في تفسيره للمعوذتين، إذ ناسب وصف الرّبوبية طور الطّفولة والصّبا، لما في الوصف من معاني الرّعاية والعطف والحنان، ووصف الملكية يناسب طور الشّباب والكهولة للدلالة على معنى القوّة والسّلطان، أما وصف الألوهية فيناسب طور الشّيخوخة والهرم لما يغلب فيه من التّوجّه إلى الله والتّعبّد والطّاعة استعدادا للقائه. وهو ملحظ دقيق، -والله أعلم بمراده-.

ومع كل صفة تكرر الإضافة إلى النّاس تشريفا واهتماما بهم؛ لأن نوع الشّرور والمستعاذ منها في هذا تخصّهم فما هي تلك الشّرور المستعاذ منها؟.

يقول تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ

النّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: و﴿الْوَسْوَاسِ﴾ هو الذي يوسوس، أي يلقي بالأوهام والخواطر الخفية في النفس، وهذه الظاهرة النفسية التي نشعر بها ولا ندري كيف تتسرب إلى نفوسنا، ولكننا نحسّ بآثارها على سلوكنا وواقع حياتنا، وقد أخبرنا الله عن تلك المعركة بين آدم والشيطان منذ بدء الخليقة بما وسوس به لأبينا آدم من معصية الله بأكله من الشجرة الممنوعة حتى يخرجه من الجنة حسدا وبغيا، ثم إعلانه لتلك الحرب الإغوائية على ذريته بعد أن أنظره الله إلى يوم يبعثون، وسلاحه الفتاك في تلك المعركة إنما هو الوسواس بالشرّ، ومن رحمة الله على الإنسان أن لم يتركه أعزل مجردا من سلاح المقاومة، بل جعل له من ذكر الله وقاية، ومن الاستعاذة به درعا يقيه شرّ الوسواس الذي وصفه الله بالخناس أي الذي يختفي ويخنس عند ذكر الله كما قال تعالى:

أ)- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٢٠٠).

ب)- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

وروى الإمام البخاريّ عن ابن عبّاس قال: "﴿الوسواس﴾ إذا وُلد -أي الإنسان- خنسه الشيطان، فإذا ذُكر الله عز وجل ذهب، وإذا لم يذكر الله ثبت على قلبه".[1]

وكان رسول الله شديد الحرص في مجانبة أصحابه لمواطن الإغراءات الشيطانية لهم إذ عاملهم بالوضوح والصراحة في كل مواقفه معهم، وفي القصة التي ثبتت في الصحيحين عن أنس في زيارة صفية بنت حيي لرسول الله ﷺ، وهو معتكف، فخرج معها ليردّها إلى منزلها ليلاً، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي أسرعا، فقال:

(١)- رواه البخاري معلقا، كتاب التفسير، باب سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، رقم ٤٩٧٧.

رسول الله: على رسلكما، إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال: **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلبيكما شيئا».**[1]

قلت: وهذا ما حدث في حديث الإفك لعائشة ﵂ مع صفوان بن المعطل.

وقوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، فالمراد بالصدور ما يحمل فيها من القلوب التي هي في التعبير القرآني مستودع الخواطر والأحاسيس، ومركز المعتقدات.

فإذا كنا لا ندرك كيف يتسلل الشيطان إلى نفوسنا لتصبح أمارة بالسوء فإن وسوسة الأشرار من البشر لا تكاد تخفى علينا، وهي أوغل في الشر والإيذاء من وسوسة شياطين الجن، وذلك بحكم للمخالطة والمعاشرة والتجانس، كما قال الشاعر:

ولكل شيء آفة من جنسه   حتى الحديد سطا عليه المبرد

فقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: ﴿مِنَ﴾ بيانية، وقدمت شياطين الجن على شياطين الإنس لأنهم الأصل والمصدر في الإغواء بالشرور، وبين النوعين تعاون وتآزر كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام:١١٢).

وقانا الله من شر الصنفين وأعاننا على دوام ذكره وشكره وحسن عبادته إنه نعم المولى ونعم النصير.

والله أعلم

تم بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه.

---

(١) - رواه البخاري من حديث صفية، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد؟، رقم ٢٠٣٥.

خاتمة التفسير

أتممت -بعون الله- تفسير سورة النّاس ليوم الجمعة ١، جمادى الأولى ١٤٣٦هـ الموافق ليوم ٢٠ فبراير ٢٠١٥م.

وبذلك تمّ تفسير القرآن الكريم بكامله، وبذلك أكون -إن شاء الله- قد وفيت بما عاهدت الله عليه، وعقدت عليه العزم لخدمة كتاب الله، وعظا، وإرشادا، على منبر المسجد العتيق، وتأليفا، وتحقيقا، يوازي ويواكب إلقاء تلك الدّروس، في عمل دؤوب، ورجاء في عون الله وتوفيقه لا يخيب، لا يثنيني عن ذلك -بفضل الله- نصب ولا لغوب.

وأحمده تعالى خالص الحمد أن أمدّ لي في حبل الأجل، وحبّب إليّ هذا العمل، فأبقى لي -بفضله ومنه- عينا تبصر، ويدا تكتب، وذاكرة واعية ناشطة، على ما أشكوه من مرض ووهن، ولا شكّ أنّ الله تعالى قد استجاب لدعوات جمهورنا الكريم من كلّ متتبع لدروسي من قريب أو بعيد، وهم يطلبون لي من الله طول العمر لإتمام الختم، وكان في طليعتهم شيخنا المرحوم الشّيخ عدون رحمه الله، الذي أهديت إليه أول مجلّد من التّفسير المطبوع، فرجوته أن يدعو الله لي بالعون والتوفيق حتى أغطّي الحلقة المفقودة من تفسير الشّيخ الإمام بيوض رحمه الله، فبادرني بقوله: بل أدعو الله لك أن تتمّ التّفسير بأكمله.

فلا تسل عن فرط سروري بذلك التحفيز والتّشجيع، وإن كنت في قرارة نفسي قد استعظمت المهمّة واستبعدت الشّقة، ولكن ربّي لطيف لما يشاء، إذ حقق الأمنية واستجاب الدّعاء.

فاللّهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرّضى، مما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فاللهم تقبل مني هذا العمل المبارك، وأدخل ثوابه روحا وريحانا على روح سيدنا محمد ﷺ، وعلى أرواح آبائنا

وأمهاتنا ومشائخنا، وعلى أرواح أوليائك الصّالحين من المؤمنين والمؤمنات.

اللهم إن لبيتك الطّاهر للعمور ولعمّاره من زوّارك الكرام اليد الطّولى في شحذ عزيمتي وإذكاء همتي لمواصلة السّير إلى نهاية المطاف، اللّهم زد لبيتك هذا عزّا وشرفًا، ولعمّاره صلاحا ورشدا، وتقبل جهود كلّ من أمدّ إليّ يد العون في إنجاز هذا المشروع العظيم، تحقيقا، ورقا، وتنسيقا، وطباعة، ونشرا، اللهم أشركهم معي في الأجر والثواب، ويسّر لهم كل الأسباب، وافتح عليهم مغاليق الأبواب، إنك أنت الغني الوهاب.

اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة، وجميل العاقبة، ونسألك اللّهم العفو والعافية والمعافاة الدّائمة في ديننا ودنيانا وآخرتنا، إنك على كل شيء قدير، والحمد لله ربّ العالمين.

العطف يوم الجمعة ١٠ جمادى الأولى ١٤٣٦هـ

الموافق ليوم ٢٠ فبراير ٢٠١٥م.

المؤلف: سعيد محمد بن إبراهيم لعباش

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 544

فهرس الأحاديث 560

فهرس الآثار 567

فهرس الأبيات الشّعرية.............................. 568

فهرس مصادر التفسير ومراجعه 572

فهرس الآيات والعناوين الرئيسيّة

تفسير سورة الجمعة

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السورة	5
04-01	خصائص النبيّ في بعثه للعرب وللنّاس كافّة	6
08-05	موقف اليهود من التوراة وتمنّي الموت	10
11-09	النّداء لصلاة الجمعة وفرضيتها	14

تفسير سورة المنافقون

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السورة	19
04-01	بعض أوصاف المنافقين	20
08-05	واقع المنافقين في العناد ومحادّة الرسول ﷺ	25
11-09	تحذير المؤمنين من صفات المنافقين، وتحريضهم على الإنفاق في سبل الخير	29

تفسير سورة التّغابن

الآية	العنوان	الصّفحة
	بين يدي السورة	33
04-01	مظاهر قدرة الله في الآفاق وفي الأنفس	33
07-05	بعض مظاهر الكفر عند المشركين، وجزاؤهم	36

13-08 الدعوة إلى الإيمان بيوم الجزاء، وبيان أنّ كلّ شيء عند الله بقضاء وقدر 39

18-14 التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال، والأمر بالتقوى والإنفاق.. 44

تفسير سورة الطّلاق

- بين يدي السورة.. 49

03-01 بيان أحكام الطلاق والعدّة، والأمر بتقوى الله والتوكل عليه ... 50

05-04 بيان عدّة اليائس والصغيرة 58

07-06 وجوب السّكن والنّفقة للمعتدّة والمرضعة 61

12-08 وعيد العاتين عن أمر الله، ووعد الطائعين، والتذكير بقوة الله وعظمته 64

تفسير سورة التّحريم

- بين يدي السورة.. 69

05-01 بيان بعض أحوال نساء النبي ﷺ........................ 70

09-06 الأمر بالوقاية من النّار، وبالتوبة النصوح، والتحريض على جهاد الكفار 77

12-10 أمثلة من النساء المؤمنات والكافرات........................ 82

تفسير سورة الملك

-	بين يدي السورة	87
05-01	بعض الأدلّة على القدرة الإلهية	88
15-06	وعيد الكافرين وتهديدهم مقابلة بوعد المؤمنين	93
22-16	توالي الوعيد والتهديد والتوبيخ للمشركين ثم التدليل على كمال قدرته تعالى	98
30-23	التذكير بنعم الله، وأنّ الغيب من اختصاصه، والرّدّ على المشركين لدعائهم على النبيّ بالهلاك	103

تفسير سورة القلم

-	بين يدي السورة	108
16-01	كمال الأخلاق عند النبي ﷺ، على عكس ذلك عند الكفّار	109
33-17	قصّة أصحاب الجنّة، وبيان عاقبة البغي	115
43-34	جزاء المتّقين، وإنكار التسوية بينهم وبين المجرمين	120
52-44	تهديد الكفار بأن يتولى الله جرمهم، وأمره لنبيه بالصبر والتذكير	123

تفسير سورة الحاقّة

-	بين يدي السورة	128

12-01 تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به................ 128
18-13 بعض أهوال يوم القيامة 132
37-19 حال الناجين الأبرار، وحال الهالكين الكفّار يوم الحساب.. 134
52-38 إثبات حقّية القرآن وصدق المنزّل عليه 137

تفسير سورة المعارج

- بين يدي السورة.................................... 143
18-01 التأكيد على وقوع عذاب يوم القيامة، وتهديد المشركين بعذابه.. 143
35-19 بيان الأحوال النفسية للإنسان، وتأثّر سلوكه بوازع الإيمان 149
44-36 التعجيب من أحوال المكذبين بالرّسول في الدّنيا والآخرة.............. 154

تفسير سورة نوح

- بين يدي السورة.................................... 158
20-01 دعوة نوح لقومه، وبيان شكواه لربّه منهم 158
28-21 شكوى نوح إلى ربّه من مساوئ قومه والدعاء عليهم..... 166

تفسير سورة الجنّ

- بين يدي السورة.................................171
07-01 إيمان الجنّ بالله تعالى وبالقرآن 172
17-08 حديث الجنّ عما عرفوه من شأن رسالة الإسلام في جنبات الكون، وعن أحوالهم 177
28-18 بيان بعض ما أوحي به لرسول الله ﷺ، والتأكيد على اختصاص علم الغيب بالله تعالى 183

تفسير سورة المزّمّل

- بين يدي السورة.................................189
10-01 إرشاد النبيّ ﷺ وتثبيته في بدء الدّعوة......................190
19-11 تهديد للمكذبين برسالة الإسلام، والتأكيد على أنها تذكرة لمن شاء التّذكر.................................196
20 التذكير والإرشاد بأنواع من وسائل الهداية 200

تفسير سورة المدّثّر

- بين يدي السورة.................................205
10-01 أمر النبي بإبلاغ الدّعوة، والإعلان عن وحدانية الله 205
30-11 تهديد زعماء المشركين ذوي المال والجاه 210
37-31 بيان الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنّم......................215

56-38 الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين، واعتراف هؤلاء بأخطائهم..221

تفسير سورة القيامة

- بين يدي السورة..227

19-01 إثبات البعث والمعاد، وذكر أشراط السّاعة، وبيان حرص النبي على حفظ القرآن، وتكفّل الله بذلك................227

40-20 بيان حال النّاس في الآخرة، والتّشديد على من أنكرها.....233

تفسير سورة الإنسان

- بين يدي السورة..239

12-01 بيان خلق الله الإنسان وهدايته السّبيل، مع ذكر جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة..............................240

22-13 أنواع المتع والنعم لأهل الجنة جزاء سعيهم لها.............246

31-23 تثبيت الرّسول، وبيان أحوال النّاس في الدّنيا أزاء مشيئة الله تعالى..251

تفسير سورة المرسلات

- بين يدي السورة..255

15-01 حتمية وقوع يوم القيامة وذكر بعض أشراطه.............256

28-16 طلب الاعتبار بمصارع المجرمين، والتأمّل في قدرة الله في خلق

	الإنسان وتسخير الأرض لمنفعته.......................259
50-29	أنواع من العذاب تنتظر المكذبين، بتخلّلها وصف التكريم الذي أعدّه الله للمتقين.......................263

تفسير سورة النبأ

-	بين يدي السورة.......................268
16-01	الإخبار عن البعث، وبيان أدلّة إثباته في تدبّر القدرة الإلهية.......................269
30-17	أحوال يوم الفصل، ومئاب الطّغاة في جهنم.......................273
40-31	بيان أحوال السّعداء، وتأكيد قدرة الله في وقوع يوم القيامة.......................278

تفسير سورة النازعات

-	بين يدي السورة.......................282
14-01	القسم على وقوع البعث وبيان موقف المنكرين له.......................283
33-15	التذكير بقصة موسى مع فرعون، والاستدلال على البعث بخلق السّماوات والأرض والجبال.......................287
46-34	اختلاف مصائر الخلق عند الجزاء، وتفويض علم الساعة إلى الله تعالى.......................293

تفسير سورة عبس

- بين يدي السورة.................................... 297
16-01 الإسلام دين المساواة والقرآن موعظة وتذكرة للنّاس........ 298
32-17 بيان عظيم نعم الله على الإنسان 302
42-33 موقف المرء من أحوال القيامة، واختلاف أحوال أهلها.... 306

تفسير سورة التكوير

- بين يدي السورة.. 310
14-01 بيان أهوال يوم القيامة.................................. 310
29-15 القسم بعظمة الكون على عظمة القرآن ونبوءة الرّسول،
وعالمية رسالته... 315

تفسير سورة الانفطار

- بين يدي السورة.. 320
08-01 صور لأهوال يوم القيامة، وتوبيخ الإنسان على جحود
نعمة ربّه 321
19-09 علّة غرور الإنسان، وتسجيل للملائكة لما يعمله، مع بيان
هول يوم الجزاء.. 324

تفسير سورة المطفّفين

- بين يدي السورة.......................................329
17-01 وعيد للمطفّفين، وتسجيل عملهم في كتاب الفجّار.......329
36-18 مقرّ ديوان الأبرار وحسن مقامهم، وبيان سوء معاملة الكفّار للمؤمنين في الدّنيا، ومقابلتهم بالمثل في الأخرى..........335

تفسير سورة الانشقاق

- بين يدي السورة.......................................341
15-01 أهوال يوم القيامة، وانقسام النّاس إلى فريقين............341
25-16 القسم بآيات كونية للتأكيد على وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال.......................................346

تفسير سورة البروج

- بين يدي السورة.......................................351
11-01 التّشنيع على أصحاب الأخدود، ومقابلة وعيد الكفار بثواب المؤمنين.......................................352
22-12 كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد، والدّعوة إلى الاعتبار بإهلاك الأمم الغابرة.......................357

تفسير سورة الطّارق

- بين يدي السورة.......................................361

17-01 القسم بمظاهر من القدرة الإلهية على إثبات البعث، وعلى صدق الرّسالة، مع تهديد المكذّبين بها............ 362

تفسير سورة الأعلى

- بين يدي السورة............................... 368
19-01 صور من قدرة الله، وبشارته للرسول بتحفيظه القرآن، وأمره بالتذكير به.. 369

تفسير سورة الغاشية

- بين يدي السورة.. 376
16-01 هول يوم القيامة، وأحوال أهل النّار وأهل الجنة 376
26-17 الإنكار على المعرضين عن النظر في دلائل القدرة الإلهية، وتثبيت الرّسول في تذكيرهم. 380

تفسير سورة الفجر

- بين يدي السورة.. 385
14-01 إنّ ربّك لبالمرصاد لتعذيب الكفّار في الدّنيا والآخرة...... 385
30-15 عاقبة المتمادي في طلب الدّنيا، ومآل المترفّع عنها يوم القيامة... 391

تفسير سورة البلد

- بين يدي السورة..398
20-01 ابتلاء الإنسان، واغتراره بماله، وبيان نعم الله عليه، وطوق نجاته في الآخرة..398

تفسير سورة الشمس

- بين يدي السورة..406
15-01 جزاء إصلاح النفس وعاقبة إهمالها والاتعاظ بقصة ثمود...406

تفسير سورة الليل

- بين يدي السورة..411
21-01 اختلاف الناس في مساعيهم، وبيان عدل الله في الجزاء....411

تفسير سورة الضحى

- بين يدي السورة..417
11-01 بيان نعم الله وألطافه على رسوله ترويحا وتطمينا له.......417

تفسير سورة الشرح

- بين يدي السورة..424
08-01 توالي ألطاف الله على رسوله في تحمّله لمتاعب الرّسالة وترغيبه في طلب عون الله..424

تفسير سورة التّين

- بين يدي السورة............................430
08-01 الامتداد على الإنسان بحسن خلقه وتقرير عدل الله
في الحساب والجزاء............................430

تفسير سورة العلق

- بين يدي السورة............................435
08-01 بيان قدرة الله في خلق الإنسان، وتعليمه القراءة
والكتابة............................436
19-09 صور من الطّغيان، مع تهديد الطّغاة وتثبيت الرّسول......441

تفسير سورة القدر

- بين يدي السورة............................446
05-01 بدء نزول القرآن، وبركات ليلة القدر..................446

تفسير سورة البيّنة

- بين يدي السورة............................452
08-01 حكمة الله في التّكليف، وعدله في الجزاء..............453

تفسير سورة الزّلزلة

- بين يدي السورة.. 460
08-01 بيان أشراط السّاعة، والجزاء على الخير والشّر.............. 460

تفسير سورة العاديات

- بين يدي السورة.. 465
11-01 جحود الإنسان لنعم الله بحبّه الشّديد للمال، وإهماله الاستعداد للآخرة.. 465

تفسير سورة القارعة

- بين يدي السورة.. 470
11-01 أهوال القيامة، وحشر الخلائق لموقف الحساب والجزاء وميزان حسابهم.. 470

تفسير سورة التّكاثر

- بين يدي السورة.. 475
08-01 عواقب الانشغال بالدّنيا، ودقّة الحساب عن النّعيم.......... 475

تفسير سورة العصر

- بين يدي السورة.. 481
03-01 بيان عواقب النّشاط الإنساني........................ 481

تفسير سورة الهمزة

- بين يدي السورة..486
09-01 جزاء الشاخرين من النّاس................................486

تفسير سورة الفيل

- بين يدي السورة..491
05-01 قصة إهلاك الله لأصحاب الفيل..........................491

تفسير سورة قريش

- بين يدي السورة..495
04-01 تذكير قريش بنعم الله عليهم، لإفراده بالعبادة............495

تفسير سورة الماعون

- بين يدي السورة..500
07-01 جزاء كلّ من المنكر للجزاء الأخرويّ، والمنافق المرائي 501

تفسير سورة الكوثر

- بين يدي السورة..506
03-01 إكرام الله لرسوله بالخير الكثير في الدّنيا والآخرة.........506

تفسير سورة الكافرون

- بين يدي السورة.................................511
06-01 إعلان البراءة من الكفر، والمفاصلة بينه وبين الإيمان......512

تفسير سورة النصر

- بين يدي السورة.................................515
03-01 بشارة الرّسول بعزّة الإسلام وانتشاره..................516

تفسير سورة المسد

- بين يدي السورة.................................520
05-01 ذمّ أبي لهب وامرأته، وبيان وعيدهما......................521

تفسير سورة الإخلاص

- بين يدي السورة.................................525
04-01 إخلاص التّوحيد لله، وتنزيهه عن كلّ نقص...............525

تفسير سورة الفلق

- بين يدي السورة.................................530
05-01 الاستعاذة بالله من شرّ بعض المخلوقات،وبعض الأوقات. 530

تفسير سورة الناس

- بين يدي السورة.................................536
06-01 الاستعاذة بالله من شرّ شياطين الجنّ والإنس...........536
- خاتمة التفسير...541

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصّفحة
أبغض الحلال عند الله الطلاق	53
اجعلوها في سجودكم	371
إذ جاء رسول الله فقرأ عليه القرآن	212
إذا أقيمت الصّلاة فلا تأتوها تسعون	17
إذا قرأ أحدكم: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾	434
إذا كان جنح اللّيل	534
إذا مات ابن آدم انقطع عمله	232
إذا مرض العبد أو سافر	433
أقرب ما يكون العبد من ربّه	445
أكرموا الكرام الكاتبين	326
البرّ حسن الخلق	112
التّجافي عن دار الغرور	426
السّاعي على الأرملة وكافل اليتيم	203
السّلام عليكم دار قوم مؤمنين	479
الطّهور شطر الإيمان	208
الكلمة الطّيّبة صدقة	422
اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف	499
اللّهم أعزّ الإسلام	444

اللّهم بلى 238
أنّ أبا جهل لما سمع قوله تعالى 217
أنّ ابن عمر طلّق امرأته 53
إنّ أدنى أهل الجنة منزلة 250
إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا 332
إن الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم 540
إن العبد إذا أخطأ خطيئة 334
إن الله أمرني أن أقرأ عليك 452
إن الله خلق الخلق في ظلمة 426
أن المشركين قالوا للنبي ﷺ 526
أنّ النبي ﷺ خرج إلى البطحاء 522
أن النبي ﷺ كان إذا أوى 531-530
أنّ النّبي كان إذا نزل عليه جبريل عليه السلام 370
إن اليهود اختلفوا 457
أن رجلا من أصحاب النبيّ ﷺ 87
أنّ رسول الله ﷺ بعث خيلا 467
إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد 193
أن رسول الله ﷺ قال 206
أنّ رسول الله ﷺ قرأ بهذه السّورة 511
أنّ رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر 511

أن رسول الله ﷺ كان يقرأ....................................	351
أن رسول الله ﷺ كان يطوف	513
أنّ سبيعة بنت الحارث الأسلمية....................................	60
أنّ عدي بن ربيعة قال لرسول الله ﷺ	230
أنزلت هذه السّورة على رسول الله....................................	516
إنّما بعثت لأتمّم	112
إنّه سحره في جفّ قشر الطّلع	532
أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة	371
أنه مرّ على امرأة تقرأ سورة "الغاشية"	378
أنها آخر سورة نزلت من القرآن....................................	516
إني عبد الله ورسوله....................................	185
أول ما بدئ به رسول الله ﷺ	437
إياكم ومحقرات الذّنوب	464
أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرءان....................................	527
بعثت والساعة كهاتين	271
بل نرفق به ولحسن صحبته ما بقي معنا....................................	26
خرج رسول الله ﷺ ذات يوم....................................	480
خطّ رسول الله في الأرض	85
خطبنا رسول الله ﷺ....................................	47
دعوها فإنّها منتنة....................................	21

دواؤك فيك وما تبصر	324
رجل ذكر الله خاليا	96
زيّنوا القرآن بأصواتكم	193
سجدنا مع النبي ﷺ	445
سيأتي زمان يكون الصابر فيهم	79
عجبا لأمر المؤمن	43
فيفصم عنه وإن جبينه	193
فيه نبأ من قبلكم	366
قال لي جبريل، يا محمد	344
قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية	462
قلت: يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك	09
قل هو الله تعدل ثلث القرآن	525
كان أبو الأشدّ يقول	402
كان الرسول ﷺ إذا أنزل عليه	190
كان خلقه القرآن	112-67
كان رسول الله ﷺ مما يقرأ في الجمعة	19
كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا	73
كان رسول الله ﷺ يصلي يوما صلاة العصر	349
كان عند رسول الله أكابر قريش	299
كان للشياطين مقاعد في السماء	179

كانت أمثالا كلّها 375
كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور 478
لا يحقرّن أحدكم معروفا 464
لا يدخل الجنة نمّام 114
لبيّك وسعديك 533
لم يسجد النبي ﷺ في شيء من المفصل 445
لما رجع عبد الله بن أبيّ........................ 25
لما مات القاسم ولد رسول الله........................ 508
لما نزلت: ﴿إذا جاء نصرُ الله﴾ 516
لن يدخل الجنة أحدا عمله 153
لن يغلب عسر يسرين 428
لو أن لابن آدم مثل واد مالا 213
لو توكلتم على الله حق التوكل........................ 18
لو دنا مني لاختطفته........................ 441
ليس الغنى عن كثرة العرض 152
ليس المسكين الذي ترده 504
ليس بين العبد والكفر 152
ما قرأ رسول الله على الجن........................ 175
من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه 524
من تكلم يوم الجمعة........................ 12

من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله	18
من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة	322-310
من قام ليلة القدر	449
من كان له مال يبلغه حجّ	32
من نوقش الحساب عذّب	441-345
نزلت في قوم من أهل مكة	45
نعمتان مغبون فيهما	429
نور يقذفه الله في القلب	426
هو أبو بكر الصّدّيق ﷺ	416
هم الذين يؤخرون الصّلاة عن وقتها	505
هي من أوائل القرآن نزولا بالمدينة	329
والذي نفس محمد بيده، لو تتابعتم	16
وتزعم أنك جرم صغير	324
ولا يقيم على ضيم يراد به	273
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	114
يأتي على الناس زمان	46
يكون أخفّ عليهم من صلاة مكتوبة	147-144
يا بلال أرحنا بالصلاة	253
يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السّورة	255
يحشر النّاس حفاة عراة غرلا	473

يسّروا ولا تعسّروا 373
يقول العبد: مالي، مالي.. 477
يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان 478

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصّفحة
الرّاجفة والرّادفة النّفخة الأولى والثّانية (ابن عباس)	285
الوسواس إذا وُلد(ابن عباس)	539
إنّه يوم القيامة (ابن عباس)	144
أنها تسمّى أيضا سورة التّوديع (ابن مسعود)	515
تعتدّ الحامل المتوفى عنها زوجها (علي وابن عباس)	60
سؤال التّأخير هو طلب الرّجوع (ابن عباس)	32
كان ابن عباس يسميها المجادلة (ابن عباس)	87
لولا الآخرة لكان غير ما ترون (عمر)	152
ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء (ابن عباس)	379
ليس من مؤمن ولا كافر (ابن عباس)	464
نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام (عمر)	451
هو الخير الذي أعطاه الله إياه (ابن عباس)	509
هو الحرص على ما لا يحلّ (ابن عباس)	151
هو للمصلّي الذي إن صلّى(ابن عباس)	505
هو للمطروح على ظهر الطّريق (ابن عباس)	404
هو جافي الطبع غليظ الخلقة (ابن عباس)	115
هي التسليم لقضاء الله وقدره (ابن عباس)	43

فهرس الأبيات الشعرية

صدر البيت	الصفحة
إذا فسد العضو في أصله	170
إذا لم يكن غير الأسنة مركبا	348
إذا ما خلا الجبان بأرض	28
إذا ما علام علّي ثم علّي	249
إذا مرّ بي يوم ولم أستفد به	429
اشتدّي أزمة تنفرجي	428
اصبر على كيد الحسود	195
أعزّ مكان في الدّنا سرج سابح	284
أُقلّي الشاء بكلّ أدْكن عاتق	338
النّاس للناس من بدو وحاضرة	28
إلا بمقدار ما تنداح دائرة	292
ألا كل شيء ما خلا الله باطل	529
إن أنسى لا أنسى خبازا مررت به	292
إنّما أولادنا أكبادنا	308
إنما ينقلون من دار فتنة	292
إننا نحن الأماجد الألى	451
أيها البائس مت قبل الممات	428
تعب كلها الحياة فما أعجب	399-344

ثلاثة تنفي عن المرء الحزن	280
خرجت أجرّ الذّيل حتى كأنني	249
حقّق الوطء ما أظن	349-262
خلق الناس للبناء فضلت	292
دع ما ادّعته النّصارى في نبيّهم	187
ذلك القرآن أخلاقا على..............................	451
ربّ لحد قد صار لحدا مرارا	349-262
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش	344
سبحانك اللّهم خير معلّم	440
صاحِ هذي قبورنا تملأ الرحب	262
فإذا شربت فإنني مستهلك..............................	402-338
فإنّ فضل رسول الله ليس له	187
فمبلغ العلم فيه أنه بشر	187
فمتهنّ سبقي العاذلات بشربة	339
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد	214-95
كالنّار تأكل بعضها..............................	195
كفى بك داء أن ترى الموت شافيا	281-136
كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه	394
لا تبلغ المجد حتى تلعق الصّبرا	482
لا تسأل المرء عن خلائقه..............................	379-235

لا خيل عندك تهديها ولا مال 422
لا يضق ذرعك عند الأزمات 429
لكل امرئ من دهره ما تعوّدا 498
ما بين رؤيتها في كفه كرة 292
ما ضرّني ما فاتني من نعيمها 339
هذا الذي ترك الإفهام حائرة 394
هي النّار ما الآمال إلا 401
وإذا أتتك مذمّتي من ناقص 510
وإذا المنية أنشبت أظفارها 236
وإذا شربت فإنني مستهلك 244
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندى 402-338
وأنت كثير يا ابن مروان طيّب 507
وتزعم أنك جرم صغير 439
ودفين على بقايا دفين 349-262
وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه 427
وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة 523
وكأس شربت على لذة 249
ولا خير في كفّ تقيّد الغلّ أختها 243
ولا يقيم على ضيم يراد به 272
ولست أبالي حين أقتل مسلما 43

ولكل شيء آفة من جنسه................................	540
ولكني أسعى لمجد مؤثّل	402
ولو أنني أسعى لأدنى معيشة	402
وليس يقوم على ضيم يراد به	12
ولا ينسيك عن خلق اللّيالي	237
ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى	339
ومن يصنع المعروف في غير أهله................................	374
ومهما تكم عند امرئ من خليقة	468
يهون علينا أن تصاب جسومنا	538

فهرس مصادر التفسير ومراجعه

- إبراهيم بن عمر بيوض، **في رحاب القرآن**، تحرير: عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، الناشر: جمعية التراث، القرارة، الجزائر.

- أحمد مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1394هـ-1974م.

- أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، **إعراب القرآن**، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، الناشر: عالم الكتب، 1409هـ- 1988م.

- إسماعيل بن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، الناشر: دار الأندلس، بيروت، الطبعة الرابعة، 1983م.

- امحمد بن يوسف اطفيش، **تيسير التفسير**، تحقيق: الشيخ إبراهيم طلاي، الناشر: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر.

- زغلول النجار، **تفسير الآيات الكونية**، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1429هـ-2008م.

- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الطبعة السادسة، د.ت.

- شوقي أبو خليل، **أطلس القرآن**، الناشر: دار الفكر، دمشق، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة عشرة، 1435هـ-2014م.

- عائشة عبد الرحمن، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، الناشر: دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1977م.

- عبد الحميد محمود طهماز، **التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم**، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1435هـ-2014م.

- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1420 هـ-2000م.

- علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، **أسباب النزول**، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1388هـ-1968م.

- محمد أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت.

- محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، الناشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.

- محمد الغزالي، **نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم**، الناشر: منشورات بغدادي، الجزائر، 2000م.

- محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أبو إسحاق اطفيش، الناشر: دار الكتاب العربي، القاهرة، 1387هـ-1967م.

- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م.

- محمد بن عمر التميمي الرازي، **مفاتيح الغيب**، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، د.ت.

- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، د.ت.

- محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، الناشر: مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة، د.ت.

- محمد قطب، **دراسات قرآنية**، الناشر: دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1408هـ-1988م.

- محمد متولي الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، الطبعة الأولى، د.ت.

- محمود الألوسي أبو الفضل، **روح المعاني**، الناشر: المطبعة المنيرية، القاهرة، د.ت.

- محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

- وهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، الناشر: دار الفكر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م.

تعريف بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـ(كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف (تجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين: سعيد ابراهيم بن باحمد، ويمون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقنع طموحه في التعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّا في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجلية لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال

على مقاعد الدّراسة لما يقرب من خمسين سنة في مسيرة مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أوانحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التّضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

محتوى أجزاء التفسير

- **الجزء الأوّل:** من بداية سورة الفاتحة إلى الآية 203 من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني:** من الآية 204 من سورة البقرة إلى الآية 175 من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث:** من الآية 176 من سورة آل عمران إلى الآية 26 من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع:** من الآية 27 من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس:** من بداية سورة الأعراف إلى الآية 33 من سورة التوبة.
- **الجزء السادس:** من الآية 34 من سورة التوبة، إلى آخر سورة هود عليه السلام.
- **الجزء السابع:** من بداية سورة يوسف عليه السلام إلى آخر سورة النحل.
- **الجزء الثامن:** من بداية سورة الإسراء إلى آخر سورة طه.
- **الجزء التاسع:** من بداية سورة الأنبياء إلى آخر سورة الفرقان.
- **الجزء العاشر:** من بداية سورة الشعراء إلى آخر سورة لقمان.
- **الجزء الحادي عشر:** من بداية سورة السّجدة، إلى آخر سورة ص.
- **الجزء الثاني عشر:** من بداية سورة الزمر، إلى آخر سورة الأحقاف.
- **الجزء الثالث عشر:** من بداية سورة محمّد ﷺ، إلى آخر سورة الصف.
- **الجزء الرابع عشر:** من بداية سورة الجمعة، إلى آخر سورة النّاس.

أيها الأخ المسلم :

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان . . .

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك: I.S.B.N: 978-9947-845-76-9